إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

سلمان العودة

الجزء الثاني

من «سورة المجادلة» إلى «سورة نوح»

سورة المجادلة

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة المجادَلة**»، أو: «**سورة المجادِلة**»، بفتح الدال وكسرها[1]، **والأقرب** الكسر؛ إشارة إلى المرأة التي جادلت الرسول صلى الله عليه وسلم في زوجها، ونوَّه الله تعالى بذكرها في صدر السورة، و«المجادَلة» بالفتح: فعل الجدال بين المرأة وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الأشهر في كتب التفسير، والسنة[2].

واسمها في مصحف أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه: «**سورة الظِّهَار**»[3]؛ لأن الله تعالى بيَّن حكم الظِّهَار في صدر السورة بما لم يبيِّنه في «سورة الأحزاب».

ولها اسم ثالث، وهو: «**سورة** ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ﴾»[4]، بالنظر إلى ما بُدئت به السورة، وهذا يُستخدم عند تحزيب القرآن وذكر الأجزاء، كـ«جزء عمَّ»، و«جزء تبارك»، و«جزء قد سمع».

---

(1) ينظر: «روح المعاني» (14/ 197)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 7)، و«التحرير والتنوير» (28/ 5)، و«إعراب القرآن وبيانه» (10/ 6).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص650)، و«صحيح البخاري» (6/ 147)، و«جامع الترمذي» (5/ 258)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 289)، و«تفسير الطبري» (22/ 446)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 259)، و«تفسير الرازي» (29/ 478)، و«فتح القدير» (5/ 217).

(3) ينظر: «زاد المعاد» (5/ 298)، و«الإتقان» (1/ 195)، و«روح المعاني» (14/ 197)، و«التحرير والتنوير» (28/ 5).

(4) ينظر: «فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص480)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (8/ 164)، و«تفسير السعدي» (ص843)، والمصادر السابقة.

❃ **عدد آياتها:** إحدى وعشرون آية في عدِّ علماء مكة والمدينة، واثنتان وعشرون آية في عدِّ علماء الشام والعراق[1].

❃ **وهي مدنية** بالإجماع، قاله الماوردي، وابن عطية، وغيرهما[2].

وفي حكاية الإجماع نظر؛ فقد حُكي عن عطاء وجود آيات مكية فيها[3].

والظاهر أن السورة كلها مدنية؛ فموضوعات السورة مدنية، تعالج بعض هموم المجتمع المسلم الناشئ في المدينة؛ ففي بدايتها حديث عن امرأة تشتكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حالة من الإشكال الزوجي داخل منزل فقير متواضع.

ثم ينتقل الحديث إلى النَّجْوى بين طوائف من الناس داخل المجتمع المسلم، وما يُحدثه من آثار.

ثم يشير إلى بعض آداب المجالس.

ثم آداب مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم الحديث عن موالاة الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه[4].

موضوعاتٌ ترسم مناخ المدينة في الفترة التي نزلت فيها السورة، حيث يعيش المسلمون واليهود والمنافقون.

---

(1) فقد اختلفوا في قوله: ﴿□□□□﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص242)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص313)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص309)، و«روح المعاني» (14/ 197)، و«التحرير والتنوير» (28/ 6).

(2) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لهبة الله بن سلامة (ص174)، و«تفسير الماوردي» (5/ 487)، و«المحرر الوجيز» (5/ 272)، و«تفسير القرطبي» (17/ 269)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 397)، و«روح المعاني» (14/ 197).

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 487)، و«زاد المسير» (4/ 241)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 120)، و«فتح القدير» (5/ 217)، و«التحرير والتنوير» (28/ 5).

(4) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 6)، والمصادر السابقة.

وكان من المسلمين مَن هو حديث عهد بالإسلام، أو ضعيف الإيمان، وكانوا هدفًا للقوى التي تريد أن تُزعزع هذه المجموعة الوليدة.

والذي يظهر أن غالب خطاب السورة لهذه الفئة، وليس للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وإن كانوا داخلين في عموم الخطاب، كما أنها لا تخاطب الكافرين والمنافقين خطابًا مباشرًا، بل تتهدَّدهم من طَرْفٍ خفيٍّ.

والمقصود الأعظم هو: تقوية إيمان أولئك الذين لم يتمحَّض إيمانهم، وأصبحوا هدفًا لخطابات مغرضة داخل المجتمع المدني.

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ﴾:

استفتح تعالى السورة بهذا الخبر: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾، مع أن الله سبحانه في آيات كثيرة في «سورة النساء»، و«سورة النور»، و«سورة الأحزاب» بيَّن أحكام النساء والاستئذان والدخول والخروج والطلاق، دون أن يستفتح بمثل هذا الاستفتاح العجيب!

وهذا يُذكرنا بآية «سورة آل عمران»: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 181]، وهم: اليهود[1]، فقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ يجعلك تستحضر الجو الذي يشوِّش فيه اليهود على حدثاء الإسلام بالتشكيك.

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (6/ 277)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (1/ 338)، و«تفسير القرطبي» (4/ 294)، و«تفسير ابن كثير» (2/ 176)، و«التحرير والتنوير» (4/ 183).

وابتداء السورة بحرف التحقيق ﴿وَإِنَّ﴾ يؤكِّد سماع الله حديث خَوْلة بنت ثعلبة رضي الله عنها، وشكواها في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

وهي: خَوْلة، أو: خُوَيلة، وفي بعض الروايات: جَميلة. ويحتمل أن يكون لهذه المرأة أكثر من اسم، أو يكون: «جميلة» وصفًا لها[2].

وزوجها هو: أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت رضي الله عنهما[3].

تقولُ خَوْلةُ رضي الله عنها: كنتُ عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقُه وضَجِرَ، فدخل عليَّ يومًا، فراجعتُه بشيء، فغضب فقال: أنت عليَّ كظهر أمي. ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعةً، ثم دخل عليَّ، فإذا هو يريدني على نفسي، فقلتُ له: كلَّا والذي نفسُ خُويلةَ بيده، لا تخلُصُ إليَّ وقد قلتَ ما قلتَ، حتى يحكمَ اللهُ ورسولُه فينا بحكمه. فواثبني وامتنعتُ منه، فغلبتُه بما تغلبُ به المرأةُ الشيخَ الضعيفَ، فألقيتُه عنِّي، ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي فاستعرتُ منها ثيابها، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فجلستُ بين يديه، فذكرتُ له ما لقيتُ منه، فجعلتُ أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يجادلُني فيه ويقولُ: «**يا خُويلةُ، ابنُ عمك شيخٌ كبيرٌ، فاتَّقِي اللهَ فيه**».

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 544)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 253)، و«تفسير القرطبي» (17/ 269)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 90)، و«عمدة القاري» (19/ 222)، و«روح المعاني» (14/ 198)، و«التحرير والتنوير» (28/ 7)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 9).

(2) ينظر: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (6/ 3310)، و«الاستيعاب» (4/ 1830)، و«أسد الغابة» (7/ 92)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (2/ 342)، و«تهذيب الكمال» (35/ 163)، و«الإصابة» (13/ 340)، و«فتح الباري» (13/ 374)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (1/ 302)، و«أسد الغابة» (1/ 323)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (1/ 129)، و«تهذيب الكمال» (3/ 389)، و«الإصابة» (1/ 306).

قالت خَوْلةُ: فوالله ما برحتُ حتى نزل فيَّ القرآنُ، فَتَغَشَّى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشَّاه، ثم سُرِّيَ عنه، فقال لي: «**يا خُويلةُ، قد أنزلَ اللهُ فيك وفي صاحبك**». ثم قرأ عليَّ: «﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ ...﴾ إلى قوله: ﴿سَلَفَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾.

فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**مُريه فليُعْتِقْ رقبةً**». فقلتُ: والله يا رسولَ الله ما عنده ما يُعْتِقُ. قال: «**فليَصُمْ شهرين متتابعين**». فقلتُ: والله يا رسولَ الله إنه شيخٌ كبيرٌ ما به من صيام. قال: «**فليُطْعِمْ ستينَ مسكينًا**». فقلتُ: والله يا رسولَ الله ما عنده من شيء يتصدَّقُ به. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**فإنَّا سنُعِينُه بعَرَق من تمر**». فقلتُ: وأنا يا رسولَ الله سأُعينُه بعَرَق آخر. قال: «**قد أصبتِ وأحسنتِ، فاذهبي فتصدَّقي عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا**»[1].

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: «الحمدُ لله[2] الذي وسع سمعُهُ الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلةُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجَها، وما أسمعُ ما تقولُ، فأنزلَ الله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ ...﴾»[3].

---

(1) أخرجه أحمد (27319)، وأبو داود (2214، 2215)، وابن الجارود (746)، وابن حبان (4279)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص410)، وينظر: «فتح الباري» (9/ 433)، و«إرواء الغليل» (2087).

(2) وفي رواية: «تبارك...».

(3) أخرجه أحمد (24195)، والبخاري معلقًا (9/ 117)، وابن ماجه (188، 2063)، والنسائي (6/ 168)، والطبري في «تفسيره» (22/ 454)، والحاكم (2/ 481). وينظر: «البدر المنير» (8/ 145)، والمصادر السابقة.

وفي رواية أخرى لهذه القصة: كانت خَوْلَةُ تحت رجل من الأنصار، وكان سيِّئَ الخلق ضريرَ البصر فقيرًا، وكانت الجاهليةُ إذا أراد الرجلُ أن يفارقَ امرأته قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي[1]. فنازعتْهُ في بعض الشيء فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي. وكان له عَيِّلٌ أو عَيَّلَان، فلما سمعته يقول ما قال احتملتْ صبيانها، فانطلقت تسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوافقته عند عائشةَ أم المؤمنين رضي الله عنها في بيتها، وإذا عائشةُ تغسلُ شِقَّ رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقامت عليه ثم قالت: يا رسولَ الله، إن زوجي فقيرٌ ضَرِيرُ البصر سيِّئُ الخلق، وإني نازعتُهُ في شيء فقال: أنت عليَّ كظهر أمي. ولم يرد الطلاقَ. فرفعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم رأسه فقال: «**ما أعلمُ إِلَّا قد حُرِّمت عليه**».

قال: فاستكانت وقالت: أَشْتكي إلى الله ما نزل بي وبصبيتي. قال: وتحوَّلت عائشةُ تغسلُ شِقَّ رأسه الآخر، فتحوَّلَتْ معها فقالت مثلَ ذلك، قالت: ولي منه عَيِّلٌ أو عَيِّلَان. فرفعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم رأسه إليها فقال: «**ما أعلمُ إِلَّا قد حُرِّمت عليه**». فبكت وقالت: أَشْتكي إلى الله ما نزل بي وبصبيتي.

وتغيَّرَ وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت عائشةُ رضي الله عنها: وراءَك. فتنحَّتْ ومكث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما شاء اللهُ، ثم انقطع الوحيُ، فقال: «**يا عائشةُ، أين المرأةُ؟**». قالت: ها هي هذه. قال: «**ادْعِيهَا**». فدعتها فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**اذهبي فجِيئي بزوجك**».

قال: فانطلقت تسعى، فلم تلبث أن جاءت به، فأدخلته على النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فإذا هو كما قالت ضريرُ البصر، فقيرٌ، سيِّئُ الخلق، فقال النبيُّ صلى الله عليه

---

(1) ينظر: «سنن البيهقي» (7/ 632)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 259)، و«القبس في شرح موطأ مالك بن أنس» (2/ 736)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 452)، و«عمدة القاري» (20/ 281)، و«الدر المنثور» (14/ 313)، و«التحرير والتنوير» (28/ 7).

وسلم: «**أستعيذُ بالسَّميع العليم من الشيطان الرَّجيم، بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ...﴾. إلى آخر الآية. فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أتجدُ عتْقَ رقبة؟**». قال: لا. قال: «**أفتستطيعُ صومَ شهرين متتابعين؟**». قال له: والذي بعثك بالحقِّ إذا لم آكُلِ المرة والمرتين والثلاث يكاد أن يغشو بصري. قال: «**فتستطيعُ أن تطعمَ ستينَ مسكينًا؟**». قال: لا إلا أن تعينني فيها. قال: فدعا به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فكفَّر يمينه[1].

وخَوْلة رضي الله عنها هذه هي التي استوقفت عمرَ رضي الله عنه، فوقف لها وترك أعيان الناس ينتظرونه، وقالت له: هيه يا عمرُ، عهدتُك وأنت تسمَّى: عُميرًا في سوق عُكاظ تصارعُ الصبيانَ، فلم تذهب الأيامُ والليالي حتى سُمِّيتَ: عمرَ، ثم لم تذهب الأيامُ حتى سُمِّيتَ: أميرَ المؤمنين، فاتَّقِ اللهَ في الرعية، واعلم أنه مَن خاف الوعيد قرب منه البعيد، ومَن خاف الموت خشي الفوتَ. فبكى عمرُ رضي الله عنه، فانتهرها أحد الصحابة، وقال لها: هيه، فقد اجترأْتِ وأكثرتِ وأبكيتِ أميرَ المؤمنين! فقال له عمرُ: «أوما تعرف هذه؟ هذه خَوْلة بنت ثعلبة التي سمع الله قولها من فوق سماواته، فعمرُ والله أجدرُ أن يسمعَ لها، والله لو حبستني إلى الصلاة، لاحتبستُ لها!»[2].

وفي الآية يبرز جانب من التغيير الذي أحدثه الإسلام في المجتمع العربي، وبخاصة في قضية المرأة؛ لأن العرب كانوا يحتقرون المرأة ويزدرونها، فجاء القرآن

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 257)، و«طبقات ابن سعد» (10/ 354- 355)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 290)، و«تاريخ المدينة» لعمر بن شبَّة (2/ 392)، و«تفسير الطبري» (22/ 451- 453)، و«أحكام القرآن» للطحاوي (2/ 389)، و«سنن البيهقي» (7/ 632)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 423)، و«إرشاد الساري» (8/ 164)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تاريخ المدينة» لعمر بن شبَّة (2/ 394- 395، 773)، و«الرد على الجهمية» (79)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (886)، و«الإصابة» (13/ 343)، و«الدر المنثور» (14/ 299).

بإثبات حقِّ المرأة في بثِّ شكواها ومطالبتها بحقوقها، ثم هي ها هنا تجادل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم.

والجدال فيه شيء من القوة في المخاطبة، وليس مجرد عرض أو حديث أو سؤال، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول لها أكثر من مرة: «**ما أَرَاكِ إلا قد حُرِّمت عليه**». وهي تجادله، وتراجعه في الكلام، وفي ذلك تكريس لحقِّ المرأة في الوجود، وحقها في الحياة، وفي المشورة والرأي، وهو ما لم يكن يحتمله ضيق الجاهلية وتبرمها من الأنثى وحصار صوتها، حتى كان يعدُّ عيبًا، ولا يزال بعض الناس يعدُّون صوتها عورة، وهو الذي كان يُسمع في مجالس النبي صلى الله عليه وسلم[1].

كانت تجادل النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وأثناء المجادَلة كانت تشكو إلى الله عز وجل أمرها وحالها وصعوبة ما يمكن أن يحدث إن حُرمت من زوجها.. إلى أين تذهب، وهذا بيتها وأبو أولادها، وهؤلاء الأطفال ما مصيرهم؟ فكان في الأمر عُسْرٌ وشِدَّةٌ.

وكثيرًا ما يحتاج صاحب الهمِّ إلى البَوْحِ والتنفيس، وأن يفهم الآخرون معاناته وشكواه ويساعدوه، إنه لا يريد أن يوصل صوته إليهم فحسب؛ بل أن يجعلهم يشاركونه ألمه ومعاناته وإحساسه ومخاوفه ومشاهدة المخاطر المُحْدِقة به أو بأسرته وأولاده.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ إثبات سماع الله تعالى لكلامها، وليس له مزيَّة عن غيره من الكلام؛ إذ هو سبحانه يسمع كل كلام، ومن أسمائه: «السميع»[2]،

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (101، 6567)، و«صحيح مسلم» (1675).

(2) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص42)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص75)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص139).

ولكن فيه معنى أن الله تعالى قد أجابها، فإنه يُطلَق على الإجابة[1]، كما تقول: أعوذُ بالله من دعاء لا يُسمع، يعني: لا يُستجاب له[2].

وكما في قولك: سمع الله لَمَن حمده، يعني: استجاب الله تعالى لَمَن حمدَه وكتب ثوابَه[3]، فالسمع هنا يتضمَّن معنى الإجابة، وقديمًا قال الشاعر[4]:

دعـوتُ اللهَ حتى خِفـتُ أَلَّا *** يكـونَ اللهُ يسـمعُ ما أقـولُ

أي: لا يستجيب له.

﴿مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾: سمَّى الله حديثها: مجادلة، وسمَّى التراجع بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم: تحاورًا. والتحاور ألطف من المجادلة، وكأن كل واحد يرجع إلى قول الآخر، وكأن الكلام يبدأ عند هذا، فإذا انتهى انتقل إلى الآخر ورجع إليه، بخلاف المجادَلة التي فيها شِدَّة وقوة؛ فهي تجادل، لأنها صاحبة حاجة، وتتكلَّم من معاناة وتلح، ومنه: جَدْل الحبل[5]، ومنه: الجَنْدل، وهو الصخر[6]، ولكنها ملتزمة

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (1/ 111)، و«البحر المحيط في التفسير» (2/ 175)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 215)، و«التحرير والتنوير» (28/ 8).

(2) ينظر: «معالم السنن» (1/ 296)، و«الكاشف عن حقائق السنن» (6/ 1915)، و«فتح الباري» لابن رجب (7/ 194)، و«فيض القدير» (2/ 108).

(3) ينظر: «مطالع الأنوار» (5/ 509)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (4/ 121)، و«شرح أبي داود» للعيني (4/ 254)، و«إرشاد الساري» (2/ 71).

(4) ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (1/ 342)، و«ربيع الأبرار» (2/ 386)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (5/ 179- 180)، و«تاج العروس» (21/ 235) «س م ع»، منسوبًا إلى شُتَير- وقيل: شُمَير، وقيل: سُمير- بن الحارث الضَّبِّي.

(5) ينظر: «جمهرة اللغة» (1/ 448)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص189)، و«تاج العروس» (28/ 191) «ج د ل».

(6) ينظر: «العين» (6/ 206) «ج ن د ل»، و«لسان العرب» (3/ 129) «ج ل م د».

بالأدب الواجب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرسولُ صلى الله عليه وسلم يحتوي جدلها ويُسكِّنه، فيتحول إلى محاورة.

﴿بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ فأكَّد هذا المعنى، وأن الله تعالى مع الناس بسمعه وبصره المتضمِّن لكمال علمه وسلطانه وتدبيره وحكمته، وهذا كله مما يستتبعه المعنى.

وفي الاستفتاح العظيم لهذه السورة تذكير بأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، وتحذير للذين يتهامسون ويتسارُّون ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كما سيأتي[1].

* ﴿تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾:

والمظاهرة: أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي[2]. وكأنه حرَّم على نفسه أن يعاشرها أو يجامعها، مثلما تحرم عليه أمه، وحرمة الأم هي حرمة أبدية غليظة، كما هو معلوم، وبدأ الله تعالى بها في آية المحرمات: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ [النساء: 23]؛ لأنها من أشنع ما يكون.

---

(1) في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 461)، و«معاني القرآن» للزجاج (4/ 214)، و«تفسير القرطبي» (17/ 273)، و«فتح الباري» (9/ 432)، و«سبل السلام» (2/ 272).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص541)، و«مختار الصحاح» (ص197)، و«المصباح المنير» (2/ 387) «ظ هـ ر».

والظِّهار مشتق من الكلمة التي كانوا يقولونها؛ وهي الظَّهْر[1].

وفي هذه الآية دليل على أن الأمر لا يخصُّ أوسًا رضي الله عنه وحده، وإنما هو حكم عام للناس جميعًا.

﴿بَعۡضٍ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا﴾ أي: ما زوجاتهم بأمهاتهم، ولا يمكن أن يكن كذلك؛ والتعليل ظاهر في قوله سبحانه: ﴿غَلِيظًا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ﴾، فمجرد أن يقول الإنسان لزوجته: إنها كأمه، أو كظهر أمه لا يجعلها في حكم الأم.

وفي هذا تمهيد لإبطال ما كانوا يعتقدونه من أن ذلك يعدُّ طلاقًا أو تحريمًا بائنًا، فأنكر سبحانه تشبيه الزوجة بالأم، وبيَّن أن الأم هي مَن ولدت[2]، وفي حكمها يدخل الأم من الرَّضاعة، كما قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء: 23]، وفي حكمها الخالة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**الخالةُ بمنزلة الأمِّ**»[3].

فهو هنا يبيِّن أن القول الذي يقولونه باطل من حيث التكوين، وباطل من حيث الشريعة، وأن مجرد الحكم اللَّفظي على شيء ما بخلاف حقيقته لا يعني تحول الأشياء وفق تلك الأقوال المزوَّرة، كما كانوا في الجاهلية يسمون الحَجَر والشجر: إلهًا، فقال سبحانه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النجم: 23].

﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ فهذا قول بالغ الفحش؛ لأن فيه إزراءً بحقِّ الأم بجعلها في مقام التحريم هكذا، وفيه تعريض الأم للخيالات والتصورات التي لا تليق بالبنوَّة.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (5/ 321)، و«تفسير الرازي» (29/ 478)، و«المغني» (8/ 3)، و«التحرير والتنوير» (28/ 10)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 457)، و«تفسير البغوي» (8/ 50)، و«تفسير القرطبي» (17/ 279)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 39)، و«التحرير والتنوير» (28/ 12).

(3) أخرجه البخاري (2699، 4251) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

وفي القول زور من جهة تشبيه الزوجة بالأم، وهذا بعيد كل البعد؛ فالأم لها جانب التربية والسبق والفضيلة والبِرِّ، والزوجة لها جانب المعاشرة والمودة والرحمة[1].

ولذلك عقَّب بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾، وما أسرع ما عاجلنا ربنا بالعفو والمغفرة بعد التحريم والنهي ووقوع العباد في المعاصي، وهذا يشمل عفوه سبحانه ومغفرته لَمَن تاب بأن يتوب اللهُ عليه، ولَمَن لم يتب بأن يغفر الله تعالى له، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: 48].

أو أن المقصود أن يعفو عن عباده، فلا يؤاخذهم بالذنب، ويغفر لهم ويستر عليهم، فيبدِّل سيئاتهم حسنات[2].

وفيه إشارة إلى أن المقام في الحال التي يقع فيها الخطأ من الإنسان بسبب غضب أو شهوة أو هوى دون تقصُّد الخطأ أو الإضرار أو الظلم، يستدعي التيسير والرحمة والسَّعة، مع بيان الحكم والعقوبة أو الكفارة.

ولذلك فالأصل في الباب أن يُقتصر فيه على ما ورد، وأن لا توسع نواحيه وجوانبه، ولا يُقاس على اللفظ غيره مما لا يماثله في الشناعة والبشاعة[3].

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 486)، و«تفسير الرازي» (29/ 481- 482)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 352)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 121)، و«روح المعاني» (14/ 200)، و«التحرير والتنوير» (28/ 13).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 458)، و«الكشاف» (4/ 486)، و«تفسير الرازي» (29/ 482)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 520).

(3) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 188)، و«تفسير الرازي» (29/ 479)، و«تفسير القرطبي» (17/ 273)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 122).

* ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي﴾:

ظاهر اللفظ يحتمل أنهم ظاهروا أول مرة، ثم عادوا وظاهروا مرة ثانية.

وبهذا فسَّره جماعة، كما نُقل عن الفرَّاء وداود الظاهري، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]، وهو ضعيف.

والأقوى أن المعنى: أن يظاهر من زوجته، ثم يعود إليها ويعاشرها بعد أن حرَّمها على نفسه[2]، كما وقع هذا لسَلَمة بن صخر البياضي رضي الله عنه، أنه جاء للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان فيه شَبَق وغُلْمة[3] وقوة في رغبته في النساء، فلما دخل رمضان ظاهر من امرأته؛ حتى يحافظ على صيامه وعلى صلاته، ثم وقع به شوق إليها، فواقعها[4].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 139)، و«إعراب القرآن» للنحاس (4/ 248)، و«المحلى» (9/ 189)، و«المحرر الوجيز» (5/ 274)، و«تفسير القرطبي» (17/ 280- 281)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 39)، و«التحرير والتنوير» (28/ 16).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 258)، و«تفسير الطبري» (22/ 458)، و«تفسير البغوي» (8/ 51)، و«تفسير القرطبي» (17/ 280)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 39- 40)، و«التحرير والتنوير» (28/ 16)، و«أضواء البيان» (6/ 191).

(3) أي: شدة الشهوة. ينظر: «لسان العرب» (10/ 171)، و«تاج العروس» (25/ 490) «ش ب ق».

(4) أخرجه أحمد (23700)، وأبو داود (2213)، والترمذي (3299)، وابن ماجه (2062)، وابن الجارود (744)، وابن خزيمة (2378)، والحاكم (2/ 203). وينظر: «التلخيص الحبير» (3/ 444)، و«إرواء الغليل» (2091).

ودلالة الآية ظاهرة على أن مَن فعل ذلك فعليه كفارة، وهي المذكورة ترتيبًا في الآية نفسها: ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾: وهذه هي **الخصلة الأولى في الكفارة**: أن يعتق رقبة قبل أن يجامع زوجته[1].

وفيه دلالة على تشوّف الإسلام إلى تحرير الرَّقيق، وقد كان الرِّقُ عرفًا شائعًا في المجتمعات البشرية، ولا سبيل إلى إلغائه مرة واحدة، لكن عمد الإسلام إلى تجفيف منابعه، كما يقال: لا تقتل البعوض، ولكن جفِّف المستنقعات. وجاءت الشريعة بتشجيع الناس على تحرير الرَّقيق، فالناس وُلدوا أحرارًا، وهم في ذلك سواء.

وهل يشترط أن تكون هذه الرقبة رقبة مؤمنة؟

قولان للفقهاء: فذهب أبو حنيفة إلى عدم اشتراط ذلك[2].

والجمهور يشترطون أن تكون مؤمنة[3]؛ استدلالًا بالآية الأخرى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: 92].

وفي قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾ تقييد للكفارة بأن تُخرج قبل أن يجامع المظاهِر زوجته[4].

وعبَّر بالمسيس؛ تهذيبًا وكناية عن المعاني التي يُستحى من التصريح بها.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 460)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 413)، و«تفسير القرطبي» (17/ 282).

(2) ينظر: «بدائع الصنائع» (5/ 109- 110)، و«البناية شرح الهداية» (5/ 542).

(3) ينظر: «اختلاف الفقهاء» للمروزي (ص365)، و«المغني» (8/ 22)، و«المجموع» (17/ 368)، و«حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (2/ 448).

(4) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 413)، و«تفسير القرطبي» (17/ 283)، و«فتح القدير» (5/ 219)، و«التحرير والتنوير» (28/ 18- 19).

والمقصود بالتماس هنا: الجماع[1]، كما أن في التعبير إشارة إلى التكافؤ بين الزوجين، بمعنى أنَّ التماس هنا مشترك من الطرفين، تأكيدًا إلى أن العلاقة الزوجية هي علاقة تكافؤ، وإشعارًا إلى أن المرأة ليست محلًّا لقضاء الوَطَر فحسب.

ومن الألفاظ التي استعملها القرآن تعبيرًا عن الجماع بلفظ مهذَّب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [الرحمن: 56]، وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 222].

والناس بحاجة إلى معرفة الأحكام والحلال والحرام، وما يحلُّ وما لا يحلُّ في العلاقة بين الزوجين، والآداب التي تحيط بهذه العلاقة، وتربية الناس على تهذيب الألفاظ، بعيدًا عن الابتذال، والسورة كلها تدور حول الأدب والذوق والتربية على العلاقات الاجتماعية الراقية، كما سوف يظهر.

﴿ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ﴾ أي: الأمر بتحرير الرقبة مما تُوعظون به، ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ لا يخفى عليه من أمركم شيءٌ، مما يستوجب على الناس أن يُراقبوا الله سبحانه، فلا يتكلموا إلا بخير[2].

وفيه إحياء لشعور الخوف من الله في النفوس؛ ليكون زاجرًا لها عن الحرام، وهو ما يسمى بالوازع الديني، فهذا الوازع لا يقتصر عمله وأثره على حَمْلِ الناس على الصلاة في المساجد، بل هو عام؛ يزجرهم عن رمي الطلاق من غير تبصر، أو ظلم الآخرين، أو بخس حقوقهم، أكانوا من الأباعد أو الأقربين.

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 52)، و«روح المعاني» (14/ 201)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 461)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7354)، و«المحرر الوجيز» (5/ 274)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 123)، و«فتح القدير» (5/ 219)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 14)، و«التحرير والتنوير» (28/ 19).

* ﴿فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

وهي **المرتبة الثانية في الكفارة**: من قبل المسِّ لِمَن لم يجد الرقبة أو ثمنها صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع ذلك؛ لضعفه أو عجزه أو غير ذلك انتقل إلى **المرتبة الثالثة**: ﴿بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ﴾، وكأنه جعل إطعام كل مسكين مقابل صيام يوم من الشهرين المتتابعين[1].

وفيما يتعلق بهذه المرتبة الثالثة: الإطعام، لم يشترط فيها أن تكون ﴿بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم﴾؛ ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى عدم تقييد الإطعام بأن يكون قبل المسيس[2].

والأقرب أنه مثل سابقه: ﴿بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم﴾، لكنه اكتفى بما سبق من تكرار: ﴿بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم﴾؛ ولأن الإطعام لما كان بديلًا عن الصيام، لَمْ يَحْتَج أن يقول: ﴿بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم﴾[3].

﴿مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ﴾ أي: ليكون إيمانكم بالله ورسوله إيمانًا حقيقيًّا، وليكون عملًا تلتزمون به أمر الله عز وجل[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الشافعي» (3/ 1311)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 261)، و«تفسير البغوي» (8/ 53).

(2) ينظر: «المحلى» (9/ 190)، و«المحرر الوجيز» (5/ 275)، و«المغني» (8/ 11- 12)، و«تفسير القرطبي» (17/ 283)، و«التحرير والتنوير» (28/ 21).

(3) ينظر: «تفسير الشافعي» (3/ 1314)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 337)، و«بدائع الصنائع» (3/ 234)، و«تفسير الرازي» (29/ 487)، و«المغني» (8/ 11- 12)، و«تفسير القرطبي» (17/ 283)، والمصادر السابقة.

﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ﴾ أي: ما سبق ذكره من كفارة الظهار وتحريمه[2].

والحدود جمع: حدٍّ، وهو ما يفصل بين الشيئين[3]، فكأن هذا هو الحدُّ الفاصل بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والإسلام والجاهلية.

ولهذا قال: ﴿سَلَفَۗ إِنَّ﴾؛ لأنهم لا يؤمنون بحدود الله، فلا يلتزمونها، ففي ذلك تحذير منهم ومن فعلهم، وفيه دعوة إلى التزام شريعة الله سبحانه، ووجوب العمل بها وتحكيمها، فالكافرون الذين لا يؤمنون بالحدود متوعَّدون بالعذاب المؤلم في الدنيا والآخرة.

وكأن هذا يُشبه قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ﴾ [المائدة: 44]، وفيه تعريض بمَن يبتغون في الإسلام سنة الجاهلية من المنافقين وغيرهم الذين لا يؤمنون بالشريعة اعتقادًا، ولا يلتزمونها، ولا يعملون بها.

وهنا تم القسم الأول من هذه السورة، وهو ما يتعلق بقصة المجادلة.

* **ثم انتقل السياق إلى موضوع آخر،** فقال تعالى: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾□□□ □□□□□□□□□□□□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 465)، و«تفسير القرطبي» (17/ 287)، و«روح المعاني» (14/ 214)، و«التحرير والتنوير» (28/ 22).

(2) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 358)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 262)، و«التحرير والتنوير» (28/ 22).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (4/ 268)، و«تاج العروس» (8/ 8)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (1/ 457) «ح د د»، وما سيأتي في «سورة الطلاق»: ﴿... وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا﴾.

هكذا توجَّه السياق إلى بعض مَن هم حول المؤمنين وليسوا منهم، وهم ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٣ □﴾ أي: يقفون في الحدِّ الآخر المقابل للحقِّ، وهي مثل: ﴿شَآقُّواْ ﴾ [الأنفال: 13]، أي: يتخذون شِقًّا وناحية غير ما فيه الله ورسوله والمؤمنون[1].

﴿□□□□□□□﴾ أي: أُذلوا وأُهينوا كما أُهين الذين من قبلهم من الأمم، وممن ترونهم حولكم، كما حدث لبني قَيْنُقَاع ولقريش في هزيمتهم النكراء في بدر[2].

﴿□□□□□□□□﴾: وعبَّر هنا بـ﴿□﴾؛ لأنه يتناسب مع قوله: ﴿□﴾، فالكَبْت الذي أصابهم في الدنيا يُناسبه يوم القيامة أن يكون العذاب مهينًا لهم، ولا أشد هوانًا لهم من أن يُحشروا في نارٍ ﴿□□□□﴾ [التحريم: 6].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

في ذلك تأكيد ودعوة للمؤمنين إلى أن يستحضروا كمال علمه وإحاطته سبحانه بخلقه، ولقد سمع هذه المرأة التي تجادل في زوجها، وعائشة رضي الله عنها في ركن الدار لا تسمعها، فلا يخفى عليه سبحانه شيء مما يعمل العباد أو يقولون أو يسرُّون أو يظهرون: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن ﴾ [الرعد: 10].

وما يفعله العباد يُكتب، وينبِّئهم الله تعالى به يومَ القيامة، فقد أحصاه حين نسيه الناس، والكلام هنا عن أولئك الذين كفروا بالله ورسوله، فإنهم نسوا أعمالهم، وأما

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7373)، و«المحرر الوجيز» (5/ 281)، و«تفسير القرطبي» (17/ 288)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 466)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 415)، و«تفسير القرطبي» (17/ 288)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 41)، و«في ظلال القرآن» (6/ 3507)، و«التحرير والتنوير» (28/ 23)، والمصادر السابقة.

المؤمن فإنه وإن كان يقع منه الخطأ، إلا أنه لا ينسى عمله، فهو يرى ذنبه وخطأه بين عينيه، فيُكثر من الاستغفار والندم حتى فيما يجتهد فيه أن يكون خيرًا، كما ورد عن عمر رضي الله عنه أنه لما اعترض في صلح الحُدَيْبِيَة، أنه عمل لذلك أعمالًا صالحة؛ لتكفِّر عنه ما مضى من التوقف في امتثال الأمر ابتداء(1).

وربما وقع المرءُ في ذنب، فكان خيرًا له من جهة ما تبعه من ندم وتكفير بالصالحات وتواضع وانكسار وسلامة من العُجب والاغترار.

﴿□□□□□﴾ لا يخفى عليه من أمرهم شيء، سرهم وعلانيتهم، فهو شهيد حاضر معهم، كثروا أو قلُّوا، وهي درجة أبلغ من مجرد العلم أو الإحصاء(2)!

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ﴾:

إشارة إلى كمال علمه سبحانه الشامل السريع المحيط الذي لا يخفى عليه خافية، كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]؛ ولهذا بدأ الآية بالعلم، فقال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (2731)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 317)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (4/ 106)، و«فتح الباري» (5/ 346)، و«سبل الهدى والرشاد» (5/ 53).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 467)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص53)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص132)، و«تفسير القرطبي» (17/ 289)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 41)، و«فتح القدير» (5/ 223).

مَّكَانَ﴾، وختم الآية بالعلم، فقال: ﴿فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾، ووسط الآية هو صورة تفصيلية موضحة لهذا العلم: ﴿شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ ...﴾[1].

والنَّجْوى: الهمس والمسارَّة بين اثنين أو أكثر، وغالبًا إذا كانوا اثنين يقال: مسارَّة، فإن كانوا أكثر عبَّر عنه بالنجوى[2]، وقد تُطلق النجوى على مجمل التناجي أو المسارَّة بين فئة دون الباقين[3].

والحقيقة التي تقرِّرها الآية أن الله معهم في نجواهم ومسارَّتهم بسمعه وبصره وعلمه التام الذي لا يضل، وحفظه وإحصائه الذي لا ينسى.

وبدأ بـ«الثلاثة»؛ ليكون قوله بعد ذلك: ﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا﴾ متناسبًا متقابلًا، فـ«الاثنان» أدنى من «الثلاثة»، ثم ذكر «الخمسة» وتجاوز «الأربعة»؛ لأن «الأربعة» تدخل في الأدنى المذكور، فلما قال: ﴿تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا...﴾ كان «الأربعة» أدنى من «الخمسة»[4]. واتسع اسم الإشارة ليشمل «الثلاثة» و«الخمسة»، على ما في السياق من تجنب تكرار العدد وهو أجمل وأبلغ.

---

(1) ينظر: «إبطال التأويلات» (1/ 230)، و«العلو» للذهبي (ص176)، و«تفسير القاسمي» (5/ 77).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 490)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (2/ 115)، و«تفسير القرطبي» (17/ 290)، و«البحر المحيط في التفسير» (4/ 64)، (10/ 125)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (4/ 90)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 823).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (2/ 104)، و«زاد المسير» (1/ 470)، و«تفسير القرطبي» (5/ 383)، و«فتح القدير» (1/ 594)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (3/ 237).

(4) ينظر: «تفسير النسفي» (3/ 447– 448)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 273)، و«تفسير الإيجي» (4/ 277)، و«روح المعاني» (14/ 218).

فهو معهم بعلمه وبسمعه وبصره، كما قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: 46]، وبسلطانه سبحانه، وإحاطته وقدرته، فهذا معنى المعيَّة، كما ذكره الأئمة والسلف، وأشار إليه ابن كثير في «تفسيره»[1].

﴿بَعۡضٍ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾: والنص أقرب للتحذير والوعيد، ففيه تعريض بالذين يشقُّون وحدة الصف المسلم بالتناجي، وبث الفرقة، وإشاعة القلق، لا بقصد الإصلاح، بل لغرض تنفير المؤمنين وزعزعة يقينهم، ولذا توعَّدهم بأن يخبرهم بما عملوا يوم القيامة، وهو متضمِّن لمؤاخذتهم عليه.

* ﴿عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن﴾:

تشير الآية إلى أُناسٍ ظلُّوا يتناجون ويتهامسون منعزلين عن المجموعة، يتآمرون بمكائد وخُطط خبيثة، مقصودها النيل من الإسلام ومراغمة أهله، وهي الحرب النفسية والاجتماعية التي تسعى إلى تفتيت المجتمع ونشر الشائعات في داخله، على أن هذه النجوى ذاتها تُحدث الحزن، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**إذا كنتم ثلاثةً، فلا**

---

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (5/ 495)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (2/ 131- 132)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 42).

يتناجَى اثنان دونَ صاحبِها، فإن ذلك يُحزِنُهُ»[1]. لأنه إذا أصبحوا يتهامسون فيما بينهم وهو منعزل عنهم ضاق صدره، ورأى أنه ليس محلًّا للثقة، وربما كانوا يتكلمون فيه، أو يُخفون عنه بعض الحقائق؛ شكًّا في أمانته.

ولذلك قال بعض أهل العلم: إنه يدخل في التناجي لو تكلموا بلغة أخرى غير اللغة التي يُحسنها؛ بقصد إخفاء الحوار عنه[2].

والمعنيون في هذه الآية: أناس يتناجون بما لا يجوز، زيادة على أنهم قد نُهوا عن مجرد التناجي، فكيف إذا كان موضوعها الإثم والعدوان ومعصية الرسول؟

والإثم: يُقصد به هنا: ما يخصهم من المعاصي، كشرب المحرم أو اللهو المحرم[3].

وأما العدوان: فهو على الآخرين، يتناجون بالوقيعة بفلان أو ضربه أو سرقة ماله[4].

وأما **معصية الرسول** صلى الله عليه وسلم: فهي وإن كانت من الإثم والعدوان، لكنها ذُكرت تخصيصًا؛ لأنه بين أظهرهم، والمؤمنون يحبونه ويُطيعونه، إلا أن هؤلاء الناس كفروا النعمة، وأصبحوا يتناجون بمعصيته صلى الله عليه وسلم، ولعل موضوع المعصية هنا ليس مجرد مخالفة سنته؛ بل التمرُّد على الأوامر التي تنظِّم حركة المسلمين في مواجهة خصومهم من اليهود والمشركين، وإرباك الموقف في الأزمات التي كانت تمر بالمجتمع المسلم الناشئ.

---

(1) أخرجه البخاري (6288، 6290)، ومسلم (2183، 2184) من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 30).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 260)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 359)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 43)، و«التحرير والتنوير» (28/ 30).

(4) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 416)، والمصادر السابقة.

﴿نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي﴾: والظاهر أن المقصود اليهود[1]؛ فقد كانوا إذا جاؤوا للنبي صلى الله عليه وسلم قالوا له: السَّام عليك يا أبا القاسم[2]. **والسَّام** هو: الهلاك أو الموت[3]، ويتظاهرون بأنهم يسلِّمون عليه، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يأخذهم بظاهرهم، حتى أكثر الناسُ عليه، وقد سلَّم عليه أحدُهم، وردَّ عليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسولَ الله، إنه يقول: السَّام؟ فقال: «**ردُّوه عليَّ**». فردُّوه عليه، فقال: «**أقلتَ: السَّامُ عليك؟**». قال: نعم. فأرشدهم صلى الله عليه وسلم إذا شكُّوا في السلام أن يردُّوا بقولهم: «**وعليكم**»[4]. أما إن علمتَ أنه قال: السلام عليكم. فترد عليه بمثلها أو أحسن[5].

﴿دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ﴾: إما يقولون ذلك في قلوبهم، دون أن يتفوَّهوا به، أو يقولون في خاصة مجالسهم: أن هذا لو كان نبيًّا حقًّا

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7361)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 264)، و«تفسير الرازي» (29/ 491)، و«تفسير القرطبي» (17/ 292).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (2935، 6256)، و«صحيح مسلم» (2165، 2166)، و«تفسير الطبري» (22/ 470- 471)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص411).

(3) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (1/ 357)، و«الاستذكار» (8/ 468).

(4) أخرجه أحمد (12427، 13459)، والبخاري في «الأدب المفرد» (1105)، والترمذي (3301)، وابن ماجه (3697) من حديث أنس رضي الله عنه.

وأصله في «صحيح البخاري» (6926)، و«صحيح مسلم» (2163).

وفي «صحيح البخاري» (6257)، و«صحيح مسلم» (2164) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما نحوه.

(5) ينظر: «التمهيد» (17/ 89)، و«عمدة القاري» (14/ 206).

لعذَّبنا الله بما نقول، فنحن نتكلَّم في ظهره بمعصيته ونتناجى بذلك، ونُلقي عليه التحية المُلبسة الخادعة، ولم يُعذِّبنا الله بهذا[1].

وهذا ملائم للعقلية اليهودية المريضة في تعاملها مع الشأن الإلهي، فهم يحسبون عقاب الله كعقاب البشر، فإن الإنسان إذا سخط ربما يُعجِّل العقاب، لكن الله تعالى حليم صبور، لا يعجِّل لعجلة عباده، ولهذا ردَّ عليهم فقال: ﴿عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾، والمعنى ظاهر، فإن لم يلحقهم عذاب في الدنيا فحسبهم ما توعَّد الله عليهم من عقوبة الآخرة، وبئس العذاب.

* ﴿تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾:

أي: إن كان ولا بد من التناجي، فليكن في غير الإثم والعدوان ومعصية الرسول[2]، كما في الحديث لما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إياكم والجلوسَ في الطرقات**». قالوا: يا رسولَ الله، ما لنا بُدٌّ من مجالسنا نتحدَّثُ فيها. قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**فإذا أبيتُمْ إِلَّا المجلسَ، فأَعْطُوا الطريقَ حقَّهُ**». قالوا: وما حقُّهُ؟ قال: «**غضُّ البصر، وكفُّ الأَذَى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر**»[3].

إذًا النهي عن النَّجْوى في السابق هو **أولًا** للنجوى ذاتها، وأنها تُحدِث حُزنًا وانخزالًا بين المؤمنين وخوفًا ورعبًا.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 473)، و«تفسير الرازي» (29/ 491)، و«تفسير القرطبي» (17/ 294)، و«روح المعاني» (14/ 221)، و«التحرير والتنوير» (28/ 32).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 491)، و«تفسير الرازي» (29/ 492)، و«تفسير القرطبي» (17/ 294)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 44)، و«فتح القدير» (5/ 224)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 22)، و«التحرير والتنوير» (28/ 33).

(3) أخرجه البخاري (6229)، ومسلم (2121) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وثانيا: لأن تلك النَّجْوى تكون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، فلذا نهاهم هنا أن يتناجوا كما يتناجى المنافقون، وأرشدهم إلى البديل؛ وهو التناصح والتحاور فيما يخدم وحدة المجتمع المسلم وأمنه.

فالتقوى في مقابل **الإثم**، **والبِرُّ** في مقابل **العدوان**، وقدَّم هنا «البِرَّ» على «التقوى»، في حين أنه قدَّم «الإثم» على «العدوان»، والسِّرُ- والله أعلم- أن عمل الخير للآخرين أفضل؛ ولهذا يقول الفقهاء: النفع المتعدِّي يُقدَّم على النفع اللازم[1]. فالإحسان إلى الفقير أفضل من نوافل العبادة؛ لأن فيه نفعًا للآخرين.

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

بيَّن تعالى أن التحريض على هذه النَّجْوى إنما هو من الشيطان؛ ﴿□□□﴾[2].

إن الله لا يُحب أن يُحزن الذين آمنوا، ولهذا لم يتعبَّدنا بالحزن، ونهى رسولَه صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال: ﴿□□□﴾ [الحجر: 88]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٣ □□﴾ [التوبة: 40]، فالقيم الإيمانية تؤسِّس للسعادة في القلب وانشراح النفس وقرة العين، وأن كل ما يدعو إلى تحقيق معنى الرضا والفرح والسعادة والسرور فإنه مطلوب ما لم يكن إثمًا.

ومن ذلك: ما يتعاطاه الناس فيما بينهم من بذل المعروف، وهو البِرُّ الذي أشارت إليه الآية، ومنه الطاعة لله والعبادة، وتجنب ما يثير الندم، وهو التقوى المذكورة، ولذا دعا إلى ما يدفع الحزن عن الآخرين؛ فالكلام الطيب، والقول الطيب، والوجه الطيب،

---

(1) ينظر: «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص105)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (1/ 330)، و«فيض القدير» (6/ 59).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 474)، و«تفسير القرطبي» (17/ 295)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 44)، و«تفسير القاسمي» (9/ 169)، و«التحرير والتنوير» (28/ 34).

والبشاشة، وحسن المعاملة، والإحسان إلى الخلق بكل ممكن مقدور هو مما تُحفِّز عليه الشريعة، وتحث عليه نصوص الكتاب والسنة[1]، فإدخال السرور على المؤمنين مطلوب، وإزالة الأحزان منهم مطلوبة.

﴿□□□□□□□﴾: فالمؤمن الذي حقَّق الإيمان أقرب إلى الرضا والسرور، مع أن الحزن والهمَّ والاكتئاب عوارض إنسانية قلَّ مَن يسلم منها، وقد تكون مرضًا يصيب الإنسان لعارض في الطفولة أو بسبب المورثات التي تجعله مهيَّئًا أكثر من غيره لتقبل الهمِّ والغمِّ والألم[2].

إن الحزن والاكتئاب لا ينحصر سببه في الذنب والمعصية، ومهما يكن فإن الإيمان هو من أقوى الوسائل التي تجعل الإنسان أكثر استعدادًا وتأهلًا للفرح والرضا والسرور ومقاومة الحزن؛ فإذا كان عند الإنسان إيمان قوي بالله وتوكُّل عليه واستحضار للوجود الإلهي المهيمن على كل شيء، والقادر على كل شيء، فذلك يورثه قوة نفسية على مقاومة الحزن، وحتى لو وُجد الاكتئاب، فالإيمان يؤسِّس ويرسِّخ الاستعداد والاستجابة النفسية للعلاج.

ومن نجوى الشيطان التي ذكرها بعضهم: ما يتعلق بالرُّؤْيا أو الحُلم[3]، فكثيرًا ما يستيقظ الإنسان وهو متكدِّر، وربما كان هذا بسبب رُؤْيا مزعجة رآها، سواءً تذكرها أو

---

(1) مثل قوله تعالى: ﴿□□□﴾ [البقرة: 83]، وقوله: ﴿□□□□﴾ [الحجر: ٨٨]. وقوله صلى الله عليه وسلم: «**لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلْقَى أخاكَ بوجه طَلْق**». أخرجه مسلم (2626)، وقوله: «**مَن نفَّس عن مؤمن كُربةً من كُرب الدنيا، نفَّس اللهُ عنه كُربةً من كرب يوم القيامة، ومَن يسَّرَ على مُعْسر، يسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومَن سترَ مسلمًا، سترَهُ اللهُ في الدنيا والآخرة، واللهُ في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه**». أخرجه مسلم (2699).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 34).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 475)، و«تفسير الماوردي» (5/ 491)، و«المحرر الوجيز» (5/ 278)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 127).

نسيها، ولكن بقي أثرها، يُفكِّر أن هذه الرُّؤْيا سوف تتحقَّق، فإنه يظل في كل لحظة يقول: متى تقع؟ فربما يقع شيء يشبهها، فيقول: هذا ما كنتُ رأيته. ثم يتولَّد عنده إحساس أنه كلما رأى شيئًا مخيفًا أو محزنًا فإنه سيقع.

ومَن توكَّل على الله استطاع أن يُكيِّف ويعوِّد نفسه على اعتقاد أن ما رأى من الشيطان، وأنه لن يضرَّه حتى لا يبالي به، وقد جربتُ هذا بنفسي كثيرًا منذ الطفولة، ووجدتُ الأمر كما وصفتُ!

وفي «الصحيحين» من حديث أبي قتادة رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**الرُّؤْيا من الله، والحُلْمُ من الشيطان، فإذا رأى أحدُكم شيئًا يكرَهُهُ فلينفثْ**[1] **حين يستيقظُ ثلاثَ مرات، ويتعوَّذْ من شرِّها، فإنها لا تضرُّهُ**»[2].

* ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

انتقل السياق من موضوع النَّجْوى إلى موضوع آخر متشابه، يشترك مع النَّجْوى في أنه من آداب المجالسة والعلاقة الاجتماعية.

وقد قُرئت الآية بالجمع والمفرد: ﴿□﴾، و﴿ٱلْمَجْلِسِ﴾[3].

ويحتمل أن يكون المقصود: مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يتكرر في أوقات مختلفة، فيسمى: «مجالس» بالجمع، وعلى الإفراد فالمقصود كل «مجلس»[4].

---

(1) النفث: نفخ لطيف بلا ريق.

(2) أخرجه البخاري (5747)، ومسلم (2261).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 478)، و«السبعة في القراءات» (ص628- 629)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص343)، و«معاني القراءات» للأزهري (3/ 60)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 280)، و«حجة القراءات» (ص704)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص209)، و«معجم القراءات» (9/ 374).

(4) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص650)، و«تفسير الطبري» (22/ 476)، و«تفسير الماوردي» (5/ 492)، و«المحرر الوجيز» (5/ 278- 279)، و«تفسير الرازي» (29/ 493)، و«تفسير القرطبي»

وقد ورد في سبب النزول: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان في خطبة الجمعة، أو في الصُّفَّة، وضاق المجلس، فجاء أُناس من أهل بدر من السابقين، وبعضهم كبير السن، وبعضهم من السابقين بالعلم ممن له وجاهة ومكانه ومنزلة، وبعضهم محتاج؛ مثلما ورد عن ثابت بن قيس بن شَمَّاس رضي الله عنه أنه كان ثقيل السمع، فيحتاج إلى أن يكون قريبًا، وهؤلاء قد تحملهم ظروفهم على التأخر أحيانًا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُضطر إلى أن يقول: «**قُمْ يا فلانُ، قُمْ يا فلانُ**». من باب التأديب والتدريب لناس يثق بمحبتهم وطواعيتهم، وأن ذلك لا يخدش مشاعرهم، وربما قال: «**يا فلانُ، أفسح لفلان**». وأحيانًا لا يخاطبهم فرادى، بل ينبِّه إلى التفسح ومراعاة ضيق المجلس في طريقة الجلوس والتضام والإفساح للآخرين.

ولما قال مرة: «**قُمْ يا فلان، قُمْ يا فلان**». استغلَّها المنافقون، وقالوا للمسلمين: ألستم تزعمونَ أن صاحبَكم يعدلُ بين الناس؟ فوالله ما عدل بين هؤلاء؛ قومٌ أخذوا مجالسهم وأحبُّوا القربَ من نبيهم، أقامهم وأجلس مَن أبطأ عنهم مقامهم**!؟**[1].

وأرادوا بهذا إيغار صدورهم، وتحريك كوامن النفس والأنانية التي هي من شر ما يوتِّر العلاقة ويفسدها.

(17/ 296- 297)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 45)، و«فتح القدير» (5/ 225)، و«التحرير والتنوير» (28/ 39)، والمصادر السابقة.

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 262)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 258- 259)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص412)، و«تفسير البغوي» (8/ 57)، و«تفسير القرطبي» (17/ 296- 297)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 45- 46).

وأما ما ورد أن سبب النزول: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان في مجلس، وكان إلى جنبه أبو بكر رضي الله عنه، فجاء عليٌّ رضي الله عنه، فوقف ولم يجد مجلسًا، فأصبحَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ينظرُ، فعرف أبو بكر رضي الله عنه، فأفسحَ له، وقال: ها هنا يا أبا الحسن... فلا يصح. ينظر: «معجم ابن الأعرابي» (141، 566)، و«مسند الشهاب» (1164)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 199)، و«الموضوعات» لابن الجوزي (1/ 380- 381)، و«الفوائد المجموعة» (ص371)، و«السلسلة الضعيفة» (3227).

إن من أعظم ما يعانيه الناس في مجتمعاتنا طبع الأنانية؛ التي هي الأَثَرة في المجلس، في قيادة السيارة، في الوظيفة، في العمل، في الدراسة.. فسيطرة النزعة الأنانية على المجتمع كفيلة بتدميره والقضاء عليه، ولا يمكن محاربة هذه الأَثَرة إلا بتوظيف القيم الإيمانية وتحريكها[1]، كما نجد ها هنا، فالله سبحانه يخاطبهم بلفظ «الإيمان»: ﴿□□□﴾، ويختم الآية بقوله: ﴿□□□□﴾، إذًا الإيمان الموجود في قلوبكم يجب أن يتحول إلى برامج عملية واقعية تُرى على الجوارح والسلوك في الملبس والمأكل، والمجلس والعمل والطريق، ومع الأهل وغيرهم، فلا ينبغي أن نستسلم لعاداتنا الاجتماعية ولمألوفاتنا؛ بل أن نستلهم الإيمان في الذوق الذي نتعامل به في المجلس على صعيد الفرد أو الجماعة.

ولأن من طبيعة النفس أن تسرع للعمل حين تعرف جزاءه، بيَّن أن الإفساح في المجلس يترتَّب عليه أن يفسح الله لهم، وهذا يشمل الفُسحة في الحياة والرزق وسَعة النفس والبال، والفُسحة في منازلهم في الجنة لقاء طيبتهم وإيثارهم غيرهم بمجالسهم التي سبقوا إليها[2].

﴿□ □ □ □﴾: **النُّشوز** هو: الارتفاع، **والمكان الناشز** هو: المرتفع الناشز من الأرض، ومنه سُمِّيت المرأة التي تعصي زوجها ولا تؤدِّي حقوقه: ناشزًا: ﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: 34][3].

---

(1) ينظر: «أنا.. وأخواتها» للمؤلِّف.

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 571- 572)، و«الكشاف» (4/ 492)، و«تفسير الرازي» (29/ 494)، و«تفسير القرطبي» (17/ 299)، و«التحرير والتنوير» (28/ 38).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (6/ 697)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (2/ 1135)، و«تفسير الرازي» (11/ 235)، و«تفسير ابن كثير» (2/ 294)، و«التحرير والتنوير» (5/ 41).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص806)، و«لسان العرب» (5/ 418) «ن ش ز».

وكذلك الرجل يقع منه النشوز في حق زوجته، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ﴾ [النساء: 128]، وإن كانت لغة الفقهاء تُطلق النشوز على المرأة دون الرجل في الغالب.

والمعنى: إذا قيل لكم: قوموا، فقوموا[1]. **والمقصود**: الانصراف حتى لا تثقلوا على المضيف، كما أمر الله سبحانه المؤمنين في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: 53]، فإذا قيل لكم: قوموا، فقوموا، أو: انصرفوا، فانصرفوا، ولا تتثاقلوا وتستطيبوا الجلوس، غير متنبهين إلى حاجة المضيف للخلوة بنفسه أو أهله أو استطالته المجلس دون فائدة[2].

ومن المعنى: إذا طُلب من أحدكم أن يقوم عن مكانه في المجلس، مراعاة لحقِ كبير أو ضعيفِ سَمْعٍ أو نحوه، فليقم بطيب نفسه[3].

﴿[illegible]﴾ أي: إن تفعلوا ذلك دون ضيق أو حزن أو تبرُّم، فهي علامة الإيمان والعلم؛ لأن الدرجة ليست في صدارة المجلس أو التكريم الظاهر، بل في الإيمان والعلم.

وفي ذلك إشارة ضمنية إلى أن الناس ليسوا سواسية، حتى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ فيهم الخلفاء الراشدون، وفيهم العشرة المبشرون بالجنة، وفيهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وفيهم مَسْلَمة الفتح، وفيهم مَن روى

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 58)، و«المحرر الوجيز» (5/ 279)، و«تفسير الرازي» (29/ 494)، و«فتح القدير» (5/ 226).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 480)، و«تفسير السمعاني» (5/ 389)، و«تفسير القرطبي» (17/ 299)، و«التحرير والتنوير» (28/ 39)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 262)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 354)، والمصادر السابقة.

أحاديث كثيرة، وفيهم مَن لم يرو إلا حديثًا واحدًا، وفيهم مَن لم يرو شيئًا، وفيهم مَن لا يُعرف في كتب السير إلا اسمه، وفيهم الأعراب الذين هم حُدثاء عهد بإسلام.. فالناس ليسوا سواسية، فهنا لما قال: ﴿□□□□□□□□□□﴾ أي: بهذا الفعل، بمعنى أن أصحاب السابقة والإيمان يُقدَّمون على غيرهم، وكذلك أصحاب العلم يقدَّمون على غيرهم[1].

وهنا لفتة إلى مكانة العلم والإيمان، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ [الروم: 56]، فليس تميز الناس بأنسابهم أو مجدهم الاجتماعي، كما قيل[2]:

فلا تحسبِ الأنسابَ تُنجيكَ من لَظَى *** ولو كنتَ من قَيْسٍ وعبدِ مَدَان

أبو لهب في النار وهو ابنُ هاشم *** وسلمانُ في الفردوس من خُراسان

وكما قيل[3]:

كن ابنَ مَن شئتَ واكتسبْ أدبًا *** يُغنيكَ محمودُهُ عن النَّسَبِ

إن الفتى مَن يقول: ها أنا ذا *** ليس الفتى مَن يقول: كان أبي

وفي ذلك دعوة إلى تعظيم أهل العلم والإيمان، أما إن كانوا من السابقين، فهذا لا شك فيه، وخاصَّة ممن أثنى الله تعالى عليهم وجعل على أيديهم قيام الدين ونصرته وحفظ القرآن والسنة.

والكفر بالتاريخ هو كفر بالذات، وإذا اعتقدنا أن الأجيال السابقة ما استطاعت أن تُطبِّق الدين أو طبَّقته بطريقة محرَّفة، أو ما قامت به، فينبغي أن نعتقد أن مَن بعدهم

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 480)، و«تفسير الرازي» (29/ 494)، و«تفسير القرطبي» (17/ 299).

(2) ينظر: «مقامات عائض القرني» (ص187).

(3) ينظر: «معجم الأدباء» (6/ 2716)، و«الوافي بالوفيات» (26/ 41)، و«بغية الوعاة» (2/ 300)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص16).

أولى أن لا يقوموا بذلك، فيكون هذا في النهاية إنكارًا للذات نفسها، وجحودًا للرسالة ومرسلها، وتمهيدًا لصغار النفوس واستعدادها للإفتتان، وتحذيرًا للصراع داخل الدوائر الفاضلة والمنتخبة.

وفي هذا إثبات لما ينبغي من محبة أهل العلم، والثناء عليهم، وحسن الظن بهم، والدعوة لهم، وتكريمهم، وتجنب الوقيعة فيهم بالذم والسَّلْب والعيب والتنقص والازدراء، و«**لا يعرفُ الفضلَ لأهل الفضل إلا ذو الفضل**»، فإذا رأيتَ الإنسان يتجرَّأ على الأكابر والعظماء وأهل الفضل ويزدريهم أو يحتقرهم، فاعلم أن هذا من دناءة نفسه، ومن قلة العلم والأخلاق والذوق أيضًا.

ولا يلزم من هذا اعتقاد عصمتهم، ولا تحريم الردِّ عليهم فيما يخطؤون فيه من اجتهادات، فقد يَرُدُّ الإنسانُ على مَن هو أعظم منه وأكثر علمًا، وقد يأخذ من هذا العالم أو من ذاك، والعلماء ليسوا معصومين، ولا كهنوت في الإسلام، ولكن لا بد عند الردِّ والنقد أن يكون بأدب وعدل، لا يخالف التوقير والاحترام ورعاية الحقوق.

فيجب أن نوازن بين هذين الجانبين اللذين كثيرًا ما يُظن أنهما متعارضان، فتوقير أهل العلم واحترامهم وإعطاؤهم المكان اللائق بهم، لا يمنحهم العصمة فيما يصدر منهم من فتاوى وآراء واجتهادات، كما أن تسويغ نقدهم ومراجعتهم والاستدراك عليهم، ورد بعض ما يصدر منهم من اجتهاد مرجوح أو خطأ صريح، لا يبيح الاستهانة بقدرهم، ولا الاستخفاف بمكانتهم، والتوازن في هذا مسلك يدل على حسن التربية، وصدق اللهجة، وسلامة الصدر.

وعلى العالم أو الفقيه أن يكون قريبًا من الناس، موطَّأ الأكناف لهم، حسن المعاملة، بعيدًا عن الكِبْر أو سوء الظنِّ، وأَلَّا تشغله الدنيا أو المناصب، أو يظهر للناس من أمره ما يدل على افتتانه بالمجد والرئاسة ومجالسة الكبراء، والمسارعة في

استرضائهم؛ لئلا يكون هو المتسبِّب في سقوط جاهه عند الناس، أو الوقيعة في عرضه، أو سوء الظن به.

* ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ﴾:

هذا تشريع مؤقَّت، **سببه**: أنهم كانوا يكثرون من مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ومناجاته، حتى في بيته، وقد يطيلون الجلوس بما يثقله ويشغله عن أعماله صلى الله عليه وسلم، فأراد الله بهذا تأديبهم[1].

والمعنى: إذا أردتم مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ﴾ أي: قبل أن تناجوه تصدَّقوا بشيء على الفقراء أو المساكين[2]، وفي هذا التقييد ترشيد لمناجاتهم، وتهدئة لهذا الاندفاع؛ إذ بعض المناجاة مما لا تستدعيه الضرورة ولا الحاجة، ويمكن قضاؤها بمناجاة غير الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الحصافة والرأي.

والصدقة تطهير للقلب وللمال، كما قال سبحانه: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ﴾ [التوبة: 103]، ولذا قال هنا: ﴿شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا﴾، وهو دليل على أن هذا لم يكن واجبًا قطعيًّا، بل على سبيل الاستحباب والترغيب[3]؛ ولهذا

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 483)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 574)، و«تفسير البغوي» (8/ 60)، و«تفسير القرطبي» (17/ 301)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 51).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 481)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 418)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 49)، و«فتح القدير» (5/ 227)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 495)، و«فتح القدير» (5/ 227)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 28)، و«تفسير القاسمي» (9/ 176)، و«التحرير والتنوير» (28/ 44).

قال: ﴿مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾، وفي هذا إشارة إلى فئة أخرى من المؤمنين لم يكونوا بأهل يَسَار حتى يجدوا ما يتصدقون به، فخفَّف الله عنهم[1].

* ﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾:

أشار إلى فئة أخرى من حدثاء العهد بالإسلام استثقلوا التصدق، فقال: ﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا تَنكِحُواْ﴾ يعني: عجزتم أو خفتم من الفقر أو غيره، فلم تقدِّموا هذه الصدقات التي أُمرتم بها[2]، ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، ولم تتصدَّقوا ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾ يعني: خفَّف عنكم، كما قال في «سورة التوبة»: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبة: 117]، فالتوبة هنا قد تعني: تخفيف الأمر[3].

والآيتان نزلتا معًا، مما يدل على أن الأمر ليس فيه نسخ من الوجوب إلى الاستحباب، وإنما خُفِّف في السياق نفسه[4]؛ ولهذا يقال: إن هذه الآية لم يعمل بها أحدٌ قط، إلا ما رُوي أن عليًّا رضي الله عنه قال: «هذه الآية ما عمل بها أحدٌ، ولا يعمل بها

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 262)، و«تفسير القرطبي» (17/ 302)، و«تفسير الخازن» (4/ 263)، و«روح المعاني» (14/ 225)، و«التحرير والتنوير» (28/ 44).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 486)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 266)، و«تفسير الرازي» (29/ 496)، و«تفسير القرطبي» (17/ 303).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 262)، و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب» (ص394)، و«تفسير النسفي» (3/ 451)، و«تفسير القاسمي» (9/ 176)، و«التحرير والتنوير» (28/ 47)، والمصادر السابقة والآتية.

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 496).

أحد بعدي». فإن عليًّا رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية كان عنده دينار، فصرفه اثني عشر درهمًا، وكان يتصدَّق على فقير، ثم يناجي النبي صلى الله عليه وسلم[1].

وقد يكون عليٌّ رضي الله عنه فعل ذلك على سبيل البركة وامتثال أمر الله تعالى، وإلا فإنه زوج بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يزورهما في بيتهما.

والمقصود تعظيم مقام النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه بين أظهرهم، وهو مَن هو في التواضع ولين الجانب والحياء من الناس، ولذا تولَّى الله حفظ مقامه وتأديب أصحابه ومجالسيه ببعض حقه الشريف صلى الله عليه وسلم، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ﴾ أي: فهذه هي الواجبات الأصلية والأركان العملية، والتي منها الصلاة، ومنها الزكاة الواجبة للفقراء والمساكين، ومنها طاعة الله وطاعة رسوله.

* ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ﴾:

هذا المقطع الأخير من السورة، وهو متصل بما ذكرنا من تداخل الطوائف المختلفة في المجتمع المدني، ووجود بعض الضعفاء الذين لم يتحرَّر ولاؤهم خالصًا للإسلام وأهله، فهم على علاقة مع المنافقين أو مع اليهود أو مع الوثنيين، بحكم

---

(1) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (ص259)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (32125)، و«تفسير الطبري» (22/ 483)، و«المستدرك» (2/ 481)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 266)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (2/ 596).

القرابة أو الجوار أو الشراكة أو الصداقة السابقة، ونحو ذلك، وقد قبسوا شيئًا من الإسلام أو حاولوا، ولكن لم يتحرَّر هذا الولاء عندهم، فجاءت هذه الآية لتعالج هذا الموضوع.

والآيات نزلت- كما يقول المفسرون- في قوم من العرب تولَّوا اليهود[1]، ولم يصرِّح السياق باسم اليهود الذين كانوا يوالونهم[2]، لكن الغالب أن لفظ الغضب في القرآن يُطلق على اليهود[3]؛ ولهذا قال هنا: ﴿ٱلَّتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾، فهؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم ليسوا عربًا مثلهم، فيكون بينهم القرابة والنسب، وليسوا مثلهم في الإسلام، فهؤلاء يُظهرون الإسلام، وأولئك يُظهرون الكفر بالله ورسوله[4].

ويجوز أن يكون المعنى: أن هؤلاء القوم- كما قال تعالى في موضع آخر-: ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ [النساء: 143]، أي: ليسوا مع المسلمين، وليسوا مع أعداء المسلمين، بل هم متردِّدون متذبذبون[5]، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**مثلُ**

---

(1) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص413).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 487)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 363)، و«تفسير القرطبي» (17/ 304)، و«فتح القدير» (5/ 229)، و«التحرير والتنوير» (28/ 48).

(3) وفي الحديث المرفوع: «**اليهودُ مغضوبٌ عليهم**». وقد تقدم تخريجه في «سورة الفاتحة»: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾.

(4) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 280)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 129)، و«التحرير والتنوير» (28/ 48).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 488)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 419)، و«تفسير البغوي» (8/ 61)، و«تفسير القرطبي» (17/ 304)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 51- 52)، و«التحرير والتنوير» (28/ 48).

المنافق، كمثَلِ الشاة العائِرَة بين الغنمين تَعِيرُ إلى هذه مرةً وإلى هذه مرةً»[1]. أي: ليست مع هذه الرعية، ولا مع تلك الرعية، فهي ضائعة بينهما[2].

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي﴾: **والمقصود هنا:** المنافقون[3]، يكذبون ثم يحلفون بالله على الكذب، فجمعوا ثلاث سوآت؛ الأولى: الكذب، **والثانية:** أن الكذب وقع منهم عن قصد؛ لأن الإنسان قد يقع منه الخطأ وهو لا يعلم، وفي لغة أهل الحجاز يُطلق الكذب على الخطأ[4]، **والثالثة:** أنهم يحلفون بالله على ذلك الكذب. والفعل المضارع يدل على أن هذا وقع منهم مرارًا لا مرة[5].

وإذا كان مذمومًا أن يكثر المسلم من الحلف، ولو صادقًا، كما يدل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: 224]، فيحلف على الحقير والجليل، والصغير والعظيم، فكيف بمَن يحلف على الكذب، ثم يكثر من الحلف، حتى يصبح عادة لسانية، تدل على استهانته بالله وبآياته.

وإذا كان النهي ورد عن كثرة الحلف، حتى مع الصدق، فكيف بمَن يحلف كاذبًا، ثم يكرِّر ذلك؟

---

(1) أخرجه مسلم (2784) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (17/ 128)، و«عمدة القاري» (16/ 69)، و«فيض القدير» (5/ 515- 516).

(3) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 363)، و«الكشاف» (4/ 495)، و«تفسير الرازي» (29/ 497)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 355)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 52)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 552)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 840).

(4) ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (2/ 303)، و«لسان العرب» (1/ 709) «ك ذ ب».

(5) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 49)، وما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿□□□□□□﴾.

وإذا كان الحلف الواحد على باطل قد يكون يمينًا غَمُوسًا يغمس صاحبه في النار[1]، فكيف بمَن هذا ديدنه؟

فهؤلاء توعَّدهم الله بقوله: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا﴾.

والعذاب الشديد قد يكون في الدنيا بما كتب الله تعالى لهم من الذلِّ والهوان والغلبة، وهو أيضًا في الآخرة[2].

وقال بعضهم: إنه عذاب القبر[3]، حتى لا يكون في الآية تكرار؛ لأنه بعد ذلك قال: ﴿□□□□□□□□﴾.

والأَوْلى أنه يشمل كل ما سوف يُعذَّبون به في الدنيا، من عذاب الذل والهوان والخسف الذي سوف يصيبهم، وعذاب القبر، وعذاب الآخرة، وأشده عذاب الآخرة، ولذا نص عليه فيما بعد على وجه التحديد.

* ﴿عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا﴾:

هذا تفريع على قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾.

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (6920)، و«صحيح مسلم» (138).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 489)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 419)، و«تفسير الرازي» (29/ 497)، و«تفسير القرطبي» (17/ 304).

(3) ينظر: «تفسير البيضاوي» (5/ 196)، و«فتح القدير» (5/ 230)، والمصادر السابقة.

وقرأها الحسن البصري، وأبو العالية: (اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً) بكسر الهمزة[1]، أي: تظاهروا بالإيمان، حتى يخادعوا المؤمنين، وتستقيم حياتهم المعيشية، وربما أرادوا الكيد والمكر والخديعة، وليسوا بمؤمنين[2].

وقراءة الجمهور: ﴿عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ﴾ بفتح الهمزة، جمع: يمين، أي: اتخذوا من القَسَم بالله وقايةً يتسترون بها من المسلمين، ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن﴾: صدُّوا بأنفسهم، وصدُّوا غيرهم عن الحق بهذا الفعل الشائن، ﴿تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾، وعبَّر بـ﴿ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾؛ ليتناسب مع استهانتهم بالله وباسمه العظيم، وزجِّهم باليمين الكاذبة في غير مناسبة؛ فكان الجزاء من جنس العمل[3].

* ﴿مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ □□□□□□□□﴾:

وهم ﴿عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾؛ حتى يقوا أنفسهم، ويحافظوا على أموالهم وأولادهم، وعلاقاتهم الأسرية والاجتماعية، فبيَّن أن الأموال والأولاد التي من أجلها فعلوا ما فعلوا لن تنفعهم من الله، وحتى لو كان أولادهم صالحين، كعبد الله ابن عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ، فالأبناءُ ناجون عند الله، ولكن لا يغنون شيئًا عن

---

(1) ينظر: «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (2/ 315)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 263)، و«تفسير الرازي» (29/ 497)، و«تفسير القرطبي» (17/ 304)، و«فتح القدير» (5/ 229)، و«معجم القراءات» (9/ 378).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 497)، و«تفسير القرطبي» (17/ 304)، و«فتح القدير» (5/ 229)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 30)، وما سيأتي في «سورة المنافقون»: ﴿بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 489)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 575)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7371)، و«الكشاف» (4/ 495)، و«زاد المسير» (4/ 250)، و«تفسير القرطبي» (17/ 304)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 52)، و«التحرير والتنوير» (28/ 49- 50).

آبائهم، وقد يرثون أموالهم وينفقونها في سبيل الله، فينعمون بها في الدنيا والآخرة، ويُعذَّب بها الآباء الذين اكتسبوها باليمين الكاذبة وبالنفاق.

﴿□□□□□□□﴾: وفي ذلك إشارة إلى أن قيمة الإنسان بالعمل، وليست بمجرد المال، أو النسب، أو الولد، وإنما المال والنسب والولد والمكانة تنفع الإنسان إذا أحسن توظيفها واستخدامها، وإلَّا فقد تكون وبالًا عليه، كما قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: 36][1].

❁ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

لأنهم أدمنوا الحلف الكاذب، فأصبح عادة وشهوة لا يصبرون عنها، فيقع منهم يوم القيامة، فيحلفون بالله كما يحلفون من قبل في الدنيا للمسلمين على الكذب[2]، ﴿□ □□□□﴾، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: 23].

﴿□□□□﴾ الذين ما زالوا يكذبون ويتحرَّون الكذب ويسارعون فيه، حتى كُتبوا عند الله من الكذَّابين الذين صار الكذب سيماء وعلامة وصبغة تصبغ شخصياتهم، وليس مجرد فعل عارض يتوب الإنسان منه ويندم.

❁ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (2/ 317)، و«تفسير الرازي» (15/ 481)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (1/ 569)، و«تفسير السعدي» (ص144).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 267)، و«تفسير الرازي» (29/ 498)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 52)، و«التحرير والتنوير» (28/ 52).

أي: أن الشيطان استولى وسيطر عليهم من كل جانب[1]، وفي الحديث: «**ما من ثلاثة في قرية ولا بَدْوٍ، لا تُقامُ فيهم الصلاةُ إِلَّا قد استحوذَ عليهمُ الشيطانُ؛ فعليكَ بالجماعة؛ فإنما يأكلُ الذئبُ القاصيةَ**»[2].

والأَحْوذ والأَحْوذي هو: القوي الغالب[3]، وقد قالت عائشة رضي الله عنها في وصف عمر رضي الله عنه: «كان واللهِ أحوذيًّا، نسيجُ وحدِه»[4].

وبهذا صاروا من جماعة الشيطان الذين استسلموا له وأعطوه القياد ﴿□□□□□□ □□□□□□□□□﴾.

فمع تحزبهم واجتماعهم الذي هو مظنة الربح، إلا أنه حكم عليهم بالخسران المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأن اجتماعهم كان على حرب الله وحرب أوليائه، ومن حارب الله فليبشر بسوء النهاية مهما ظنَّ غير هذا.

❊ ﴿□□□□□□□□□□﴾:

أي: يتخذون حدًّا آخر غير حدِّ الله ورسوله، **أو المعنى**: يحاربون الله ورسوله، كأنهم استخدموا السلاح والحديد لمحاربة الله ورسوله[1].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 140)، و«تفسير الماوردي» (5/ 494)، و«المحرر الوجيز» (5/ 281)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 223)، و«التحرير والتنوير» (28/ 54).

(2) أخرجه أحمد (21710، 27514)، وأبو داود (547)، والنسائي (2/ 106)، وابن خزيمة (1486)، وابن حبان (2101)، والحاكم (1/ 211، 246)، (2/ 482)، والبيهقي (3/ 77) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(3) ينظر: «الصحاح» (2/ 563)، و«لسان العرب» (3/ 487) «ح و ذ»، و«التحرير والتنوير» (28/ 54).

(4) أخرجه ابن أبي شيبة (37055)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (68)، والحارث (966- بغية)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (918)، والطبراني في «الأوسط» (4318)، والقَطِيعي في «جزء الألف دينار» (333)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (1/ 48) (185)، والبيهقي (8/ 349).

وهم هنا يحاربون الرسول صلى الله عليه وسلم، أو يحاربون المؤمنين، لكنهم في واقع الأمر يحاربون دين الله؛ لأن هذا مؤدَّى ما يفعلون، والله غالب على أمره، فمهما كانت كثرتهم وسلاحهم، إلا أنهم يُهزمون ويُخذلون، فيلحقهم الذُّل في الدنيا، والخزي في الآخرة.

و لم يقل: «ذليلون»؛ بل قال: ﴿ ﴾، **والأذل**: هو الأكثر ذلةً، وإن كان كل الكافرين تلحقهم ذِلَّة، إلا أن بعضهم أشد من بعض ذلة حسب درجتهم في الكفر ومحادتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ولم يقل: «هم الأذلُّون»، وإنما قال: ﴿ ﴾ يعني: أنهم داخلون في عداد ناس كثيرين من ﴿ ﴾، فليس لهم شأن ولا وزن ولا قيمة ولا اعتبار ولا ذكر، فهم منسيُّون ضمن هؤلاء الأذلين[2].

وهي سنة جارية لا تتخلف مضت على أقوام وأمم وطغاة لا يعلمهم إلا الله، والناموس لا يتخلَّف، ولكن الناس يغفلون عنه، ويغتُّرون بالقوة العابرة أو الظهور الوقتي.

❊ ﴿ ﴾:

﴿ ﴾ أي: قضى وقدَّر وأنزل[1]، فهذا يعطي قوة عظيمة للمؤمنين ويعزِّز الإيمان في قلوبهم، ويدعو الضعفاء والمتردِّدين إلى أن يحسموا أمرهم وخيارهم إلى الإيمان والإسلام.

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 489)، و«تفسير الرازي» (29/ 488)، و«روح المعاني» (14/ 214)، وما تقدم عند قوله تعالى: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (21/ 356)، و«الكشاف» (4/ 496)، و«تفسير الرازي» (29/ 498)، و«تفسير القرطبي» (17/ 306)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 130)، و«فتح القدير» (5/ 230)، و«التحرير والتنوير» (28/ 56).

وعقَّب بقوله: ﴿□ □ □ □﴾ تأكيدًا للوعد، فالغلبة هنا تكون بالحجة والبيان والبرهان، وهذا دائم في كل وقت، والغلبة تكون كذلك بالقوة والسلطان، وإن كان يتفاوت بحسب المبلِّغين عن الله ورسله، وقوة حجتهم، وتمام معرفتهم، وجودة لغتهم، واستيعابهم لمعطيات عصرهم[2].

وهذا يكون متى توفرت أسبابه، ويكون لرسل الله الذين بُعثوا بالقتال والجهاد، كموسى ومحمد عليهما السلام، فإن الله تعالى كتب لهم القوة والغلبة والانتصار، وأذلَّ أعداءهم، أما الرسل الذين لم يُبعثوا بمثل ذلك، كعيسى عليه السلام، فإنه لم يُبعث بقتال، فهؤلاء كتب الله لهم القوة والغلبة من جهة أن دينهم كُتب له الخلود والبقاء، وأن يقفِّي على آثارهم برسل يحيون شريعتهم وذكرهم ويجدِّدون عقيدتهم، كما جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لتعزِّز عيسى ودعوته ومكانته.

أما من بعد الرسل، فإن الله تعالى يكتب العزة والقوة للمؤمنين، بحسب ما يتحقَّق فيهم من الإيمان والتجرُّد والصفاء وصدق النية والامتثال للشروط الشرعية التي منها مراعاة السنن، كما قال تعالى: ﴿وَحَلَٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ﴾ [التغابن: 16]، وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: 60]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، وقال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [الأنفال: 66].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 493)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 268)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص699)، و«تفسير القرطبي» (17/ 306)، و«التحرير والتنوير» (28/ 57)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 62)، و«الكشاف» (4/ 496)، و«تفسير الرازي» (29/ 498)، و«تفسير القرطبي» (17/ 306)، و«فتح القدير» (5/ 230)، و«روح المعاني» (14/ 228).

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ﴾:

وهذا يعني استحالة أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر حقَّ الإيمان، ثم يقع في قلوبهم موادة، أي: تبادل الودِّ والحبِّ مع مَن حادَّ وحارب الله ورسوله وحارب المؤمنين[1].

وقد ورد أن هذه الآيات نزلت في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم؛ حتى عدَّ بعضهم اثني عشر تعرَّضوا لبعض قرابتهم في ساحة القتال، كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ونُقل ذلك عن أبي عُبيدة بن الجرَّاح أنه قتل أباه في المعركة، وجماعة من الصحابة كانوا في معركة بدر وأُحد وغيرها لا يتحاشون من أقربائهم الذين يكونوا في العُدوة الأخرى مع الجيش الكافر أن يقاتلوهم[2].

ولا يصح أن الآية نزلت في خصوص هؤلاء، وإنما المقصود أن هذا مما يشتمل عليه معنى الآية، علمًا أن بعض هذه الأخبار والقصص- وإن توارد عليها المفسرون- ليس لها أصل، كقصة أبي عُبيدة رضي الله عنه مع أبيه، وأنه قتله في معركة بدر، وهي في عامة كتب التفسير، مع أن المحقِّقين من أهل العلم والسِّير أنكروها، وذكروا أن والد

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 282)، و«تفسير القرطبي» (17/ 307)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 356)، و«فتح القدير» (5/ 231)، و«التحرير والتنوير» (28/ 58).

(2) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص414)، و«تفسير الرازي» (29/ 499)، و«تفسير القرطبي» (17/ 307)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 54).

أبي عُبيدة مات قديمًا بمكة قبل الإسلام أو قبل الهجرة، ولم يشهد بدرًا[1]، وإنما تناقل الناس مثل هذه المعاني دون تحقيق، كشأن القصص والأخبار.

وهذا المعنى من حيث الجملة صحيح، ولا يستكثر ذلك على أتقياء المؤمنين، والله تعالى ذكر قصة نوح وولده، وقصة إبراهيم وأبيه، وقصة لوط وزوجه، وما فيه أن الإيمان يفصل ما بين المؤمنين وما بين الذين يحاربون الله ورسوله ويعادونه، إلا أن كثيرًا من الشباب يغفلون عن معنى شرعي آخر؛ وهو حقوق الوالدين، وخاصةً حينما يكونان مسلمين.

على أن الموالاة والموادة على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: موادة المشركين والكافرين لشركهم، وما يترتب على ذلك من الرغبة في انتصارهم، وأن يكون هوى الإنسان وميله إليهم ومعهم، فهذا كفر وشرك؛ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51].

الضرب الثاني: نوع من الموالاة والموادة المحرَّمة، ولكنها دون الشرك، مثل: ألا يكون عنده الميل والهوى القلبي إلى دينهم وملتهم، ولكنه قد يُسِرُّ إليهم ببعض المودة أو يفشي لهم بعض الأسرار أو يميل إليهم في بعض الأشياء دون الشرك، فهذه كبيرة من الكبائر.

الضرب الثالث: القدر المباح؛ وهو المعاملة الحسنة والقول الطيب والخُلق الكريم الذي أمر الله تعالى به، كما في قوله: ﴿قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ﴾ [الممتحنة: 8]، وفي شأن الأبوين قال سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: 15].

---

(1) ينظر: «ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية» (ص124).

﴿شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾ يعني: لا يوادونهم؛ ولهذا لم يذكر هنا في هذا المقام التُّقاة أو التَّقِيَّة، كما في «سورة آل عمران»: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾ [آل عمران: 28]، **والتُقاة** تكون بالفعل وبالقول عند الحاجة إليها، وأما القلب فلا مجال للتُّقاة فيه[1]؛ وهنا كان الحديث عن المودة وهي فعل القلب، قال: ﴿شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ﴾، وبدأ هنا بالتدرُّج بحسب درجة القرابة: الأب، ثم الابن، ثم الأخ، ثم العشيرة والقبيلة[2].

﴿أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ﴾: وإذا كان الله سبحانه هو الذي كتب الإيمان في قلوبهم، فمَن الذي يمحو أو يزيل هذا الإيمان؟ إنها شهادة لهم من الله بصحة إيمانهم وبقائه وموتهم عليه؛ لأنه تعالى كتبه، فلا يمحوه أحد، ﴿مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ أي: نصرَهم وعزَّزهم بلُطف ورحمة وفضل منه جلَّ وعز، ونور يقذفه في قلوبهم وعزة يجعلها في حياتهم وأعمالهم[3]، ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾، فهم صارموا[4] أقرب قريب في مرضاة الله، وتخلَّى بعضهم عن زوجاتهم، وهاجر بعضهم من وطنه وترك أسرته وأهله وأولاده، فعوَّضهم تعالى بجزاء من جنس أعمالهم وهو أنه

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (5/ 315)، و«تفسير البغوي» (2/ 26)، و«تفسير الرازي» (8/ 193-194)، و«تفسير القرطبي» (4/ 57)، و«تفسير ابن كثير» (2/ 30).

(2) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (10/ 131)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 33)، و«الجدول في إعراب القرآن» (28/ 189).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 494)، و«تفسير الرازي» (29/ 500)، و«تفسير القرطبي» (17/ 308)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 278)، و«التحرير والتنوير» (28/ 61).

(4) التصارم: التقاطع. ينظر: «الصحاح» (5/ 1965) «ص ر م».

﴿قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾، فحينما سخط عليهم البعيد والقريب والزوج والوالد والولد والجار والعشيرة، عوَّضهم تعالى برضوانه عنهم، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، في مقابل ما فات عليهم من المصالح الدنيوية، وتركوا من الدور والمنازل والمكانات والعلاقات والتجارات في سبيل الله.

﴿وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾: وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين الصادقين هم جميعًا «حزب الله»، وأن هذا اسم تشريف مثل اسم الإيمان، ومثل اسم الإسلام والسابقة[1]، وغيرها من الأسماء التي لا ينبغي أن يُخصَّ بها أحد دون أحد من المؤمنين، فإن الأسماء العامة كهذا الاسم، أو أمة الإسلام، أو أمة المؤمنين، أو جماعة المسلمين، لا يجوز لأحد أن يختصَّ به، والاختصاص يفضي إلى اعتقاد أن مَن هم داخل هذا التكوين أو الجماعة هم الذين لهم الحق في هذا الاسم، ومَن خارجه فكأنهم من الحزب الآخر.. من حزب الشيطان؛ لأن السياق يُوحي بأن الناس حزبان؛ حزب الله أو حزب الشيطان؛ لأنه لم يذكر شيئًا ثالثًا في نهاية الأمر، فالأسماء القرآنية الشرعية ينبغي أن تظل على جلالتها وقداستها وإطلاقها، وألَّا يجرأ أحد على اختصاصها لنفسه، فكل المؤمنين حزب الله، وكل المؤمنين هم جماعة المسلمين.

وبعض مَن ينتحلون هذه الأسماء يعتقدون كفر الأمة، كجماعة التكفير والهجرة التي نشأت في مصر، وانتشرت إلى بعض البلاد العربية، وكانت تعتقد كفر الأمة، وأنهم وحدهم جماعة المسلمين[2]، حتى قال شاعرهم[3]:

من قبل الطوفان اسمعني يا عبدَ الله

---

(1) كقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ﴾ [التوبة: 100].

(2) ينظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (1/ 333).

(3) منسوبًا إلى زعيمهم: شكري مصطفى.

واخرج من أرضك واتبعني في أرض فلاة

أرض في قلبي لم يُعبد فيها الشيطان

أرض في فكري أحمله في كل مكان

فاحمل أزوادك واتبعني يا عبد الله

يكفينا زادًا في الدنيا هذا القرآن

في أرض الهجرة يا صحبي طُهر وسلام

وفرار من سُخف الدنيا ومن الآثام

وحكــومة عــدل وأمـــان..

صدقني.. في الأرض الواسعة أمان!

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ ﴾، ومثله تسمية: «حزب الله»؛ فإنها نقل للاسم الشريف المتصل بقيم ومعانٍ إيمانية ربانية إلى جماعة ذات انتماء خاص، ومنهجية خاصة، ومواقف سياسية وعسكرية محدَّدة، تقاتل عن عقيدتها وطائفتها ومصالحها، وليس لها الحق في احتكار الاسم أو ادعائه.

ويا لها من منزلة سامية وفضيلة نادرة أن يصف الله جماعة من عباده بأنهم حزبه، وفريقه، وأنصاره، فينسبهم لذاته الشريفة ويعدهم بالفلاح؛ وهو حصول المرغوب وزوال المكروه في الدارين[1].

❍ ❍ ❍

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (1/ 277)، و«تفسير القرطبي» (1/ 182)، و«تفسير السعدي» (ص162).

سورة الحشر

* تسمية السورة:

اسمها المشهور في المصاحف، وكتب السنة: «**سورة الحشر**»[1].

وجاء ذلك في حديث مرفوع استحباب قراءة آخر ثلاث آيات منها، ولكنه حديث ضعيف[2].

وقد سماها ابن عباس رضي الله عنهما- كما في «صحيح البخاري»-: «**سورة النَّضِير**»[3]، أو: «**سورة بني النَّضِير**»، وهي إحدى قبائل اليهود بالمدينة، والتي بسببها نزلت السورة[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص652)، و«تفسير مقاتل» (4/ 267)، و«جامع الترمذي» (5/ 408)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 291)، و«تفسير الطبري» (22/ 496)، و«المستدرك» (2/ 483)، و«تفسير القرطبي» (18/ 1)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 133)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 56)، و«التحرير والتنوير» (28/ 62).

(2) أخرجه أحمد (20306)، والدارمي (3468)، والترمذي (2922)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (230)، والثعلبي (9/ 289)، والبغوي في «تفسيره» (8/ 88) من حديث مَعْقِل بن يسار رضي الله عنه، ولفظه: «**مَن قال حين يصبحُ ثلاثَ مرات: أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرَّجيم. ثم قرأ الثلاثَ آيات من آخر سورة الحشر، وكَّلَ اللهُ به سبعينَ ألفَ مَلَكٍ يُصلُّون عليه حتى يُمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدًا، ومَن قالها حين يُمسي كان بتلك المنزلة**». وينظر: «ميزان الاعتدال» (1/ 632)، و«نتائج الأفكار» (2/ 405- 406)، و«بلوغ المرام» (342).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (4883)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 56)، و«روح المعاني» (14/ 232)، و«التحرير والتنوير» (28/ 62).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (4882)، و«صحيح مسلم» (3031)، و«تفسير الطبري» (22/ 498)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص416).

* **عدد آياتها:** أربع وعشرون آية باتفاق العلماء[1].

* **وهي مدنية** باتفاقهم[2].

* ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾:

استفتحت السورة كسائر المسبِّحات[3] بـ﴿٢٣ □﴾، ولعلَّ اختيار الماضي هنا؛ لأن موضوع السورة عن أمر مضى وانقضى؛ وهو نصر الله تعالى للمؤمنين وهزيمة بني النَّضِير اليهود المحاربين، فهي تتحدَّث عن نعمة وقعت وانتهت[4]؛ ولهذا بدأت بالتسبيح: ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ﴾.

وكأن هنا إشارة إلى جند الله المبثوثين في السماء والأرض، ﴿□□□□□□□﴾ [المدثر: 31]، ومن ذلك الملائكة، ومن ذلك النواميس الكونية، فهي من جند الله تعالى[5]، وكل ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات فهي تُسبِّح الله[6].

---

(1) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص243)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص313)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص309)، و«التحرير والتنوير» (28/ 63).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 283)، و«زاد المسير» (4/ 253)، و«تفسير القرطبي» (18/ 1)، و«فتح القدير» (5/ 232)، و«التحرير والتنوير» (28/ 63).

(3) والسور التي افتتحت بالتسبيح هي: «الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن».

(4) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

(5) ينظر ما سيأتي في «سورة المدثر».

(6) كما في قوله تعالى في «سورة الإسراء»: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾.

وجاءت الصيغة في بعض السور بـ﴿ ٢٣ □□□□□□﴾ [الحديد: 1]، وهنا قال: ﴿ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ﴾؛ لأن الحديث عن نعمة أرضية وقعت في الأرض، وفي المدينة تحديدًا، ورآها الناس وكان لهم فيها يد عاملة وسبب مباشر، فناسب أن يُكرر الاسم الموصول، ففيه عناية وحفاوة بالأرض وما فيها ومَن فيها[1].

﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾: ومن الملاحظ أن السورة خُتمت بما بدئت به؛ ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾، **فالعزَّة** واضحة هنا بالانتصار والغلبة والتمكين للمؤمنين، فهو ﴿وَأُمَّهَٰتُ﴾ القويُّ الذي بفضله تمكَّن المؤمنون شيئًا فشيئًا بعد أن كانوا يُعذَّبون ويُقتلون بمكة صاروا يملكون أقوى قوة في جزيرة العرب، وأما ﴿نِسَآئِكُمۡ﴾ ففيه إشارة إلى حكمته سبحانه في تدبير الأمور والتدرج والتوقيت، فهذا من الحكمة.

وفي الجمع بين الاسمين العظيمين التفات إلى أهمية الحكمة والتعقل والفهم مع القوة، وأن القوة بلا حكمة لا يُؤْمَن معها أن تفضي للظلم والتعدِّي، كما أن الحكمة بلا قوة لا تدفع ولا تكاد تغني، ولذا كان اعتماد المؤمنين في حربهم مع بني النَّضِير على الحكمة والصبر وحسن التدبير أكثر من اعتمادهم على السلاح، فتحقَّق لهم في نهاية الأمر الانتصار، وكأن هذا تعليم للمؤمنين؛ لأن الله بأسمائه الحسنى يُعلِّمنا التخلُّق بالأخلاق الفاضلة، يُعلِّمنا أن نكون أعزَّاء أقوياء، ويُعلِّمنا أن نكون حكماء، وأن القوة من غير حكمة ترتدُّ على صاحبها، وأن الحكمة من غير قوة قد تكون ذلًّا وهوانًا[2].

---

(1) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

(2) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص33، 47)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص60، 237).

* ﴿ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾:

الحديث في السورة هو عن نعمة الله بإجلاء بني النَّضِير من المدينة[1]، وخَضْدِ شوكة الشِّرك والنفاق، وقد خرج قبلهم بنو قَيْنُقاع[2]، وسوف يحدث لبني قُريظة بعدهم ما يحدث، **والمقصود هنا**: بنو النَّضِير خاصَّة، حيث أخرجهم الله من ديارهم بالمدينة[3].

وقد كان آباؤهم وآباء بني قُريظة مع موسى عليه السلام، وأمرهم أن يخرجوا من فلسطين إلى مقاتلة العَمَالِيق، فلم يحسنوا قتالهم، وفي هذه الأثناء مات موسى عليه السلام، فرجعوا إلى مساكنهم في أَرِيحا وما حولها، فقال لهم قومهم: خذلتمونا، ولم تقوموا بما أوجب الله عليكم، فلا تدخلوا ديارنا، فردُّوهم، فلجأوا إلى جزيرة العرب وصاروا مزارعين كبارًا، وصارت لهم قرى وحصون عظيمة.

ومن المعروف أن لبني النَّضِير ستة حصون معروفة يتمنَّعون بها[4]، وتحولوا إلى تجار يملكون التجارة، وإلى مرجعية ثقافية وعلمية في البلد؛ حيث كانت الجزيرة تشهد

---

(1) وقد كان إجلاؤهم سنة أربع للهجرة، كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 190).
وقيل: سنة ثلاث. ينظر: «السيرة النبوية الصحيحة» (1/ 304- 305).

(2) وكان إخراجهم في شوال على رأس عشرين شهرًا من مهاجره صلى الله عليه وسلم، وقيل: في صفر سنة ثلاث. ينظر: «إمتاع الأسماع» (1/ 122)، و«سبل الهدى والرشاد» (4/ 179).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 275)، و«تفسير الطبري» (22/ 496)، و«تفسير السمعاني» (5/ 395)، و«تفسير النسفي» (3/ 454)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 59)، و«التحرير والتنوير» (28/ 66).

(4) وهي: حصن الكُتَيْبَة، والوَطِيح، والسُّلالِمِ، والنَّطَاة، والوَخْدَة، وحصن شَقّ، وسيأتي ذكرها قريبًا.

فراغًا معرفيًّا وثقافيًّا ودينيًّا في أوساط الوثنيين، فوجدوا مستقرًّا لهم، وكان منهم كبار وسادة مشاهير من أمثال: حُيَي بن أَخْطَب، وهو من زعمائهم، وهو والد صفية بنت حُيَي رضي الله عنها، ومنهم السَّمَوْأَل بن عَادِيَاء.

فهذا أصل قصة مجيئهم إلى المدينة، وبعضهم أقام بخيبر، وبعضهم بتَيْماء[1].

أخرجهم الله تعالى من ديارهم ﴿تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، واللام هنا هي لام التوقيت، يعني: لوقت، أو في وقت، أو عند أول الحشر[2]، و﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ معناه: الجمع[3]، وليس المقصود: حشر القيامة- والله أعلم- وإنما أول الجمع[4].

وقال بعض المفسرين: أخرجهم لأول مرة؛ لأن بني النَّضِير لم يقع عليهم جلاء وإخراج قبل ذلك[5].

وقيل: أخرجهم من ديارهم لأول الحشر من المدينة، ثم عمر رضي الله عنه ثنَّى ذلك فأخرج بقيتهم من خيبر إلى الشام، فكان ذلك هو الحشر الثاني[6].

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 284- 285)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 139)، و«تاريخ ابن خلدون» (2/ 343)، و«تاريخ مكة المشرفة» (ص216)، و«التحرير والتنوير» (28/ 66).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 499)، و«تفسير الرازي» (29/ 501)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 137)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 277)، و«فتح القدير» (5/ 233)، و«روح المعاني» (14/ 234)، و«التحرير والتنوير» (28/ 68).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 283)، و«تفسير القرطبي» (18/ 2)، و«تفسير القاسمي» (9/ 183)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص237)، و«الكليات» للكَفَوي (ص413) «ح ش ر».

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 498)، و«أضواء البيان» (8/ 16)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 296)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 268)، و«تفسير القرطبي» (18/ 2)، و«الدر المنثور» (14/ 333)، و«روح المعاني» (14/ 234)، و«التحرير والتنوير» (28/ 69).

(6) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7379)، و«الكشاف» (4/ 499)، و«زاد المسير» (4/ 254)، و«تفسير القرطبي» (18/ 2)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 137).

وقيل: ﴿تَكُونُوٓاْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: لمنطقة الحشر، وهي بلاد الشام[1].

والقول الرابع في المسألة: أن ذلك أول الحشر، ويتلوه حشر آخر، وهو ما قبل القيامة، حيث النار التي تحشر الناس، وتبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالوا[2].

ولا مانع من إرادة هذه المعاني كلها: أن الله عز وجل أخرجهم وقد كانوا أعزَّة، وأخرجهم لأول مرة حيث لم يقع عليهم إخراج قبلها، وتتالى عليهم النفي بعد ذلك، حتى أخرجوا إلى بلد الشام.

بل يحتمل أن حشر اليهود سيكون في فلسطين التي هم يتجمعون إليها الآن، فإن خروج هؤلاء من جزيرة العرب هو مؤذن ببداية طويلة لتنادي اليهود من كل مكان إلى هذه المنطقة التي أذن الله لحكمة يعلمها أن يتجمعوا فيها؛ وهي فلسطين، فيكون معنى قوله سبحانه: ﴿تَكُونُوٓاْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: لبداية تنادي اليهود وتجمعهم وحشرهم، سواء كانوا مكرهين بسبب ما يقع عليهم من الاضطهاد الذي غالبًا ما يقع بسبب غدرهم ومكرهم وعدم وفائهم بالعهود، وهذا مناسب للسياق ويشهد له الواقع الذي نراه الآن في تنادي اليهود إلى فلسطين.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن يخرجوا؛ لأنهم متمكِّنون، والمسلمون أهل المدينة وُلدوا وهم يشاهدون اليهود في

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 425)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 365)، و«تفسير القرطبي» (18/ 2)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 59)، و«روح المعاني» (14/ 234).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 269)، و«تفسير الماوردي» (5/ 499)، و«تفسير البغوي» (8/ 69-70)، و«تفسير الرازي» (29/ 502)، و«تفسير القرطبي» (18/ 2- 3)، و«الإكليل في استنباط التنزيل» (ص258).

قصورهم وحصونهم، فكانوا يستبعدون أن يقع عليهم جلاء يستأصل وجودهم ويزيح شرَّهم عن عاصمة الإسلام الأولى[1].

﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ﴾: وهم أيضًا ما ظنوا أن يخرجوا، وظنوا أن حصونهم ستمنعهم، وهي قلاع مَنِيعة أُعدّت للحرب[2].

وفي التعبير شيء من السُّخرية بهم، وإلَّا فمَن الذي يستطيع أن يمتنع من ربِّه، كما قال كعبُ بن مالك رضي الله عنه[3]:

زَعَمَت سَخينَةُ أَن تُغالِبَ رَبَّها *** ولَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ

كانوا يمتنعون بأبراجهم العالية، ومبانيهم المشيدة، والتي لا تزال بعض آثارها باقية، ولا يقيمون وزنًا للأبعاد المعنوية والعقائدية، فحساباتهم مادية صِرفة، لا تهتم إلا باستعراض ما تملك من ترسانة الأسلحة والأدوات التي تعترض قذائف الخصم، كما يقع للصهاينة اليوم.

وكان لبني النَّضِير ستة حصون عالية معدَّة للحرب ومليئة بأنواع السلاح، وهي: حصن الكُتَيْبَة- مصغَّرًا- والوَطيح، والسُّلَالِم- بضم السين[4]- والنَّطَاة، والوَخْدَة، وحصن شَقَّ، بفتح الشين[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 499)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 425)، و«المحرر الوجيز» (5/ 284)، و«تفسير الرازي» (29/ 502)، و«تفسير القرطبي» (18/ 3).

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 70)، و«تفسير الرازي» (29/ 502)، و«فتح القدير» (5/ 233)، و«روح المعاني» (14/ 234)، و«التحرير والتنوير» (28/ 66).

(3) ينظر: «ديوان كعب بن مالك» (ص182)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 261)، و«طبقات فحول الشعراء» (1/ 222).

وقد نُسب إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه أيضًا، كما في «العقد الفريد» (6/ 146)، و«ربيع الأبرار» (2/ 466).

(4) وقيل: بفتحها، ويقال: السُّلاليم.

وهم بهذه الحصون وما تحتويه من عتاد وذخيرة ورجال يُعَدُّون قوة ضاربة في الجزيرة، وخاصة الحجاز لا تقارن بها قوة أخرى.

﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّ﴾ أي: هزمهم من حيث لم يكونوا يتوقعون، وكما أن الله يرزق المتقين من حيث لا يحتسبون، وينصر المؤمنين من حيث لا يحتسبون، فكذلك أَتَى بنيان هؤلاء القوم من حيث لم يحتسبوا، واستأصله من القواعد﴿□□□□□ □□□□□□□﴾ [النحل: 26][2].

ولم يقل سبحانه: «يحسبوا»، وإنما قال: ﴿ۗ﴾؛ لأن حساباتهم كانت قويَّة دقيقة، وكانت هذه الحسابات من أسباب هزيمتهم، وكانوا يستعدون لحرب شوارع في المدينة، ويعدُّون العدَّة لها[3]، فقَذَفَ الله في قلوبهم الرُّعب، وأتاهم من منطقة القلوب بالهزيمة التي لا ينفع معها السلاح النووي، ولا الصواريخ والطائرات.

ولما فتح المسلمون حصون بني النَّضِير وجدوا ثلاثمئة وأربعين سيفًا، وخمسين درعًا، وخمسين بَيْضة[4]، وألوانًا من السلاح، وسيف ابن أبي الحُقَيق الذي أعطاه النبيُّ

---

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (2/ 337)، و«سنن أبي داود» (3014)، و«الأحكام السلطانية» للماوردي (ص255)، و«الأحكام السلطانية» لأبي يعلى الفرَّاء (ص200)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (4/ 226)، و«معجم البلدان» (2/ 409)، و«تفسير القرطبي» (18/ 3)، و«البداية والنهاية» (6/ 297-298)، و«روح المعاني» (14/ 235)، و«التحرير والتنوير» (28/ 69).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 500)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 580)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 270)، و«الكشاف» (4/ 499)، و«تفسير الرازي» (29/ 502)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 59)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 565).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 275)، و«تفسير البغوي» (8/ 68)، و«تفسير القرطبي» (18/ 4)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 136)، والمصادر السابقة.

(4) أي: بيضة الحديد التي يُغطَّى بها الرأس في الحرب.

صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ رضي الله عنه[1]، كان عندهم ترسانة ضخمة بقياس ذلك العصر، لكنها لا تغني، وقد أراد الله هزيمتهم، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، وكأنك هنا أمام قذيفة؛ لأن المقام مقام حرب؛ ولذلك استخدم لفظ «القَذْف» الذي يدلُّ على السرعة والمباغتة والقوة وعلى الاجتياح، وأن «الرُّعْبَ» ليس في زاوية من قلوبهم؛ بل هو مستولٍ عليها عن آخرها.

و«الرُّعب» أشدُّ «الخوف» الذي يصبح معه الإنسان غير قادر على أن يُفكِّر التفكير الصحيح المتروِّي، وإنما جُلُّ همه أن ينجو بنفسه[2].

وفي هذا مصداق ما أخبر به صلى الله عليه وسلم أنه نُصر بالرُّعْبِ مسيرة شهر[3]، فما بالك بمسيرة بضعة أميال عن المدينة، وكما قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [آل عمران: 151].

﴿□□□﴾: قُرئ: ﴿□﴾، و﴿يُخَرِّبُونَ﴾[4].

---

(1) ينظر: «مغازي الواقدي» (1/ 377- 379)، و«زاد المسير» (4/ 253)، و«تفسير القرطبي» (18/ 11)، و«عيون الأثر» (2/ 73- 74)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 382- قسم السيرة)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 136)، و«زاد المعاد» (3/ 117)، و«سبل الهدى والرشاد» (4/ 324- 325)، و«روح المعاني» (14/ 233)، و«التحرير والتنوير» (28/ 80).

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص356)، و«تاج العروس» (2/ 504) «ر ع ب»، و«التحرير والتنوير» (28/ 71).

(3) كما جاء من حديث جابر رضي الله عنه. ينظر: «صحيح البخاري» (335، 438)، و«صحيح مسلم» (521).

(4) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 143)، و«تفسير الطبري» (22/ 502- 503)، و«السبعة في القراءات» (ص632)، و«معاني القراءات» للأزهري (3/ 63)، و«حجة القراءات» (ص705)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص209)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 386)، و«معجم القراءات» (9/ 386- 387).

وقد جرت هذه الجملة القرآنية على ألسنة الناس مجرى المثل؛ فكثيرًا ما يستخدمه الناس في مناسبات شتى: «فلان يُخرب بيته بيده»، وهذا من إعجاز الله تعالى في فعله، وإعجاز الله في قرآنه، فهذه القصور الضخمة التي شيَّدُوها والبيوت التي سكنوها أصبحوا يخربونها.

وهنا سؤال: لماذا يخربونها بأيديهم؟

في الجواب عن هذا عدة وجوه:

1- من باب الحسد للمسلمين أن يستولوا عليها بعدهم، فكانوا يخربونها حسدًا.

2- ليكون أسرع لهم للهرب، فإذا حوصروا نقضوا البيت وخرجوا إلى البيت الذي خلفه، وهكذا.

3- من أجل أن يأخذوا منها ما يسدون به بعض الطرق؛ لأنهم كانوا يستعدون لحرب شوارع.

4- إن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد أمرهم بأن يُجلوا من المدينة، وأذن لهم أن يأخذوا حمل بعير، إلا السلاح؛ ولذلك صار الواحد منهم يهدم الجدار ليأخذ أنفس ما فيه، وهذا مردُّه إلى الحكمة وحسن التدبير حيث انقلبت قوة العدو قوة عليه[1].

﴿ ﴾: فيُخربون بيوتهم بأيديهم؛ لأنهم السبب في كل ما جرى من نقض العهد والميثاق والغدر، وكونهم أخربوها بأيدي المؤمنين؛ أن المؤمنين أيضًا كانوا يساهمون في إخراب بعض هذه البيوت، من أجل ما تقتضيه مصلحة الحرب[2].

﴿ ﴾ أي: البصائر والعقول[1]، انظروا لما جرى، وخذوا منه العبرة، و«السَّعيد مَن وُعظ بغيره»[2]، ولا شك أن في هذا عبرةً للمؤمنين ليسلكوا طريقة النبي

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 269)، و«تفسير البغوي» (8/ 70)، و«زاد المسير» (4/ 254-255)، و«تفسير الرازي» (29/ 503)، و«تفسير القرطبي» (18/ 4- 5).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 425)، و«تفسير السمعاني» (5/ 397)، والمصادر السابقة.

صلى الله عليه وسلم في الصدق والوفاء بالعهد والميثاق، والحذر واليقظة وحسن التدبير والصبر والتوكل على الله تعالى وألَّا يعتمدوا على قوتهم، فكثيرًا ما يُؤتى القوم من جهة الهزيمة النفسية، وإذا وقع الرُّعب فلن ينفع معه سلاح، و«المنهزم لا يلوي على شيء»[3]. أي: لا يلتفت إلى شيء.

وفيه عبرة لصاحب المال أن لا يغتر بماله مهما كثر، وكم من أزمة اقتصادية ضربت العالم أو بلدًا من البلدان الغنية، وكان ضحاياها البنوك والمؤسسات الكبرى والأثرياء الذين يعدون على رأس قوائم تجار العالم!

وفيه عبرة لصاحب العلم والدين؛ فإن هؤلاء القوم من أهل الكتاب ومع ذلك لما أعرضوا ما نفعهم علمهم.

وقد أخذ كثير من الأصوليين من الآية دليلًا وحجة للقياس في إثبات الأحكام الشرعية، أي: قياس النظير على نظيره إذا توفرت العلة[4].

وهو استنباط صحيح، على أن الاعتبار أوسع من ذلك، والآية لم تكن في سياق حكم فرعي تفصيلي؛ بل دعت إلى الاعتبار السنني المآلي في النظر إلى عواقب الأمور، واستنباط سنن التمكين وسنن الزوال والانهيار والاعتبار بها؛ لئلا يؤتى القوم من مأمنهم، أو يخطئوا في حساباتهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 503)، و«زاد المسير» (4/ 255)، و«تفسير الرازي» (29/ 504)، و«تفسير القرطبي» (18/ 5)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 40).

(2) أخرجه مسلم (2645) من قول ابن مسعود رضي الله عنه. ورُوي مرفوعًا.

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (1/ 526)، (3/ 20)، و«البحر المحيط في التفسير» (3/ 385)، (5/ 395)، و«تفسير القاسمي» (5/ 369).

(4) ينظر: «تقويم الأدلة في أصول الفقه» (ص263)، و«المحصول» للرازي (5/ 26)، و«روضة الناظر» (2/ 168)، و«شرح تنقيح الفصول» (ص385).

❁ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

«الجلاء» يختلف عن «الخروج»، **فالجلاء** هو: خروج جماعة من الناس بالقوة والإكراه من مكان معين، يخرجون بنسائهم وأطفالهم، ويسمى: جلاء، وإجلاء[1].

وإنما أَجْلَى الرسول صلى الله عليه وسلم بني النَّضِير لغدرهم وتآمرهم[2]، وكان في هذا التصرف غاية الحكمة حفاظًا على دماء المسلمين؛ لأنه لو كانت بينه وبينهم حرب لأصاب المسلمين بعض الضرر والقتل، والنبي صلى الله عليه وسلم شحيح بأرواحهم، وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا أشد الحرص على تجنُّبِ القتال؛ لأن القتال كره، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ﴾ [البقرة: 216]، وكان يقول: «**أيها الناسُ، لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ العدوِّ، وسَلُوا اللهَ العافيةَ**»[3]. فأعفاهم النبي صلى الله عليه وسلم من القتل، وأمرهم بالجلاء، مع أن الجلاء لن يستأصل شرَّهم، ولن يقطع مكرهم، ولسوف يتآمرون مرة أخرى، وهذا معلوم، لكن هكذا كان مقتضى الحكمة، ولذا قال سبحانه في «سورة الأحزاب»: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 501)، و«زاد المسير» (4/ 255)، و«تفسير القرطبي» (18/ 5-6)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 139)، و«روح المعاني» (14/ 236).

(2) وذلك حينما حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم حين ذهب إليهم يستعينهم في دية العامريَّيْن اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري. ينظر: «سيرة ابن هشام» (2/ 190)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (3/ 354).

(3) أخرجه البخاري (2966)، ومسلم (1742) من حديث ابن أبي أَوْفَى رضي الله عنهما، وينظر ما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم □﴾.

والمعنى: لولا أن الله قدَّر عليهم الجلاء لعذَّبهم بعذاب آخر غير الجلاء؛ مثلما عذَّب غيرَهم بالقتل أو بأي عقوبات أخرى[1].

﴿﴾ أي: في الحالين لهم في الآخرة عذاب النار إذا لم يتوبوا[2]، فهذا الذي أصابهم هو يسير بالنسبة لعذاب الآخرة.

* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾:

إشارة إلى آثار البلاد وقد هُدمت ودخلها الفاتحون الجُدد، وسبب ذلك كونهم جعلوا أنفسهم في شِقٍّ غير شِقِّ الله ورسوله فهزموا، ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، فهذا بعض عقابه تعالى لهم، وأعاد المضاف دون ذكر «الرسول»؛ لأن الأصل مشاقة الله، ومشاقة الرسول من توابع ذلك، فهي وإن كان فيها طيٌّ لذكر الرسول، إلا أن فيها تعظيمًا له من حيث المعنى[3].

* ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾:

هذه قصة وقعت في هوامش الحرب، فقد كان لليهود مزارع خارج الحصون يسمونها: البُويرة، ولا زالت معروفة، والمكان الذي هم فيه يسمى: الزُّهرة، وحين حاصرهم المسلمون خلت مزارعهم من حراستهم، فأحرق بعضَها بعضُ المسلمين،

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 505)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 270)، و«تفسير القرطبي» (18/ 5)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 60)، و«التحرير والتنوير» (28/ 73).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 500)، و«تفسير الرازي» (29/ 504)، و«تفسير النسفي» (3/ 456)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 568)، و«روح المعاني» (14/ 236).

(3) ينظر: «فتح القدير» (5/ 234)، و«روح المعاني» (14/ 237)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 41)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 853)، و«التحرير والتنوير» (28/ 75).

فصاروا يقولون: يا محمد، أنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال إحراق النخيل؟![1].

ولم يذكر الله التحريق، ولم يقل: «ما أحرقتم»، وإنما قال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، مما يدل على أن الإحراق كان محدودًا؛ ولهذا قال علماء السير: إن الذي أُحرق إنما هو نخلة واحدة، وقال بعضهم: أربع نخلات، وأكثر ما قيل: ست نخلات[2].

ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن المسلمين إنما أحرقوا تلك النخلة؛ لضرورة الحرب وتهيئة الميدان للدفاع والمواجهة والمنازلة[3].

ويظهر أن واقعة الإحراق ثابتة، ويدل لذلك قول حسان بن ثابت رضي الله عنه[4]:

وهانَ على سَراةِ بَني لُؤَيٍّ *** حَريقٌ بالبُوَيرَةِ مُستَطيرُ

البُويرة هذه منازلهم[5]، **وسَراة بني لُؤي**: زعماء قريش الذين تعاهدوا مع هؤلاء اليهود، يقول: هان عليهم لم ينصروا هؤلاء الناس كما وعدوا[6].

---

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (2/ 191)، و«تفسير الطبري» (22/ 510)، و«السيرة النبوية» لابن حبان (1/ 236)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (3/ 355)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 136)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 61)، و«الدر المنثور» (14/ 338- 339)، و«روح المعاني» (14/ 232)، و«التحرير والتنوير» (28/ 63، 66).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 501)، و«تفسير القرطبي» (18/ 6)، و«تاريخ الخميس» (1/ 461)، و«فتح القدير» (5/ 234)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 42)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 505)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 572)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 283)، و«التحرير والتنوير» (28/ 75).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (2326، 4032)، و«صحيح مسلم» (1746)، و«ديوان حسان بن ثابت» (ص118).

(5) ينظر: «معجم البلدان» (1/ 512).

(6) ينظر: «فتح الباري» (7/ 333).

وقوله: حريق بالبُويرة مستطير: لا يدل على أنه حريق كبير، ولكن من المعلوم أن من طبيعة جذوع النخل كثافة الدخان عند اشتعالها، فيتوهم الرائي أن ثَمَّ حريقًا واسعًا، وإذا اقترب وجد الأمر أهون من ذلك.

ثم رد عليه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب يقول[1]:

أدامَ اللهُ ذلك من صَنِيع *** وحرَّق في نواحيها السَّعيرُ

فكان أبو سفيان يريد الشماتة بأن ينتشر الحريق في المدينة كلها، وفي «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قطع وحرَّق في بني النَّضِير[2].

والأقرب- والله أعلم- أن التحريق كان للنخل المقطوع، أي: قطعوها ثم حرَّقوها.

والتحريق هنا قد يكون لإثارة الرُّعب في قلوب اليهود، وهو جزء من الحرب، وقد يكون للحاجة؛ ليستدفئوا بها أو يطبخوا أو نحو ذلك من المصالح المباحة، ولم يرد أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أمرهم بذلك أو نهاهم عنه، وإنما نزلت الآية الكريمة التي تحتمل الوجهين[3].

واللِّيْنَة: النخلة، وأصلها: لِوْنة[4].

وبعضهم يقول: إن اللِّينة هي: النخلة، إلا البَرْني، أو العجوة[1].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (4032)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (3/ 356)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (3/ 150).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4031، 4884)، و«صحيح مسلم» (1746).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 75).

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 144)، و«تفسير الرازي» (29/ 505)، و«فتح القدير» (5/ 234)، و«لسان العرب» (13/ 393)، و«تاج العروس» (36/ 131) «ل و ن».

وذكر الطبري أن كل نخلة هي لينة، وتُجمع على: ألوان؛ لأن أصلها: لِوْنة[2].

ولا زال الفلاحون عندنا يسمُّون ثمر النخل قبل أن يصير تمرًا: لونًا.

ومعنى الآية: ما قطعتم من نخلةٍ لحاجة أو تركتموها فلم تقطعوها ولم تحرقوها، فهو بقدر الله[3]، وهكذا عبَّر بلفظ الجمع: ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾؛ إشارة إلى أن معظم النخيل لم يُقطع؛ لأنه سيكون للمسلمين، وسمَّى الله تعالى النخلة بالشجرة في قوله: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾ [إبراهيم: 24]، فالشجرة الطيبة هي: النخلة، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في «الصحيحين»[4]؛ ولهذا ورد وصف النَّخل بأنها: «الرَّاسِخَات في الوَحْل»، يعني: في الطين، «المُطْعِمَات في المَحْلِ»[5]، أي: في المجاعة.

فما قطعتم من لينة، أو تركتموها قائمة على أصولها فلم تقطعوها ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فيكون هذا إذنًا قدريًّا كونيًّا علم بعدما وقعت الواقعة أنه كائن بقضاء الله وقدره، أي: أن الله تعالى أذن به، كقوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ [التغابن: 11].

وبعضهم قال: هو إذن شرعي، بمعنى: أن الله تعالى أذن لهم بذلك وأباحه باعتباره من الاجتهاد المتعلِّق بملاحظة المصلحة لتسهيل حركة المقاتلين أو تدفئتهم أو إرعاب العدو وتيئيسهم من العودة إلى ما كانوا عليه[6].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (6/ 147)، و«تفسير السمعاني» (5/ 398)، و«زاد المسير» (4/ 256)، و«تفسير القرطبي» (18/ 9)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 61)، و«التحرير والتنوير» (28/ 76- 77).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 509- 510).

(3) ينظر: «حاشية الشهاب على البيضاوي» (8/ 176)، و«روح المعاني» (14/ 237).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (4698)، و«صحيح مسلم» (2811).

(5) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾.

(6) ينظر: «التفسير الوسيط» (10/ 1352- مجمع البحوث الإسلامية).

والأقرب أنه كان مسكوتًا عنه، وهم فعلوه لمصلحة الحرب، وليس لغرض آخر.

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: إشارة إلى أن تلك الشائعة التي أُذيعت وضُخِّمت وبُولِغ فيها، فيها خزي للفاسقين.

والمقصود هنا: اليهود الذين خرجوا عن طاعة الله وخرجوا عن العقد والعهد والميثاق، فسُمُّوا: فاسقين[1]، وكان أعظم سرٍّ في ذلك هو الغَدْر، ففيه دعوة المؤمنين أن يرعوا العهد والميثاق وألَّا يغدروا، كما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده يوصون قادة الجيوش بتجنب ذلك[2]؛ لأن الغدر والبغي مرتع مبتغيه وخيم.

وكما قال الشاعر[3]:

قضى اللهُ أن البَغْيَ يصرعُ أهله *** وأن على الباغي تدورُ الدَّوائرُ

وفي الحديث الصحيح: «**ما من ذنبٍ أَجدرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ تعالى لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يدَّخرُ له في الآخرة، مِثْلُ البَغْي وَقَطِيعَة الرَّحم**»[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 276)، و«تفسير الطبري» (22/ 512)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 272)، و«تفسير القرطبي» (18/ 10)، و«فتح القدير» (5/ 234)، و«التحرير والتنوير» (28/ 78).

(2) كما في حديث بُريدة رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه، وفيه: «**ولا تغدِروا**». أخرجه مسلم (1731).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يغدر، كما في حديث أبي سفيان رضي الله عنه مع هرقل، وفيه: «فهل يغدر؟ قلتُ: لا». أخرجه البخاري (7)، ومسلم (1773).

وعدَّ الغدر من صفات المنافقين، كما في «صحيح البخاري» (34، 2227، 2459)، و«صحيح مسلم» (58). وينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 632)، و«تاريخ الطبري» (3/ 226- 227)، و«الرحيق المختوم» (ص406).

(3) ينظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (31/ 366)، و«صبح الأعشى» (13/ 348).

(4) أخرجه الطيالسي (921)، وأحمد (20374)، والبخاري في «الأدب المفرد» (29)، وأبو داود (4902)، والترمذي (2511)، وابن ماجه (4211)، وابن أبي الدنيا في «ذم البغي» (1)، والخرائطي في

* ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من بني النَّضِير[1]، والسياق في حكم الغنيمة والفيء.

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾: **الإيجاف** هو: الإسراع والإيضاع[2]، **والمعنى**: ما أسرعتم إليه[3]، **والرِّكاب** هي: الإبل[4]؛ ولذلك لا يسمى: راكبًا إلا إذا كان على الإبل، أما إذا كان على الخيل فإنه يسمى: فارسًا[5]. وذلك لأن المحل المقصود قريب، والمسلمون لم يحتاجوا إلى قتال ولا حرب، وإنما كانت إرهاصات وحصارات: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾، فالأمر من عند الله، وهو الذي سلَّطَ رسوله صلى الله عليه وسلم على هؤلاء اليهود ونُصر بالرُّعب، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وهذا من قدرته عز وجل مما لم تظنوا أنتم ولا ظنوا هم أن يقع.

«مساوئ الأخلاق» (266)، وابن حبان (455، 456)، والحاكم (2/ 356)، (4/ 162) من حديث أبي بَكْرة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (918).

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 278)، و«تفسير الطبري» (22/ 512)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 427)، و«تفسير القرطبي» (18/ 10)، و«فتح القدير» (5/ 235)، و«التحرير والتنوير» (28/ 78).

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص460)، و«تفسير الماوردي» (5/ 503)، و«تذكرة الأريب» (ص396)، و«التحرير والتنوير» (28/ 79)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» (ص320)، و«تفسير الجلالين» (ص730)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (19/ 420).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 512)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (7/ 14) «ر ك ب»، و«تفسير السمعاني» (5/ 399)، و«تفسير الرازي» (29/ 506)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 65)، و«التحرير والتنوير» (28/ 79).

(5) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 506)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 573)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 227)، و«روح البيان» (9/ 425).

وكان المسلمون قد سألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عما تركه اليهود من أرض ونخل، هل يُقسم كما تقسم الغنيمة؟ فأنزل الله هذه الآية ليُبيّن أن حكمه مختلف، وأنه ليس للمقاتلين، كما في غنائم الحروب(1).

* ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي: سواء بني النَّضِير أو غيرهم، مثل فَدَك وخيبر وما بعدها؛ لأن هذه القرى تساقطت تباعًا في قبضة المسلمين(2).

والعادة أن هذا يحدث مع أهل القرى، أما أهل البوادي فإنهم في الغالب لا يقع منهم الفيء؛ لأنهم إذا حوصروا في مكان انتقلوا إلى غيره لسهولة الحركة وخِفَّتها، بخلاف أهل القرى فإنهم مضطرون إلى المكث في المكان ذاته والدفاع عنه أو تسليمه.

ثم بيَّن سبحانه قسمته، فقال: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، وكل شيء هو لله سبحانه؛ لكن المقصود: أن الأمر والحكم فيه لله وللرسول صلى الله عليه وسلم(3)، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُنفق منه على أهله وأزواجه نفقة سنة، ويجعل ما بقي عُدَّة في الكُراع(4)

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 506)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 509).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 278)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 427)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 376)، و«تفسير البغوي» (8/ 73)، و«تفسير القرطبي» (18/ 12)، و«التحرير والتنوير» (28/ 82).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 13)، و«فتح القدير» (5/ 236)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 46).

(4) أي: الخيل.

والسلاح[1]، ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾: وهم بنو هاشم وبنو المطَّلب الذين حُرموا الزكاة من أقارب النبي صلى الله عليه وسلم[2]، ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: الذين لا يوجد لهم أموال ولا عائل[3]، ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾: ويدخل فيهم الفقراء[4]، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: من الذين انقطعت بهم السُّبُل، ولا يجدون ما يصلون به إلى بلادهم[5].

ثم علَّل ذلك التقسيم بقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾، و«**الدُّوَلَة**» بضم الدال، أي: لئلا يكون متداولًا محتكرًا بين الأغنياء فحسب[6]، ومثلها الأموال الضائعة الضائعة التي ليست لأحد، **والرِّكَاز**: الذي يعثر الناس عليه مدفونًا، والمعادن التي ليس

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (2904)، و«صحيح مسلم» (1757) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كانت أموال بني النَّضِير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا رِكاب، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، فكان ينفقُ على أهله نفقةَ سنة، وما بقي يجعله في الكُراع والسلاح، عُدَّةً في سبيل الله».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 520)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 272)، و«تفسير الرازي» (29/ 507)، و«فتح القدير» (5/ 236)، و«كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص253- 257).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 520)، والمصادر السابقة، وما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿هاأَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا﴾.

(4) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 19)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 520)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص395) «س ب ل»، و«روح البيان» (9/ 427)، و«التفسير المظهري» (9/ 238)، والمصادر السابقة.

(6) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 520)، و«المحرر الوجيز» (5/ 286)، و«تفسير الرازي» (29/ 507)، و«تفسير القرطبي» (18/ 16)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 67)، و«التحرير والتنوير» (28/ 85- 86).

لها مالك خاص، وهي ملك لله ولرسوله وللمؤمنين يعطون منها بحسب بلائهم وبحسب سابقتهم، كما رُوي ذلك عن عمر رضي الله عنه[1].

وهذا كله المقصود منه تقارب الطبقات؛ لئلا يزداد الغني غنى والفقير فقرًا، ويكون المجتمع منشطرًا إلى فئة تملك كل شيء، وفئة لا تملك شيئًا.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾: **يجوز أن يكون المعنى**: وما آتاكم من المال أو من الفيء فخذوه، ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ حتى ولو كان قضيبًا من أَراك[2]؛ ولهذا سماه: غُلولًا، كما في قوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ [آل عمران: 161].

أو يكون معنى الآية أوسع من ذلك: فما آتاكم الرسول من الأمر والنهي والحكم والتشريع، فعلى المسلمين أن يأخذوه[3].

ولهذا يستدل العلماء بالآية على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى أن السُّنَّة تشريع يجب العمل به؛ ولهذا استدل بها الصحابة والتابعون والأئمة على كثير من الأحكام التي وردت مجملة في القرآن أو لم ترد أصلًا؛ كتحريم كل ذي نابٍ من السِّباع، وكل ذي مِخْلَب من الطير، وإلحاق الرَّضاعة في أحكامها بالنَّسب، فيحرم منها ما يحرم منه.

---

(1) ينظر: «شرح الطيبي على مشكاة المصابيح» (9/ 2800)، و«الإعلام بفوائد عمدة الأحكام» (6/ 373).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 522)، و«الكشاف» (4/ 503)، و«تفسير الرازي» (29/ 507)، و«تفسير القرطبي» (18/ 17)، و«فتح القدير» (5/ 236).

(3) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (10/ 141)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 67)، و«التحرير والتنوير» (28/ 87)، والمصادر السابقة.

وورد أن ابن مسعود رضي الله عنه رأى رجلًا محرمًا وعليه ثيابه، فقال له: انزع عنك هذا! فقال الرجلُ: أتقرأ عليَّ بهذا آية من كتاب الله؟ قال: نعم ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[1].

ومثله: لَعْنَ الواصلةَ والمستوصلةَ والواشمةَ والمستوشمةَ[2].

والشافعي استدل بهذا في أشياء كثيرة مما لم يرد في القرآن؛ ولكن ورد فيه نص من السنة النبوية[3].

ويدخل في ذلك ما يتعلق بقسمة الفيء.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، وأكَّد على شدة عقاب الله لَمن خالف تقواه وتجرَّأ على عصيان رسوله صلى الله عليه وسلم، وفيه إشارة إلى أن المال فتنة، فليحذر المسلم من أكله من غير حِلِّه.

---

(1) أخرجه الثعلبي في «تفسيره» (9/ 277)، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (248).

وأخرجه الآجري في «الشريعة» (100)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (1/ 249) (82)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (2338) عن عبد الرحمن بن يزيد. وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 440).

(2) كما في «صحيح البخاري» (4886)، و«صحيح مسلم» (2125) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن اللهُ الواشمات والمستوشِمات والمتنمِّصات والمتفلِّجات للحُسن المغَيِّرات خلقَ الله». فبلغ ذلك امرأةً من بني أَسَد يُقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني عنك أنك لعنتَ كَيْت وكَيْت! فقال: وما لي ألعنُ مَن لعنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ومَن هو في كتاب الله! فقالت: لقد قرأتُ ما بين اللَّوحين، فما وجدتُ فيه ما تقولُ! قال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه! أما قرأتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾؟ قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه، قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه. قال: فاذهبي فانظري. فذهبت فنظرت، فلم تر من حاجتها شيئًا، فقال: لو كانت كذلك ما جامعتها. يعني: في البيت.

(3) ينظر: «الأم» (7/ 314)، و«سنن البيهقي» (5/ 347)، و«الشافي في شرح مسند الشافعي» (3/ 395)، والمصادر السابقة.

* ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾:

أي: من مصارف الفيء هؤلاء الفقراء المهاجرون[1]، وفقرهم بسبب خروجهم طاعة لله ولرسوله، وإلا فهم أغنياء في بلادهم.

وهم بهذا الاعتبار يُشبهون أبناء السبيل؛ لكن الله تعالى خصَّهم وأثنى عليهم، فهم الذين استحقوا النصر، وأن تقاتل معهم الملائكة، وأن ينصرهم الله بالرُّعب؛ ولهذا جعل الله محبة هؤلاء الصِّدِّيْقين والثناء عليهم وذكرهم الحسن سيماء لَمن رضي عنهم وأرضاهم واختارهم من عباده، فلا يحبهم إلا مؤمن ولا يُبغضهم إلا منافق، لا سيما بعد أن أثنى الله تعالى عليهم في كتابه وأشاد بهم هذه الإشادة العظيمة، وأثنى على صبرهم على ما أصابهم من الفَاقة بسبب الهجرة في سبيل الله، وقد كان لهم ديار وأموال في مكة، لكنهم فضَّلوا عليها الإسلام، وآثروا الله تعالى ورسوله وطاعته على الدنيا فأُخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

والتعبير بالفعل المضارع دليل على أن إخراجهم وإن كان فعل عدوهم، إلا أنه كان باستطاعتهم تلافيه لو أرادوا التفريط في دينهم، ولكن ابتغاءهم فضل الله ورضوانه عرَّضهم لتلك الحرب التي أخرجتهم من ديارهم وأموالهم مع حبهم لها إيثارًا لحبِّ الله ورسوله.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فهم جيل استثنائي يُثني عليهم الله سبحانه، وهو الذي يعلم بواطنهم وظواهرهم بهذا الثناء المستفيض المطوَّل المفصَّل.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 522)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 428)، و«زاد المسير» (4/ 258)، و«تفسير القرطبي» (18/ 19)، و«الدر المنثور» (14/ 367).

وهذه آية ينبغي أن نقف عندها ونستلهم منها حبَّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله تعالى اختارهم لصحبة نبيه، فهم جيل لن يأتي بعده مثله، ولذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، فأي مدح فوق ذلك؟!

ووصفهم بالصدق.. صدق القلوب، وصدق الألسنة، وصدق الأعمال، والله سبحانه أمرنا أن نكون معهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: 119].

ومن هنا كان إجماع الصحابة رضي الله عنهم حجَّة عند العلماء، كما ذكر ذلك ابن حزم وابن تيمية وغيرهما[1].

واختلفوا في إجماع مَن بعدهم، وإن كان الجمهور على اعتبار الإجماع[2]؛ لكن إجماع الصحابة رضي الله عنهم له ميزة وخصيصة عظيمة مع وضوحه وانضباطه وصلته القريبة بزمن التشريع ونزول الوحي وقرب عهدهم بالنبوة مما يقتضي قوة إدراكهم لمقاصد التشريع ومراميه، مع سلامتهم من الأهواء والمرادات المخالفة للحق.

* ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٩﴾:

بدأ الثناء على المهاجرين؛ لفضلهم وسابقتهم، ثم ثنَّى بالثناء على الأنصار؛ إما لأن لهم جزءًا من الفيء، وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة من الأنصار من الفيء، أعطاهم لفقرهم أو لسبب آخر، ولم يعط بقية الأنصار من باب تصحيح الوضع

---

(1) ينظر: «الإحكام» لابن حزم (4/ 147)، و«مجموع الفتاوى» (3/ 157)، و«معالم أصول الفقه» (ص158).

(2) ينظر: «روضة الناظر» (1/ 378)، و«الإبهاج في شرح المنهاج» (2/ 353)، والمصادر السابقة.

الاقتصادي في المدينة؛ لأن المهاجرين لم يكن عندهم شيء بسبب خروجهم من بلادهم، وأهل المدينة الأنصار كانوا أهل زَرْعٍ وضَرْع ولهم بيوت ومزارع، فكان المهاجرون في حاجة إلى أن تكون لهم أصول ثابتة يستعينون بها على معاشهم وحياتهم الاقتصادية، وكذلك لتحقيق: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ﴾، وهذا مقصد اقتصادي أخلاقي عظيم[1].

ومعنى ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ أي: كانت مباءة لهم، يبوؤون إليها، أي: يعودون إليها، و﴿ٱلدَّارَ﴾ هي: المدينة[2]؛ ولذلك صار من أسمائها: الدار.

وهل إيمان الأنصار قبل المهاجرين؟

كلا! ولكن المعنى- والله أعلم- أنهم جمعوا الثنتين معًا قبل غيرهم، يعني: هم اجتمع فيهم تبؤو دار الهجرة والإيمان معًا قبل المهاجرين، المهاجرون تبوؤوا الإيمان من قبل؛ لكن ما كان عندهم دار مستقرة، أما من اجتمع لهم الدار والإيمان معًا فكانوا هم الأنصار[3].

وهذا يوحي بأهمية الدار للإيمان، وكأن الإيمان يفتقر إلى دار تؤويه وتحفظ أهله، وإلا أصبح معنى فرديًّا غير متمكّن.

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 272)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 272)، و«تفسير البغوي» (8/ 72)، و«تفسير القرطبي» (18/ 11)، و«التحرير والتنوير» (28/ 80).

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 401)، و«تفسير الرازي» (29/ 508)، و«تفسير القرطبي» (18/ 20)، و«تفسير الخازن» (4/ 271)، و«التحرير والتنوير» (28/ 90).

(3) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 273)، و«تفسير السمعاني» (5/ 401)، و«تفسير القرطبي» (18/ 21)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 68).

ويحتمل الإشارة إلى أن الأنصار بدأ فيهم الإسلام قبل الهجرة، كما هو معروف، وبايعوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وأرسل إليهم مصعب بن عمير رضي الله عنه، ثم فشا الإسلام في بيوتهم.

وقد يكون ذلك على سبيل التسامح في العبارة، كما قال بعضهم[1]:

ورأيتِ زوجَكِ في الوَغَى *** متقلِّدًا سيفًا ورُمْحًا

والتقلُّد يكون لأحدهما.

ومثله قول الآخر[2]:

قالوا: اقتَرِح شيئًا نجد لك طَبخُهُ *** قُلتُ: اطبُخوا لي جُبَّةً وَقَميصا

أو يكون المعنى: أن الإيمان أصبح دارًا وسكنى لهم تسكن إليه قلوبهم كما تسكن أجسادهم إلى بلادهم[3].

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾: وما أعظم هذا الثناء الإلهي، فلم يصفهم بالرضا عن إخوانهم المهاجرين أن يشاركوهم في مدينتهم وممتلكاتهم؛ بل زادوا على ذلك محبتهم؛ ولهذا كان الإخاء بين المهاجرين والأنصار مضرب المثل لكل مؤمن صادق ولكل تآلف أو تحالف.

وما أجمل تمثُّل أبي بكر الصديق رضي الله عنه بقول الطُّفَيل الغَنَوي[1]، وهو يثني على الأنصار:

---

(1) ينظر: «شعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى» (ص32)، و«معاني القرآن» للفراء (1/ 121، 473)، (3/ 123)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص136)، و«الكامل في اللغة والأدب» (1/ 264).

(2) ينظر: «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» (ص265)، و«وفيات الأعيان» (1/ 455)، و«معاهد التنصيص» (2/ 252).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 508)، و«التحرير والتنوير» (28/ 90).

جزى الله عنا جعفرًا حين أَزْلَقَتْ *** بنا نعلُنا في الواطئين فزلَّت

أَبَوْا أن يملُّونا ولو أن أُمَّنا *** تُلاقي الذين يلقون منا لملّت

هم خلطونا بالنفوس وألجئُوا *** إلى حُجُرات أدفأت وأظلَّت

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: لا يجد الأنصار في صدورهم وَجْدًا ولا حسدًا ولا غِلًّا ولا ضيقًا مما أوتي أولئك المهاجرون[2]، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل غالب أموال بني النَّضِير للمهاجرين، فلم يقع هذا في نفوس الأنصار؛ بل إن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يُقطع للأنصار من البحرين- منطقة الأَحْساء- قالوا: لا، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها[3].

إنها حالة إنسانية راقية رائعة نادرة في البذل والاستعلاء على حظوظ النفوس والمطاولة في ذلك دون ملل ولا تذمر ولا ضجر، ولا استثقال، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: 35].

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: **والإيثار**: أن تجعل حظ الآخرين من الشيء قبل حظك[4]، والآية نزلت في الأنصار، وورد أنها نزلت في أبي طلحة رضي الله عنه خاصَّةً؛ لما جاء ضيف النبي صلى الله عليه وسلم فلم يكن عند أزواجه شيء،

---

(1) ينظر: «الأم» (1/ 189)، و«حلية الأولياء» (9/ 153)، و«معرفة السنن والآثار» (14/ 489)، وما سيأتي في «سورة المنافقون»: ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ ۝٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 525)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 428)، و«تفسير السمعاني» (5/ 401)، و«تفسير الرازي» (29/ 508)، و«تفسير القرطبي» (18/ 23)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 69).

(3) أخرجه البخاري (2376، 3794) من حديث أنس رضي الله عنه.

(4) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 26)، و«فتح القدير» (5/ 239)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 861).

فذهب مع أبي طلحة رضي الله عنه، فقال لامرأته: ضيفُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، لا تدَّخريه شيئًا. قالت: والله، ما عندي إِلَّا قُوتُ الصبية. قال: فإذا أراد الصبيةُ العَشاءَ فنَوِّميهم، وتعالَي فأَطْفئي السراجَ ونَطْوِي بطُوننا الليلةَ. ففعلت ثم غَدَا على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**لقد عَجِبَ اللهُ** عز وجل- أو: **ضحك- من فلان وفلانة**». فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل الآية[1].

فهذه مقامات النبل الأخلاقي، والاستعلاء على الحاجات الذاتية، والانحياز للصديق والرَّفيق والجار والشريك، أو الانحياز للفريق والمجموع ولو على حساب المصالح الفردية.

فهنا أثنى على الأنصار بالإيثار، وهو مقام أعظم مما مدح الله به قومًا آخرين بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8].

فإن هؤلاء يحبون المال والطعام، ويطعمونه غيرهم، أما الأنصار ففوق الحب هم يحتاجونه وبهم إليه فاقة ملحة وخصاصة، ومع هذا يقمعون دوافع الأَثَرة والأنانية ويقدِّمون غيرهم عليهم!

ولم يكن قصدهم أن يُثنى عليهم بهذا، كما كان عين الحال عند بعض العرب في الجاهلية، بل حبًّا في الله ورسوله وكَرَم أخلاقٍ جُبلوا عليها، ولذا قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فهم قد وقوا شُحَّ أنفسهم فوعدهم بالفلاح.

والفرق بين «الشُّحِّ» و«البُخْل» دقيق، وبعضهم قال: هما مترادفان[2].

---

(1) أخرجه البخاري (4889)، ومسلم (2054) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر: «الأسماء المبهمة» للخطيب (ص398- 400)، و«غوامض الأسماء المبهمة» لابن بشكوال (1/ 455- 457)، و«فتح الباري» (7/ 119)، (8/ 632).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 507)، و«تفسير القرطبي» (18/ 29)، و«الآداب الشرعية» (3/ 303).

وقيل: البخل: الامتناع من إخراج ما حصل عندك، **والشُّح**: الحرص على تحصيل ما ليس عندك.

وقيل: الشُّحَّ معنى نفسي، **والبخل** معنى عملي حِسِّي؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿**وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ**﴾ [النساء: 128][1]، فما من نفس إلا وفيها شُحٌّ؛ شُحٌّ بالنفس، وشُحٌّ بالمال، وشُحٌّ بكل ما تملكه النفس.

وأما **البخل**: فهو ما يظهر على الإنسان من المنع وعدم العطاء أو الحرص على المال، فيكون البخل أثرًا للشُّحِّ، وكأن الشُّحَّ سيئة القلب، والبخل سيئة اليد واللِّسان[2].

والأقرب أن الشُّحَّ أشد درجات البخل[3].

وبعد، فنحن نُشهد الله سبحانه على حُبِّ المهاجرين والأنصار الذين أَحَبَّ بعضهم بعضًا، وأَحَبُّوا ربهم، وأَحَبُّوا نبيهم صلى الله عليه وسلم، وشهد لهم الله تعالى في كتابه بخير المنازل، ونسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم ويجمعنا بهم في جنات النعيم، وهكذا نقول: إن كل مؤمن بالله ورسوله لا بد أن تكون هذه من أصول دينه وإيمانه؛ أن يُحِبَّ هذا الجيل الذي أَحَبَّه الله ورسوله، وألا يتكلم فيهم إلا بخير، فهم خيرة الله من عباده، وصفوة خلقه بعد النبيين، وثمرة التربية المحمدية العظيمة التي زكَّاها الوحي؛ لتكون منارة يهتدي بها السائرون على الطريق إلى يوم الدين.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 508)، و«تفسير الخازن» (4/ 271)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 410).

(2) ينظر: «معجم الفروق اللغوية» (ص295- 296)، و«تفسير القرطبي» (4/ 293)، و«سبل السلام» (2/ 658)، و«التحرير والتنوير» (28/ 94).

(3) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (4/ 262)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص295)، و«النهاية» (2/ 448)، و«تفسير القرطبي» (18/ 29)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 593)، و«الإتقان» (2/ 364).

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾:

قد يكون المقصود بالذين جاؤوا من بعدهم: الذين جاؤوا إلى المدينة من غير المهاجرين ومن غير الأنصار، كالقبائل التي تأخر إسلامها[1].

والجمهور من المفسرين على أن المقصود: الأجيال اللاحقة بعد عصر المهاجرين والأنصار[2]، فهؤلاء يحبون المهاجرين والأنصار، ويدعون لأنفسهم ولهم بهذا الدعاء الخاشع المتبتِّل، وبدؤوا بأنفسهم؛ لأن من السُّنَّة أن يبدأ الإنسان بنفسه قبل غيره في الدعاء، كما قال إبراهيم عليه السلام في دعوته: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم: 41]، وكما قال نوح عليه السلام: ﴿□□□□﴾ [نوح: 28].

فدعوا لَمِن سبقوهم بالإيمان بالمغفرة، وأول ما يشمل ذلك المهاجرين والأنصار، ووصفوهم بـ«الأخوة»، وأي شرفٍ ومجدٍ أعظم من أن يعقد الله لواء الأخوة- بغض النظر عن الجنس واللون والشكل- بين هؤلاء المؤمنين وبين كل مَن يحبهم ويثني عليهم إلى يوم القيامة، وشهدوا لهم بالإيمان وأثنوا عليهم بالسابقة؛ وهي سابقة زمانية وسابقة رتبية في الفضل، ولذا جاء في حديث عمران وابن مسعود وغيرهما رضي الله

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 507)، و«تفسير الرازي» (29/ 509)، و«تفسير النسفي» (3/ 459)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 361).

(2) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 370)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 275)، و«تفسير البغوي» (8/ 79)، و«تفسير الرازي» (29/ 509)، و«تفسير القرطبي» (18/ 31)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 72- 73)، و«التحرير والتنوير» (28/ 96).

عنهم: أن خير القرون قرن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم، ثم الذي يلونهم[1].

﴿شَيْـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠﴾: دعوا أَلَّا يجعل الله في قلوبهم حقدًا أو كراهية أو بغضًا للمؤمنين، سواءً كانوا سابقين أم لاحقين[2].

والغِلُّ يقع للسابق بسبب ما يرثه الإنسان من معتقد، أو بسبب قراءة تاريخية خاطئة أو منحازة، كما يقع للمعاصر بسبب الاختلاف والتنافس والتحزب وسوء الظن، وتحريش شياطين الإنس والجنِّ، وتغرير الإعلام الذي من شأنه قلب الحقائق وتوسيع الشُّقَّة وزرع العداوة بين الناس ليحفظ بذلك سيادته.

وفيه وجوب محبة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وقد ورد في ذلك نصوص كثيرة، وكتب فيه أهل العلم وأَلَّفوا، ولكن مما يستحق أن نشير إليه ونؤكده هنا أنه لا ينبغي لأحد من الناس أن ينال من أحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، حتى لو كان الصحابة اختلفوا فيما بينهم، فهم بشر يختلفون في أمر من أمور الدين وليسوا في منزلة واحدة؛ بل هم درجات عند الله، لكن لهم شرف الصحبة.

أما مَن جاؤوا بعدهم فهم بمنزلة دونهم، ولم ينالوا هذا الشرف؛ ولذلك ليس من حقك أن تتعصَّب أو تنحاز لهذا ضد هذا، أو تجعل من النيل والوقيعة دينًا يتدين به.

ولا شك أن الشتم والسَّبَّ ليس من قيم الدين ألبتة، فالله تعالى لا يُتعبَّد بالسَّبِّ، حتى إن الله نهى عن سَبِّ آلهة المشركين، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 108].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (2651، 2652، 3650، 3651، 6428)، و«صحيح مسلم» (2533 - 2535).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 591)، و«فتح القدير» (5/ 240)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 55).

وحتى سَبِّ الشيطان لم نُؤمر به، وإنما أُمرنا بالاستعاذة منه، وحتى سَبِّ فرعون وهامان وقارون وأبي جهل ليس فيه أجر وليس عبادة، ولا يزيد القلب إشراقًا، ولا يزيد النفس إيمانًا، ولا يزيد الحسنات، ولا يثقل الميزان.

بل إن اعتياد اللِّسان على لغة السَّبِّ والوقيعة يفضي إلى الازدراء والاحتقار وخشونة الخُلق؛ ولذلك لا يتديَّن الإنسان بِسَبِّ المنحرفين والضالين والإفراط في ذلك إلا بقدر ما يستدعيه بيان الحق مما يتعلق بالأحكام الشرعية أو الجرح والتعديل في المرويات؛ لتعلقها بحفظ السنة النبوية.

* ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾:

وهذا المقطع عجيب؛ فقد التفت فيه السياق إلى جماعة أخرى تعمل في الظلام عمل الهدم والتحريش، يرأسهم عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ، ومعه سبعة أو ثمانية من رؤوس النفاق كانت تخطِّط في المعركة؛ لكن دون جدوى: ﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ﴾، هم ليسوا إخوانًا في النَّسَب ولا في العروبة؛ لأن هؤلاء من بني إسرائيل وهؤلاء من العرب، وإنما الأخوة هنا أنهم كانوا حلفاء وإخوة لهم في الشَّر وفي حرب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكأنه بعدما ذكر الأخوة السابقة الصادقة بين المؤمنين حتى بين الجيل المتأخِّر والجيل المتقدِّم انتقل إلى الأخوة الباطلة الفاسدة، وبيَّن أن هؤلاء منافقون يبطنون الشرك والكفر، وأولئك يهود من أهل الكتاب، وإنما جمعهم وألَّفَ بينهم العداءُ لله ورسوله والمؤمنين.

وهكذا يقع في كل زمان ومكان حينما يستشعر المجرمون الخطر من قوة الإسلام وأهله، يلجؤون إلى عقد التحالف وينسون ما بينهم من العداء والتباعد في الملة والمذهب والمقصد!

وكان القول المذكور تهامسًا في مجالس خاصَّة عُقدت لمعالجة الموقف، فهم يقولون لهؤلاء الكافرين من أهل الكتاب من بني النَّضِير قبل المعركة: نحن منكم وأنتم منَّا، والمصير واحد، ولئن أُخرجتم من المدينة لنخرجن معكم. وأرادوا بهذا التحريض على المقاومة والتثبيت لهم.

﴿سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: لا نطيع فيكم محمدًا صلى الله عليه وسلم، ولا غيره[1]، فما بيننا وبينكم من العقود والمواثيق أعظم من أن نطيع فيكم أحدًا.

﴿وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، فإن صار الأمر إلى قتال فسوف نخوضه معكم[2]، وقال لهم عبد الله بن أُبيٍّ: إن عنده أكثر من ألفين مقاتل مدرَّبين مجهَّزين بأسلحتهم مستعدين لخوض المعركة[3]، فقال الله سبحانه: ﴿٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾، قال هذا في مقابل ما قال عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾، فهم كاذبون حتى في هذه الدعوى المادية.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 536)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 430)، و«الكشاف» (4/ 506)، و«تفسير القرطبي» (18/ 34)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 144)، و«التحرير والتنوير» (28/ 99).

(2) ينظر: «فتح القدير» (5/ 242- 243)، و«روح المعاني» (14/ 250)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «زاد المسير» (4/ 253)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 136)، و«روح المعاني» (14/ 233).

* ﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي﴾:

﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ﴾؛ لأن حُبَّ البلاد متأصِّل فيهم فلن يخرجوا، وليس لديهم عقيدة صادقة يُضَحُّون من أجلها، ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ﴾؛ بل سوف يتخلُّون عنهم، ﴿أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم﴾ على افتراض ذلك[1]، ﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾.

نفى سبحانه أن يكونوا صادقين في العزم على الخروج معهم من المدينة لو أُخرجوا منها، أو أن يكونوا مستعدِّين لمناصرتهم في المعركة لو وقعت، وقرَّر أنهم لو خاضوا المعركة سيُهزمون ويولُّون الأدبار، وخوضهم المعركة هو افتراض بعيد؛ إما على سبيل التنزُّل أو التهوين من شأنهم، أو أنه قد يوجد منهم مَن يفكِّر بخوض المعركة من أصحاب الهوج والحمق الذين لا يفكِّرون في عواقب الأمور.

* ﴿فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ﴾:

وهذا من الأسلوب المعجز في القرآن، ولو أردت التعبير عن هذه الحقيقة فلن تجد أبلغ ولا أدق وصفًا من هذا السياق؛ فأشخاصكم أصبحت مرهوبة عندهم وهم لا يُظهرون ذلك؛ بل يُكِنُّونه في صدورهم، وهم يَرْهَبُونكم أشد من رهبتهم من الله عز وجل، أما أنتم فيعلمون قوتكم وبأسكم وشجاعتكم ويرونها ماثلة أمامهم، وأما الله تعالى فإنهم لم يقدروه حق قدره؛ ولهذا لا يخافونه.

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 506)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 145)، و«روح المعاني» (14/ 251).

وقد قيل: «مَن كان بالله أعرفَ كان منه أخوفَ»[1]، ولذا قال هنا: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا﴾، **والفقه** هو: المعرفة القلبية الباطنة، ومعرفة الله هي من المعرفة الباطنة التي تلامس القلوب فتورث الخشية؛ ولو كان عندهم فقه لخافوا الله عز وجل وخافوا بطشه خوفًا لا يقارن به خوف أحد؛ إذ الملائكة المسبِّحة بحمده تخافه: ﴿سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [النحل: 50]، والأنبياء تخافه: ﴿▯▯▯▯﴾ [الأنبياء: 90]، فكيف بالعصاة من بني آدم؟ ولكن غياب الفقه عن قلوبهم جعلهم مشغولين بخوف البشر عن خوف الله، وبخوف العقاب العاجل عن الآجل.

والكلام يصدق على اليهود والمنافقين معًا؛ لأنه ليس أحد من الطرفين بأولى برجوع الضمير إليه من الآخر، فهذه صفة أنهم يخافون المؤمنين أكثر مما يخافون الله[2].

وهل هم يخافون الله؟ قد يوجد منهم مَن يعرف الله بعض المعرفة، واليهود أهل كتاب، والمنافقون وإن كانوا في غالب أصلهم وثنيين، إلا أنه قد يوجد عند بعضهم إيمان بوجود الله، لكن خوفهم منه ضعيف أو منعدم[3].

* ﴿عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ ▯▯▯▯▯▯﴾:

فليس لديهم استعداد أن يخوضوا معركة عسكرية فيها مواجهة جيش بجيش، والتاريخ بالاستقراء شاهد على هذا، فلا تجد في تاريخ اليهود مثل هذا، بخلاف

(1) ينظر: «تعظيم قدر الصلاة» (2/ 728)، و«الرسالة القشيرية» (2/ 479)، و«تاريخ دمشق» (71/ 224) منسوبًا إلى أحمد بن عاصم الأنْطاكي.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 536)، و«زاد المسير» (4/ 261)، و«تفسير الرازي» (29/ 510)، و«تفسير القرطبي» (18/ 35)، و«فتح القدير» (5/ 243)، و«تفسير القاسمي» (9/ 191)، و«التحرير والتنوير» (28/ 102).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 507)، والمصادر السابقة.

الصليبيين؛ فلهم معارك ضارية مع المسلمين، ثم جاء الاستثناء كأنه استئناف لكلام جديد، فهم بارعون في الكيد والمكر والقتال من وراء الجُدُر والأحابيل والحيل التي يتفننون بها في القتال؛ وكانوا يمتنعون بالحصون المَشِيدة في قراهم، أما المواجهة فهم لا يحسنونها ولا يتقنونها؛ لأن الرُّعْبَ يعصف بقلوبهم.

﴿تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا﴾: والقتال من وراء الجُدُرِ يعني قتالًا من غير مواجهة؛ بل هو رشق بالنبل أو القذائف أو القنابل بلا رحمة، كما يفعلون الآن في حروبهم ضد الشعب الفلسطيني الأعزل.

﴿قَدْ سَلَفَ إِنَّ﴾: **هذا الوصف يحتمل معنيين:**

1- أنهم إذا اجتمعوا قوَّى بعضهم بعضًا، فإذا جدَّ الجِدُّ وحزم الأمر غيروا ذلك ونقضوا ما أبرموا[1].

2- وهو أصح: أن خلافاتهم فيما بينهم شديدة[2]؛ ولهذا عقَّب سبحانه بقوله: ﴿ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾، فهم مختلفون ما بين قبائل وأحزاب وجماعات من الأشكناز والسفرديم والفلاشا وغيرها من مكونات المجتمع اليهودي، والأحزاب اليمينية واليسارية تتكايد فيما بينها حتى في حال الحرب يسعى بعضها لإسقاط بعض، على أنهم الآن في حالة التمكين بحبل من الله أو حبل من الناس، وربما لا تبدو هذه الاختلافات ظاهرة للعين، ولذا قال: ﴿ٱللَّهَ كَانَ﴾، فالناظر يظنهم أمة واحدة مجتمعة، والله يخبر أن قلوبهم شتى.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 510)، و«تفسير القرطبي» (18/ 36)، و«فتح القدير» (5/ 243)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 59).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 537)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 284)، و«تفسير السمعاني» (5/ 405)، و«تفسير القرطبي» (18/ 36)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 75)، و«التحرير والتنوير» (28/ 106).

﴿□□□□□﴾ :وصفهم في الآية السابقة بأنهم ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾؛ لأن معرفة الله فقه تحتاج إلى قلب واعٍ مؤمن بصير، ووصفهم هنا بأنهم ﴿□ □﴾؛ لأن العقل الرشيد يدرك أهمية الاجتماع وعدم التفرُّق، وأن الله تعالى لا ينصر القوم المختلفين حتى لو كانوا من المؤمنين[1]؛ ولهذا خاطب محمدًا صلى الله عليه وسلم وأصحابه بقوله: ﴿زَوۡجٍ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾ [الأنفال: 46]، وكان الناس يوصي بعضهم بعضًا بالاتفاق والاجتماع، كما قال الرجل الذي حضرته الوفاة لأولاده :[2]

كونوا جميعًا يا بَنيَّ إذا اعَتْرَى *** خَطْبٌ ولا تتفــرقـوا آحادَا

تَأْبَى الرِّماحُ إذا اجتمعن تكـسُّرًا *** وإذا افترقن تكسَّــرت أفرادَا

فالعقل الرشيد حتى من دون إيمان يوحي بأهمية الاجتماع، وأن تضم قوتك إلى قوة غيرك، فمَن كان دأبه إذكاء الاختلاف وتأجيجه والانشغال به لم يعد في طاقته جهد لمواجهة عدوه والتفرغ لحربه، وبهذا ترك العمل بمشورة العقل ونصيحته، فجُمع لهؤلاء بين غياب الفقه القلبي وغياب الفهم العقلي؛ إذ فقدوا تأثير القلوب، حتى صاروا يخافون الناس أكثر مما يخافون الله، وفقدوا تأثير العقول، حتى أصبحوا مختلفين فيما بينهم، فماذا بقي لهم إلا الأجساد؟!

وقد أمرنا الله بالاعتبار في قصة بني النَّضِير، وهذا من أعظم مواطن الاعتبار، أن يكون خوفنا من الله فوق خوفنا من كل أحد من الناس، وأن نُصِرَّ على التوحد وتنسيق الجهد مهما كانت الفروق والاختلافات بيننا.

---

(1) ينظر: «درة التنزيل» (1/ 1264- 1265)، و«أسرار التكرار في القرآن» (ص235)، و«فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» (ص558)، و«التحرير والتنوير» (28/ 107).

(2) نُسب إلى أَكثم بن صيفي، والطُّغْرائي.

وإن أكثر ما جنى به المسلمون على أنفسهم وسبَّب لهم الهزيمة والفشل وذهاب الريح هو التفرُّق والتنازع الذي عصف بهم طويلًا، ومثله التعصب للمذهب أو البلد أو القبيلة أو الحزب.

ومن المؤسف أن هذا سرى إلى بعض طلبة العلم والمثقفين والدُّعاة، فلم يعد التفكير: كيف نستطيع أن نوصل رسالتنا إلى العالم؟ ولا: كيف نستطيع أن نبني نهضة؟ ولا: كيف نستطيع أن نرسم القدوة الحسنة؟ بل أصبحت كثير من المشروعات والبرامج والانشغالات: كيف نسقط الآخر ونضعف قدرته؟ حتى مظهر الاجتماع الذي حكاه الله عن اليهود ليس مشاهدًا، فلا تحسبنا جميعًا، بل يدرك الناظر لأول وهلة أننا شيع وأمم وفرق تتهاجى، ويهدم بعضنا بنيان بعض، وصدق علينا قول محمد إقبال[1]:

كلُّ شعب قام يبني نهضةً *** وأرى بنيانكــــم منقســـمًا
في قيم الدهر كنتم أمةً *** لهفَ نفسـي كيف صرتم أُممًا؟

بل إنك تجد الدولة المسلمة الواحدة عبارة عن أقاليم وجماعات وأعراق وتيارات، وكلها مستعدة لأن تتشظَّى وتسعى للانفصال، فهذا مما حذَّرنا الله منه؛ حين نهانا أن نتشبه بأهل الكتاب والمشركين، وقال: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: 16].

والنهي عن التشبه بهم ليس محصورًا في المظاهر الشكلية، ولكن يعم الجوانب الأخلاقية والعملية والتربوية، وهي أمور ينبغي أن نتقي الله فيها ونتواصى بها حتى يأتي ذلك الجيل الذي يدرك أهمية أن يكون المؤمنون جماعة واحدة، وأن نركِّز على ما يستحق

(1) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (2/ 387).

الاجتماع عليه، كأصول التوحيد والإيمان وأصول العبادات والأخلاق بدلًا من التركيز الدائم على مسائل الاختلاف وأسبابه وتضخيمها، وجعلها سببًا للتنازع والفرقة.

❁ ﴿□□□□□□□□□□□□□□﴾:

والمقصود: قريش- والله أعلم- في هزيمتهم يوم بدر، أو بنو قُريظة الذين جرى لهم ما جرى بعد بدر[1].

والوبال هو: السوء، ومنه المرعى الوَبِيل، إذا كان مرعى سيئًا ومذمومًا، ﴿□□ □﴾ في الآخرة[2].

❁ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى﴾ [إبراهيم: 22].

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النَّضِير أن يخرجوا معهم لو أُخرجوا، هم في ذلك كمثل الشيطان إذ قال للإنسان: اكفر، فلما كفر تبرأ منه[3].

وادِّعاء الشيطان خوفه من الله هنا كذب؛ إلا أن يكون المقصود: خوفه من أن يأخذه الله عز وجل[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 284)، و«تفسير الماوردي» (5/ 509)، و«تفسير البغوي» (8/ 81)، و«زاد المسير» (4/ 261)، و«تفسير القرطبي» (18/ 36).

(2) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (4/ 265)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 430)، و«تفسير الرازي» (29/ 510)، و«تفسير القرطبي» (18/ 36)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 136)، و«التحرير والتنوير» (28/ 108).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 541)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 276)، و«تفسير الرازي» (29/ 511)، و«تفسير القرطبي» (18/ 37)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 75).

وقد ذكر بعض المفسرين قصة الرجل الذي يسمى: بَرْصِيصا، والذي زيَّن له الشيطان أن يزني بامرأة ثم حملت، فزين له أن يقتلها، فأمسكوا به، فجاء الشيطان وزيَّن له أن يسجد له لينقذه، فسجد له ثم تخلَّى عنه وقُتل.

وهذه القصة لا يصلح أن يفسَّر بها القرآن الكريم؛ لأنه ليس لها إسناد يعتد به، وهي من روايات بني إسرائيل[2].

وقد سمى الله سبحانه اليهود في علاقتهم بالمنافقين في أول «سورة البقرة» بالشياطين، كما في قوله: ﴿﴾، وذكر في «سورة الزخرف» الشيطان القرين[3]، فلا مانع إذًا من إرادة الشيطان الإنسي في هذا السياق، وأنه يغري الإنسان بالكفر ثم يتخلَّى عنه.

وفي الآية تعريض باليهود الذين يخافون البشر أشدَّ من خوفهم من الله، وهم بهذا أسوأ حتى من الشيطان الذي قد يتخلَّى عن حليفه خوفًا من الله.

وليس لفظ ﴿﴾ مقصورًا على إبليس الذي وعده الله بالإنظار إلى يوم الدين؛ بل هو عام لكل شياطين الجن والإنس[4].

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 290)، و«تفسير القرطبي» (18/ 42)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 147)، و«فتح القدير» (5/ 244).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 282)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 299- 300)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 148)، و«تفسير البغوي» (5/ 63)، و«المحرر الوجيز» (5/ 290)، و«زاد المسير» (4/ 261- 263)، و«تفسير القرطبي» (18/ 37)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 75- 76)، و«البداية والنهاية» (3/ 44)، و«التحرير والتنوير» (28/ 109).

(3) في قوله تعالى: ﴿سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾.

(4) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص454)، و«لسان العرب» (13/ 238)، و«تاج العروس» (35/ 278) «ش ط ن».

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ﴾:

المثل هنا واضح، فكما أن المنافقين أَغْرَوْا اليهود بالبقاء وانخذلوا عنهم، وكان مصيرهم سيئًا، فاليهود طُردوا والمنافقون خُذلوا؛ لأنهم كانوا يتعزَّزون باليهود، فلما طُرد اليهود ذهبت قوتهم- ومنهم عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ ومَن معه- ولم يعد لهم شأن، فكذلك الشيطان والإنسان، فالشيطان يغري الإنسان ويقول له: ﴿□﴾، وإذا كفر كان مصيرهما معًا هو النار، فهذا عذاب الدنيا، وذاك عذاب الآخرة[1].

* ﴿شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا﴾:

ختم الله تعالى السورة الكريمة بهذا النداء القوي المؤثِّر الذي هو تعقيب على مجمل الحوادث المذكورة؛ فيذكِّرهم بهذا الحبل المتين، وألَّا تلهيهم الانتصارات والمكاسب التي حقَّقوها عن معنى الإيمان الذي به عَزُّوا وتميَّزوا، وألَّا تحملهم المعارك وخصوماتها وتفاصيلها والانهماك فيها عن مراعاة التقوى، حتى مع العداوة والشنآن، **والتقوى** معنى عامٌ يقتضي فعل الأوامر وترك النواهي وتجنب الحرام[2].

والغد هو: ما بعد اليوم، مثلما أن الأمس هو ما قبله، وكما يقول زُهير[3]:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 545)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7407)، و«تفسير القرطبي» (18/ 42)، و«تفسير النسفي» (3/ 462)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 62).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة المرسلات»: ﴿□□□□□ □﴾، و«سورة النبأ»: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ فَلَا﴾.

(3) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلْمى» (ص110).

وأَعلَمُ عِلمَ اليَومِ والأَمسِ قَبلَهُ *** ولَكِنَّني عَن عِلمِ ما في غَدٍ عَمِ

والمقصود بالغد: يوم القيامة؛ إشارة إلى قربه[1].

ثم كرَّر الأمر بالتقوى، ويحتمل أن يكون الأمر الثاني مختلفًا عن الأول، فأمرهم بتقوى الله بفعل الطاعات؛ ولهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني: من الطاعات وأعمال الخير، ثم كرَّر وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى ترك المنهيات والمحرمات[2].

* ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾:

وفي هذا إشارة إلى اليهود الذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم، فأصبح في تدبيرهم من الخرق وسوء التقدير وفساد الحساب ما هو ظاهر للعيان، فلا تكونوا مثلهم واعتبروا بحالهم[3].

ومن المعاني هنا: أنهم انشغلوا بالأشياء عن أنفسهم؛ فكثير ممن نَسُوا الله تعالى تجدهم مشغولين بتجارة أو وظيفة أو شهرة أو متعة تلهيهم حتى عن حاجات نفوسهم[4].

وأنت تجد هذا بشكل أوسع في الأمم والشعوب التي نسيت الله تعالى وانشغلت بمادياتها وحياتها العاجلة، وشاعت فيها نظريات الإلحاد والكفر بالله والجراءة على ذاته

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 284)، و«تفسير الطبري» (22/ 546)، و«تفسير الرازي» (29/ 511)، و«تفسير القرطبي» (18/ 43)، و«الدر المنثور» (14/ 395).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 508)، و«تفسير الرازي» (29/ 511)، و«تفسير النسفي» (3/ 462)، و«تفسير الخازن» (4/ 276)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 607).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 457)، والمصادر الآتية.

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 511)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 278)، و«تفسير السمعاني» (5/ 407)، و«تفسير القرطبي» (18/ 43)، و«تفسير القاسمي» (9/ 194).

العلية وحدوده وشرائعه باسم الحرية، بينما لا تسمح تلك الحرية بالمساس برموز تاريخية أو وطنية وتعاقب مَن يشكِّك أو ينفي الهولوكوست (المحرقة النازية)!

ثم تدرَّج بها الحال إلى أن تكفر بالإنسان ذاته ولا تُقيم له وزنًا، وتُشكِّك في حقيقته وأهميته وأصله وعقله، فهم نَسُوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم، كفروا بالله فآل الأمر إلى أن يكفروا بالإنسان.

ومن هذا أنهم لما نسوا الله جعل الله الأشياء التي يمتلكونها وبالًا عليهم، وضرُّوا بها أنفسهم وأضلُّوا بها غيرهم وأضروهم:

فالعلم تحوَّل إلى أداة لتحصيل الأسلحة التي من شأنها تدمير الحياة البشرية على وجه الأرض، حينما انفلت من عقاله، ولم يكن باسم الله سبحانه.

والعبث في الجينات البشرية وعمليات الاستنساخ واللعب بالأجنة التي تحوَّلت إلى مزارع، ليس لخدمة الإنسان، أو للقضاء على بعض الأمراض أو معالجتها، فهذا مطلب مشروع، ولكن لأنه لم يكن باسم الله فقد انفلت من عقال الأخلاق والمصلحة الإنسانية العامة، وأصبح ضررًا ووبالًا على الإنسان.

ونحن اليوم نتكلم عن المدنية والحضارة والتسهيلات في المواصلات والاتصالات والإعلام والخدمات الطبية، لكن مَن الذي يستطيع أن يقول: إن الرفاهية والسعادة التي يشعر بها الإنسان اليوم أفضل مما كان عليه الإنسان قبل مئتين أو ثلاثمئة سنة؟

ومَن يقول: إن البشرية نجت من غوائل العدوانية والعنصرية والسعي لتكريس الأنانية الفردية لثري أو زعيم، أو الأنانية الجماعية لجنس أو لون أو شعب على حساب الآخرين؟

* ﴿كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ﴾:

فالناس صنفان، لا ثالث لهما، وهما متباينان كليًّا، وفي التعبير إشارة إلى عمق المسافة بينهما؛ ولهذا لم يقل: «أصحاب الجنة أفضل»، وإنما قال: ﴿عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾، أما أصحاب النار فلا فوز لهم بوجه من الوجوه.

* ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى﴾:

المعنى: لو خاطبنا الجبل بالقرآن بعد أن أصبح مؤهَّلًا ومهيَّئًا للخطاب بقدرة الله سبحانه، مع أنه حجر صلد، لخشع وتصدَّع من خوف الله[1].

والمتصدِّع هو: المتشقِّق[2]، ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾، فهذا مثل ضربه الله لعباده، **والمثل** هو: القول المأثور والحكمة التي يتناقلها الناس[3]، وضرب الأمثال بمعنى: أنها تُسَكّ سكًّا وتُتخذ اتخاذًا، كما يستخدم في ضرب العملة الرائجة بين الناس، فيتعاطونها ويتناقلونها.

﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ أي: يتدبرون معانيها ويُعملون فيها عقولهم[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 548- 549)، و«تفسير البغوي» (8/ 87)، و«تفسير القرطبي» (18/ 44)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 78)، و«التحرير والتنوير» (28/ 116).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 150)، و«زاد المسير» (4/ 264)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «زهر الأكم في الأمثال والحكم» (1/ 20).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 550)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 432)، و«التحرير والتنوير» (28/ 117).

وهذه دعوة إلى الفكر والتفكر، وتدبر آيات الله الشرعية؛ لأن كل أحد من الناس لو قرأ القرآن بوعي وإقبال لأثمرت القراءة هدايةً لقلبه وصفاءً لروحه، وهذا من التيسير؛ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: 17].

ومن العوام مَن يدرك من معاني القرآن ودلالاته وقصصه وأخباره ما تدمع له عينه ويخشع له فؤاده، وإن فاتته المعاني التي تحتاج إلى مراجعة أو فهم أو قراءة في كتب التفسير، وفي القرآن قدر كبير واضح تعرفه العرب من لغاتها، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]، وهي دعوة إلى التفكر في آيات الله الكونية في السماوات والأرض والجبال التي تسبِّح الله عز وجل.

ويشبه هذا ما جاء في «سورة البقرة»: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾، وقد نزلت الآيات على المؤمنين وهم بعد انتصار فرحوا به، فكأنها تدعوهم إلى أن يتواضعوا لله عز وجل، ويعرفوا أن الأمر كله لله، وأن النصر من عند الله، وأنه ليس لهم منه شيء إلا أن الله تعالى استعملهم وسخَّرهم فيه، والله يسلط رسله على مَن يشاء.

وفيه توبيخٌ لليهود؛ فإنهم يوصفون بقسوة القلوب، وغلظ الأكباد، والغفلة عن المعاني؛ ولهذا حذَّرنا ربنا عز وجل أن يكون مصيرنا كمصيرهم في قسوة القلوب، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: 16]. وعاتبهم في «سورة

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (1/ 27)، و«تفسير عبد الرزاق» (1/ 253)، و«تفسير الطبري» (1/ 70)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (1/ 276)، و«التفسير البسيط» للواحدي (5/ 58)، و«تفسير الرازي» (7/ 147)، و«البحر المحيط في التفسير» (3/ 28)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 14).

البقرة»- كما سبق- بأن قلوبهم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها، وهذا يعزِّز مناسبة الآية لقصة بني النَّضِير وملحقاتها.

* ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾:

ختم الله تعالى السورة بآيات في تمجيده، وذكر طائفة من أسمائه الحسنى تناسب المقام، وتسعى لإحياء القلوب، ولله تعالى تسعةٌ وتسعونَ اسمًا، مئةٌ إِلَّا واحدًا، مَن أحصاهَا دَخَلَ الجنةَ[1].

وليس المقصود حصر الأسماء، فإن الله تعالى لا يحيط بأسمائه إلا هو؛ ولهذا كان في دعائه صلى الله عليه وسلم- كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه-: «**أسألُكَ بكلِّ اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسك، أو علَّمتهُ أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك**»[2].

ويوم القيامة يسجد صلى الله عليه وسلم تحت العرش، فيُلهمه الله تعالى أسماء ومحامد يحمده بها، لم يكن يعلمها من قبل[3].

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (2736، 6410، 7392)، و«صحيح مسلم» (2677) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه أحمد (3712، 4318)، وأبو يعلى (5297)، وابن حبان (972)، والحاكم (1/ 509)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (7، 8). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (199)، وما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم فَلَا﴾، وأول «سورة الإخلاص».

(3) كما في «صحيح البخاري» (4712)، و«صحيح مسلم» (194) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قوله صلى الله عليه وسلم: «**فأقعُ ساجدًا لربي، ثم يفتحُ اللهُ عليَّ ويلهمُني من محامده، وحُسْن الثناء عليه شيئًا لم يفْتَحْه لأحد قبلي**».

والمعنى: أن من أسماء الله الحسنى تسع وتسعين اسمًا، من صفتها وخصيصتها أن «**مَن أَحْصَاها دخلَ الجنةَ**».

والإحصاء يكون بحفظها، ولهذا يحسن أن يكون عند المؤمن كتاب موثوق يجمعها أو لوحة تحصيها، وأن يحفظها ويُحفِّظها لأطفاله، وأن يتعلَّم معانيها، فهي ليست رموزًا ولا ألغازًا، وإنما أسماء معروفة المعنى، وأن يدعو الله تعالى ويناديه بها: يا غفور، اغفر لي، يا رحيم، ارحمني، وأن يحاول أن يقتدي بمعاني تلك الأسماء، فيتعلم؛ لأن الله عليم يحب العلماء، ورحيم يرحم من عباده الرحماء، ويغفر للناس حتى يغفر الله له، يعفو لَمَن أخطأ عليه أو ظلمه؛ لأن الله عفو يحب العفو، ويتوب؛ لأن الله يحب التوابين، وهو التواب الرحيم[1].

* ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن﴾:

﴿دَخَلْتُم﴾ ضمير الشأن، إشارة إلى تعظيمه جل وعزَّ، ثم ذكر اسمه العظيم؛ بل قيل: هو الاسم الأعظم: ﴿بِهِنَّ﴾[2].

وفي «صحيح البخاري» (7510)، و«صحيح مسلم» (193) من حديث أنس رضي الله عنه، قوله صلى الله عليه وسلم: «**فأقومُ بين يديه، فأحمَدُه بمحامدَ لا أقدرُ عليه**- وفي رواية: **لا تحضرني- الآن، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ**». وينظر ما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم فَلَا﴾.

(1) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (17/ 5)، و«فتح الباري» (11/ 226)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص39).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 555)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (2/ 585)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص23)، و«تفسير القرطبي» (18/ 49)، و«روح البيان» (9/ 454)، و«التحرير والتنوير» (28/ 118)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص43- 53)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

وقيل: الاسم الأعظم مجموعة في قولك: «الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ، المنانُ، بديعُ السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام»، كما عند أحمد، وأهل «السنن»[1].

والله هو الذي تألهه القلوب وتحنُّ إليه، فكل مَن عرف الله حنَّ إليه وأحبه وتمنَّى لقاءه ورؤيته، ومَن أكرمه الله بالرؤية ذهل عن كل نعيم سواها، ﴿قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا﴾ [القيامة: 22- 23]، فلا نعيم أعظم من رؤيته جل وعزَّ وسماع كلامه، وذكره تعالى واللَّهج بأسمائه يمنح القلب تعلقًا وحنينًا حتى يشتاق العبد للحظات الخشوع والاستحضار ويحزن لفقدها ويحاول استعادتها، حتى تصبح سرور قلبه ونعيم عيشه وبهجة حياته.

وهو الذي تأله العقول وتتحيَّر فيه؛ لأنه لا يعلم ذاته وأسماءه وصفاته إلا هو.

فيك يا أعجوبةَ الكَوْ *** نِ غدا الفِكْرُ كليلَا

كلما أَقْدَمَ فكري *** فيك شبرًا فرَّ ميلَا

---

(1) أخرج أحمد (22965)، وأبو داود (1493)، والترمذي (3475)، وابن ماجه (3857)، وابن حبان (892)، والحاكم (1/ 504)، وغيرهم، من حديث بُرَيْدَة بن الحُصيب رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم سمع رجلًا يدعو، وهو يقول: اللهمَّ إني أسألك بأني أشهدُ أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ. فقال صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده، لقد سألَ اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى**».

وسنده جيد، بل هو أصحُّ ما ورد في باب الاسم الأعظم.

وأخرج أحمد (12150، 13081)، وأبو داود (1495)، والترمذي (3544)، والنسائي (1300)، وابن ماجه (3858)، وابن حبان (893)، والحاكم (1/ 503- 504)، وغيرهم من حديث أنس رضي الله عنه، أن رجلًا دعا، وقال: اللهمَّ إني أسألك بأن لك الحمدُ، لا إله إلا أنت، المنَّان، يا بديعَ السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيومُ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده، لقد دعا اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى**». وما قبله أصح.

وثَمَّةَ أحاديث أخرى في هذا الباب. وينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص44- 45).

ناكصًا يخبط في عَمْـ *** ـياءَ لا يُهْدَى السبيلَا[1]

ومن معانيها: المألوه المعبود الذي لا يُعبد بحق سواه[2].

﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾: ﴿عَلَيْكُمْ﴾: ما غاب عن إحساس الناس وإدراكهم، فلم يعلموه ولا عاينوه، ﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾: الموجود الحاضر المدرَك مما علموا وشاهدوا.

وقيل: ﴿٢٣﴾: الآخرة، ﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾: الدنيا.

فكل ذلك في علمه سبحانه[3].

﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾: واستفتح بهذه الآية الكريمة؛ إشارة إلى أن أسماءه الحسنى سبحانه كلها أسماء تتَّصف بالحُسن؛ بل هي أحسن الأسماء، فأسماؤه كلها حسنة، فيها الخير، والبر، والجُود، والكرم، والعطاء، والفضل، والرحمة، **نحو**: الله، الرحمن، الرحيم، البَر، الجواد، الكريم، التوَّاب، الغفور، الحليم، الشَّكور، الكريم.

لكن ليس في أسماء الله سبحانه: المنتقم، أو: المعذِّب، أو: الآخذ، أو: شديد العقاب.. على القول الصحيح[4]، أو: أليم العذاب، ولكنه صفة لبعض فعله؛ ولهذا قال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، فهنا ذكر المغفرة والرحمة وبدأ بها

---

(1) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿□□□□□□□□□□□﴾.

(2) ينظر: «مع الله» (ص50- 52)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 512)، و«الكشاف» (4/ 509)، و«تفسير الرازي» (29/ 512)، و«تفسير القرطبي» (18/ 45)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 202)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 610)، و«فتح القدير» (5/ 246).

(4) ينظر: «مجموع الفتاوى» (8/ 96)، و«معارج القبول» (1/ 117- 118)، و«الصفات الإلهية» (ص348)، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ﴾ [النجم: 32].

وخاطب بها عباده تقرُّبًا وتحبُّبًا، ثم لم يقل: «وأني المعذِّب، أو: الباطش، أو: الآخذ».
وإنما قال: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠ ﴾ [الحجر: 49- 50]، فوصف عذابه بأنه أليم.

ولذلك ذكر الغزالي وابن تيمية وابن القيم وسواهم ممن كتبوا في أسماء الله تعالى وصفاته: أن أسماء الله تعالى الحسنى تدور على أسماء الخير والبر والرحمة والجود[1]؛ وبذلك يتعرف الله تعالى إلى عباده؛ لأن الناس ينساقون إلى الطاعة بالرحمة والعفو والمغفرة والرغبة أكثر مما ينساقون بالوعيد، مع أن أهل السنة يقررون المعاني الثلاثة؛ وهي الحبُّ والخوف والرجاء، والحبُّ بالاتفاق أفضل المعاني التي يتعبَّد بها الناس لربهم، ويأتي بعده الخوف والرجاء، وهما متساويان، كما قال الإمام أحمد: «ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا»[2]. أي: متساويين.

وبعضهم يرجِّح جانب الخوف عند الهمِّ بالمعصية، ويرجِّح جانب الرجاء عند فعل الطاعة، ويرجِّح جانب الرجاء عند الاحتضار، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لا يموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسنُ الظنَّ بالله** عز وجل»[3].

كل هذه المعاني متآلفة متناسقة، لا يقضي بعضها على بعض، ولا يهدم بعضها بعضًا؛ ولهذا قال سبحانه عن الرسل والأنبياء عليهم السلام: ﴿□□□□□□□□□□□□□ □﴾ [الأنبياء: 90]، وقال: ﴿أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٢٣□□□□□□□□□﴾

---

(1) ينظر: «منهاج السنة النبوية» (5/ 282)، و«بدائع الفوائد» (1/ 171)، و«حادي الأرواح» (ص264)، و«أسماء الله وصفاته» لعمر الأشقر (ص61)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص15- 18).

(2) ينظر: «الإقناع» (1/ 211)، و«كشاف القناع» (2/ 80).

(3) أخرجه مسلم (2877) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

[الأعراف: 56]، فجمع بين الخوف والرجاء والحب، ولكن الحب بمنزلة الرأس للطائر، والخوف والرجاء بمنزلة الجناحين[1]، والرأس أهم وألزم لبقاء الحياة من الأجنحة.

* ﴿تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾□□□□□□□:

﴿تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾: تكرر هذا المطلع في بدايات الآيات؛ لتوكيد قيمة الألوهية التي ترسم صلة العبد بربه، وتقرِّر الوحدانية لله وأنه المعبود بلا شريك، وهذا هو المقصد الأَسْمى من سرد الأسماء؛ بل هو المقصد الأعظم للكتب والرسالات السماوية.

﴿ۗ﴾: لا مُلك إلا له، ولم يحدث في عصر من العصور أن وُجد من البشر من ملك الدنيا كلها شرقًا وغربها؛ حتى الملوك المشهورين، والأباطرة، والفراعنة، وغيرهم من أمثال بُخْتَنَصَّر، وذي القَرْنين، والإسكندر المَقْدوني، وهُولاكو، وجِنْكيزخان، وغيرهم ملكوا رُقعة من الأرض وزاحمهم غيرهم ونافسهم.

ولو فرض أن مَلِكًا مَلك الدنيا كلها، فهو يملكها اليوم، لكنه لم يملكها أمس ولن يملكها غدًا.

ولو فُرض أنه طال ملكه فهو إلى زوال، ولو دامت لك ما وصلت لغيرك، ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك، وهذا كله ملك طارئ يتعلق بالتدبير، لكن ملك الله سبحانه ملك أصلي؛ لأنه هو الذي خلقها وأوجدها من العدم، فهي تدين له في كل

---

(1) ينظر: «قوت القلوب» (1/ 359- 361)، و«شعب الإيمان» (2/ 328)، و«الرسالة القشيرية» (1/ 260)، و«إحياء علوم الدين» (4/ 142)، و«المحرر الوجيز» (2/ 411)، و«تفسير القرطبي» (7/ 227)، و«مجموع الفتاوى» (10/ 81، 207)، و«مدارج السالكين» (1/ 513)، (2/ 37)، و«فتاوى السبكي» (2/ 555)، وما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا﴾، و«سورة البروج»: ﴿بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا □﴾.

ذرة من ذراتها؛ وملكه سبحانه لكل شيء في السماء والأرض، والبر والبحر، والإنسان والحيوان، والدنيا والآخرة، والأملاك والأفلاك، ويوم القيامة يتجلَّى الأمر وينكشف، فيقول سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ ثم يجيب جلَّ وعزَّ: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن﴾ [غافر: 16][1].

﴿إِنَّ﴾: ففي ذلك تنزيه لله سبحانه وتعالى عما يعتري الملوك عادةً من صفات النقص، فإن بعض الملوك يقع له العُجب، ويقع منه الظلم ويتكبَّر على مرؤوسيه، ويقع في الشهوات، ويداخله العُجب، وتصيبه الآفات، ويعتريه النقص والعجز، أما الله سبحانه فهو المقدَّس الكامل المنزَّه عن النقائص والعيوب[2].

﴿ٱللَّهَ﴾: يعني: السالم من كل آفة، فلا يعتريه نقص ولا عيب، ولا خطأ ولا زلل ولا نسيان، وهو الذي يُسلِّم عباده ويرزقهم، ولذا كان السلام تحية الإسلام، وملكه لعباده سلام وخير وبر ورحمة وجود.

ولذا كان في الدعاء الذي علَّمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم

---

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (9/ 2930)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص30)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص43)، و«شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (2/ 247)، (7/ 136)، و«تفسير الرازي» (27/ 500)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 116).

(2) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص30)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص214)، و«مع الله» (ص71).

﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم﴾ [آل عمران: 26]، فملكه خير وفضل وبركة[1].

﴿كَانَ﴾: فهو يُؤمِّن عباده، أي: يمنحهم الأمن، فالأمن في الدنيا من عطائه وفضله، وهو مطلب ومقصد، فالأمن على النفس والمال والولد هو من الله، وهو نعمة من عنده، وكثير من الملوك ينشرون الخوف في رعاياهم لأجل الهيبة والانكفاف، أما الله فهو يُؤمِّن عباده، ويخص المؤمنين السالمين من الظلم بالأمن التام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: 82]، وهو يُؤمِّن عباده بما جعل في الكون من الأسرار والحكم والنواميس بتوفير الهواء والماء والطعام والشراب والثروات في باطن الأرض والخيرات، وهو يُؤمِّن عباده من الظلم والجَوْر، ويُؤمِّن عباده يوم القيامة أَلَّا يقع عليهم حَيْف[2].

﴿غَفُورًا﴾: الشاهد الذي لا يغيب، والرَّقيب الذي لا يغفل، والملوك وإن كانوا يجتهدون في معرفة أحوال رعاياهم إلا أنه يخفى عنهم الكثير مما تخفيه صدور الناس أو ما يدبرونه في الخفاء، أما الله عز وجل فهو مطَّلعٌ على أحوال عباده وأسرارهم وأقوالهم وذوات صدورهم وخططهم ونواياهم وظاهرهم وباطنهم[3].

---

(1) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص30)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص215)، و«مع الله» (ص75– 78).

(2) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص31)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص221)، و«مع الله» (ص80).

(3) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص32)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص227)، و«مع الله» (ص81).

﴿رَّحِيمًا﴾: وهذا أيضًا من توابع الملك، فله تعالى العزَّة الذاتية التامة الدائمة، وهو يمنحها لِمَن يشاء، كما منحها محمدًا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه حين نصرهم على المشركين واليهود والمنافقين[1].

وكثير من ملوك الدنيا وسلاطينها، وإن كان لهم قوة وعزة ظاهرة، إلا أن نوعًا من الذُّل يغشاهم ممن هو أعلى منهم وأقوى فيخافون منه، بل حتى مَن دونهم يخافون من تمردهم وخروجهم عن طاعتهم، فيراعونهم ويخادعونهم، أما الله عز وجل فهو العزيز من كل وجه؛ لأنه الغنيُّ عن خلقه والخلق كلهم مفتقرون إليه.

﴿٢٣﴾: الذي يَجْبر كسر المنكسرين، ويَجْبر مصابهم، ويزيل ما بهم، ويعوِّضهم ويمنحهم الرضا والصبر.

و﴿٢٣﴾ الذي يُجبر عباده على ما يشاء؛ فإنه لا يقع في الكون شيء إلا بإذنه ولا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه[2].

﴿□□﴾: والكبر من سيماء الملوك، ولكنه يُعَدُّ عيبًا؛ لأنهم يأخذون فيه ما ليس لهم ويتظاهرون بعظمة لا يستحقونها، فيورث ذلك ازدراءً منهم لِمَن تحت أيديهم؛ ولهذا قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «**الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، مَن نازعني واحدًا منهما ألقيتُهُ في جهنمَ**»[3]. فالكبرياء لله سبحانه وحده.

---

(1) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص33)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص237)، و«مع الله» (ص83).

(2) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص34)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص240)، و«مع الله» (ص85- 86).

(3) أخرجه الطيالسي (2509)، وأحمد (7382، 9508، 9703)، وأبو داود (4090)، وابن ماجه (4174)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (550)، وابن حبان (328، 5671)، والحاكم (1/ 61) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن معاني ﴿□□﴾: الكبير الذي لا أكبر منه عز وجل[1]؛ ولهذا يستفتح المصلِّي صلاته بـ«الله أكبر»، والمؤذِّن يستفتح أذانه بـ«الله أكبر» فهو أكبر من كل شيء وهو الكبير المتعال، وله الكبرياء في السماوات والأرض والدنيا والآخرة بالوجه الذي يليق بجلاله وعظمته، فإن كبرياءه سبحانه تليق به.

وليس الكبر الذي اتصف به سبحانه هو الذي عند الناس حين يداخلهم التِّيه والغرور، مع ما فيهم من صفات النقص والضعف الأصلي والطارئ، وإنما الله تعالى له صفة الكمال والعظمة والمجد الذاتي.

﴿□□□□﴾: تأكيدٌ لهذه المعاني كلها؛ فإن لله تعالى من هذه الأسماء أجمل المعاني، فمن حسن ظنك بالله وحسن معرفتك به أن تعلم أن له الكمال والجلال والجمال من كل شيء، فمُلكه كامل مقدَّس ليس كمُلك البشر، وكبرياؤه عظمة بحق وكمال، وعزته تامة لا يشوبها ذل، وقدرته لا يعتريها نقص..

والتسبيح معناه: التقديس والتنزيه[2]؛ ولهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والرُّوح**»[3]. فهو السُّبُوح القدُّوس،

وأخرجه ابن ماجه (4175)، وابن حبان (5672)، والضياء (10/ 272- 274) (284- 287) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (541).

وفي «صحيح مسلم» (2620) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعًا: «**العزُّ إزاره، والكبرياءُ رداؤه، فمَن يُنازعني عذَّبتُه**».

(1) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص35)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص241)، و«مع الله» (ص87).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 503)، و«مقاييس اللغة» (3/ 125)، و«تفسير القشيري» (3/ 530)، و«تفسير القرطبي» (18/ 244)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (1/ 126)، و«التحرير والتنوير» (11/ 102)، وما تقدم في أول السورة.

(3) أخرجه مسلم (487) من حديث عائشة رضي الله عنها.

المسبَّح المقدَّس المنزه عن كل ما يخطر ببال الناس من الخيالات والأوهام والظنون، وعن كل ما يقوله الضالون والمكذِّبون والمشركون.

* ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿□□□□﴾: ثلاثة أسماء، **قيل**: هي مترادفة[1].

والصحيح أنها ليست مترادفة؛ ولكن بينها عمومًا وخصوصًا، فالخلق أعم، ثم البَرْء وهو ظهور المخلوقات إلى الواقع وإلى العيان، **والتصوير** هو: حصول المخلوقات على صورها؛ هذا إنسان، وهذا حيوان، وهذا طويل، وهذا قصير، وهذا أبيض، وهذا أحمر[2].

وقد يكون المعنى- كما أشار إليه أبو حامد الغزالي وغيره[3]-: أن السياق يشمل ثلاث مراحل: المرحلة الأولى: الخلق، وهي التقدير، أي: أن الإرادة الإلهية قبل حصول الأشياء وكتابة الأشياء، فهذا يعتبر خلقًا، مثل قول الشاعر[4]:

ولأَنت تَفْرِي ما خلقتَ وبعـ *** ـضُ القوم يخْلُقُ ثم لا يَفْرِي

أي: يعد ولا يفي، فيكون معنى الخلق: تقدير الأشياء قبل حصولها، فإن الله تعالى قدَّرها قبل أن تحصل وأراد أن تحصل في مواقيتها المعلومة، فهذا معنى الخلق والتقدير.

ثم مرحلة البَرْء، ومنه البَرَيَّة، وهم الناس[1]، وكل الأشياء بُرئت وخُلقت، كما قال علي رضي الله عنه: «والذي فَلَقَ الحبةَ وَبَرأَ النَّسَمةَ»[2]. أي: أوجد، فـ﴿□﴾: الموجد الذي خلق الأشياء التي نراها في العيان.

---

(1) ينظر: «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» (2/ 33)، و«فتح الباري» (13/ 391)، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (2/ 891- 893)، و«التحرير والتنوير» (28/ 124).

(2) ينظر: «مع الله» (ص95- 97)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «المقصد الأسنى» (ص75)، و«مرقاة المفاتيح» (4/ 1567).

(4) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلمى» (ص56).

ثم ﴿□□﴾: الذي أعطاها صورها وميَّز بعضها عن بعض[3].

وفي هذه الأسماء الثلاثة معجزة الخلق والإبداع من العدم، وفيها الحكمة البالغة، وفيها الرحمة العظيمة التي بها تتراحم الناس والدواب والطيور، وفيها الجمال الباهر الذي جمال المخلوقات من جماله.

﴿□□□□□□□□□□﴾: ختم بالتسبيح لله عز وجل، وأعاد الاسمين اللذين بدأ بهما أول السورة: ﴿□□﴾؛ إشارة إلى ربط هذه الأسماء بمجريات الواقع والأحوال، وأن أسماء الله الحسنى ليست مجرد أسماء يتبرَّك بها في الصباح والمساء- وإن كان هذا مطلوبًا مشروعًا- ولكنها عقيدة تصبغ حس المرء حينما يشاهد ما يقع في الكون من آيات وحوادث، فيلحظ آثار الأسماء الحسنى في جملها وتفصيلاتها.. في نفسه، وفي الآخرين، وفي الحوادث؛ الصغيرة والكبيرة، السياسية والعسكرية، والاقتصادية والاجتماعية، والعلمية المعرفية.. فإذا آمن العبد بالله وأحصى أسماءه واستحضر معانيها وهو يمضي في حياته ويتأمل ما حوله، لم تطش موازينه ولم تضطرب رؤيته، وقرأ العلم والقدرة والرحمة والحكمة والعزة والصبر وسائر الأسماء والصفات الجليلة في كل ما يرى ويسمع، فسبحانك الله وبحمدك، لا إله إلا أنت، ولا ربَّ سواك.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 125).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (3047، 6915)، و«صحيح مسلم» (78).

(3) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص35- 37)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص166، 241- 244).

سورة الممتحِنة

*** تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة الممتحِنة**»، وتنطق بكسر الحاء؛ باعتبارها وصفًا للسورة نفسها، حيث ورد فيها الامتحان، وهذا عند الأكثرين[1].

وبعضهم ينطقها بفتح الحاء: «**سورة الممتحَنة**»؛ إشارة إلى المرأة الممتحَنة[2].

وأول امرأة وقع عليها الامتحان هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط رضي الله عنها، في القصة المعروفة[3].

وبعضهم يسمِّيها: «**سورة الامتحان**»[1]؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 49)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 3)، و«فتح الباري» (8/ 633)، و«عمدة القاري» (19/ 228)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (8/ 182)، و«فتح القدير» (5/ 250)، و«روح المعاني» (14/ 259)، و«تفسير القاسمي» (9/ 199).

(2) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص92)، و«الكواكب الدراري» (18/ 135).

(3) أنه لما كان يوم الحُدَيْبِيَة اشترط سُهيل بن عَمرو على النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يأتيكَ منا أحدٌ- وإن كان على دينك- إلا رَدَدْتَه إلينا... وفيه: وجاءت المؤمناتُ مهاجرات، وكانت أمُّ كُلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي عاتقٌ، فجاء أهلُها يسألونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يُرجعَها إليهم، فلم يُرجعْها إليهم؛ لِمَا أنزل اللهُ فيهنَّ: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ...﴾ إلى قوله: ﴿□□□□﴾ [الممتحنة: 10]. ينظر: «صحيح البخاري» (2711)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 372)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (4/ 171)، و«عيون الأثر» (2/ 163)، و«التحرير والتنوير» (28/ 129)، والمصادر السابقة.

ولها اسم ثالث، وهو: «**سورة المودة**»[2].

* **عدد آياتها:** ثلاث عشرة آية[3].

* **وهي مدنية** بالاتفاق[4].

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾:

لهذا السياق قصة رواها البخاري ومسلم عن عليٍّ رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لما خرج لفتح مكة أرسل حاطبُ بنُ أبي بَلْتعة رضي الله عنه بكتاب إلى مشركي مكة؛ يخبرهم بخروج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، وأعطاه امرأةً، فأخبر اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم بذلك، فبعث عَلِيًّا والزُّبيرَ والمقدادَ بنَ الأسود رضي الله

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 295)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص211)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 403)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص313)، و«الكنز في القراءات العشر» (2/ 681)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 460)، و«الإتقان» (1/ 195).

(2) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص92)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 460)، و«الإتقان» (1/ 195)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (8/ 182)، و«روح المعاني» (14/ 259)، و«تفسير القاسمي» (9/ 199)، و«التحرير والتنوير» (28/ 129).

(3) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص244)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص309)، و«روح المعاني» (14/ 259)، و«التحرير والتنوير» (28/ 130).

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 516)، و«المحرر الوجيز» (5/ 293)، و«زاد المسير» (4/ 266)، و«تفسير القرطبي» (18/ 49)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 460)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 75).

عنهم، فقال: «**ائتوا روضةَ خاخ؛ فإن بها ظَعينةً معها كتابٌ، فخذوه منها**». يقول عليٌّ رضي الله عنه: فانطلقنا تَعادَى بنا خيْلُنا[1]، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا: أخرجي الكتابَ. فقالت: ما معي كتابٌ. فقلنا: لَتُخرجنَّ الكتابَ أو لَنُلْقينَّ الثيابَ. فأخرجته من عِقاصِها[2]، فأتينا به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بَلْتَعةَ إلى ناس من المشركينَ من أهل مكة... يخبرُهم ببعض أمر رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**يا حاطبُ، ما هذا؟**». قال: لا تعجلْ عليَّ يا رسولَ الله، إني كنتُ امرأً ملصقًا في قريش- كان حليفًا لهم، ولم يكن من أنفسها- وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قراباتٌ يحمونَ بها أهليهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذَ فيهم يدًا يحمونَ بها قرابتي، ولم أفعلْهُ كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**صدق**». فقال عمرُ: دعني يا رسولَ الله، أضرب عنقَ هذا المنافق. فقال: «**إنه قد شهدَ بدرًا، وما يُدريكَ لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ على أهل بدر فقال: اعملوا مَا شئتم، فقد غفرتُ لكم**». فأنزل اللهُ عز وجل: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ ...﴾[3].

وهذه القصة فيها عجائب:

أن هذا يجري من صحابي قد شهد بدرًا، وشهد الحُدَيْبِيَة، وشهد له النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالجنة؛ لما جاء غلامُه وقال: يا رسولَ الله، ليدخلنَّ حاطبٌ النارَ. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**كذبتَ، لا يدخلها؛ فإنه شهدَ بدْرًا والحُدَيْبِيَةَ**»[4].

---

(1) أي: تجري، والعادية: الخيل، تعدُو عَدْوًا.

(2) أي: شعرها المضفور، وهو جمع: عَقِيصة.

(3) أخرجه البخاري (3007، 4274، 4890)، ومسلم (2494)، وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص421).

(4) أخرجه مسلم (2495) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وهو صحابي جليل صادق بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف يحدث منه مثل هذا الأمر العظيم المتعلق بإفشاء سرٍّ عسكريٍّ خطيرٍ إلى المشركين، وبطريقة سرِّية دقيقة توحي بأنه يدرك ما هو مقدم عليه؟!

ثم تتعجَّب كيف استطاع المجتمع المسلم آنذاك أن يستوعب هذا الموقف، ويتعامل معه بتوازن لا يُفهم منه الاستهانة بخطورة هذا الأمر فيتجرَّأ الناس بإفشاء الأسرار الخطيرة، وفي الوقت ذاته لا يتعامل بغلظة زائدة تجعل المجتمع ينشق على نفسه، فإن المجتمعات إذا كانت تتعامل وتُعامِل الخطَّائين وأصحاب الزلَّات معاملة قاسية، تُجاوز حد العدل والإنصاف والحكمة، فهذا قد يكون سببًا في إقصائهم وقطع صلتهم وصلة مَن يتعاطف معهم.

ونلحظ أن اللهَ افتتح السورة بتقرير وصف الإيمان للمنادَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾، وإن وقع منه من الكبائر ما وقع، وهذا يدل على أن حَاطِبَ بن أبي بَلْتَعة رضي الله عنه هو من الذين آمنوا.

ثم كان التذكير بعداوة أولئك القوم لله ورسوله وعداوتهم للمؤمنين مهما تظاهروا لبعض المؤمنين بغير ذلك، وفيه تشنيع هذا الفعل؛ وهو اتخاذهم أولياء؛ لأن أعداء الله تعالى يصُدُّون عن المسجد الحرام، ويُحاربون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويقتلون المؤمنين والمؤمنات، وهم لم يتوبوا من إجرامهم، فهم أعداء الله؛ فموالاتهم والبَوْح بالأسرار لهم خيانة لله؛ لأنهم عدو لله، وهي خيانة للنفس؛ لأنهم أعداؤكم.

ومعنى ﴿زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾: لا تجعلوا مَن عادى اللهَ ورسولَه وعاداكم وليًّا حَمِيمًا صديقًا تبوحون له بالأسرار تودُّدًا وتحبُّبًا إليهم[1].

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 413)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 85)، و«فتح القدير» (5/ 250)، و«التحرير والتنوير» (28/ 133).

﴿قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ﴾: **وألقى الشيء**: إذا رمى به، فصار المعنى هنا: ترمون إليهم بالوُّدِّ وبالسِّرِّ على غير تفكُّر، وأحيانًا ربما يصدر من المرء شيء دون تفكير، فإذا فكَّر تعجب كيف صدر منه ذلك الفعل المشين؟! فهو إشعار بأن ما وقع كان من غير تأنٍّ ولا تحرٍّ ولا تخطيط؛ بل هي خاطرة عاجلة لم تأخذ حقها من النظر والتحرير وتقليب وجوه الرأي، **والمودة** هي: الحُب[1]، **والمقصود**: ظاهر المودة المتمثِّل في إخبارهم بما همَّ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم من الفتح.

﴿مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا﴾: فيه تذكير بأنهم يعلنون كفرهم بالحقِّ الذي تؤمنون به، وليس هذا فحسب، بل و﴿مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾، فقد أخرجوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم من مكة وأخرجوكم أنتم منها[2]، وحاطبٌ رضي الله عنه الذي نزلت هذه الآيات بسببه مهاجر، فقد أخرجوا المسلمين بالتضييق عليهم ومحاصرتهم واضطرارهم إلى الهجرة، وبمنعهم من العبادة، ومنعهم من إظهار دينهم، وهمُّوا بقتلهم، وقتلوا منهم مَن قتلوا، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم كان يقول وقت خروجه منها: «**والله، إنك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجتُ منك ما خرجتُ**»[3].

---

(1) ينظر: «تهذيب اللغة» (14/ 165)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص860)، و«لسان العرب» (3/ 453) «و د د».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 558)، و«تفسير السمعاني» (5/ 413)، و«تفسير القرطبي» (18/ 53)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 365)، و«التحرير والتنوير» (28/ 135).

(3) أخرجه أحمد (18715- 18718)، وعبد بن حميد (491)، والأزرقي في «أخبار مكة» (2/ 154)، والدارمي (2552)، والفاكهي في «أخبار مكة» (2514)، والترمذي (3925)، وابن ماجه (3108)، والنسائي في «السنن الكبرى» (4238)، وابن حبان (3708)، والحاكم (3/ 7، 280، 431) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء رضي الله عنه. وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 21- 23)، و«طرح التثريب» (6/ 50).

فهكذا كان معنى الإخراج، وأنه ليس طردًا؛ ولكنهم حاصروه صلى الله عليه وسلم وحاصروا المؤمنين معه، حتى اضطروا للبحث عن مناخ مناسب للدعوة وتأسيس الدولة[1].

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ﴾ أي: أخرجوكم بسبب الإيمان[2]، وحاربوكم في دينكم، ومنعوكم من الصلاة عند الكعبة. ﴿٢١ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا﴾ [البروج: 8].

﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٢١﴾: وهذا هو الواقع أنه ما أخرجهم دنيا؛ بل هم تركوا الدنيا وراءهم وخرجوا من مكة؛ جهادًا في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته.

وصدَّر هذه الجملة بـ﴿ق﴾ التي هي أداة للشرط، يعني: إذا كنتم خرجتم، وكأنه جعله محل تردد واختبار.

والمعنى: ما دمتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، فكيف تُسِرُّون إليهم بالمودة، وتفشون إليهم هذا السِّر[3]؟!

﴿ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ﴾: أي أعلم ما أخفيتم من أمر الكتاب عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما أخفيتم من الإيمان في قلوبكم، وأعلم أن ما وقع منكم لم يكن

---

(1) ينظر: «رسائل الغرباء» للمؤلِّف (ص120).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 435)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 375)، و«تفسير القرطبي» (18/ 53)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 86)، و«فتح القدير» (5/ 251)، و«التحرير والتنوير» (28/ 135).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 294)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 365)، و«التحرير والتنوير» (28/ 137)، والمصادر السابقة.

كفرًا بعد الإسلام، ولا رغبة في القضاء على الدِّين؛ ولكنه طمع في مصالح الدنيا لم يحالفه التوفيق، ولم يرع حرمة الأمانة وحفظ السِّر[1].

وفي التذكير بالعلم الإلهي لكل خافية ومعلنة ترغيب وتحفيز للتوبة والإنابة، وترهيب من الفعل وما يصاحبه من ضعف نفسي وعزوب عن المراقبة الإلهية وغفلة عن مقتضاياتها.

﴿كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ﴾: فسمى الفعل: «ضلالًا عن السبيل»، ولم يتساهل فيه أو يجعل العذر مانعًا من توصيفه المستحق، كما لم يصفه بأنه كفر ورِدَّة.

وهذا الخطاب بعد حدوث الفعل ليس دعوة إلى الجَدَل أو التهرب؛ بل هو تذكير بخطورة الأمر، ودعوة إلى التوبة من هذا الجُرم العظيم، ولذا تاب حاطب رضي الله عنه مما فعل، واعتذر إلى الله ورسوله والمؤمنين، وفي ذلك دعوة للآخرين أَلَّا يفعلوا، وإذا وقعوا في كبيرة أن يتوبوا.

وفيه إشارة إلى أن «الولاية» أنواع:

لقد ذكر الله تعالى عن حاطب رضي الله عنه «المودة» في موضعين: ﴿قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا﴾، و﴿نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ﴾، واعتُبر هذا ضلالًا عن سواء السبيل؛ ولكن لم يعدّه كفرًا، وجعل حاطبًا رضي الله عنه في عداد الذين آمنوا، واعتذر له عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شهد بدرًا، والبدريون مشهود لهم بالجنة.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 609)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 435)، و«الوجيز» للواحدي (ص1087)، و«تفسير البغوي» (5/ 70)، و«زاد المسير» (4/ 268)، و«تفسير الرازي» (29/ 517)، و«تفسير القرطبي» (18/ 54)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 86)، و«التحرير والتنوير» (28/ 138).

فولاية الكفار منها ما هو كفرٌ؛ وهو أن يواليهم لدينهم؛ لأنه أحبَّ دينهم وفضَّله على دين الإسلام.

ومنها ما هو معصية؛ مثل: أن يواليهم ويظاهرهم على المسلمين لمصلحة خاصة، كما في قصة حَاطِب رضي الله عنه مع طُمأنينة قلبه بالإيمان، وقد يرى أنَّ ما يفعله ليس مؤثِّرًا في النتائج النهائية للمعركة، فهو ينفعه ويدفع عنه، وضرره على المسلمين قليل أو معدوم، بالنظر إلى معطيات النصر الكثيرة المتوفرة لهم، فهذا جرم عظيم وكبيرة من كبائر الذنوب وإثم وضلال عن سواء السبيل.

ويدخل في هذا الجاسوس الذي يتجسَّس على المسلمين، فهو مرتكب جُرمًا عظيمًا؛ ولكنه لا يكفر، **وهل يُقتل؟** فيه خلاف بين الفقهاء، **والصواب** أن ذلك إلى الإمام يُقدِّر ما هو الأصلح في شأنه[1].

وتأمل كيف أن حاطبًا رضي الله عنه ما سُجن ولا عوقب إلا بهذا اللَّوم، وحسبك بهذا تأنيبًا وتأديبًا!

* ﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ﴾:

﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾: أي: هؤلاء الذين كتبتم إليهم وكشفتم لهم بعض أسرار المسلمين، لا تظنوا أنهم سوف يرقبون فيكم بذلك إلًّا وذِمة، سوف يُظهرون لكم العداوة[1].

(1) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (5/ 163- 164)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (12/ 67)، و«التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن (18/ 169)، و«مجموع الفتاوى» (28/ 345)، و«فتح الباري» (12/ 310).

﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ﴾: أي: يمدوا إليكم، ﴿وَبَنَاتُ﴾: بالضرب والقتل، ﴿ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾: أي: بالسَّبِّ والشتم والتعنيف[2]، ولن يلتفتوا إلى ما قدمتم لهم أو خدمتموهم، ليس هذا فحسب، بل ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النساء: 89].

وقد جاء التعبير في أول الآية وآخرها متغايرًا؛ ففي أولها عبَّر بالفعل المضارع: ﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ﴾، ﴿وَبَنَاتُ﴾، وفي آخرها عبَّر بالماضي، فقال: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم﴾؛ لأن مودتهم الكفر ليست جديدة ولا مرهونة بأن يثقفوكم، وإنما هي أصلية راسخة عندهم قبل أن يظفروا بكم وبعد الظفر[3]،﴿ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٢٣﴾ [القلم: 9].

* ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم﴾:

الوقف يحتمل أن يكون على ﴿ٱلَّٰتِي فِي﴾، ثم الجملة التي بعدها مستأنفة: ﴿حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم﴾، ويحتمل أن يكون الوقف على قوله:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 564)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7418)، و«تفسير السمعاني» (5/ 414)، و«تفسير الرازي» (29/ 517)، و«تفسير القرطبي» (18/ 54)، و«فتح القدير» (5/ 251)، و«التحرير والتنوير» (28/ 139).

(2) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص1088)، و«تفسير البغوي» (8/ 93)، و«زاد المسير» (4/ 268)، و«تفسير الرازي» (29/ 518)، و«تفسير القرطبي» (18/ 55)، و«فتح القدير» (5/ 251)، و«التحرير والتنوير» (28/ 140).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 513)، و«تفسير الرازي» (29/ 518)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 365)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 154).

﴿حُجُورِكُم مِّن﴾، فعلى الثاني يكون المعنى: أنها لن تنفعكم يوم القيامة[1]، هذا وجه.

وعلى الأول يكون المقصود: ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي﴾ أي: مطلقًا، ثم قوله: ﴿حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم﴾ جملة مستأنفة، أي: أن الله يفصل بينكم يوم القيامة[2]، وليس المقصود بـ«الفصل» هنا «الحُكْم»، وإنما المقصود: التفريق؛ بأن كل أحد مشغول بنفسه[3].

﴿بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ﴾ أي: أن ما عملتَ يا حاطب، وما أسررتَ وما كتبتَ وما أرسلتَ فالله تعالى يعلمه[4].

* ﴿بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ □□ □□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

الأُسوة هي: القدوة[5]، وهو درس للمؤمنين، ﴿أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾، وإبراهيم أبو الأنبياء، وأبو الحنفاء عليه السلام، وكان قويًّا في الحقِّ

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 565)، و«المحرر الوجيز» (5/ 294)، و«تفسير القرطبي» (18/ 55)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 13)، و«فتح القدير» (5/ 251)، و«التحرير والتنوير» (28/ 141).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 436)، و«الكشاف» (4/ 513)، و«تفسير الرازي» (29/ 518)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 13)، و«فتح القدير» (5/ 251)، و«التحرير والتنوير» (28/ 141).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 141).

(4) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 376)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 408)، و«تفسير الرازي» (29/ 518).

(5) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (8/ 635) «أ س و»، و«النهاية» (1/ 50) «أ س ا»، و«تفسير القرطبي» (18/ 56)، و«التحرير والتنوير» (28/ 143).

صادعًا، وقوته مما عرفه العرب والعجم والروم والهند وغيرهم، حتى إن الهنود عندهم عبادة البراهمة، يقال: إن أصلها من اسم إبراهيم، ثم تحرَّف الاسم، وضلت العقيدة[1]!

فإبراهيم عليه السلام كان مثالًا في القوة والصبر والتحمل، وهو من أولي العزم من الرسل، وقصته مبسوطة في مواضع كثيرة، كما في «سورة هود»، و«سورة الأنبياء»، و«سورة الصافات»، وفيها جرأته على قومه وتكسير الأصنام، دون اكتراث بهم وبوعيدهم، مع كونه شابًّا لا سند له من الناس!

جعله الله لنا أُسْوَةً حَسَنَةً في مصارمته لقومه، مع أنه لم يكن معه سوى ابن أخيه: ﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾ [العنكبوت: 26]، وزوجته سارة، كانوا ثلاثة فقط، فأشاد الله بهم وجعلهم قدوة للمؤمنين عبر العصور.

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ □□□□□□□□﴾: وهذا موضع القدوة والأُسوة؛ وهو البراءة من أعداء الله[2]. ولم يقع منهم هذا لأول وهلة من الرسالة؛ بل صبروا على قومهم ودعوهم بالحسنى والكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فلما تبيَّن لهم أنهم أعداء لله كاشفوهم بالعداوة، ولقد وصل بهم الحال إلى أن يوقدوا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام والقضاء عليه، فلما ظهرت عداوتهم ويئس من إسلامهم وأعلنوا الحرب على الله وعلى إبراهيم عليه السلام صرَّح لهم بقوله: ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا﴾ أي: من أفعالكم، من كفر ومحادَّة لله[3].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 143).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 567)، و«تفسير البغوي» (8/ 94)، و«تفسير السمعاني» (5/ 415)، و«تفسير القرطبي» (18/ 56)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 87).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 144)، والمصادر السابقة.

﴿قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ﴾: من الأنداد والأصنام والمعبودات المختلفة، كالكواكب وغيرها. واستثنى اللهَ وحده[1].

وهل كانوا يعبدون الله ويعبدون غيره، أو يعبدون الأصنام فقط؟ يحتمل.

﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ □﴾ أي: ظهر واستمر[2]، ﴿□□□□□□□﴾، وهذه هي الغاية.

درس في البراءة من المشركين الذين يحاربون الله تعالى ورسوله، ويخرجون المؤمنين ويعلنون عداوتهم وحربهم، فلا بد أن يكون المسلمون بُرآء منهم، وأن يفاصلوهم مفاصلة واضحة لا لبس فيها.

﴿□□□□﴾، وهذا استثناء، أي: ليس لكم في هذا المستثنى قدوة ولا أسوة[3]، والمقصود: وعد إبراهيم عليه السلام لأبيه أن يستغفر له، فنهاه الله تعالى عن ذلك واستثنى هذا من موضع القدوة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114].

وكون إبراهيم عليه السلام وقع منه هذا الأمر في شأن أبيه، ووقع من حاطب بن أبي بَلْتعة رضي الله عنه ما وقع في شأن قريش، يدل على أن تمازج المجتمع وتداخل العلاقات بين المسلمين وغيرهم، فيحتاج الأمر إلى كثير من الإيضاح في ضوابط هذه العلاقة؛ ولهذا تكفلت السورة بإيضاح الأمر وتجليته وبيانه.

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7419)، و«تفسير القرطبي» (18/ 56)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 146)، و«فتح القدير» (5/ 253)، و«التحرير والتنوير» (28/ 144).

(2) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (19/ 497)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 517)، و«التحرير والتنوير» (28/ 144).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 567)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 284)، و«تفسير القرطبي» (18/ 56)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 155)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 87).

﴿□□□□□□□﴾، وكأن هذا من تمام قول إبراهيم عليه السلام والذين معه أنهم أعلنوا توكلهم على الله وإنابتهم، أي: رجوعهم إليه، وأن إليه المصير[1].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

واستمروا في دعائهم فقالوا: ﴿□ □ □ □ □ □﴾، دعوا ربهم أَلَّا يجعلهم فتنة للكافرين، **ومعنى الفتنة يحتمل وجوهًا**[2]:

الأول: أن يتسلطوا عليهم فيفتنوهم عن دينهم.

الثاني: أن يقع عليهم عقوبة من الله أو عقوبة بأيدي الكافرين، فيكون في ذلك فتنة للذين كفروا؛ أن لو كان هؤلاء على خير ودين، وكان الله راضيًا عنهم ما أوقع فيهم هذه المصيبة، ولَمَا سَلَّطَ عليهم الأعداء.

❊ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ لتعزيز جانب التأسِّي بالأنبياء عليهم السلام والصالحين، ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، وفيه إلماح إلى أن المرء لو فاته عَرَض من الدنيا أو لحقه شيء من الأذى بسبب صدق ولائه، فالعوض عند الله، وعليه أن يكون رجاؤه في الله وفي ثواب الآخرة، وما عند الله خير وأبقى.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 568)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 437)، و«تفسير البغوي» (8/ 94)، و«تفسير القرطبي» (18/ 57)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 88)، و«التحرير والتنوير» (28/ 146).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص655)، و«تفسير الماوردي» (5/ 518)، و«تفسير الرازي» (29/ 519)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 366)، و«التحرير والتنوير» (28/ 148)، والمصادر السابقة.

ويحذِّر أن يتكرر ما حصل من حاطب رضي الله عنه، فيقول: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ﴾.

والتولِّي يحتمل معنيين:

1- أن مَن يعرض عن الله وعن وعده ووعيده ووعظه ويكرِّر الخطأ الذي صدر منه؛ فإن الله تعالى هو الغني عنه، الحميد للطائعين[1].

2- أن يكون المعنى: مَن يقع منه التولِّي للكافرين والإفشاء إليهم بالأسرار، فهذا معرَّض للعقوبة[2].

وفيما تقدم درس في وجوب البراءة من أعداء الإسلام، وممن يحاربون الله ورسوله، وفيه وجوب وضع الخطأ في نصابه، وأَلَّا يبخس المخطئ حقه، فلا يتهاون به، ولا يجار عليه.

وفيه بيان طريقة التعامل مع المخطئين في المجتمع، فمن الخطأ أن يُلاحق الناس بالعيب أو العار، أو التعيير في المواقع والمجامع والمجالس، والتحذير من التشهير والتذكير بالخطأ- ولو بعد سنوات- فمن المروءة والأخلاق والشهامة والدين أن يوقف الأمر عند حَدٍّ معين، وأن يَكُفَّ الناس ألسنتهم عن الوقيعة والقيل والقال والشتيمة ونقل الحديث والشماتة، وقد يكون بعض الذين يعيِّرون ويشمتون يقعون في مثل هذه الأخطاء أو ما هو شرٌّ منها.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 570)، و«تفسير السمعاني» (5/ 416)، و«زاد المسير» (4/ 269)، و«تفسير النسفي» (3/ 469)، و«التحرير والتنوير» (28/ 150).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 534)، و«تفسير البغوي» (4/ 269)، و«زاد المسير» (4/ 269)، و«تفسير الخازن» (4/ 281)، والمصادر السابقة.

* ﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا﴾:

تأمل لطفه سبحانه في قوله: ﴿أَفۡضَىٰ﴾، و﴿أَفۡضَىٰ﴾ من الله واجبة[1]، وفي ظاهرها الاحتمال القريب أن يجعل الله بينكم أيها المؤمنون وبين الذين عاديتم، ونهاكم الله عن ولايتهم بالباطل، أن يجعل بينكم مودة بالحقِّ سببها الإسلام[2]، وفي هذا دعوة إلى أَلَّا يُفرِّط الإنسان ويبالغ في العداوة، كما قال علي رضي الله عنه: «أبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[3]. ولعل عليًّا رضي الله عنه أخذ هذا المعنى من هذه الآية الكريمة.

﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ على ذلك، ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾ لهم إذا تابوا وأنابوا، وغفور رحيم لكم أيضًا فيما صدر منكم ثم تبتم منه[4].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (2/ 145)، و«المحرر الوجيز» (5/ 296)، و«البرهان في علوم القرآن» (4/ 288)، و«الإتقان» (2/ 241).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 570)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7421)، و«تفسير الرازي» (29/ 520)، و«تفسير النسفي» (3/ 469)، و«فتح القدير» (5/ 254).

(3) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (484)، وعمر بن شبَّة في «تاريخ المدينة» (4/ 1226)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (1394)، والطبري في «تهذيب الآثار» (3/ 284- مسند علي)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (6168، 6169).

ورُوي مرفوعًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه الترمذي (1997)، وغيره، ولا يصح رفعه. ينظر: «علل الدارقطني» (8/ 110)، و«العلل المتناهية» (2/ 248)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (2/ 464- 466).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 571)، و«تفسير السمعاني» (5/ 416)، و«تفسير الرازي» (29/ 520)، و«تفسير الخازن» (4/ 281)، و«التحرير والتنوير» (28/ 151).

* ﴿قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ﴾:

هذه الآية توضِّح الفرق بين المحاربين وغيرهم، وأن الولاء المنهي عنه في الآية يُقصد به المحاربون المعادون لكم، وتوضِّح أيضًا الفرق بين المعاملة الحسنة الطيبة، وبين الموالاة الممنوعة، فالله تعالى لا ينهى المسلمين عن الإحسان والبِرِّ والقسط للقبائل التي تميل للمسلمين، ولا تحاربهم ولا تظاهر عليهم، مثل: خُزاعة ومُزَيْنة وأسْلَم وجُهَيْنة وغِفَار الذين كانوا مشركين؛ لكن كان هواهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانوا يحبون أن ينتصر على قريش، فهؤلاء لا ينهاكم الله عنهم[1].

وفي هذا درس لَمن يجعلون الكفار في ميزان واحد في التعامل، وهم ليسوا كذلك، فمنهم المعتدي المبارز بالعداوة والصدِّ عن سبيل الله، ومنهم المسالم المحايد، ومنهم المدافع عن حقوق المستضعفين من المسلمين.

وفي العصر الحاضر منهم مَن يكون متعاطفًا مع قضايا العروبة والإسلام، وقد يكون في سُدَّة الحكم والسياسة، أو في ميدان الإعلام، أو في مجال الفكر والثقافة، ويتحمل العناء بسبب وضوح آرائه ومدافعته عن الحق، وقد يُحرم من كثير من الميزات التي يتمتع بها غيره، فمثل هؤلاء يجب أن يُحتفى بهم، وتمدُّ معهم الجسور، ويُدعوا إلى المواسم والمناسبات المختلفة، ويُشجَّع غيرهم على أن يحذوا حذوهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 521)، و«تفسير القرطبي» (18/ 59)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 366)، و«فتح القدير» (5/ 254)، و«التحرير والتنوير» (28/ 152).

وقد جعل الله تعالى في الزكاة سهمًا للمؤلَّفة قلوبهم، ممن يُطمع في إسلامهم، أو إسلام مَن خلفهم[1].

على أنه ليس المال فقط هو الذي تؤلَّف به قلوب الناس؛ بل الخُلُق الحسن، والكلام الطيب، والصبر، وحسن المعاملة، والحفاوة والتقدير.

وقد أورد المفسرون في هذا الشأن قصة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، إذ جاءتها أمها بالمدينة وكانت مشركة، فسألت أسماءُ رضي الله عنها النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وقالت له: إن أمي قدمتْ وهي راغبةٌ، أفأصلها؟ قال: «**نعم، صِلِي أُمَّك**»[2]. فأمرها بالصلة وحسن المعاملة.

وكذلك الآباء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان: 15].

وكذلك الزوجة، فإن للمسلم أن يتزوج كتابيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [المائدة: 5]، مع ما يقع بين الزوجين من المودة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى﴾ [الروم: 21]، وكما في قصة أبي طالب الذي أحبه النبي صلى الله عليه وسلم، وحزن على موته، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: 56][3]، **ففرَّق الله بين الطائفتين، وشرَّع لغير المحاربين أمرين:**

1- **البِر**؛ وهو: الإحسان إليهم بالقول وبالفعل.

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ﴾.

(2) أخرجه البخاري (2620، 5979)، ومسلم (1003) من حديث أسماء رضي الله عنها.

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (4772)، و«صحيح مسلم» (24).

2- **القِسْط**، وهو: العدل[1].

وفي الآية حثٌّ عليهما؛ لقوله: ﴿ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾؛ ولهذا قال العلماء: إن العدل قيمة مطلقة، ليس فيها استثناء، حتى مع الأعداء، فالعدل واجب في كل الأحوال[2].

ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 8].

* ﴿أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

فمَن وُجدت فيهم هذه الخصال الثلاث أو بعضها؛ بأن قاتلوكم في الدين، أو أخرجوكم من دياركم، أو ظاهروا على إخراجكم، فواحدة من هذه الجرائم تكفي لأن يكونوا محل النفي والعداوة، وتحريم البِرِّ والتولِّي، ﴿تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ﴾.

وادَّعى بعضهم أن الآية منسوخة[3]، **والصحيح** أنه ليس فيها نسخ، وأنكر الطبري وعامة المفسرين دعوى النسخ؛ لأن الآية متأخرة النزول، نزلت في السنة الثامنة

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 571)، و«تفسير السمعاني» (5/ 417)، و«تفسير القاسمي» (9/ 207)، و«التحرير والتنوير» (28/ 153). وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص436)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص868) «و ز ن».

(2) ينظر: «أحكام القرآن» للكيا الهراسي (3/ 60)، و«تفسير الرازي» (11/ 320)، و«تفسير القرطبي» (6/ 110).

(3) ينظر: «تفسير ابن وهب» (3/ 71- 72)، و«تفسير الطبري» (22/ 573)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص59- 60)، و«تفسير الرازي» (29/ 521).

من الهجرة أو قريبًا من ذلك، ولم يأت بعدها ما ينسخها، بل هي توضيح لما قبلها من الآيات[1].

* ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ [illegible]﴾:

سبب هذا السياق أنه بعد صلح الحُدَيْبِيَة الذي جرى فيه الصلح على هدنة بين المسلمين والكفار عشر سنين، ظهرت ظواهر جديدة، منها: أن بعض المسلمات من مكة هاجرن فرارًا بدينهن إلى المدينة، ووقع بسبب ذلك إشكال لمعارضته لشرط من شروط الصلح؛ وهو أن مَن يأتي إلى المسلمين فيجب رده إلى الكفار، فنزلت هذه الآيات جوابًا عن هذا الإشكال[2]، وبيَّنت أن النساء لا تُرَد، ولكن تمتحن؛ بأن تُقسم أنها ما خرجت من مكة عشقًا لرجل، ولا كرهًا لرجل، ولا طلبًا لدنيا، وإنما خرجت إيمانًا بالله ورسوله، فإذا حلفت على ذلك صُدِّقت، وإذا دلَّت قرائن الحال على صدقها حتى بدون حلف قُبل منها ذلك ولم تُرجع إلى مكة[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 574)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7422)، و«زاد المسير» (4/ 271)، و«تفسير القرطبي» (18/ 59)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 903)، و«التحرير والتنوير» (28/ 153).

(2) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص424).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 575)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 295)، و«تفسير البغوي» (8/ 98)، و«تفسير القرطبي» (18/ 62)، و«الدر المنثور» (14/ 422- 423)، و«التحرير والتنوير» (28/ 156).

وفي قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إشارة إلى أنه ليس لكم إلا الظاهر[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بما ظهر لكم من قرائن ودلائل وبينات[2]،﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾□﴾ الوثنيين بمكة، ﴿□□□□﴾، فالمسلمة لا تحلُّ للمشرك الوثني، ﴿□□□□□﴾ تأكيد للمعنى[3]، مثل قول: «لست منك، ولست مني». فأمرهم أَلَّا يعيدوهن إلى أزواجهن الكفار.

وهل هذا نسخ للعهد الذي بينهم وبين المشركين؟ هذا احتمال[4]، **والأقرب**- والله أعلم- أن النساء لم يدخلن أصلًا في منطوق الشرط الذي تضمَّنه صلح الحُدَيْبِيَة، فإن ظاهره كان قاصرًا على الرجال ممن تتقوَّى به الشَّوْكة، وربما لم يكن هذا مفطونًا له عند قريش؛ ولذلك كان العقد مبهمًا، ولم تكن النساء داخلة فيه بشكل صريح، وتفسيره محل اختلاف، والله تعالى بيَّن أن المرأة لا مدخل لها في عقد الصلح المبرم.

﴿□□□□﴾، وهذا من مقتضى الأمانة والعدل؛ أن المرأة المسلمة التي هاجرت يُعطَى زوجها المهر الذي أنفقه على زوجته[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 520)، و«تفسير القرطبي» (18/ 63)، و«تفسير القاسمي» (9/ 208)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 906)، و«التحرير والتنوير» (28/ 156).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 438)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 285)، و«تفسير السمعاني» (5/ 418)، و«زاد المسير» (4/ 272).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 522).

(4) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص716)، و«تفسير الماوردي» (5/ 521)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص60).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 579)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 439)، و«تفسير الرازي» (29/ 522)، و«تفسير القرطبي» (18/ 64)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 94)، و«التحرير والتنوير» (28/ 158).

﴿□□□□□□□□□﴾: لا بأس عليكم أيها المسلمون أن يتزوج أحدكم بامرأة من هؤلاء المهاجرات بعدما تخرج من عدتها؛ لأنها لم تعد حِلًّا لزوجها الأول، فلكم أن تنكحوهن[1] ﴿□□□□﴾، وفيه إشارة إلى أن المال الذي أُعطي لزوجها مقابل ما أنفق لا يعني أن تُنكح بدون مهر، وإنما هذا تعويض لزوجها الكافر في مكة، وتُعطَى هي مهرًا لنفسها مقابل علاقة الزوجية الجديدة[2].

﴿□□□□﴾: فالزوجات الكافرات المشركات اللاتي هاجر أزواجهن وبقين على دينهن بمكة ليس لكم أن تستمروا على نكاحهن[3].

﴿□□□﴾ أي: لكم أن تشترطوا على مشركي مكة أن تأخذوا منهم ما أنفقتم على أزواجكم المشركات اللاتي بقين عندهم من باب المعاملة بالمثل[4].

﴿□□□□□□□□﴾ أي: بحكم العدل بينكم وبينهم، ﴿□□□﴾.

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

فما فاتكم وخسرتموه من نسائكم المقيمات بمكة واللاتي ذهبن إلى الكفار، فمن باب المعاقبة والمعاملة بالمثل، فالحكم هو ﴿□□□□□□□□□﴾ أي: المسلم الذي ذهبت زوجته عليه وبقيت في مكة أعطوه مثل ما أنفق أيضًا ﴿□□□□□□﴾[1].

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 582)، و«تفسير البغوي» (8/ 98)، و«تفسير القرطبي» (18/ 65)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 94).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 159).

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 98)، و«تفسير القرطبي» (18/ 65)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 367)، و«فتح القدير» (5/ 257)، و«التحرير والتنوير» (28/ 159).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 586)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7428)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 286)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 94- 95)، و«التحرير والتنوير» (28/ 162).

* ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ﴾:

وهذه هي البيعة التي كان يأخذها النبيُّ صلى الله عليه وسلم على المؤمنات[2]، **والمعنى**: إذا جئن مهاجرات يُبَايِعْنَكَ، **والبيعة** هي: العقد، وقد تُطلق على صفقة اليد، وتكون في الأمر العام، وتكون على الإسلام[3].

وقد بايع النبيُّ صلى الله عليه وسلم النساء في مكة فيما بعد على مثل هذه البيعة، وكانت معهم هند بنت عُتبة زوجة أبي سفيان رضي الله عنهما، فلما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ﴾ اعترفت بذلك وآمنت به وبالوحدانية، وكذلك النساء بايعنه على ذلك.

﴿شَيۡـًٔاۚ﴾: فقالت هند: يا رسولَ الله، إن أبا سفيانَ رجلٌ شَحيحٌ- وزوجها موجود- لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيَّ، إِلَّا ما أخذتُ من ماله بغير علمه، فهل عليَّ في ذلك من جناح؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**خُذِي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بَنِيك**»[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 589- 590)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 160)، و«تفسير القرطبي» (18/ 69)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (19/ 521).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (7215)، و«صحيح مسلم» (1866).

(3) ينظر: «الكليات» للكَفَوي (ص563)، و«التعريفات الفقهية» (ص49).

(4) ينظر: «طبقات ابن سعد» (10/ 9، 225- 226)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (6/ 3460)، و«تاريخ دمشق» (70/ 180- 182)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 461- 462)، و«تفسير ابن كثير»

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا﴾: ولما قرأ هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قالت هند: يا رسولَ الله، وهل تزني الحرة[1]؟ لأن الزنى في العرب كان في الجواري دون الحرائر غالبًا.

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠﴾: وهنا قالت هند: ربيَّناهم صغارًا، وقتلتموهم كبارًا، وأنتم أعلم بهم[2]. فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يغضب لقولها، وهذا من سعة حلمه صلى الله عليه وسلم[3].

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: **والبهتان** معروف، وهو: أشدُّ الكذب[4]، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبْتَهُ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّهُ**»[5].

والظاهر أن المقصود بالبهتان هنا معنًى خاص، وقد قرأتُ بعض ما كتبه علماء التفسير، وترجَّح لي أن المقصود هنا ليس مجرد كلام يُختلق، وإن كان كثير من المفسرين قالوا: كل الكلام المختلق والكذب والإفك داخل في هذا.

(8/ 98- 99)، و«البدر المنير» (8/ 289، 595- 596)، و«طرح التثريب» (7/ 47)، و«فتح الباري» (9/ 510- 511)، و«التلخيص الحبير» (4/ 100)، و«الإصابة» (14/ 267- 268).

والحديث أخرجه البخاري (2211، 3825)، ومسلم (1714) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(1) أخرجه أبو يعلى (4754)، وفي إسناده ضعف، وينظر المصادر السابقة والآتية.

(2) أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (6/ 3460) (7868)، وابن عساكر (70/ 177- 178)، وينظر المصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 306)، و«تفسير الطبري» (22/ 596)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 297)، و«تفسير البغوي» (8/ 101)، و«الكشاف» (4/ 520)، و«زاد المسير» (5/ 120)، و«تفسير القرطبي» (5/ 120)، (18/ 72)، و«التحرير والتنوير» (28/ 168).

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (2/ 103)، و«تفسير البغوي» (2/ 285)، و«تفسير الرازي» (10/ 14)، و«البحر المحيط في التفسير» (3/ 573)، و«التحرير والتنوير» (28/ 166).

(5) أخرجه مسلم (2589) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا مانع من إرادة هذا المعنى؛ لكن يتأكد النفي والنهي عن بهتان خاص؛ وهو أن تُدخل المرأة على زوجها مَن ليس من ولده؛ بأن تحمل من غيره، أو أنها لا تحمل فتدَّعي أنها حملت وولدت، فتنسب ولد غيرها إليها وإلى زوجها[1].

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ أي: فيما أمرتهن به من ألوان المعروف، بما في ذلك فعل الطاعات وترك المعاصي[2].

ومن هنا أخذ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عليهنَّ أَلَّا يَنُحْنَ.

ومن الطريف أن أم عطية رضي الله عنها لما أخذ عليها ذلك قالت: يا رسولَ الله، أَسْعَدَتْني فلانةُ، فأريد أن أَجْزِيها. فما قال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم شيئًا، فانطلقتْ ورجعتْ فبايعها[3].

هذا أيضًا يدل على السماحة، وعلى الطيبة، وعلى الخلق العظيم، وكما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**استقيمُوا، ولن تُحْصُوا**»[4]. وفيه أن شدة التدقيق كثيرًا ما تضر ولا تنفع، والسماحة كلها خير وبركة.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 594)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 380)، و«تفسير القرطبي» (18/ 72)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 100)، و«الدر المنثور» (14/ 429- 430)، و«التحرير والتنوير» (28/ 167).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 307)، و«تفسير البغوي» (8/ 101)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (1306، 4892، 7215)، و«صحيح مسلم» (936).

(4) أخرجه الطيالسي، وأبو عبيد في «الطهور»، وأحمد، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وغيرهم، من حديث ثوبان رضي الله عنه، وتقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾: والنبيُّ صلى الله عليه وسلم كان يبايعهن كلامًا، وما مسَّت يدُه يدَ امرأة قطُّ[1]، وكان يقول: «**إني لا أصافحُ النساءَ، إنما قولي لمئة امرأةٍ كقولي لامرأةٍ واحدةٍ**»[2].

* ﴿سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾:

ختم السورة- كما هو المعتاد في سياقات القرآن- بما ابتدأت به، وهو موضوع التَّوَلِّي والولاية، وتأكيد النهي عن تولِّي هؤلاء القوم.

فيحتمل أن المقصود: اليهود[3]؛ لكثرة وصفهم بأن الله غضب عليهم، كما في قوله: ﴿فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ ﴾ [المائدة: 60]، **فيكون المعنى**: لا تتولَّوْا هؤلاء اليهود الذين هم وإن كانوا أهل كتاب ويؤمنون بالآخرة، إلا أنهم يئسوا منها ومن الفوز بها[4].

---

(1) أخرجه البخاري (4891) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) أخرجه الطيالسي (1726)، وأحمد (27006- 27010)، والترمذي (1597)، والنسائي (7/ 149)، والطبري في «تفسيره» (22/ 599)، وابن حبان (4553)، والحاكم (4/ 71) من حديث أُميمة بنت رُقَيْقة رضي الله عنها. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (529).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 602)، و«تفسير الماوردي» (5/ 526)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 427)، و«تفسير البغوي» (8/ 103)، و«تفسير القرطبي» (18/ 76)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 103)، و«التحرير والتنوير» (28/ 169).

(4) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 299)، و«زاد المسير» (4/ 275)، والمصادر السابقة.

﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ﴾ أي: كما يئس الوثنيون المشركون من البعث[1].

أو يكون المعنى: كما يئس الكفار المقبورون الأموات الذين شاهدوا وعاينوا وعرفوا أنه لا حظَّ لهم[2].

أو يكون المعنى أعم من ذلك، ﴿كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ يشمل التأكيد على عدم تولِّي الكافرين والوثنيين المشركين، ويكون معنى يأسهم من الآخرة: أنهم لا يؤمنون بها، أو أن الله تعالى أيأسهم منها، فلا حظَّ لهم فيها، ﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ﴾ أي: من الأموات المقبورين[3].

فرجع أمر السورة إلى تأكيد معنى الولاية بين المؤمنين، وتحريم موالاة الكفار المحاربين، ووجوب التعامل بالخُلق الحسن والعدل والإنصاف، وذكر حكم النساء القادمات إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، والإشارة إلى شروط بيعة النساء، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 602)، و«تفسير الماوردي» (5/ 526)، و«تفسير الرازي» (29/ 525)، و«تفسير القرطبي» (18/ 76)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 103).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 526)، و«تفسير السمعاني» (5/ 423)، و«تفسير البغوي» (8/ 103)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 103)، و«التحرير والتنوير» (28/ 170).

(3) ينظر: «تفسير أبي السعود» (8/ 241)، و«فتح القدير» (5/ 258)، و«روح المعاني» (14/ 275)، والمصادر السابقة.

سورة الصف

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة الصَّف**»[1]، ووجه هذه التسمية وقوع لفظ: ﴿﴾ فِيهَا، وهو صَفُّ القتال.

ومن أسمائها: «**سورة الحواريين**»[2]؛ لذكر الحواريين فيها.

وسمَّاها بعضهم: «**سورة عيسى**»[3].

*** عدد آياتها:** أربع عشرة آية بلا خلاف[4].

*** وهي مدنية** عند الجمهور[5].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص658)، و«صحيح البخاري» (6/ 151)، و«جامع الترمذي» (5/ 412)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 299)، و«تفسير الطبري» (22/ 606)، و«المستدرك» (2/ 486)، و«تفسير القرطبي» (18/ 77)، و«التحرير والتنوير» (28/ 171).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 307)، و«زاد المسير» (4/ 276)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص92)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 370)، و«فتح الباري» (8/ 641)، و«عمدة القاري» (19/ 233)، و«الإتقان» (1/ 195)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (3/ 199).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 301)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 290)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 462)، و«روح المعاني» (14/ 277)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص245)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص314)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص309)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 81)، و«التحرير والتنوير» (28/ 173).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 606)، و«تفسير الماوردي» (5/ 527)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 424)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 80)، و«الإتقان» (1/ 50)، و«روح المعاني» (14/ 277)، و«التحرير والتنوير» (28/ 172).

وقيل: إنها مكية، ونُسب هذا لابن عباس رضي الله عنهما[1].

وقال بعضهم: إن فيها المكي والمدني[2].

والصواب أنها مدنية[3].

* ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾:

عبَّر بلفظ الماضي؛ إشارة إلى عَرَاقة التسبيح[4]، وقِدَم الرسالات التي أرسل الله تعالى إلى عباده، حتى آدم عليه السلام هو نبيٌّ مكلَّمٌ[5].

واختار اسم ﴿وَأُمَّهَٰتُ﴾ و﴿نِسَآئِكُمْ﴾ مراعاةً لسياق السورة، وإشارة إلى عِزَّة وغلبة الذين يطيعونه، كما قال في آخر السورة: ﴿□□□□□□□□﴾، فمن عِزَّته أن يُعزَّ أولياءه، ومن حكمته أنه يرسل الرسل تترا[6]، ويجعل لكل رسول شريعة وحُكمًا، كما أرسل موسى عليه السلام، ثم عيسى عليه السلام مصدِّقًا لما بين يديه، ثم محمدًا صلى الله عليه وسلم خاتمًا للرسل ومصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه.

* ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 313)، و«المحرر الوجيز» (5/ 301)، و«تفسير القرطبي» (18/ 77)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 95)، و«التحرير والتنوير» (28/ 172).

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (5/ 79)، و«زاد المسير» (4/ 276)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير القاسمي» (9/ 215)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

(5) كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه. أخرجه أحمد (21546)، وغيره، وتقدم تخريجه في أول «سورة نوح».

(6) كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: 44]. أي: يتبع بعضها بعضًا. ينظر: «تفسير الطبري» (17/ 48)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 475).

ظاهر النداء العتاب، وفي هذا تحذير من حال اليهود الذين لا يفعلون ما يقولون، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون[1].

وقد ورد في سبب نزولها- كما في حديث عبد الله بن سلَام رضي الله عنه، عند أحمد، والترمذي- أن جماعةً من الصحابة اجتمعوا وقالوا: لو نعلمُ أيَّ الأعمال أحبُّ إلى الله لعملناه. فأنزل الله هذه السورة، وقرأها عليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم[2].

فأُخبروا أن أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى الجهاد.

قال المفسرون: كان المسلمون يقولون: لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالَنا وأنفسَنا. فدلَّهم اللهُ على أحب الأعمال إليه فقال: ﴿بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ...﴾. فابتُلوا يومَ أُحُدٍ بذلك، فولَّوْا مدبِرِين، فأنزلَ الله تعالى: ﴿بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم ﴾.

وعلى هذا السبب فالمعنى: لِمَ تَعِدُون بأمر ولا توفون به؟[3]

ومن هنا أخذ بعض أهل العلم وجوب الوفاء بالوعد من الآية الكريمة[4].

---

(1) ينظر: «تفسير القشيري» (3/ 575)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1207)، و«تفسير القرطبي» (18/ 80)، و«أضواء البيان» (8/ 105).

(2) أخرجه أحمد (23788، 23789)، والترمذي (3309)، وابن حبان (4594)، والثعلبي (9/ 303)، والواحدي في «التفسير الوسيط» (4/ 290)، والضياء في «المختارة» (9/ 436) (409)، والحاكم (2/ 70).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 628)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 302)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص426- 427)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 105- 106)، و«الدر المنثور» (14/ 445)، و«لباب النقول» (ص195)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 522)، و«التحرير والتنوير» (28/ 175).

(4) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (3/ 591)، و«تفسير القرطبي» (18/ 79)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 105)، و«تحفة الأحوذي» (9/ 147).

واستدلوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**آيةُ المنافق ثلاثٌ، ومنها: إذا وعد أخلفَ**»[1].

والعلماء متفقون على وجوب الوفاء بالوعد ديانةً، إذا لم يكن حرامًا، واختلفوا في الإلزام به قضاءً، أي: إذا رُفعت فيه دعوى مطالبة بالإلزام بالوعد، فذهب مالك إلى وجوبه إذا ترتب عليه التزام[2].

وقيل: يجب الوفاء بالوعد قضاءً، فلو قلت لأحد: تزوَّج وأعطيك عشرة آلاف ريال، فإنه يجب عليك الوفاء؛ لأن عقد الزواج يترتب عليه التزام بالنفقة على الزوجة والمهر ونحو ذلك من الحقوق المالية.

وجمهور أهل العلم يرون أنه لا يجب الوفاء بالوعد قضاءً- أي: عند التقاضي[3]- لكن لا يجوز أن يتعمَّد أن يَعِدَ ويخلف، ولو وعد ثم طرأ عليه أن يخلف لعارض فلا حرج عليه، والموعود به لا يلزم إلا بالقبض، كالهبة لا تلزم إلا بالقبض[4].

وقيل في سبب النزول: إن بعض الناس كان يقول: قاتلتُ. ولم يقاتل، وصليتُ. ولم يصلِّ[5].

حتى ورد أن صُهيبًا رضي الله عنه قتل رجلًا، فأعطاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم سَلَبه، فجاءه عمر رضي الله عنه وقال: إن فلانًا يدَّعي أنه قتله. فذهب إلى النبي صلى الله

---

(1) أخرجه البخاري (33، 2682)، ومسلم (59) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (2459)، ومسلم (58) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «الفروق» للقرافي (4/ 25)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 106)، و«تحفة الأحوذي» (9/ 147).

(3) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 106)، و«تحفة الأحوذي» (9/ 147)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (44/ 75).

(4) ينظر: «الفروع» (11/ 92)، و«أسنى المطالب في شرح روضة الطالب» (2/ 487).

(5) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 307)، و«تفسير الطبري» (22/ 608)، و«تفسير البغوي» (8/ 104)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 106).

عليه وسلم وحلف أنه هو الذي قتله، فنزلت هذه الآية[1]. فعلى هذا الوجه فهي تحذيرٌ من الادِّعاء والكذب.

وثَمَّ معنى يلتبس عند بعض الناس، ويظنونه داخلًا في دلالة الآية؛ وهو أن يأمر الإنسان بالشيء، ثم لا يفعله؛ كمَن يحثُّ على قيام الليل أو الصيام أو عمل الخير، ولا يفعله، ومثله: أن ينهى عن الشرِّ والمنكر، ويفعله.

وهذا غير داخل في معنى الآية؛ لأن الأمر بالخير خيرٌ، ولو لم يفعله، وعلى المؤمن أن يأمر بالمعروف ولو لم يفعله، وأن ينهى عن المنكر ولو قارفه، وقد نقل القرطبي عن بعض الأصوليين قولهم: «فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضًا»[2]. ويكاد أن يجمع العلماء على أنه واجب على المسلم أن يأمر بالمعروف ولو لم يفعله، وينهى عن المنكر ولو وقع فيه[3].

أما قوله عز وجل: ﴿بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [البقرة: 44]، فهو دليل على أن من القبيح أن يأمر الإنسانُ الناسَ بالبِرِّ ثم ينسى نفسه فلا يأمرها به، ولا يعني هذا أَلَّا يأمر الناس بالمعروف، فكونه لا يفعل المعروف ولا يأمر غيره به شرٌّ من كونه يأمر غيره بالمعروف ولا يفعله، كما أن المأمورات متفاوتة؛ فمنها الفرائض والواجبات

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 302)، و«الكشاف» (4/ 522)، و«زاد المسير» (4/ 277)، و«تفسير القرطبي» (18/ 78).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (6/ 253).

(3) ينظر: «تفسير ابن كثير» (1/ 247)، و«مرقاة المفاتيح» (8/ 3209).

والمندوبات، وقد يكون في المرء نقص في بعض المعروف واجتهاد مشهود في غيره من الصور الأخرى[1].

* ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ﴾:

المقت: أشدُّ البغض[2]، والآية تفيد بأنه مقت كبير عظيم عند الله أن يقع ما توعَّد عليه في الآية، وإذا كان البغض من الناس شاقًّا على نفس أحدنا، فكيف ببغض الله للعبد؟! وهذا يقع حين تدَّعي شيئًا لم تفعله، ولا يجوز لك بحال أن تحبَّ أن تُحمد بما لم تفعل، ولا تعد وفي نيتك أَلَّا تفي.. هذه قيم أخلاقية يربَّى الناس عليها.

* ﴿بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

مقابل **المقت** العظيم للمُدَّعِين ما ليس فيهم ذكر الله تعالى **الحب** لنقيضهم من المؤمنين الباذلين نفوسهم في سبيله؛ ذودًا عن حِياض الدين، وحفظًا لمقام الإسلام، ودفعًا لغوائل الشر والعدوان عن الحقِّ وأهله، وليس في سبيل الدنيا وشهواتها.

وقوله: ﴿﴿٢١﴾﴾ أي: صافِّين، أو مصطفِّين[3]، والصَّفُّ يكون في الصلاة، ويكون في الحرب[4]، وهو إشارة إلى النظام واجتماع الكلمة والراية، وأن النظام والانضباط

---

(1) ينظر للمؤلِّف: «رسائل الغرباء»: الرسالة الثالثة: «دفع الغربة»: «الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» (ص373).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (2/ 51- 52)، و«تهذيب اللغة» (9/ 70)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص772) «م ق ت»، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 164)، و«روح المعاني» (14/ 278)، و«التحرير والتنوير» (28/ 175).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 610)، و«الكشاف» (4/ 523)، و«روح المعاني» (14/ 278)، و«التحرير والتنوير» (28/ 176).

(4) وفي «المسند» (11761) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثةٌ يضحكُ اللهُ إليهم: الرجلُ يقومُ من الليل، والقومُ إذا صفُّوا للصلاة، والقومُ إذا صفُّوا للقتال**».

جزء من القيم الإسلامية؛ يكون في العبادة التي يقف الناس فيها أمام ربهم، ويكون في الجهاد الذي هو من أعظم شرائع الإسلام وذِروة سَنامه، وهو كذلك في سائر شؤون الحياة، يعلِّم الناس الانضباط ووحدة الكلمة والتقارب واجتناب أسباب الفرقة؛ ولهذا شبههم بـ«البنيان المرصوص»، فهم بشرٌ؛ لكنَّ أكتافهم وأجسادهم متراصة متلاحمة كالبنيان الذي لا تجد فيه ثغرة ولا فجوة ولا اعوجاجًا[1]؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن المؤمنَ للمؤمن كالبُنيان؛ يَشُدُّ بعضُه بعضًا**»[2]. وقال: «**مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد**»[3].

وقد وصف الله سبحانه صحابة رسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم ﴿**أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: 29].

ويجوز أن يكون معنى «المرصوص»: الذي وُضع عليه الرصاص، كما ذكر الفرَّاء، وغيره من أئمة اللغة، واختاره ابن العربي، وذكر مباني في الشام وفي غيرها قد وضع فيها الرصاص، فكانت من أقوى ما يكون من البناء[4]، وفي ذلك إشارة إلى قيمة عظيمة من قيم الوحدة بين المسلمين وتقارب قلوبهم، وأن الله تعالى يحب هؤلاء، ومفاده: أن الله تعالى لا يُحِبُّ أولئك الذين ﴿**فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا**﴾ [الأنعام: 159].

❊ ﴿(٢٣)□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 611)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 164)، و«تفسير البغوي» (8/ 108)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 108).

(2) أخرجه البخاري (481، 2446، 6026)، ومسلم (2585) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري (6011)، ومسلم (2586) من حديث النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما.

(4) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 153)، و«إعراب القرآن» للنحاس (4/ 276)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 243)، و«تفسير القرطبي» (18/ 81).

ذكر تعالى أمرًا وقع لموسى عليه السلام مع قومه حين ناداهم بهذا الدعاء المحبَّب الذي يجعلهم يستجيبون له ويستمعون إليه، وعاتبهم على أذيتهم له مع علمهم برسالته، وقد آذوه في أشياء كثيرة، كما في قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: 61]، وكما في قصة البقرة، وعبادتهم للعجل، وقصة دعوته لهم لدخول بيت المقدس، ولعلَّ هذا أقرب ما يكون علاقة بالآية الكريمة لما ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: 22] ثم قالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: 24].

وفي هذا من سوء الخطاب وسوء الأدب مع الله ومع رسوله، ومع ذلك يتلطَّفهم فيقول لهم: ﴿□□□﴾[1].

وقد بلغ من أذيتهم له أن عيَّروه عليه السلام بشيء من خلقته الباطنة بما ليس فيه، كما في «الصحيحين» أنهم قالوا: «إن موسى رجل آدر». أي: أن في خصيتيه انتفاخًا[2]، وهكذا كل قوم خُزِنَ عنهم العمل وابتُلوا بالقول يبحثون عن أي شيء حتى يكون سببًا للقيل والقال، فأذن الله تعالى أن يراه كثير من الناس بعدما خرج واغتسل وذهبت ثيابه، فرآه الناس أجمل ما كان وأحسن ما كان، وعرفوا أن هذا كان إفكًا وفرية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كانت بنو إسرائيلَ يغتسلونَ عُراةً، ينظرُ بعضُهم إلى بعض، وكان موسى** عليه السلام **يغتسلُ وحده، فقالوا: والله ما يمنعُ موسى أن يغتسلَ معنا إلا أنه آدَرُ، فذهب مرة يغتسلُ، فوضع ثوبه**

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 82)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 51)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 35)، و«روح المعاني» (14/ 279).

(2) ينظر: «الصحاح» (2/ 577) «أ د ر»، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (15/ 126)، و«فتح الباري» (1/ 386).

على حجر، ففرَّ الحجرُ بثوبه، فخرج موسى في إثره، يقول: ثوبي يا حجرُ، حتى نظرت بنو إسرائيلَ إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه، فطَفِقَ بالحجر ضَرْبًا»[1].

وعبَّر بالماضي ولم يقل: «وقد علمتم»، وإن كان هذا هو المعنى، و«**قد**» تدلُّ على التحقيق، وهو التأكيد أنكم تعلمون، ولكن التعبير بالمضارع يشير إلى تجدد العلم بتوالي الآيات والمعجزات، وقد حصل لموسى عليه السلام من الآيات شيء كثير؛ ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ [الأعراف: 133][2].

﴿□ □ □ □□﴾ أي: فلما أصرُّوا على الضلال والزيف والتحايل والكذب والتحريف، جاءت العقوبة من جنس عملهم؛ فصرفهم الله عن الحقِّ، فهم لا يهتدون[3]؛ ولهذا قال: ﴿□□□□□﴾، فوصفهم بالفسق، كما قال في «سورة المائدة»: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٥﴾. وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾، وأشدُّ ما يكون الفسق حينما يكون من الأحبار الذين يعصون على بصيرة وعلم.

وفي الآيات إشارة إلى بقاء هذه الأمة، وأنها لا تزول مهما صادفها من النكبات، فإن التعبير بالفعل المضارع ﴿قَدْ﴾، يدل على التجدد والتكرر مرة بعد مرة.

وفيه إشارة إلى ديمومة صراع الحق والباطل إلى قيام الساعة، فلا تزول القوى الظالمة الضالة، سواء كانت معصيتها بعلم أو بجهل أو بكفر، ولا سبيل إلى استئصالها

---

(1) أخرجه البخاري» (278، 3404)، ومسلم (339).

(2) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (10/ 165)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 243)، و«فتح القدير» (5/ 262)، و«روح المعاني» (14/ 279)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 612)، و«تفسير القرطبي» (18/ 82)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 109)، و«فتح القدير» (5/ 262).

أو زوالها، ومن شأن هذا أن يجعل المؤمن أكثر تواضعًا واعتدلًا وتكيفًا مع ما في الحياة البشرية من النقائص والأخطاء، فالأرض لن تَتَمَحْضَ للخير، ولن تسيطر عليها كلمة الله تعالى في كل مكان، وكانت الشيوعية تبشِّر الناس بالفردوس الموعود، وكانت الليبرالية الغربية تتنبَّأ بنهاية التاريخ واستسلام العالم لها، فالإسلام لا يوجد فيه هذا، وإنما يوجد فيه الإشارة إلى أن الخير والشر موجودان مما يجعل المؤمن سالمًا من اندفاع غير مدروس في دعوته أو عمله أو جهاده.

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟﴾:

لم يقل عيسى عليه السلام لهم: «يا قوم»؛ لأنهم ليسوا قومه[1]، فهو يخاطب بني إسرائيل الذين أُرسل إليهم موسى عليه السلام، وقد كانوا متعصِّبين للتوراة تعصبًا مفرطًا، وعيسى عليه السلام جاء مصدِّقًا لما بين يديه، أي: معزِّزًا ومؤكِّدًا لما سبقه من التوراة[2]؛ حتى يؤلِّف قلوبهم على القبول، وإن كان التصديق لا يعني أنه لم ينسخ شيئًا منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ [آل عمران: 50]، وعيسى صلة بين موسى ومحمد عليهم السلام، ولذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم حينما سُئل: ما كان

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 525)، و«المحرر الوجيز» (5/ 302- 303)، و«تفسير القرطبي» (18/ 83)، و«تفسير النسفي» (3/ 475)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 100).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (5/ 431)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 631)، و«الكشاف» (4/ 525)، و«تفسير القرطبي» (18/ 83)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 109)، و«روح المعاني» (14/ 280).

بدء أمرك؟ قال: «**دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشرَى عيسى، ورأت أمي أنه خرجَ منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشام**»[1]

والبشارة هي: الإخبار بالأمر السَّارِّ[2]، وقد بشَّر الرسلُ عليهم السلام بمحمد صلى الله عليه وسلم، حتى موسى عليه السلام، وقد ذكر تعالى في الكتاب الكريم بشارة النبي به في قوله: ﴿جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: 81]. ولذلك جاء في التوراة: «إن الحق أقبل أو تجلَّى من سَيْنَاء[3]، وأشرق من سَاعِير بفلسطين[4]، واستعلن واستعلى في فَارَان[5]؛ وفَارَان: جبل بمكة؛ إشارة إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي التوراة أيضًا: «أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل جبل فَارَان»[6]، وهو بالاتفاق جبل بمكة المكرمة، وفي هذا يقول الشاعر محمد إقبال في قصيدته[7]:

---

(1) أخرجه أحمد (17150)، وعمر بن شبَّة في «تاريخ المدينة» (2/ 636)، والبزار (4199)، وابن حبان (6404)، والحاكم (2/ 418، 600) من حديث العِرباض بن سارية رضي الله عنه.

وأخرجه الطيالسي (1236)، وأحمد (22261) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1546).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (2/ 300)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص100)، و«تفسير ابن جزي» (1/ 30)، و«التحرير والتنوير» (21/ 118).

(3) وهو مكان نزول الوحي على موسى عليه السلام.

(4) وهي جبال بيت المقدس التي بُعث منها عيسى ابن مريم عليه السلام.

(5) ينظر: «البدء والتاريخ» (5/ 33)، و«تفسير الثعلبي» (7/ 189)، و«أعلام النبوة» للماوردي (ص150)، و«تفسير القرطبي» (13/ 159)، و«فتح الباري» لابن رجب (4/ 340)، والمصادر الآتية.

(6) ينظر: «البدء والتاريخ» (5/ 33)، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» (1/ 90)، و«الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام» (ص265)، والمصادر السابقة.

(7) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (1/ 98).

يا طِيْبَ عَهْدٍ كنتَ فيه مَنارَنا *** فبَعَثْتَ نورَ الحقِّ مِنْ فَارانِ

وأسرْتَ فيه العاشقينَ بلَمْحةٍ *** وسَقَيْتَهم راحًا بغيرِ دِنَانِ

أحرقتَ فيه قلوبَهم بتوقُّدِ الـ *** إيمـان لا بِتَلَهُّب النيرانِ

لم نبقَ نحن ولا القلوبُ كأنها *** لم تَحْظَ من نار الهَوَى بدُخَانِ

وجاءت البشارة في إنجيل مَتَّى، وإنجيل يُوحَنَّا، ومنها: الإشارة إلى الناموس الذي يأتي بعد موسى عليه السلام، وأنه الخاتم، وعباراته بعضها صريح باسم النبي صلى الله عليه وسلم: «محمد»، وبعضها تشير إلى «وادي البكاء»، وهي هنا كلمة لا تعني «البُكاء»، وإنما تعني: «البَكَا»، وقد كُتبت بالحروف الكبيرة، مما يدل على أنها اسم علم؛ إشارة إلى مكة، فهنا تحريف لاسم الوادي: وادي مكة، وهذا موجود في الأناجيل المتداولة اليوم بين أيدي الناس مع تواصيهم بكتمان الأمر، ويوجد منهم المنصفون الذين يعترفون بذلك، فضلًا عن الإشارات الكثيرة التي ليس فيها تصريح باسمه صلى الله عليه وسلم.

و﴿بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ﴾ من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، وهو صيغة مبالغة من الحمد، فهو أكثر الناس حمدًا لربه عز وجل، وهو أكثر الناس استحقاقًا للحمد[1]؛ ولهذا من أسمائه: أحمد، ومحمد، وكذلك: الماحي، والحاشر، والعاقب[2].

وبعض العلماء أوصل أسماءه الشريفة إلى تسعة وتسعين اسمًا، وبعضهم أوصلها إلى ثلاثمئة اسم، وبعضها ألقاب أو صفات، كما ذكره ابن القيم، وغيره[3].

---

(1) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 292)، و«تفسير البغوي» (8/ 109)، و«تفسير الرازي» (29/ 528)، و«جلاء الأفهام» (ص171)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 53).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (3532، 4896)، و«صحيح مسلم» (2354).

(3) ينظر: «عارضة الأحوذي» (10/ 280)، و«الشفا» (1/ 228)، و«تاريخ دمشق» (3/ 17)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (1/ 22)، و«جلاء الأفهام» (ص171- 202)، و«البداية والنهاية»

﴿بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ وَلَا﴾: هل مرجع الضمير في هذا الفعل إلى عيسى عليه السلام، أم إلى محمد صلى الله عليه وسلم؟

وهل الذين قالوا هذا القول العظيم هم قوم النصارى، أم هم مشركو العرب؟

جاءت الآية بهذا مبهمًا لتشمل الأمرين، ويعزِّز هذا قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾ [الذاريات: 52]، وقال: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾ [الزخرف: 23].

* ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ﴾:

أي: لا أحد أشدُّ ظلمًا من هذا، **ويحتمل أن يكون المقصود**: كفار العرب الذين كذَّبُوا وحي الله سبحانه[1]، وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: 91]، وهم يُدْعَون إلى الإسلام.

والأقرب أن المقصود: أهل الكتاب[2]؛ وذلك لسياق الآية **أولًا**، وأنه في قوم عيسى، **وثانيًا**: لأنهم الأقرب أن يقال عنهم: إنهم افتروا على الله الكذب؛ لأنهم أهل كتاب، وتمكنهم من الكتاب يجعلهم يحاولون أن يلتمسوا من كتابهم ما يدفعون به

(3/ 353)، و«فتح الباري» (6/ 558)، و«تنوير الحوالك» (2/ 263)، و«كوثر المعاني» (1/ 83)، و«معجم المناهي اللفظية» (ص351).

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 614)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7440)، و«تفسير الماوردي» (5/ 530)، و«المحرر الوجيز» (5/ 303)، و«تفسير القرطبي» (18/ 84)، و«التحرير والتنوير» (28/ 188).

(2) ينظر: «زاد المسير» (4/ 278)، و«غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني» (ص155)، و«التفسير القرآني للقرآن» (5/ 746)، والمصادر السابقة.

الحقَّ، ويردُّون به الصواب، ويخدعون به دَهْماء الناس، ولذا كذَّبُوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يُدعون إلى الإيمان بها.

﴿فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٢٢﴾: وخَتْم الآية بهذا مناسب؛ لأنهم بَلَغُوا في الظلم مبلغه؛ إذ ظلموا عقول الناس وحالوا بينهم وبين الإيمان والهدى، وحَرَّفُوا الدين السماوي، وأدخلوا عليه المفاهيم الفلسفية الفاسدة المتناقضة، وتجاهلوا تعليمات الكتب المقدسة الحقيقية.

* ﴿عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ﴾:

﴿عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ﴾: اللام هنا للتوكيد[1]، وأي شيء يريدون إطفاءه؟ إنه نور الله! وهل شيء أعظم من نور الله؟ ﴿بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النور: 35]، فمن نور الله سبحانه ما خلقه من الأنوار في الكون، كالشمس والقمر، ومَن ذا الذي يستطيع أن يطفئ نور الشمس؟ إنه لأمر مثير للسخرية، وبماذا يحاولون إطفاءه.. بأفواههم! فإذا كان هذا نور الشمس، فكيف بنور الحقِّ ونور الوحي ونور الإيمان؟!

وتأمَّل منذ أن بعث اللهُ نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا كم من المكائد والمؤامرات والعداوات عادى بها الكفار أجمعون الإسلام، فما زاده ذلك إلا انتشارًا وقوةً وظهورًا، فالحمد لله ربِّ العالمين.

﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾ فهو نور تام كامل وسيظل كذلك، وفيها معنى الغلبة والنصر وتحقيق المقاصد الربَّانية للبعثة المحمدية ولا بدَّ.

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 525)، و«تفسير الرازي» (29/ 529)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 244)، و«التحرير والتنوير» (28/ 190).

﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾: وكأن الحديث هنا عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فالغالب أنهم يُوصفون بالكفر، في حين وصف غيرهم بالشِّرك[1].

* ﴿أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾:

الهُدى: القرآن، **ودين الحقِّ**: الإسلام.

وقيل: الهُدى: العلم النافع، **ودين الحقِّ**: العمل الصالح[2]، فأرسله الله سبحانه بالعلم والعمل.

﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم﴾: أي: ليعليه وينصره على سائر الأديان، ولو كرهوا ظهور الإسلام.

والظُّهور له معنيان:

الأول: ظهور القوة والحجة، والبيان والبلاغة، والرسالة والدعوة، والتربية والتعليم، وهذا بيِّنٌ[3].

والثاني: ظهور الغلبة والسلطان[4]، وقد تحقَّق قدر كبير منه؛ لكن لا يلزم من هذا الوعد أن يتحقَّق بكماله في كل وقت؛ لأن هذا خلاف مقتضى الحكمة والابتلاء، وخلاف مقتضى السنة الإلهية في ابتلاء بعض الناس ببعض، وأن الدهر دُوَل، وأن

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 316)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 444)، و«التحرير والتنوير» (28/ 191).

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 303)، و«تفسير القاسمي» (8/ 452)، و«تفسير السعدي» (ص859)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (16/ 32)، و«اللباب في علوم الكتاب» (10/ 77).

(4) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 86)، و«التفسير القيم» (ص199)، و«تفسير السعدي» (ص859)، والمصادر السابقة.

النصر والهزيمة، والقوة والضعف، والكثرة والقلة؛ بل والتمدن والحضارة، والتخلُّف والجهل تنتقل وتتأثر بظروف ومعطيات كثيرة، وأن الله امتحن الناس بالعمل والتخطيط والدأب ليحصلوا على النتائج، وتوعدهم إن هم فرَّطوا أو قصَّروا بأن يروا عاقبة ذلك عيانًا.

وهذا الوعد الإلهي محفّز للمسلمين لتحقيقه، ومعنى أنه سيظهره على الدين كله: أن الأديان المشار إليها ستكون موجودة ولن تندرس؛ بل ستبقى، ولكن سيظهر الإسلام عليها بالقوة وبالغلبة وبالحجة، وهذا بواسطة مَن يُسخِّرُهم الله تعالى من المؤمنين، ففيه حفز للمؤمنين أن يبذلوا جهدهم في الدعوة إلى الله تعالى، وفي التأثير على الناس.

وكم يشعر المرء بالأَسَى في هذا العصر أنه لم يكن المسلمون على مستوى المسؤولية في إظهار دينهم، وفي إظهار صور قوته وبلاغته، وإعجازه وتأثيره، لا في قولهم ولا في فعلهم، فعلى صعيد السلوك والممارسة والواقع الاجتماعي تجد في المجتمعات الإسلامية ألوانًا من الضعف والخلل الأخلاقي، ونقصًا في الانضباط والذوق، ربما تَفُوقهم كثيرٌ من أمم الأرض، حتى إن بعض الذين أسلموا من الغربيين إذا جاؤوا إلى البلاد العربية والإسلامية حمدوا الله أنهم أسلموا قبل أن يروا واقع المسلمين في بلادهم.

* ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ﴾:

كأنه ذكر التجارة هنا؛ لأن بعض المسلمين صدَّتهم التجارة عن الجهاد في سبيل الله، فذكر تعالى لهم الأفضل والأبقى والأربح؛ وهو الإيمان والجهاد.

واستخدم أسلوب العرض والاستفهام بـ﴿دَخَلْتُم﴾.. وكأنه يقول: أنتم تبحثون عن الأرباح الطائلة، وهذا الله يعرض عليكم أن يرشدكم إلى ما هو خير لكم إن كنتم تعلمون.

﴿عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ﴾: وفي ذلك إشارة إلى أن كثيرًا من التجارات الدنيوية تكون سببًا في العذاب الأليم يوم القيامة؛ فإن من الناس مَن يكون ماله عذابًا ووبالًا عليه، وشغلًا له عن الفرائض وطاعة الله.

وكما ذكر الله تعالى عن عدد من أهل الكتاب وغيرهم أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله؛ فأشار عليهم ربهم الذي يحبهم بالتجارة الرابحة الطيبة المباركة التي تُنجي من العذاب الأليم؛ وهي الإيمان بالله ورسوله.

* ﴿أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣﴾:

﴿أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ﴾، ولا يصلح عمل إلا بالإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ﴾، فالجهاد بالمال بصرفه في مجالات الخير كلها.

وقدَّم المال؛ لأنه أول مصرف وقت التجهيز، وأن به قِوام الأنفس وحمايتها، ولنفاسته ولعزَّته في ذلك الزمان.

وقيل: للترقِّي من الأدنى إلى الأعلى[1].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (8/ 153)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 278)، و«روح البيان» (9/ 506)، و«التفسير القرآني للقرآن» (5/ 778).

والجهاد بالنفس هو: أن يبذل الإنسان نفسه في ذات الله عز وجل، بالجهاد الأعظم الذي هو مقاتلة الأعداء، أو بما دون ذلك من ألوان بذل النفس في ذات الله عز وجل، وألوان الكرم والجود التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم والسابقون من أصحابه، ومن ذلك تحمُّل العنت والأذى في سبيل الله بصبر وطيب نفس واحتساب، دون أن يقول الإنسان: كيف يصيبني هذا وأنا معي الحق؟ لماذا لم يدفع الله عني؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣﴾ أي: خير لكم مما أنتم متشاغلون به.

❊ والدليل على أنه خير لكم نتيجة ذلك: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
□﴾:

وكأنه ذكر المساكن والجنات إشارة إلى أن كثيرًا من الناس تحرمهم أعمال الخير والدعوة والجهاد وخدمة الناس والإحسان إلى الخلق من الاشتغال بالتجارة، أو من طول المكث والبقاء في بيوتهم ومساكنهم، في حين أن غيرهم يملكون بيوتًا مرفَّهة جميلة، فالمؤمنون حُرموا من هذا الترفه، أو من بعضه، أو لم يستقر بهم مقام بين أهليهم بسبب تبعات العمل والدعوة والتعليم والإحسان والإصلاح، وما يترتب على معاناة ذلك من السفر والغربة والحبس والانشغال بأحوال الناس، لكنهم عُوِّضوا بسعادة صدورهم، وبالعطاء الذي يجدونه مضاعفًا يوم القيامة.

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿□□□﴾ أي: شيء مما جُبلت النفوس على محبته، والنفس مُولعة بحبِّ العاجل.

فما هذه العِدَةُ الأخرى؟ إنها ﴿□□□□□□﴾: **قيل**: فتح مكة. **وقيل**: فتح بلاد فارس والروم[1].

واللفظ شامل لذلك كله، ومن أوله فتح مكة؛ لأن السورة- والله أعلم- نزلت قبل فتح مكة بسنة أو سنتين؛ فتحقق بدء النصر والفتح في حياته صلى الله عليه وسلم بدينونة الجزيرة العربية له، ووضع الأساس لهذه الدولة الفتيَّة العظيمة.

ووصف «الفتح» بأنه قريب، أما «النصر» فهو عام، وهكذا يمكن أن يكون كما في «سورة ﴿تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ﴾»، فيكون مؤذنًا بفتح مكة، ويحتمل أن يكون «الفتح» فتح مكة، وهو قريب تحقَّق قبل موته صلى الله عليه وسلم، أما النصر فما جرى بعد ذلك من انتصارات الدولة الإسلامية.

﴿□□﴾: وهذا من إعجاز القرآن، فإن إسلام العرب، وفتح مكة، والنصر، ودخول الناس في دين الله أفواجًا كله من الغيب الذي وقع، كما أخبر به سبحانه.

❋ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□ حُجُورِكُم﴾:

هذا النداء دعوة صريحة للمؤمنين من هذه الأمة أن يجعلوا شعارهم نصرة الله، بنصرة دينه وشريعته وأمته، وليس نصرة شخص أو طائفة أو جماعة أو أسرة أو دولة أو نِحْلة...

ثم ذكَّرهم بقول عيسى عليه السلام للحواريين: ﴿□□□□□□□□□□□﴾.

والحواريون هم: أصحاب عيسى عليه السلام، وكانوا اثني عشر رجلًا[1].

---

(1) ينظر: و«التفسير البسيط» للواحدي (4/ 293)، و«الكشاف» (4/ 527)، و«زاد المسير» (4/ 279)، و«تفسير الرازي» (29/ 532)، و«تفسير القرطبي» (18/ 89)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 64).

والكلمة حبشية[2]. **وقيل**: هي عربية، من: الحَوَر؛ وهو شدة البياض، وقد كانوا شديدي بياض الثياب[3]، وكان الصحابة رضي الله عنهم يتواصون بالاعتناء بنظافة الثياب، وكان عمر رضي الله عنه يعجبه من القارئ والطالب أن يكون حسن الثياب، طيب الرائحة[4].

وعيسى عليه السلام قال لهم ولغيرهم هذا القول: مَن الذين سوف يكونون أنصارًا لي في طريقي إلى الله وفي سعيي إلى نصرة الله وإقامة دينه؟

﴿□□□□□□﴾، وأجابوا عيسى عليه السلام إلى ذلك.

ويلحظ هنا اختلاف الصيغة والتركيب، فعيسى عليه السلام قال: ﴿□□□□□﴾؟ فأضاف النصرة إليه، لكنها ليست نصرةً لشخصه؛ لأنه فلان، ولكن لأنه يدعوهم إلى الله، والفارق واضح بين الصيغتين؛ فالصيغة العيسوية تناسب بني إسرائيل، بل النخبة المختارة منهم: الحواريين، والذين التزموا بالنصرة، ومع ذلك وجد من بعضهم التردد والتساؤل.

أو أن تلك الصيغة تناسب بعثة عيسى إليهم خاصة في زمان محدود، فكان وجود النبي بينهم من أهم ضمانات الاستمرار على الحق وعدم النكوص، وكأن الحواريين

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 428)، و«الكشاف» (4/ 528)، و«تفسير القرطبي» (18/ 89)، و«التحرير والتنوير» (28/ 201).

(2) وقيل: نَبَطيَّة. ينظر: «التحرير والتنوير» (3/ 255)، (28/ 201)، و«إعراب القرآن وبيانه» (1/ 517)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (5/ 442)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 164)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 445)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 389)، و«التفسير البسيط» للواحدي (5/ 288)، و«الكشاف» (4/ 528).

(4) ينظر: «الموطأ» (5/ 1337)، و«حلية الأولياء» (6/ 328).

بقولهم: ﴿   ﴾ أظهروا تجردًا تامًّا وديمومةً على النصرة أكثر مما في مكنتهم وطاقتهم، والله أعلم.

أما ﴿   ﴾، فلهذه الأمة التي يقوم وجودها أصلًا على الارتباط بمنهج الله وحده، سواءً وجد الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم أم لم يوجد، فهي أمة خاتمة وليست مؤقتة، ولهذا خُوطبت بمثل قوله سبحانه: ﴿نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 144].

كما أن دعوته صلى الله عليه وسلم لم تكن خاصةً محصورةً في فريق أو قبيل أو جنس، بل هي دعوة للعالمين، ولذا فالإيمان والجهاد ماضيان إلى قيام الساعة، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا هجرةَ بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ**»[1]. وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر أيضًا: «**الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة: الأجرُ والمغنمُ**»[2].

ومثله حديث: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرينَ على الحقِّ، لا يضرُّهم مَن خذلهم، حتى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلكَ**»[3]. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

---

(1) أخرجه البخاري (1834، 2783)، ومسلم (1353) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم (1864) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) أخرجه البخاري (2849، 2850)، ومسلم (1871، 1873) من حديث ابن عمر وعروة بن الجعد البارقي رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم (1872) من حديث جَرِير رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري (3640، 3641، 7311)، ومسلم (1037/ 174، 175- كتاب الإمارة، 1921) من حديث معاوية والمغيرة رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم (1920، 1923) من حديث ثوبان وجابر رضي الله عنهما.

لذا نُوديت الأمة أن تربط نصرتها بالله لا بغيره، علمًا بأن نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي نصرة لله، ونصرة للمؤمنين كذلك، ولكن الملمح المهم هو عدم ربط النصرة بوضع معين، بل هي نصرة باقية ما بقي الليل والنهار، وأنه في حال القوة والضعف والغنى والفقر والكثرة والقلة والعزة والذلة، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

ولكل قوم أئمة وسادة، ولكن هؤلاء الأئمة إنما يستحقون هذا اللقب الشريف بالتزامهم المنهج وصدقهم مع الله ورسوله، فإذا فرَّطوا أو قصَّروا حُرموا منه، واستبدل بهم غيرهم، وهذا لا يحدث إلا في أمة واعية يقظة حية، لا تبني دينها على التقليد والتبعية والهوى الأعمى، وإنما تبني دينها على العلم والهدى والنص والدليل، فهي ليست قطيعًا يُساق دون وعي لا يدري من أمره شيئًا إلا الثقة العمياء بمَن ينعق به، كلا إنها الأمة التي نُوديت بأن تنصر الله وحده، ونصرتها لَمن دونه إنما هي مشروطة بأن يكونوا من أنصار الله، فمتى أخلُّوا بهذه النصرة لم يكونوا جديرين بأن يُتَّبعوا أو يُقتدى بهم.

إن الله تعالى حين قرَّر قانون الانتصار الراسخ العظيم، أبرز فيه هذا المعنى بقوله: ﴿سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ ﴾.

وكل أحد من فرد أو جماعة أو حزب قد يدَّعى نصرة الله ونصرة دينه، وأنه ما قام بذلك طمعًا ولا منافسة، ولذلك كان التعقيب الرباني لتحديد مَن هم الذين ينصرون الله؟ هل هم المدَّعون؟

كلا، إنهم ﴿عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ﴾.

وأنت تلحظ جيدًا أن الله تعالى أعطاهم صفات لا تبين إلا في المستقبل ﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ ...﴾ وكم من مدَّعٍ ينكث وعده ويتخلَّى عن عهده وينهمك في دنياه.

إن الكثيرين ينساقون مع الأحلام الوردية الجميلة، ويرسمون المستقبل بريشة مبدعة خيالية خالية من المآخذ، لكن حين يصبح هذا المستقبل واقعًا مشهودًا، وليس حُلمًا منشودًا، تتغير المعالم وتختلف القلوب وتتحرك المطامع، ويصبح الجمع شتيتًا، وتبدأ التُّهم.

إن الصيغة لم تُربط لنصر بالذين يعدون أنهم سيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، لكن بالذين علم الله من حالهم المستقبلي أنهم إن مُكِّنوا في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

﴿□□□□□□□□□﴾، بعضهم آمن بعيسى، وبعضهم كفر[1]، ﴿□□□□□﴾: أيدهم بالحجة، وبالتوفيق، وبالقدر، ﴿□□﴾: ظاهرين بالحجة منصورين[2].

هذا متناسب مع الإشارة إلى ظهور الإسلام، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ومتناسب مع قوله سبحانه في أول السورة: ﴿أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ﴾، فهو أظهر أولياءه ونصرهم وأيَّدهم ولو كانوا قليلًا، و﴿عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم﴾ [البقرة: 249].

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 622)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7448)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 114)، و«فتح القدير» (5/ 266).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 445)، و«التحرير والتنوير» (28/ 203).

سورة الجمعة

❊ **تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة الجُمُعة**»، كما في كتب التفسير، والمصاحف، و«السنن»[1]، وفي الآثار المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم[2].

ووجه تسميتها: وقوع لفظ: ﴿قِنطَارًا﴾ فيها، وهو اسمٌ لليوم السابع من أيام الأسبوع في الإسلام.

❊ **عدد آياتها:** إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدِّ[3].

❊ **وهي مدنية** باتفاق علماء التفسير[4].

❊ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾:

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص659)، و«معاني القرآن» للأخفش (2/ 542)، و«جامع الترمذي» (5/ 413)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 300)، و«تفسير الطبري» (22/ 625)، و«المستدرك» (2/ 487)، و«تفسير القرطبي» (18/ 91)، و«روح المعاني» (14/ 287)، و«التحرير والتنوير» (28/ 204).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4897)، و«صحيح مسلم» (879).

(3) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص246)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص314)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص309)، و«روح المعاني» (14/ 287)، و«التحرير والتنوير» (28/ 205).

(4) ينظر: «زاد المسير» (4/ 280)، و«تفسير القرطبي» (18/ 91)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 464)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 83)، و«الإتقان» (1/ 51)، و«التحرير والتنوير» (28/ 205). وحُكي أنها مكية، وهو قول ضعيف جدًّا.

استفتحها بالتسبيح الدال على أن الكون كله خاضع لعبودية لله، وأن الذي يقع منه المخالفة والتمرد هم بعض الإنس والجنِّ[1].

﴿قِنطَارًا﴾ أي: المالك الخالق المدبِّر، ﴿فَلَا﴾: المنزَّه الكامل الذي لا يعتريه نقص ولا عيب، ﴿تَأۡخُذُواْ﴾: الذي له العزة، والذي يمنح العزة لِمَن يشاء، ﴿مِنۡهُ﴾ الذي يضع الأمور في نصابها، والمحكم المتقِن لما يخلق، والحكيم في شرعه وأمره ونهيه ووحيه[2]، ولذا ذكر بعدها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

* ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ﴾:

﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ﴾: وهذا من مقتضى الملك؛ حيث اعتنى بعباده، ولم يهملهم ويتركهم سُدى، وإنما أرسل إليهم رسلًا، وأنزل إليهم كتبًا، ومن مقتضى القُدُّوْسِية والتنزُّه عما لا معنى له، وهو مقتضى العزة، حيث سينصر رسله وأولياءه في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وهو مقتضى الحكمة فيما شرع لهم، وفيما قدَّر وقضى.

---

(1) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

(2) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص30، 33، 52)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص43، 60، 214، 237)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 115)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للسعدي (ص186، 208)، و«مع الله» (ص71، 84، 197).

والأُمِّيُّون جمع: أُمِّيٍّ؛ وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب[1]، وتُطلق على العرب من حيث الجملة، حتى لو كان فيهم مَن يقرأ، فإنهم يسمون: أمة الأُمِّيِّين، وهذا نبي الأُمِّيِّين، لما غلب عليهم من عدم القراءة والكتابة.

ووقوع البعثة في العرب لم يكن اتفاقًا، وإنما اصطفاء وابتلاء، ولحكمة أرادها سبحانه، مع أن في الأرض يوم ذاك أمم لها سيادتها وحضارتها وعلومها وفلسفتها وسلطانها؛ كالرومان، والفرس، واليونان، والصينيين، وغيرهم، ولكن اختار الله العرب؛ لأنهم أخلق وأجدر الأمم بحمل الرسالة آنذاك.

وليس معنى هذا أنهم كَمَلَة، كلا؛ بل فيهم عيوب، وفي غيرهم من الأمم خصائص يفوقون فيها العرب؛ لكن من حيث مجموع الصفات، فالعرب أخلق من غيرهم بحمل الرسالة، فقد كانت فيهم أخلاق عظيمة؛ كالكرم، والشجاعة، والصدق، ولم تفسدهم آثار الحضارة المادية، ولم يغلب عليهم الترف، فكان لديهم من الاستعداد الذاتي والنفسي الفردي والجماعي ما ليس لغيرهم.

وكونه مبعوثًا في الأُمِّيِّين هذا وصف للواقع، فقد كانت بعثته فيهم، وليس في النص أنه لهم، فهو مبعوث فيهم ومن بينهم؛ ولكنه مبعوث إلى الناس كافَّة، وإن كانت مسؤولية الأُمِّيِّين أعظم؛ لأن الرسول منهم، والكتاب بلغتهم، والحجة عليهم أعظم.

وكان صلى الله عليه وسلم أُمِّيًّا، لا يقرأ ولا يكتب؛ ولهذا لما جاءه الملَك وقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾. قال: ما أنا بقارئ[2]. وقال الله عز وجل: ﴿عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ

(1) ينظر: «تفسير الشافعي» (3/ 1354)، و«المحيط في اللغة» (2/ 487) «أ م م»، و«الإفصاح عن معاني الصحاح» (4/ 48)، و«تفسير الرازي» (30/ 538)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (1/ 445)، و«روح البيان» (9/ 513)، و«التحرير والتنوير» (28/ 208).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (3)، و«صحيح مسلم» (160).

أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ﴾ [العنكبوت: 48]، وهذا أدعى إلى أن تتحقق فيه البشارة التي بَشَّر بها الرسل والأنبياء السابقون ببعثة النبي الأُمِّيِّ، فهي تتحقق بهذه الصفة، وهو أدعى إلى أن يتقبل العرب منه ويستجيبوا له ويتجمعوا حوله؛ لأنه رسول منهم، وهو نبيهم صلى الله عليه وسلم؛ لئلَّا يرتاب المبطلون، أو يظنوا أنه تلقَّى هذا العلم من أحد أو قرأه في الكتب؛ فهو الأُمِّيُّ الذي علَّم البشرية كلها، واستفتح نبوته بـ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وجاء بالكتاب العظيم، وأنشأ أعظم حضارة على وجه الأرض.

﴿تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾: وهذا هو **المقصد الأول**، وبدأ بالتلاوة؛ لأنها أول مراحل العلم، وأول ما خُوطب به صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، ومعناها: اتْلُ[1]، كما قال سبحانه: ﴿رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ □□□□﴾ [العنكبوت: 45]، ولذا سُمِّيت قراءة القرآن: تلاوة، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]. فالتلاوة، وإن كانت أولى المراحل، إلا أنها مشعرة بما بعدها من المتابعة والتأسِّي والإِذعان.

والآيات هي: آيات الله، أو آيات القرآن[2].

﴿بَعْضُكُمْ ﴾: وهذا هو **المقصد الثاني**: وهو تزكية القلوب[3]، وهو مقصد عظيم؛ لأن مدار النجاح والفلاح على صلاح القلوب واستعدادها لتلقي الوحي وقبوله والإيمان به، وما يترتب على ذلك من حسن التنسك والعبادة، والصلة بالله التي هي سِرُّ الخشية والتقوى والخلق الكريم، والعلم الشرعي ليس المقصود به التكثُّر أو المباهاة أو المفاخرة، وإنما تزكية النفوس، وهذه دعوة إبراهيم عليه السلام:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (18/ 407)، و«تفسير الماتريدي» (4/ 310)، و«الوجيز» للواحدي (ص381)، و«تفسير القرطبي» (8/ 362)، و«البحر المحيط في التفسير» (4/ 227)، وما سيأتي في «سورة العلق».

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 538).

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 6)، و«تفسير القرطبي» (18/ 92)، و«فتح القدير» (5/ 268).

﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا﴾ [البقرة: 129]، والتي تحقَّقت ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

وذكر التزكية التي هي أثر عن العلم؛ دليل على أن تصحيح المعرفة وتصحيح الفكر وضبط (عادات التفكير) أسبق من تصحيح السلوك، فالتزكية أثر عن المعرفة الصحيحة والفكر السليم، فالعقل أولًا، والقلب ثانيًا.

﴿إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾: وهذا هو **المقصد الثالث**، و﴿بَعۡضٍ﴾ يقتضي الكتابة، فهو أُمِّيٌّ يُعلِّم الناس الكتابة[1]، ولذا قال الشاعر[2]:

أَخوكَ عيسى دَعا مَيْتًا فَقامَ له *** وأَنتَ أَحيَيتَ أَجيالًا مِنَ الرِّمِمِ

ولهذا رُوي عنه صلى الله عليه وسلم: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم**»[3]. يعني: ذكرًا كان أو أنثى.

والكتابة أصبحت جزءًا من ضرورة الشريعة في مسائل وأحكام كثيرة، كما في البيوع مثلًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة: 282]، ولم يعلِّمهم الكتابة بالخط أو بالقلم فحسب، بل علَّمهم ما هو أوسع من ذلك؛ إذ فتح مداركهم للمعرفة وللاطلاع وللبحث.

يا طالِبي عِلمَ النَبِيِّ مُحَمَّدٍ *** ما أَنتُمُ وَسِواكُمُ بِسَواءِ

فمِدادُ ما تَجري بِهِ أَقلامُكُم *** أزكى وأفضلُ مِن دَمِ الشُهَداءِ[4]

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 431)، و«تفسير القرطبي» (18/ 92)، و«فتح القدير» (5/ 268).

(2) ينظر: «الشوقيات» (1/ 201).

(3) أخرجه ابن ماجه (224)، وغيره من حديث أنس رضي الله عنه، وسيأتي تخريجه في «سورة العلق»: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا﴾.

(4) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (1/ 151) منسوبًا إلى ابن دُريد، و«الأربعين الطائية» (ص129)، و«معجم السفر» (ص213) منسوبًا إلى ابن الأنباري.

ولم يكن الإسلام يخاف من المعرفة، ولا يحجر عليها، إلا ما كان ضررًا مَحْضًا أو غالبًا؛ بل جعل للعلم تلك المكانة العالية، وجعل فضل العلماء على سائر الناس كفضل القمر على سائر الكواكب[1].

والكتاب هو أيضًا القرآن[2]، وهو أعظم الكتب وأشرفها وأجمعها لخير الدنيا والآخرة.

﴿وَأَخَذْنَ﴾، **فالمقصد الرابع**: أن يعلِّمهم الحكمة، وقد تكون هي السنة، كما قاله غير واحد من السلف[3]؛ وهي المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفي هذا إشارة إلى ما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم من جوامع الكَلِم، وإلا فإن لفظ الحكمة أبعد من ذلك، **فالحكمة** هي: القول المحكم المبني على الخبرة والتجربة والمعرفة، **والحكمة** هي: البصيرة، وهذا لا يتحقَّق إلا بطول المجالسة والاقتباس والتأسِّي، وهي أثر من صفاء القلوب بالتزكية، وصفاء العقول بالمعرفة.

وعقَّب بقوله: ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ﴾ وهذا انتقال من الصلاح إلى الإصلاح، ففي المقام الأول: تزكية ذاتية للفرد والجماعة.

والتدرُّج والترقِّي ينتقل بهم إلى أن يكونوا علماء حكماء قادة.

---

(1) كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «**وإن فضلَ العالم على العابد، كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب**». أخرجه أحمد (21715)، وأبو داود (3641)، والترمذي (2682)، وابن ماجه (223)، وابن حبان (88).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 447)، و«الكشاف» (4/ 530)، و«تفسير الرازي» (30/ 538)، و«تفسير القرطبي» (18/ 92)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 211)، و«تفسير الخازن» (4/ 289)، و«فتح القدير» (5/ 268)، و«تفسير القاسمي» (9/ 227).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 627)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7456)، و«المحرر الوجيز» (5/ 306)، و«تفسير الرازي» (30/ 538)، والمصادر السابقة.

ومما ظهر لي في الجمع بين الكتاب والحكمة: أن **الكتاب** يعني: الكتابة والقراءة والفهم والتعليم. وأن **الحكمة** هي: البصيرة والخبرة وخلاصة التجربة الإنسانية.

فهذه هي المقاصد الأربعة للبعثة، **وهذا مدعاة إلى أن نتساءل دائمًا:** هل الاهتمامات التي تشغل حياتنا اليوم، سواء كانت علمية معرفية، أو دعوية، أو اجتماعية، أو سياسية، هي ضمن هذه الأربع وبشكل جوهري؟ أم إننا فرَّطنا كثيرًا في الأولويات، وأصبحنا نُضيع كثيرًا من الوقت والجهد في أمور ليست جوهرية؛ بل هي فروع وتفصيلات في الشريعة وقع الخُلف فيها، واختار كل إمام أو فريق ما يميل إليه، أو هي جزئيات من أمر الحياة الدنيا لا يتعلق بها نهوض ولا نجاح ولا فلاح[1]!

﴿مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا﴾ أي: وإنهم كانوا قبل بعثته صلى الله عليه وسلم في ضلال مبين[2].

ويمكن ربط هذه المقاصد الأربعة بأسماء الله الأربعة، فمن كمال ملكه سبحانه أن يوجِّه إلى عباده الرسالة، ويُقيم لهم الطريق والمحجَّة، و«القدُّوس» يُناسب قوله: ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾؛ لأن القَدَاسة والتزكية متقاربان، والتقديس: تزكية، ولذا يسمَّى الصَّدِيق التَّقي: قِدِّيسًا. و«العزيز» يناسب تعليم الكتاب، وقد وصف الله كتابه بأنه عزيز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت: 41]، **والعِزُّ** هو: بالتمسك بهذا الكتاب

(1) ينظر: «كيف نختلف؟» للمؤلِّف.

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 447)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 294)، و«تفسير البغوي» (8/ 111)، و«روح البيان» (9/ 515)، و«فتح القدير» (5/ 268)، و«التحرير والتنوير» (28/ 210).

والأخذ به، و«الحكيم» يناسب تعليم الحكمة، فهو يُلْهِم عباده الصالحين الذين يقتبسون من وحيه الحكمة والصواب في أقوالهم وآرائهم ودعائهم[1].

* ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾:

النص هنا يبيِّن أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن نبيًّا خاصًّا بالعرب؛ بل هو رسول للأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، ولكل أحد من الناس بلغته رسالته.

والمقصود: آخرون من العرب من الأجيال اللاحقة من التابعين وتابعي التابعين، أو من كانوا صغارًا وقت النبوة[2]، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**وَدِدْتُّ أَنَّا قد رأينا إخواننا**»[3].

فتشوَّف إلى أن يرى المؤمنين الذين آمنوا به، ووعدهم بأن الصابر منهم على دينه له أجر خمسين[4]، فهؤلاء من «الأميين»، ولكنهم لم يلحقوا بهم في الزمان والرتبة، وهم متأخرون عنهم.

وقال صلى الله عليه وسلم: «**خيرُ أُمَّتي قَرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[1].

---

(1) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص30، 33، 52)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص43، 60، 214، 237)، و«التحرير والتنوير» (28/ 207)، و«مع الله» (ص71، 84، 197).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 311)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 306)، و«تفسير البغوي» (8/ 114)، و«تفسير القرطبي» (18/ 93)، و«الدر المنثور» (8/ 153).

(3) أخرجه مسلم (249) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) كما في حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه. أخرجه أبو داود (4341)، والترمذي (3058)، وابن ماجه (4014)، وابن وضَّاح في «البدع والنهي عنها» (192)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» (31)، وابن حبان (385)، والحاكم (4/ 322)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (404، 957)، و«السلسلة الضعيفة» (1025).

وقال أيضًا: «**مثلُ أُمَّتي مثلُ المطر، لا يُدرى أولُهُ خيرٌ أم آخرُهُ**»[2].

وفيه إشارة إلى فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأن الله تعالى اختارهم لصحبة النبي صلى الله عليه وسلم والتلقِّي عنه، وفضَّلهم على غيرهم من أصحاب الأنبياء السابقين، وفضَّلهم على غيرهم من اللاحقين، فهم أفضل الأمم من حيث الجملة.

ويحتمل السياق معنى آخر؛ وهو أن المقصود: الأمم الأخرى من غير الأميين[3]، وكأن الضمير في قوله: ﴿مِّنَ﴾ يعود إلى المبعوث إليهم عامة، وليس إلى الأميين خاصَّة، وكأنه قال: هو الذي بعث في الأميين وبعث في آخرين أيضًا، أو يرجع إلى قوله: ﴿مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا﴾ يعني: وآخرين ممن كانوا في ضلال مبين بعث فيهم محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وعلى هذا فالآية تؤكِّد أن الرسالة للبشر كلهم جميعًا.

ومما يُعزِّز هذا: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فأُنزلت عليه «سورةُ الجمعة»: ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ﴾ قال: قلتُ: مَن هم يا رسولَ الله؟ فلم يراجعه حتى سألَ ثلاثًا، وفينا سلمانُ الفارسيُّ، فوضع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمانَ، ثم قال: «**لو كان الإيمانُ عند**

---

(1) أخرجه البخاري (2651، 3650، 6428، 6695)، ومسلم (2535) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.

وأخرجه البخاري (2652، 3651، 6429، 6658)، ومسلم (2533) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (2534، 2536) من حديث أبي هريرة، وعائشة رضي الله عنهما.

(2) تقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿□□□□□□□□﴾.

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 539)، و«تفسير السعدي» (ص862)، و«التحرير والتنوير» (28/ 211).

الثُّرَيَّا، لنالَهُ رجالٌ- أو: **رجلٌ- من هؤلاء**»[1]. ولهذا قال مجاهد في الرواية المشهورة عنه: هم الأعاجم[2].

وقيل: هم الفرس[3]. وهو يعود إلى ما قبله.

وقيل: هم الأطفال الصغار[4].

وقيل: هم الأمم الأخرى[5].

وكل ذلك داخل في معنى الآية، فهؤلاء الآخرون الذين بُعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيهم لم يكونوا في درجتهم، أو لم يكونوا في زمانهم، وهذه معجزة نبوية في إخباره صلى الله عليه وسلم بالغيب؛ لأنه يومئذ لم يكن من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم إلا القليل من الناس، كان فيهم سلمان الفارسيُّ، وصُهيب الرُّوميُّ[6]، وبلال الحبشيُّ رضي الله عنهم، أفراد يُعَدُّون على الأصابع، والسياق هنا عن أمم بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم وسيلحقون بهم؛ لأن قوله: ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: لم يلحقوه ولكنهم قاربوا أن يلحقوا[7]، وهكذا كان؛ فإن كل شعب

---

(1) أخرجه البخاري (4897)، ومسلم (2546).

(2) ينظر: «تفسير ابن وهب» (1/ 50)، و«تفسير الطبري» (22/ 628)، و«زاد المسير» (4/ 281)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 116)، و«التحرير والتنوير» (28/ 212).

(3) ينظر: «تفسير ابن جزي» (2/ 373)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 171)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 116).

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 7)، و«زاد المسير» (4/ 281).

(5) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (14/ 944)، والمصادر السابقة.

(6) لم يكن رضي الله عنه روميًّا، وإنما نُسب إلى الروم؛ لأنهم سبوه صغيرًا. ينظر: «الاستيعاب» (2/ 726)، و«الإصابة» (3/ 364).

(7) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 431)، و«تفسير النسفي» (3/ 480)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 325)، و«روح المعاني» (14/ 289).

شعب من شعوب الأرض كان له أثر وعمل في خدمة الدين ورفعة شأنه، وقد نبغ علماء من غير العرب وتميَّزوا باللغة العربية والبلاغة والفصاحة، وكتبوا، وألَّفوا، وأصَّلوا، ونظَّروا، وفي النحو كذلك، وفي الحديث النبوي والفقه، ولعل المؤلِّفين من غير العرب أكثر وأشهر، وهؤلاء الأئمة الستة الذين صنَّفوا الكتب الستة في السنة النبوية غالبهم من الأعاجم، وكذلك أئمة التفسير، أما الأئمة الأربعة المتبوعون في الفقه فهم من العرب، غير أبي حنيفة فهو من فارس، رحمهم الله جميعًا.

* ﴿فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾:

أي: فضل الله تعالى بالرسالة للنبي صلى الله عليه وسلم واختياره، وفضل الله واختياره للعرب الأُمِّيِّين، وكون الرسول منهم والقرآن بلغتهم، وفي ذلك رد على الحاسدين، وخاصة اليهود الذين حسدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، والحاسد في حقيقة الأمر يعترض على قضاء الله تعالى واختياره[1].

﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟﴾: ففضله يعود على مَن اختارهم بما لم يكونوا يحتسبون، وهو واسع أيضًا لغيرهم ممن تواضع لعظمته وسأله من فضله.

* ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾:

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 539)، و«تفسير الخازن» (4/ 290)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 117)، و«تفسير القاسمي» (9/ 229).

انتقل السياق إلى الحديث عن أمة سابقة لها كتابها ورسولها وتاريخها يشبه من بعض الوجوه تاريخ الأمة المحمدية؛ وهم اليهود[1].

وفي الآية إشارة إلى أنهم كُلِّفوا ذلك الأمر على غير طوعهم، وثمة فرق بين مَن يختار الخير ويقصده ويبحث عنه، وبين مَن فُرضت عليه بعض الفروض أو العادات أو الرسوم فرضًا بسبب البيئة أو المجتمع الذي من حوله من غير أن يكون عنده اختيار؛ ولهذا فرَّق أهل العلم بين مسلمة الاختيار ومسلمة الاضطرار.

و﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ هي: الكتاب الذي أُنزل على موسى عليه السلام.

والحمل هنا معنوي من باب: الحَمَالَة، كما تقول: فلان تحمَّل دينًا أو تبعةً معنوية[2]؛ ولكن اليهود لم يحملوها، أي: لم يقوموا بها[3]، فهم قرؤوها، وحفظوها، ظانين أنهم بذلك حملوا الأمانة وأدَّوها، ولكنهم لم يعملوا بها، ولم يقوموا بحقها، وفي ذلك تحذير للأُمِّيِّين أن يسلكوا سبيلهم، وحَثٌّ على أن يحققوا مقاصد الرسالة المشار إليها في أول السورة، وأَلَّا ينشغلوا باللفظ عن المعنى، ولا بالوجاهة والرئاسة والتصدر عن الإيمان والتقوى، ولا بالرسوم والأشكال الظاهرة عن الحقائق والمعاني والأحوال.

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾: والمقصود ليس تشبيه شخص بعينه؛ لأن سياق الكلام هنا ليس عن شخص؛ بل عن أمة أو طائفة، وإنما ضُرب المثل بالحمار؛ لأنه من أكثر الحيوانات بلادة.

---

(1) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 295)، و«تفسير القرطبي» (18/ 94)، و«تفسير القاسمي» (9/ 229)، و«التحرير والتنوير» (28/ 213).

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 432)، و«تفسير الرازي» (30/ 539)، و«تفسير القرطبي» (18/ 94)، و«تفسير الخازن» (4/ 290).

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7461)، و«الوجيز» للواحدي (ص1095)، و«تفسير البغوي» (8/ 114).

وكان اليهود يفاخرون العرب بأنهم يقرؤون التوراة، وأنهم أصحاب علم وأهل كتاب، ويحتقرون العرب الأُمِّيِّين، وكان العرب يُسلِّمون لهم تسليم الجاهل للعالم، فلما كفروا وجحدوا فضحهم الله، وحقَّرهم، وكشف حقيقة أمرهم.

والمثل هنا يختلف عن قوله: ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ □ □ □□□﴾ [الأعراف: 175- 176]، فـ«المثل» هنا حكاية عن شخص بعينه[1].

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم﴾: كذَّبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنكروا بعثته، وفي أحسن الأحوال قالوا: هو رسول العرب الأُمِّيِّين.

﴿بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم﴾؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بجحد الحق، وظلموا أتباعهم بحرمانهم من الاتباع الصادق، وظلموا الحقيقة بالتنكر لها وافتروا.

وفي الآية بيان أن الله لا يهديهم، وأنه ميئوس منهم، وسيظلون كذلك، وهكذا وُجد، فمع أن الرسالة بُعثت وهم في المدينة، ثم طُردوا منها، ومن خيبر، ومن جزيرة العرب، إلا أن موقفهم ظل كما هو إلى اليوم وإلى الأبد، ولم يُسلم منهم إلا أفراد قلائل، كما أسلم عبد الله بن سلَام رضي الله عنه.

* ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ □□□□□ □﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (10/ 566)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (5/ 1616)، و«تفسير الماوردي» (2/ 279)، و«المحرر الوجيز» (2/ 478)، و«زاد المسير» (2/ 168)، و«تفسير الرازي» (15/ 405)، و«تفسير ابن كثير» (3/ 509).

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ﴾، وفي هذا تحقيق لمقام النبوة وخطاب للنبي الأُمِّيِّ أن يخاطبهم، ويقول لهم: إن الله تعالى يختبرهم بهذا.

وسمى اليهود بهذا؛ لأنهم عادوا وتابوا في عهد موسى عليه السلام إلى الله، وقالوا: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الأعراف: 156][1].

ويمكن أن يكون نسبة إلى يهوذا بن يعقوب، أو مملكة يهوذا التي عاشوا في ظلها حقبة من الزمن[2].

﴿أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾: لقد كان مما ادَّعوه أنهم أولياء الله وأبناؤه وأحباؤه، وأنهم فُضِّلوا بيوم السبت[3]، فواجه دعواهم بهذه المطالبة لإثباتها؛ ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: أي: فادعوا على أنفسكم بالموت[4].

والأمر بتمنِّي الموت ليس من باب ما جاء في النهي عن تمنِّي الموت، كما في حديث: «**لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ من ضُرٍّ أصابَهُ**»[5]. فإن الأمر بتمني الموت هنا يحمل على المباهلة، والله تعالى ذكر المباهلة في القرآن مع اليهود في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [البقرة: 94]، بأن يجتمعوا فيدعوا على أنفسهم جميعًا أينا كان أرشد وأصدق وأقوم بأمر الله أن الله تعالى يحفظه وينجيه، وأن يهلك الظالم،

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (2/ 32)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (5/ 1577)، و«تفسير الماوردي» (2/ 266)، و«تفسير ابن كثير» (3/ 481)، و«الدر المنثور» (1/ 182).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (1/ 122)، و«المحرر الوجيز» (1/ 157)، و«اللباب في علوم الكتاب» (2/ 401).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 215).

(4) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص465)، و«تفسير البغوي» (8/ 115).

(5) أخرجه البخاري (5671)، ومسلم (2680) من حديث أنس رضي الله عنه.

والمباهلة مع النصارى في قوله: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□﴾ [آل عمران: 61]، ومع الوثنين في قوله: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥﴾ [مريم: 75].

وهم لن يتمنوه، كما قال هنا: ﴿ٱللَّهَ كَانَ﴾، وهو خبر، وفي «سورة البقرة» قال: ﴿٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ﴾ [البقرة: 95]، وهو نفي، فهم ﴿ٱللَّهَ كَانَ﴾ الآن، ﴿٢٠ وَكَيۡفَ﴾ في المستقبل.

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم لو تمنَّوه لم يبق على الأرض يهوديٌّ إلا مات[1].

﴿رَّحِيمٗا ٢٣ □□﴾، فهم يعرفون في دواخلهم أنهم ليسوا أولياء الله وليسوا على هُدى، وما قدمت أيديهم هو ما عملوا، وإنما يعبِّر باليد عن كل ما عمله الإنسان من قول أو فعل أو عمل؛ لأن غالب معاناة الأفعال باليد[2].

﴿□□□﴾: فهم ظالمون لا ينفكون عن الظلم؛ وليسوا لله بأولياء؛ لأن الولاية لا تجتمع مع الظلم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: 124].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

شبَّه حالهم بحال مَن يفرُّ من الموت، ولا مَفَرَّ منه، فلا بد لكم من الموت.

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (1/ 280- 281)، و«مسند أحمد» (2225)، و«مسند البزار» (4814)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10995)، و«مسند أبي يعلى» (2604)، و«تفسير الطبري» (2/ 268- 269)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (1/ 177)، و«المختارة» (12/ 142)، و«فتح الباري» (8/ 724)، و«السلسلة الصحيحة» (3296). وورد في بعض المصادر مدرجًا مرفوعًا، وهو خطأ.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (2/ 274)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (1/ 355)، و«تفسير البغوي» (1/ 123)، و«روح المعاني» (14/ 291)، و«التحرير والتنوير» (1/ 616).

وفيها تذكير بالأجل وقرب حلوله، ولو كان منتهى الأمر الموت لهان الأمر، ولكن بعد الموت بعث ونشور وجنة ونار:

ولو أنا إذا مُتنا تُركنا *** لكان الموتُ راحةَ كلِّ حيٍّ

ولكنَّا إذا مُتنا بُعثنا *** ونُسألُ بعدَ ذا عن كلِّ شيء[1]

وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿□□□□□□□□□□□ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: 205- 207].

﴿□□□□□□﴾: الذي يعلم سركم ونجواكم، ﴿□□□□﴾؛ وجاء التذكير بالموت كثيرًا في القرآن الكريم، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، بل ندب إلى الإكثار من تذكره؛ كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «**أكثروا ذكرَ هاذمِ اللَّذَّات**»[2]. أي: هادمها وقاطعها[3].

فالموت حقيقة واقعة، لا ينكرها إلا مسلوب العقل، وتذكر الموت لا يراد به إفساد حياة الناس والفرار من لأوائها بطلب الموت، ولا الحرمان من المتعة والبهجة والنعيم، كلا! وإنما لإصلاح الحياة بزجر النفس عن الظلم والإفساد والتعدِّي ونسيان حقوق الخلق والخالق ويحفِّزها على تدارك الزمان واغتنام الفرص والمبادرة.

ولذا كان الحث على استذكار النهاية أحد الوصايا الأساسية التي يكرِّرها علماء التنمية البشرية، كما فعل ستيفن كوفي صاحب كتاب «العادات السبع»، وستيف جويز صاحب شركة (أبل).

---

(1) ينظر: «ديوان علي بن أبي طالب» (ص220)، و«أدب الدنيا والدين» (ص120).

(2) سيأتي تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ﴾.

(3) ينظر: «المصباح المنير» (2/ 636) «هـ د م»، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (2/ 560- 561)، و«مرقاة المفاتيح» (3/ 1160)، و«تحفة الأحوذي» (6/ 489).

فالموت حافز على العمل والنجاح والصفاء واستثمار الوقت، ولا يشرع أن يكون الحديث عن الموت سلبيًّا بوصف الميت وحال بدنه بعد دفنه، وتعفنه وسريان الدود في لحمه وعظامه، والتهييج على النياحة، وإنما المشروع أن يكون الموت موعظة تجعل الإنسان أكثر انتفاعًا بالحياة، وأكثر عملًا فيها، وأبعد عن مقارفة المعاصي والاستجابة للمغريات والشهوات.

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾:

انتقل من مخاطبة ﴿عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ﴾ وتقريعهم إلى مخاطبة ﴿أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ من الأمة الرسالية الخاتمة: ﴿زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾.

والمقصود: النداء الذي يكون عند صعود الخطيب إلى المنبر[1]، ويسمى: النداء الثاني[2]، وأما النداء الأول فقد أمرَ به أميرُ المؤمنينَ عثمانُ رضي الله عنه[3]؛ حتى يستعد الناسُ لصلاة الجمعة، ويكون قبل دخول الوقت.

و﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ للتبعيض[4]، أي: وقت الزوال، ويوم الجمعة هو اليوم الذي خصَّ الله به تعالى هذه الأمة، فاليهود كانوا يفتخرون بيوم السبت، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة، وهو قبل يوم السبت؛ ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**نحن الآخرونَ،**

---

(1) ينظر: «فتح الباري» لابن رجب (8/ 215- 217).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 637)، و«تفسير البغوي» (8/ 115)، و«زاد المسير» (4/ 282)، و«فتح القدير» (5/ 270)، و«تفسير القاسمي» (9/ 230).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (912).

(4) ينظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1212)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 300)، و«روح البيان» (9/ 522)، و«التحرير والتنوير» (28/ 226).

ونحن السابقونَ يومَ القيامة، بيد أن كلَّ أمة أُوتيت الكتابَ من قبلنا، وأُوتيناه من بعدهم، ثم هذا اليومُ الذي كتبه اللهُ علينا، هدانا اللهُ له، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ، اليهودُ غدًا، والنصارى بعد غد»[1].

والعرب كانوا تبعًا للأمم الكتابية قبل البعثة، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم، وشرع الله تعالى لهم يوم الجمعة، والجمعة اسم إسلامي قرآني، وبعضهم يقولون: إنه كان معروفًا على قلة عند العرب، فقُصَيٍّ بن كِلاب كان يُسمَّى: مُجَمِّعًا، وهو الذي قيل فيه:

أبوكم قُصَـيٌّ كان يُدْعَى مُجَمِّعًا *** به جمعَ اللهُ القبائلَ من فِهْرِ[2]

لكن الأقرب أنه اسم إسلامي جاء به القرآن، وكان يُسمَّى في الجاهلية: العَروبة، بفتح العين.

وكان العرب في الجاهلية يسمون يوم الأحد: أول، والاثنين: أَهْوَن، والثلاثاء: جُبَار، أو: جِبار، والأربعاء: دُبَار، أو: دِبار، والخميس: مُؤْنِس، والجمعة: العَروبة، والسبت: شِيار[3].

ولا شك أن الأسماء المتداولة اليوم كانت معروفة عند العرب، وربما كانت الأسماء المشار إليها قديمة، وإلا فالسيرة النبوية والروايات تدل على أنهم كانوا

---

(1) أخرجه البخاري (876)، ومسلم (855) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «طبقات ابن سعد» (1/ 59)، و«نسب قريش» (ص375)، و«ربيع الأبرار» (2/ 467)، و«البداية والنهاية» (3/ 222) منسوبًا إلى حذافة بن غانم العدوي.

ونُسب إلى غيره. ينظر: «جمهرة اللغة» (2/ 731)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (1/ 294)، و«الفائق» للزمخشري (3/ 184).

(3) ينظر: «الأيام والليالي والشهور» للفراء (ص37)، و«الأزمنة وتلبية الجاهلية» لقُطْرُوب (ص36)، و«المطلع على ألفاظ المقنع» (ص135)، و«لسان العرب» (1/ 593)، و«تاج العروس» (3/ 341) «ع ر ب».

يستخدمون أسماء الأيام المعروفة الآن، ولم يجر الإسلام لها تغييرًا جوهريًا، سوى الجمعة.

وفي «الجمعة» فضائل كَتَبَ العلماء فيها مصنفات، وأشار ابن القيم إلى طرف منها في «زاد المعاد»[1]، منها: فضيلة اجتماع المسلمين للصلاة وقت الزوال، والخطبة، وأن صلاة الجمعة جهرية، ومشروعية الاغتسال، والطيب، ولبس أحسن الثياب، وساعة الإجابة، وقراءة «سورة الأعلى» و«سورة الغاشية» في صلاة الجمعة، وقراءة «سورة السجدة» و«سورة الإنسان» في فجرها.

وأوصل بعضهم خصائص الجمعة إلى أكثر من مئة خصيصة أو تزيد.

وأول جمعة في الإسلام كانت في المدينة، أقامها أسعد بن زُرارة، ومصعب بن عُمير رضي الله عنهما[2]، وكان كعب بن مالك رضي الله عنه كلما سمع نداء الجمعة ترحَّم على أسعد بن زُرارة، فقال له ولده: أراك تترحَّم عليه. قال: نعم، هو أول مَن جمع بنا الجمعة في نقيع يقال له: نَقِيع الخَضِمات، قبل أن يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم[3].

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم كان وصوله المدينة يوم الاثنين، فجلس في قباء، وفي يوم الجمعة انطلق إلى المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، في بطن واد لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجدًا، فصلَّى فيه النبي صلى الله عليه وسلم،

---

(1) ينظر: «الجمعة وفضلها» للمروزي، و«الجمعة» للنسائي، و«زاد المعاد» (1/ 363)، و«اللمعة في خصائص الجمعة» للسيوطي.

(2) **قيل**: إن أول مَن جمَّع في المدينة مصعب بن عُمير رضي الله عنه. ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (5146)، و«الأوائل» لابن أبي عاصم (47). **وقيل**: إن أول مَن جمَّع هو أسعد زُرارة رضي الله عنه، كما في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه. وقد جُمع بين الروايتين بأن أسعد كان آمرًا، ومصعب كان إمامًا. ينظر: «التلخيص الحبير» (2/ 115)، و«عون المعبود» (3/ 283).

(3) أخرجه أبو داود (1069)، وابن ماجه (1082)، وابن خزيمة (1724)، وابن حبان (7013)، والحاكم (3/ 187). وينظر: «إرواء الغليل» (600).

وخطب في ذلك اليوم خطبة مروية ذكرها القرطبي في «تفسيره»[1]، وإن كانت تحتاج إلى التوثيق من سندها.

و«السعي إلى ذكر الله» هو: المضي إلى المسجد مشيًا بسكينة ووقار.

﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾: فامْضُوا إلى ذكرِ الله، واعملوا له؛ **وأصل السعيِ في هذا الموضع**: العمل، أي: التوجُّه لاستماع الخطبة والصلاة، والمضي إليها، وترك ما يشتغل به من أعمال تؤخِّر عنها.

قال قتادة: «أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المضيُّ إليها»[2].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لو كان السعي لسعيتُ حتى يسقط ردائي». قال: ولكنها: «فامضوا إلى ذكر الله»[3].

وهذا يبيِّن أن المراد بالسعي التوجه والمضي إلى الصلاة، وليس المقصود السعي بمعنى العَدْو والإسراع في المشي.

و«ذكر الله» هو الخطبة والصلاة **على القول الراجح**[4]، وسماها: «ذكرًا»؛ لما فيها من ذكر الله سبحانه.

وفي ذلك إشارة إلى أن هذا مقصد الخطبة؛ ولذلك جعلت الجمعة ركعتين، بخلاف الظهر، فكأن الخطبتين مقام الركعتين[5]؛ ولذلك ينبغي أن تكون الخطبة هادفة

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 98- 99).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 637)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 455)، و«تفسير القرطبي» (18/ 103)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 120).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 639).

(4) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 249)، و«تفسير القرطبي» (18/ 107)، و«التحرير والتنوير» (28/ 225).

(5) ينظر: «الكاشف عن حقائق السنن» (4/ 1275)، و«التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (7/ 558)، و«التحرير والتنوير» (28/ 223).

تخاطب القلوب وترقّقها وتشعل فيها جذوة الإيمان، وأن تكون توجيهات شرعية مؤصلة على قواعد النصوص لا على محض الاجتهادات الشخصية، ومن الخطأ أن نفرط أثناء الخطبة في تفصيلات جزئية تتحول إلى تصفية حسابات مع اتجاهات أو مذاهب أو أحزاب أو آراء.

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إذا أقيمت الصلاةُ فلا تأتوها تسعونَ، وأتوها تمشونَ عليكم السَّكينةَ، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا**»[1].

والمقصود: انبعاث القلب وتوجهه إلى ذكر الله، وترك الشواغل الأخرى، أي: استعدوا لذكر الله[2].

ويشهد لهذا المعنى: قوله تعالى: ﴿□□□□﴾ [الصافات: 102]، أي: أطاق الولد أن يمشي مع والده[3].

أو: فامضوا إلى ذكر الله، وهكذا كان يقرأها عمر وابن مسعود رضي الله عنهما، وكأنها قراءة للتفسير[4].

وينبغي أن نترقَّى بالخطبة؛ لتكون معنى يخاطب المصلِّين جميعًا؛ لأن الجمعة يحضرها المسلمون كلهم لزامًا، وقد استنصتهم الشرع للخطيب، لا لمعنى فيه يخصُّه حتى يجعل منبر الجمعة محلًّا لاجتهاداته الشخصية، ربما ليس لها دليل، بل يجب أن

---

(1) أخرجه البخاري (908)، ومسلم (602) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (21/ 454)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 448)، و«تفسير البغوي» (8/ 117)، و«تفسير الرازي» (30/ 542)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 120)، و«فتح القدير» (5/ 270).

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (7/ 46)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 120).

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 171)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 454)، و«تفسير القرطبي» (18/ 102)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 120).

تنحصر في محكمات الشريعة وقيمها وأصولها التي تهم الناس جميعًا، وأن تكون قبسًا من الذكر الحكيم، ودعوة إلى التزكِّي والتطهُّر والخلق العظيم، وعرضًا لسير الصالحين، وعلى رأسهم قادتهم من الأنبياء والمرسلين.

﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَـٰنًا﴾ أي: اتركوا البيع في هذا الوقت[1].

وفيه دليل على جواز البيع من حيث الأصل؛ لكن طلب منهم ترك ذلك وقتًا محدَّدًا؛ ولهذا لا يجوز البيع والشراء بعد نداء الجمعة الثاني عند جماهير أهل العلم[2]، وهو الصحيح، والبيع بعد ذلك باطل، وألحق طوائف من الفقهاء بالبيع والشراء ما كان في معناها من المعاملات المالية الأخرى؛ لأنها تشترك جميعًا في كونها تلهي عن ذكر الله[3].

﴿وَإِثۡمًا مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ﴾: فيه إلماح إلى قداسة هذا اليوم، وفضيلة هذا الوقت، وأنه وقت إجابة للدعاء، ووقت تجمع المسلمين، فهذا خير عند الله لَمَن كان لديه العلم الهادي بقيم الأشياء.

* ﴿بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾:

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 641)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7467)، و«زاد المسير» (4/ 283)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 122)، و«فتح القدير» (5/ 271).

(2) ينظر: «البناية شرح الهداية» (3/ 89)، و«المدونة» (1/ 234)، و«الأم» (1/ 224)، و«المبدع» (4/ 41)، و«المحلى» (7/ 517).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 108).

﴿بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي: انصرفتم منها[1]، ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ﴾، و﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾ غالبًا ما يُطلق على الرزق[2]؛ ولهذا شُرع لداخل المسجد قول: «**اللهمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتك**». وإذا خرج قال: «**اللهمَّ إني أسألُك من فضلك**»[3]. وفي الحج يقول سبحانه: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 198]. والمقصود: البيع والشراء[4].

وهكذا تأتي النصوص الشرعية لتربط ما بين الدين والدنيا، حتى لا يكون ثمة انفصال في واقع الحياة، فالدين لا يدعو إلى التخلِّي عن الدنيا وإهمالها، وذكر بعضهم أن في السعي في الأرض بعد الجمعة والضرب فيها والبيع والشراء بركة ورزقًا[5].

﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، فذِكْر الله لا ينبغي أن يقتصر على وقت الخطبة، أو في وقت الصلاة، أو في المسجد، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يذكرُ اللهَ على كلِّ أحيانه»[6].

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص466)، و«الوجيز» للواحدي (ص1096)، و«تفسير السمعاني» (5/ 435)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 122)، و«فتح القدير» (5/ 271).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 327)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 448)، و«تفسير الماوردي» (6/ 10)، و«تفسير الرازي» (30/ 542)، و«تفسير القرطبي» (18/ 108)، و«التحرير والتنوير» (28/ 227).

(3) أخرجه مسلم (713) من حديث أبي حُميد أو أبي أُسيد رضي الله عنه.

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (1/ 175)، و«تفسير الطبري» (3/ 504)، و«تفسير السمرقندي» (1/ 133)، و«التحرير والتنوير» (2/ 237).

(5) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (21/ 459)، و«تفسير الرازي» (30/ 543)، و«تفسير القرطبي» (18/ 108- 109)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 122- 123)، و«فتح الباري» لابن رجب (8/ 337).

(6) أخرجه مسلم (373).

وليس للذكر طقوس معينة، بل شُرِع للمؤمنين أن يذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، متوضِّئين وغير متوضِّئين، فقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يذكر اللهَ وهو جنب، غير أنه لا يقرأ القرآن إلا إذا تطَّهر، وفي حالة التبايع والمعاملات ينبغي ألَّا ينقطع فيها الذكر، وكان السلف يشوبون بيعهم بالذكر والدعاء والكلام المبارك.

* ﴿مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ﴾:

سبب نزول هذه الآية: ما رواه جابر رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة، فجاءت عِيرٌ من الشام، فسمع الناسُ وقعها، وعادة ما يكون معها دفوف وطبول تخبر بقدومها، فخرج أكثرُ الناس من المسجد، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطبُ، ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلًا، فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، يقول جابر رضي الله عنه: وأنا فيهم، فنزلت هذه الآية[1].

وقد ورد أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحدٌ، لسالَ بكم الوادي نارًا**»[2].

وقد كانت الحادثة في السنة الرابعة أو قريبًا منها، وكانت الخطبة بعد الصلاة[3]، فهؤلاء صلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وجلسوا يستمعون الموعظة، كما هي الحال

(1) أخرجه البخاري (2058)، ومسلم (863). وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص428).

(2) أخرجه أبو يعلى (1979)، والطبري في «تفسيره» (22/ 647)، وابن حبان (6877)، وابن بشكوال في «غوامض الأسماء المبهمة» (2/ 851)، وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (4/ 26- 28)، و«السلسلة الصحيحة» (3147).

(3) ينظر: «المراسيل» لأبي داود (62).

في صلاة العيد، ولم يكن الاستماع للخطبة واجبًا بعد، وكانوا في مجاعة شديدة وشظف من العيش، ومسهم الضُّر، وجاءت العِيرُ فتنادوا إليها.

ويظهر لي أن للمنافقين في هذا عملًا ويدًا، وهو تجرئة الناس على الانفضاض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج المتعجِّلون، وخرج الأعراب، وخرج أطراف الناس، حتى لم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلًا على سبيل التقريب[1].

وفي رواية: بقي ثلاثة عشر، أو أربعة عشر، ومن عَدَّ أسمائهم يتبين أنهم كانوا فوق الاثني عشر رجلًا، وبعضهم قدَّروا أنهم يستطيعون أن يسمعوا الفائدة أو الحكمة من غيرهم.

وبهذه الوجوه يزول الإشكال الذي يخطر بالبال في انصراف رجال الصدر الأول عن الخطبة إلى التجارة.

و«**اللَّهو**» تابع غير مقصود، بل المقصود: «**التجارة**»، وقرن تعالى بينهما؛ توبيخًا وتقريعًا لِمَن فضَّل التجارة على الذِّكر والحكمة، **وبدأ بالتجارة**؛ لأنها هي المقصود، ولذا قال: ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ ولم يقل: «إليهما»؛ لأن انفضاضهم كان قصده التجارة[2].

﴿وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وهذا دليل على أن خطبة الجمعة تكون عن قيام، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب قائمًا، ثم يقعد، ثم يقوم للخطبة الثانية[3].

وفي السياق شيء من التأنيب والتوبيخ؛ إذ كيف يتركون النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو قائم يحدِّثهم ويذكِّرُهم؟

---

(1) ينظر: «سنن الدارقطني» (2/ 307- 308)، و«سنن البيهقي» (3/ 259)، و«فتح الباري» (2/ 424).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 15)، و«تفسير الماوردي» (6/ 12)، و«فتح الباري» (2/ 424)، و«تحفة الأحوذي» (9/ 150).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (920)، و«صحيح مسلم» (862).

وقيامه يدل على احتفائه وحرصه، وهو الرؤوف الرحيم بهم.

﴿٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾ أي: ما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين في الآخرة خيرٌ مما ذهبتم إليه[1]، كما قال قبل: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾.

فالرزق عند الله عز وجل؛ ولهذا يُروى أن أبا هريرةَ رضي الله عنه مر بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: «يا أهلَ السوق، ما أعجزكم!». قالوا: وما ذاك يا أبا هريرةَ؟ قال: «ذاك ميراثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقْسَم، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه!». قالوا: وأين هو؟ قال: «في المسجد». فخرجوا سِراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرةَ لهم حتى رجعوا، فقال لهم: «ما لكم؟». قالوا: يا أبا هريرةَ، فقد أتينا المسجدَ، فدخلنا، فلم نر فيه شيئًا يُقْسَم. فقال لهم أبو هريرةَ: «أما رأيتم في المسجد أحدًا؟». قالوا: بلى، رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرءون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام. فقال لهم أبو هريرة: «ويحكم، فذاك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم»[2].

والقصة تدل على أن المجتمع المدني كان مجتمعًا بشريًّا، فلم يكونوا ملائكة في الأرض يخلفون، وكانت تحلُّ بهم الضرورات والحاجات، وفيهم القوي والضعيف، ولكن كان فيهم أكابر من عِلية الصحابة ومقدَّميهم، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزُّبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد رضي الله عنهم، بقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، ولما نزلت هذه الآية تأدَّب بها الصحابة رضي الله عنهم، ثم

(1) ينظر: «تفسير التستري» (ص168)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 212)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 124).

(2) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (1429)، وينظر: «الترغيب والترهيب» (1/ 58)، و«مجمع الزوائد» (1/ 124).

شُرعت الخطبة قبل الصلاة، فكانوا يأتون إليها مبكِّرين، ويستعدون لها بالطيب وجميل اللباس والغُسل والتبكير.

❍ ❍ ❍

سورة المنافقون

*** تسمية السورة:**

تُسمَّى: «**سورة المنافقون**» بالرفع على الحكاية[1]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ﴾.

أو: «**سورة المنافقين**» على الإضافة[2].

*** عدد آياتها:** إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدِّ[3].

*** وهي مدنية** بالاتفاق أيضًا[4]؛ لأن حركة النفاق لم تظهر إلا في المدينة.

*** وسبب نزولها** مشهور، **والراجح** أنه كان في غزوة المُرَيْسِيع، أو غزوة بني المُصْطَلق، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص661)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 301)، و«تفسير الطبري» (22/ 650)، و«المستدرك» (2/ 489)، و«تفسير البغوي» (8/ 126)، و«المحرر الوجيز» (5/ 311)، و«تفسير القرطبي» (18/ 120)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 125)، و«التحرير والتنوير» (28/ 231).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (6/ 152)، و«جامع الترمذي» (5/ 415)، و«مسند الحارث» (2/ 731)، و«مسند البزار» (10/ 217)، و«المستدرك» (2/ 488).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 650)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص247)، و«تفسير القرطبي» (18/ 120)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 86)، و«روح المعاني» (14/ 303)، و«التحرير والتنوير» (28/ 231).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 650)، و«المحرر الوجيز» (5/ 311)، و«تفسير القرطبي» (18/ 120)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 125)، والمصادر السابقة.

في غزاة، فكَسَعَ[1] رجلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فغضب الأنصارِيُّ غضبًا شديدًا، حتى تَدَاعَوْا[2]، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار. وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**ما بالُ دعوى الجاهلية؟**». قالوا: يا رسولَ الله، كَسَعَ رجلٌ من المهاجرينَ رجلًا من الأنصار. فقال: «**دعوها؛ فإنها منتنةٌ**». فسمعها عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ فقال: قد فعلوها، أَقَدْ تَدَاعَوْا علينا؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. قال عمرُ: دعني أضربْ عُنقَ هذا المنافق. فقال صلى الله عليه وسلم: «**دَعْهُ؛ لا يتحدَّثُ الناسُ أن محمدًا يقتلُ أصحابه**»[3].

وعن زيد بن أَرْقم رضي الله عنه قال: كنتُ في غزاة، فسمعتُ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلُولَ يقول: لا تنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فذكرتُ ذلك لعمي أو لعمر، فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم، فدعاني فحدَّثته، فأرسل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصدَّقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلستُ في البيت، فقال لي عمي: ما أردتَ إلى أن كذَّبك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومَقَتَكَ؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿أَرَضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ...﴾. فبعث إليَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقرأ، فقال: «**إن اللهَ قد صدَّقك يا زيدُ**»[4].

(1) أي: ضرب دبره بيد أو رجل أو سيف. ينظر: «النهاية» (4/ 173)، و«لسان العرب» (8/ 309) «ك س ع».

(2) أي: حتى استغاثوا. ينظر: «عمدة القاري» (16/ 88)، و«إرشاد الساري» (6/ 14).

(3) أخرجه البخاري (4905)، ومسلم (2584).

(4) أخرجه البخاري (4900)، ومسلم (2772).

وقيل: إن الحادثة وقعت في غزوة تبوك، وهو ضعيف، بل كانت في غزوة بني المُصْطَلِق- وهي: المُرَيْسِيع- في السنة الخامسة من الهجرة[1].

* ﴿أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم﴾:

﴿مِّنَ﴾ جمع: منافق، وهو اصطلاح شرعي جديد لم يكن مستخدمًا من قبل، وهو مأخوذ من النفق، وهو الطريق الخفي المفتوح من جهتيه[2]، وبعض الحيوانات تحفر في الأرض حفرة وتجعل لها بابين إن حوصرت من هنا خرجت من هنا، فهم قد وضعوا رِجْلًا مع الإسلام ورِجْلًا مع الكفر، فإن غلب هؤلاء كانوا معهم، وإن غلب هؤلاء كانوا معهم، وأول مَن أنشأ النفاق في المدينة هم اليهود، فهم مؤسِّسو النفاق وزعماؤه؛ ولذلك كان كثير من المنافقين من يهود أهل المدينة الذين أظهروا الإسلام، وفيهم من الأوس والخزرج الذين تأثروا بهم[3].

﴿أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ﴾: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم[4].

وينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 120- 122، 127)، و«المحرر الوجيز» (5/ 311)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 127)، و«فتح القدير» (2/ 436)، و«روح المعاني» (14/ 304)، و«التحرير والتنوير» (25/ 231- 232).

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (2/ 290)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (4/ 44)، و«تفسير السمعاني» (5/ 444)، و«الروض الأنف» (7/ 18)، و«أسد الغابة» (1/ 574)، و«عيون الأثر» (2/ 128)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 127)، و«فتح الباري» (8/ 649)، و«إرشاد الساري» (7/ 387)، و«التحرير والتنوير» (28/ 231- 232).

(2) ينظر: «العين» (5/ 177- 178)، و«تاج العروس» (26/ 432) «ن ف ق».

(3) ينظر: «الإيمان» لابن تيمية (ص235)، و«السيرة النبوية» لأبي شُهبة (2/ 42).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 650)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 125)، و«فتح القدير» (5/ 274)، والمصادر الآتية.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى﴾: فيعلنون إيمانهم خداعًا وحقنًا لدمائهم، وبحثًا عن مصلحتهم العاجلة، ويُقسمون على ذلك، أو أن الشهادة ذاتها تعتبر قَسَمًا ويمينًا وهم لم يقولوا: «نعلم»، وإنما صرحوا بلفظ: الشهادة: ﴿وَأُمَّهَٰتُ﴾.

والشهادة: إقرار بالشيء كأنه يشاهده بعينه من شدة يقينه، وهم يؤكِّدون الشهادة بحرف «إنَّ»، وباللام، وبالقَسَم[1].

﴿حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى﴾، ولأن الآية وصفتهم بالنفاق ابتداءً، فإن السياق يعتني بالفصل بين كون الرسالة حقيقة من عند الله، وبين كون ادِّعائهم أنهم يشهدون كذبًا بما ليس في قلوبهم المنطوية على الكفر.

فألغى شهادتهم، وكذَّبهم فيما نسبوه لأنفسهم، وأثبت الرسالة بعلمه المحيط، وهو الذي أرسله[2]، وعبَّر بلفظ العلم؛ تنويعًا، كما عبَّر بلفظ: الشهادة في «سورة آل عمران» في ابتداء الوحدانية: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 18].

* ﴿بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا﴾:

تعريض بعبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ، لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحلف بالله أنه ما قال هذا، وزعم أن زيدًا رضي الله عنه كاذب فيما نسب إليه[3].

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 538- 539)، و«تفسير القرطبي» (18/ 122- 123)، و«التحرير والتنوير» (28/ 234).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 650)، و«الكشاف» (4/ 538)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 125)، و«أضواء البيان» (8/ 188)، و«التحرير والتنوير» (28/ 235).

(3) تقدم قريبًا.

والجُنَّة- بضم الجيم-: الدِّرع أو التُّرس الذي يضعه الإنسان على جسده أو بعض جسده ليقيه من السلاح[1]، فهم جعلوا أَيْمانهم وقاية من أن يُعاقبوا أو يُؤاخذوا أو تُقام عليهم الحدود والعقوبات[2].

والأَيْمان جمع: يمين، وهو الحلف[3]، فهم يحلفون على الكذب وهم يعلمون، ويحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إيمانهم.

وقُرئ بكسر الهمزة: (**إِيْمَانَهُمْ**)[4]، أي: أنهم تظاهروا بالإيمان لا صدقًا ولا رغبة فيما عند الله، بل لأجل عرض زائل من الدنيا، ومنه حماية أنفسهم، والحصول على ميزات اجتماعية يخافون فقدها[5].

﴿عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ﴾ أي: صدُّوا أنفسهم عن سبيل الله، وكأنهم استمرؤوا هذا وظنوا أن المسلمين لا يدركون حيلهم وأحابيلهم، وكذبوا وصدَّقوا الكذبة؛ ولهذا استمروا على كذبهم وتلبيسهم[6].

---

(1) ينظر: «تاج العروس» (34/ 368) «ج ن ن»، و«أضواء البيان» (8/ 190)، و«التحرير والتنوير» (28/ 236).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 651)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 125)، و«فتح القدير» (5/ 275)، و«روح المعاني» (14/ 304)، و«التحرير والتنوير» (28/ 236).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 311)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 125)، و«أضواء البيان» (8/ 190).

(4) وهي قراءة الحسن البصري. ينظر: «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص157)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (2/ 322)، و«المحرر الوجيز» (5/ 311)، و«الكشاف» (4/ 539)، و«فتح القدير» (5/ 275)، و«معجم القراءات» (9/ 467).

(5) ينظر ما تقدم في «سورة المجادلة»: ﴿عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا﴾.

(6) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 651)، و«تفسير القرطبي» (18/ 124)، و«فتح القدير» (5/ 275)، و«روح المعاني» (14/ 305)، و«التحرير والتنوير» (28/ 236).

أو يكون المعنى: صدُّوا غيرهم عن سبيل الله، وهذا ظاهر من أفعالهم؛ فهم يحلفون ليغرُّوا غيرهم ويخدعوهم بتظاهرهم بالصدق ﴿أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾[1].

* ﴿مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ □□﴾:

والآية تحتمل أنهم آمنوا عند النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كفروا عند أصحابهم وشياطينهم الذين يثقون بهم[2]، كما قال: ﴿٢٣□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾ [البقرة: 14]. والشياطين هؤلاء هم مدرسوهم من اليهود وغيرهم.

وتحتمل أنهم آمنوا ظاهرا بألسنتهم، ثم كفروا باطنًا بقلوبهم وأعمالهم[3].

وتحتمل أن ناسًا من اليهود آمنوا بموسى، ولما جاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم كفروا به: ﴿وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ﴾ [البقرة: 89].

والاحتمال الرابع: أن يكون ذلك إشارة إلى بعضهم الذين وقع منهم شيء من الإيمان ثم تركوه[4]، كما في صدر «سورة البقرة»: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ﴾ [البقرة: 17][5].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 124)، و«روح المعاني» (14/ 305)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 539)، و«فتح القدير» (5/ 275).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 312)، و«تفسير القرطبي» (18/ 124)، و«الكشاف» (4/ 539)، و«فتح القدير» (5/ 275)، و«التحرير والتنوير» (28/ 237).

(4) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 312)، و«الكشاف» (4/ 539)، و«تفسير القرطبي» (18/ 124)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 125- 126)، و«فتح القدير» (5/ 275)، و«التحرير والتنوير» (28/ 237).

(5) وقد أفاض ابن القيم في شرح المثل الناري والمثل المائي. ينظر: «إعلام الموقعين» (1/ 116- 118).

فيكون المقصود أنهم أول ما سمعوا القرآن وقع عندهم شيء من الإيمان ولما رجعوا إلى أصحابهم غسلوا أدمغتهم وعقولهم وزيَّنْوا لهم الباطل وصرفوهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَـٰبِكُمۡ وَأَن﴾، فكفروا بعد ما وقع منهم شيء من الإيمان.

ولا مانع من حمل الآية على هذه المعاني كلها، والله أعلم.

﴿ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾: والطبع على القلب أن يصبح أعمى، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، كالكُوز مُجَخِّيًا، كما قال صلى الله عليه وسلم[1]، فالقلب المطبوع بخلاف القلب الحي السليم.

والطَّبع من الله، فهو الذي طبع على قلوبهم[2]، ولكن هذا الطبع بسبب أنهم استكبروا عن الإيمان والإذعان لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، واتخذوا أَيْمانهم جُنَّةً، يؤمنون أول النهار ويكفرون آخره؛ ولم يريدوا الحق ولا أصغوا إليه، ولا توجَّهوا إلى ربهم بسؤال الهداية.

﴿رَّحِيمًا ٢٣ □﴾: **والفقه**: المعرفة القلبية التي تميز بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والمعروف والمنكر[3].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿□□□□□﴾: ليس المقصود المنافقين كلهم، ففيهم الطويل والقصير والسمين والنحيف، بل هو إشارة إلى مجموعة خاصة منهم، وعلى رأسهم عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ

---

(1) كما في «صحيح مسلم» (144) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(2) وقد قرأ زيد بن علي: (**فَطَبَعَ**) يعني: الله. وقرأ الأعمش وزيد بن علي- في رواية أخرى-: (**فَطَبَعَ اللهُ**). ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 312)، و«تفسير القرطبي» (18/ 124)، و«فتح القدير» (5/ 275)، و«روح المعاني» (14/ 305)، و«معجم القراءات» (9/ 467- 468).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 238).

سَلُولَ شيخُ النفاق[1]؛ ولذا قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «كان عبدُ الله ابنُ أُبَيٍّ وَسِيمًا جَسِيمًا صَحِيحًا صَبِيحًا ذَلْق اللِّسان»[2].

فكان الرجل فيه خصال القوة في جسده، وهذا ليس مدحا في أصله وليس ذمًّا؛ لأن الله قال عن طالوت: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا﴾ [البقرة: 247]. ولكن معناه أن هذه الأجساد خواء؛ وقد لقي أحد الشيوخ شابًّا فأعجبه، فقربه منه وسأله، فوجده لا يفقه شيئًا، فقال: ياله من بيت لو كان فيه سكان! فالجسم بيت جميل، ولكن لا روح فيه ولا عقل.

وبسطة الجسم صفة محايدة ليست صفة نقص ولا كمال، فهو يوجد في بعض المؤمنين وفي بعض المنافقين، وقد أثنى الله على جمال يوسف وقوة موسى عليه السلام وكان محمد صلى الله عليه وسلم حسن الصورة والقامة، كأن وجهه القمر بأبي هو وأمي.

﴿□□□□□﴾: في ذلك إشارة إلى الفصاحة[3]، وهي بحد ذاتها معنى جميل، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُوصف بأنه أُوتي جوامع الكَلِم[4]، وأفصح مَن نطق بالضاد[1]، وقال موسى عن هارون عليهما السلام: ﴿□□□□□□□□□﴾ [القصص: 34].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 125)، و«فتح القدير» (5/ 275)، و«التحرير والتنوير» (28/ 239).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 320)، و«تفسير البغوي» (5/ 98)، و«زاد المسير» (4/ 288).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 540)، و«المحرر الوجيز» (5/ 312)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 126)، و«فتح القدير» (5/ 275)، و«روح المعاني» (14/ 305)، و«التحرير والتنوير» (28/ 239).

(4) كما في «صحيح البخاري» (7013)، و«صحيح مسلم» (523) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في كلام هؤلاء المنافقين كثير من التقعر والتفيهق والتكلُّف وزخرفة القول دون طائل، وأنت تجد خطيبًا أو شاعرًا يحسن الكلام والتصريف، وليس من وراء كلامه معنى، ولو كانت الفصاحة لنصرة الحق وهداية الناس أو للمعاني الجميلة لكانت محمودة.

﴿□□□□﴾: و﴿□﴾ بضم الخاء والشين، جمع: خشبة.

وفي قراءة: (خَشَبٌ) بفتحتين[2]. فوصفهم الله بحسن الصُّور، وإبانة النُّطق، ثم أعلم أنهم في ترك التفهم والاستبصار بمنزلة الخُشُب.

و﴿□□﴾: ممالة إلى الجدار، فهم لا يسمعون الهُدى، ولا يقبلونه، كما لا تسمعه الخشب المسندة[3].

ولو كانت هذه الخشب في الأشجار لكانت حية مخضرَّة نامية ينتفع بها، ولو كانت مما يستفاد منه في البناء أو الإيقاد فكذلك، لكنها مسنَّدة مركونة على جدار تضر ولا تنفع، ولا يستفاد من طولها وعرضها وكثرتها إلا شغل المكان وتعويق الطريق[1]!

---

(1) وما يُروى أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**أنا أفصحُ مَن نطق بالضاد**». فهو لا أصل له، قاله ابن كثير وغيره. ينظر: «تفسير ابن كثير» (1/ 143)، و«المقاصد الحسنة» (ص167)، و«كشف الخفاء» (1/ 228)، و«الفوائد المجموعة» (ص327).

(2) وهي قراءة ابن عباس، وسعيد بن جُبير، وسعيد بن المسيّب. ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 312)، و«تفسير القرطبي» (18/ 125)، و«فتح القدير» (5/ 275)، و«روح المعاني» (14/ 306).

وقرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿خُشْبٌ﴾ بضم الخاء وسكون الشين، وقرأ الباقون: ﴿□﴾ بضمتين. ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص436)، و«حجة القراءات» (ص709)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص211)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص384)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 216، 287)، و«معجم القراءات» (9/ 469- 470).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 653- 654)، و«تفسير الماوردي» (6/ 15)، و«المحرر الوجيز» (5/ 312)، و«زاد المسير» (4/ 288)، و«تفسير القرطبي» (18/ 125)، و«فتح القدير» (5/ 275)، و«روح المعاني» (14/ 306)، و«التحرير والتنوير» (28/ 240).

ويحتمل أن يكون شبَّههم بالخشب عند ما يكونون في ناديهم أو مجلسهم، وكل واحد منهم في زاوية وقد اتَّكأ على الجدار يقول الزور ويغشى الفجور[2].

لقد خسر المنافقون نبيل الصفات الإنسانية، وهي الصدق، والصدق محمدة حتى عند عرب الجاهلية، إذ كانوا يستقبحون الكذب، وفي قصة غَوْرث بن الحارث أنه قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال: مَن يمنعك مني؟ قال: «**الله**». فسقط السيفُ من يده، فأخذه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «**مَن يمنعك مني؟**». قال: كن كخير آخذ، قال: «**أتشهدُ أن لا إله إلا الله؟**». قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلَّى سبيله[3].

فهذا مع جهله لم يحقن دمه بالكذب، ولا اتخذ إيمانه جُنَّة؛ لأن فيه كرامة الإنسان وصدقه ووضوحه.

﴿□ □ □ □□﴾: كلما سمعوا صائحًا في المدينة لا يعرفون مصدره ظنوا أنهم المستهدَفون المقصودون، وأنه ينادي لمحاربتهم؛ لأنهم أصحاب مكائد ومؤامرات ودسائس، اجتمع لهم خبث نواياهم وقبح أعمالهم وإضمارهم العداوة والحقد والبغضاء للمؤمنين، وفي كل لحظة يتوقعون أنهم افتضحوا وبانت حقيقتهم، فلذا يحسبون كل صيحة عليهم، وهذا من خورهم وجبنهم[4].

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 540)، و«تفسير القرطبي» (18/ 125)، و«روح المعاني» (14/ 306)، و«التحرير والتنوير» (28/ 240).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 540)، و«المحرر الوجيز» (5/ 312)، و«روح المعاني» (14/ 306).

(3) أخرجه أحمد (14929)، وابن حبان (2883)، والحاكم (3/ 29) من حديث جابر رضي الله عنه. وأصل القصة في «صحيح البخاري» (2910، 4139)، و«صحيح مسلم» (843).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 653)، و«الكشاف» (4/ 540)، و«تفسير القرطبي» (18/ 125-126)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 126)، و«فتح القدير» (5/ 276)، و«روح المعاني» (14/ 306)، و«التحرير والتنوير» (28/ 240- 241).

﴿□□﴾: إشارة إلى شدة عداوتهم، وكأنه لا عدوّ غيرهم، كما قيل[1]:

فمنهم عدوٌّ كاشرٌ عن عدائه *** ومنهم عدوٌّ في ثياب الأصادقِ

ومنهم قريبٌ أعظمُ الخَطْب قربُه *** له فيكم فعلُ العدوِّ المفارقِ

أردتم رضا الرحمن قلبًا وقالبًا *** ولم يطلبوا إلا حقيرَ الدوانقِ

فسدَّد في درب الجهاد خطاكُمُ *** وجنَّبكم فيه خفيَّ المزالقِ

وخصَّهم بذلك؛ لتلبسهم ومخالطتهم المؤمنين بالمدينة، واطلاعهم على عورات المسلمين، ﴿□□﴾: ونلحظ هنا أن الله لم يقل: «فاقتلهم»، أو: «فانفهم من الأرض»، وإنما أمره بالحذر[2]، وهذا أصل عظيم في التعامل مع المنافقين، فقد كانوا يُصلُّون مع المسلمين ويصومون، وقد يقع لبعضهم الخروج للجهاد، وكانوا يُعاتَبون على القعود عن الجهاد، كما في قصة تبوك: ﴿كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ [التوبة: 90]، وجاءوا واعتذروا من النبي صلى الله عليه وسلم، فقبل منهم عذرهم.

وليتنا نعامل بعضنا بعضًا مثلما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعامل المنافقين، ففي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة تخلفه عن غزوة تبوك، أنه لما جاء المنافقون واعتذروا من النبي صلى الله عليه وسلم قَبِلَ منهم علانيتهم وكفَّ عنهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله[3].

---

(1) للشاعر عصام العطار.

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 541)، و«فتح القدير» (5/ 276)، و«أضواء البيان» (8/ 192)، و«التحرير والتنوير» (28/ 241).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (4418)، و«صحيح مسلم» (2769).

وإن استغفرت لأخيك المسلم فبها ونعمت، وإن لم تستغفر فهذا شأنك، يكفي أنك تكف عنه شرَّك، ولا تفسِّر أعماله تفسيرًا سيِّئًا، وأوكلت سريرته إلى الله.

إن المنافقين تنظيم سري متآمر متغلغل في الأمة وعدو لها، وهذا يقتضي الحذر والتيقظ، وبخاصة أنهم من البيئة نفسها ويتكلمون اللغة ذاتها، وينتمون إلى المكونات عينها، ويتظاهرون بأنهم من الطينة نفسها، وربما زادوا وزايدوا وحاولوا هدم الإسلام باسم حمايته والغيرة عليه.

﴿[illegible]﴾: وهذه صيغة دعاء تستعمل حتى مع مَن يخطئ، فيقال: قاتل الله فلانًا، كيف فعل كذا، أو قال كذا!

ويجوز أن يكون المعنى: أن الله تعالى هو الذي يتولَّى قتالهم ويحبط مخططاتهم، ولم يقل لنبيه صلى الله عليه وسلم: قاتلهم[1].

وهذا يلقي مزيدًا من الضوء على قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التحريم: 9].

إن مجاهدة المنافقين تختلف عن مجاهدة الكفار، وليس قتالهم موكولًا إلى الناس.

ثم تعجب منهم كيف يصدفون عن الحق على رغم وضوحه وبيانه، وأنهم يحاجون في الله من بعد ما استجيب له، فقد رأوا النبي صلى الله عليه وسلم وشهدوا التنزيل وخالطوا المسلمين ورأوا العبر والآيات، ولكن السبب هو ما سبق من الطبع على قلوبهم، لَمَّا صدوا وأعرضوا[2].

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 541)، و«المحرر الوجيز» (5/ 312)، و«تفسير القرطبي» (18/ 126)، و«فتح القدير» (5/ 276)، و«روح المعاني» (14/ 306- 307).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 541)، و«تفسير القرطبي» (18/ 126).

* ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾:

﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ﴾: لعل القائل ممن يختلط بهم، وهو أحسن حالًا منهم، فهم كانوا درجات، كما نُقل عن عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ أنه لما رجع في غزوة أُحد بثلث الجيش، أو بعد قصة المُرَيْسِيع بدأ الناس يتفرقون من حوله ويسيئون الظن به، فحينئذ جاءه بعضهم وقال له: تعال يستغفر لك رسولُ الله[1].

وتعال: أصلها مشتق من العلو، أي: اذهب إلى جهة العلو، لكن نُسي هذا المعنى، وصار يراد بها معنى: هلم، أو: احضر[2].

وإنما قالوا ذلك؛ لأنهم عرفوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل لين سمح سهل يحب الخير للناس ويؤثر جانب الرحمة، وقد قال له ربه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 80].

وليس المقصود العدد، وإنما المراد أنك مهما أكثرت من الاستغفار فلن يغفر لهم ربهم[3]، ومع هذا قال صلى الله عليه وسلم: «**إني خُيِّرتُ فاخترتُ، لو أعلمُ أني إن زدتُ على السبعينَ يُغفرُ له لزدتُ عليها**»[1].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 126)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 127)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص295)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (2/ 265)، و«تفسير الثعلبي» (3/ 84)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص484، 584) «ص ع د»، «ع ل ا»، و«زاد المسير» (1/ 289)، و«التحرير والتنوير» (28/ 243)، و«عمدة القاري» (11/ 151).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 314)، و«فتح القدير» (2/ 441)، و«التحرير والتنوير» (10/ 278).

﴿قِنطَارًا فَلَا﴾: قُرئت بالتشديد وبالتخفيف[2]، والتشديد أبلغ؛ لأن معناه أنه لم يلووه مرة واحدة، وإنما مرات[3]، وقالوا: لن نذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر لنا.

و﴿قِنطَارًا فَلَا﴾ مظهر من مظاهر الإعراض والتعالي والصدود، فهم يميلون رؤوسهم ويصرفون وجوههم امتناعًا واستهزاءً، ولذا قال: ﴿تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾.

وفيها معنى آخر، وهو أنهم لا يريدون أن تلتقي أعينهم بأعين مَن يحادثهم ويقترح عليهم؛ لأن العيون تفضح؛ ولهذا قال سبحانه عنهم: ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [الأحزاب: 19][4].

فهم يلوون رؤوسهم إلى غير جهة المتحدِّث حتى لا يراهم ولا يقرأ علامات الكذب والخبث في عيونهم.

﴿تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾: فليس في صدورهم إيمان ولا هُدى، إنما هو الكِبر، وما منعهم من الإيمان إلا هو؛ ولهذا لا يجتمع الإيمان والكبر في قلب امرئ مسلم، قال صلى الله عليه وسلم: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ**». قال رجلٌ: إن

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (1269، 1366، 4670، 4671)، و«صحيح مسلم» (2400، 2774).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 654)، و«السبعة في القراءات» (ص636)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص346)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص211)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 388)، و«معجم القراءات» (9/ 471- 472).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 654)، و«الكشاف» (4/ 541)، و«روح المعاني» (14/ 308)، و«التحرير والتنوير» (28/ 244).

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 16- 17)، و«الوجيز» للواحدي (ص1099)، و«تفسير القرطبي» (18/ 126)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 127).

الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً. قال: «**إن اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكبرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس**»[1].

وكان من رحمة الله برسوله صلى الله عليه وسلم أَلَّا يأتوا إليه؛ لأنهم لو جاؤوه فاستغفر لهم فلن يغفر الله لهم، فمن حِفظ الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أَلَّا يدعو الدعاء الذي لا يستجاب، فرحمه الله بأنهم لم يأتوه وصاروا يصدون وهم مستكبرون.

* ﴿بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ﴾:

﴿بُهْتَانًا﴾ هنا، وفي «سورة البقرة» في شأن الذين كفروا: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ﴾ [البقرة: 6]، تدل على استواء الطرفين؛ ولهذا يأتي بعدها ذكر الطرفين، وهما هنا الاستغفار وعدمه[2]، وفي «سورة البقرة» الإنذار وتركه؛ ولأنه يستوي عندهم الاستغفار وعدمه حَكَم الله عليه بأنه سواء عليهم هذا أم ذاك، فالله تعالى علم منهم ما جعل المغفرة عليهم حرام: ﴿مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا﴾، **والفاسق** هو: الخارج على الطاعة وعن الحق[3]، فهم لا يهتدون.

---

(1) أخرجه مسلم (91) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 263)، (22/ 658)، و«الكشاف» (1/ 47)، (4/ 543)، (30/ 547)، و«تفسير الرازي» (2/ 284)، و«فتح القدير» (5/ 276)، و«روح المعاني» (14/ 308).

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص636)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (1/ 120)، و«تاج العروس» (26/ 302) «ف س ق».

* ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾:

﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾: يحتمل أن يكون المراد المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وتركوا أموالهم وبيوتهم في سبيل الله، فيقولون: لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا، ويتركوه ويبتعدوا عنه[1]، وهم يظنون أن الدنيا تدار بالدرهم والدينار، وبمجرد ما يتوقف الإنفاق سوف ينفضون مسرعين زرافات زرافات!

وربما قصدوا فئة من الفقراء، كأصحاب الصُّفَّة، وبعض الأعراب الذين يأتون وما عندهم شيء.

وقد ورد أن عبد الله بن أُبَيٍّ قال ذلك مظهِرًا للشفقة، وأعلنه؛ ولهذا قال: ﴿قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾، ولم يقل: «على من عند محمد»؛ لأنه قالها في المجلس، فذكر أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم يأتي عنده الأعراب والفقراء فيحضرون مائدته، فلا تقدِّموا الطعام حتى يذهبوا بعيدًا[2].

وهم بهذا يظهرون الشفقة، وقصدهم أن يبتعد الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الإيمان والعلم، وينقطعوا عن مجالسته[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 659)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 475)، و«فتح القدير» (5/ 277).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 339)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 321)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص432)، و«الكشاف» (4/ 542)، و«تفسير القرطبي» (18/ 121، 127)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 130)، و«التحرير والتنوير» (28/ 246).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 246).

والمهاجرون كانوا رجالًا يعتمدون على أنفسهم في الكسب والتجارة، وهم أهل أسواق ومواسم ورحلات مشهورة.

يدل لذلك: قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الرَّبيع رضي الله عنهما، لما آخى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينهما، فعرض سعد بن الرَّبيع عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق. فربح شيئًا من أَقِطٍ وسمن، فرآه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، بعد أيام وعليه وَضَرٌ من صُفْرة، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «**مَهْيَمْ يا عبدَ الرحمن؟**». أي: ما الخبر؟ قال: يا رسولَ الله، تزوجتُ امرأةً من الأنصار. قال: «**كم أصدقتها؟**». فقال: وزن نواة من ذهب، فقال صلى الله عليه وسلم: «**بارك اللهُ لك، أولم ولو بشاة**»[1].

وقد أثنى أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه على الأنصار وحسن بلائهم، واستشهد بقول الطُّفَيل الغَنَوِيِّ[2] لبني جعفر:

جزى اللهُ عنا جعفرًا حين أَزْلَقَتْ *** بنا نعلُنا في الواطئين فزلَّت

أَبَوْا أن يَمَلُّونا ولو أنَّ أُمَّنا *** تُلاقي الذي يَلْقَونَ منا لملَّت

هم خَلَطونا بالنفوس وألجئُوا *** إلى حُجُرات أَدْفَأَتْ وأظلَّت

والإسلام دين ينهى عن التواكل، ويحث على العمل والكدح والإنتاج.

---

(1) أخرجه البخاري (2048) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري (2049، 3781، 3937)، ومسلم (1427) من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) ينظر: «الخراج» ليحيى بن آدم (84)، و«الأم» (1/ 189)، و«الحماسة الصغرى» (ص251)، و«تاريخ المدينة» لعمر بن شبَّة (2/ 489)، و«عيار الشعر» (ص140)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (1/ 71)، و«لسان العرب» (9/ 171)، و«صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» (13/ 116)، وما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ...﴾ [الحشر: 9].

﴿سَبِيلًا ۝٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾: **قيل**: خزائن السماوات: المطر، وخزائن الأرض: النبات.

وقيل: خزائن السماوات: الغيوب، ﴿□ □ □ □ □□﴾ [المدثر: 31]، وخزائن الأرض: القلوب، أن يسخر الله قلوب العباد بعضهم لبعض.

والأولى العموم، ويدخل في خزائن السماوات: المطر، والشمس بأشعتها، والهواء، وكل ما ينزل مما ينفع الناس، وغيرها مما لا يعلمه الناس، وخزائن الأرض: النبات والنفط والثروات المكنوزة في باطنها، وما يظهر ويدب على ظاهرها من حيوانات وناس[1].

﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ﴾: فهذا من المعاني الإيمانية القلبية، والمنافقون لا يفقهون في الإيمان والأخوة والإيثار والقيم النبيلة، فكيف لَمن هم كالخُشُب المسندة أن يفقهوا هذه المعاني المشرقة؟ إنما هم عكوف على ظاهر من الحياة الدنيا وعلى الأشكال والرسوم.

* ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى﴾:

وهم يعتقدون أنفسهم أعزة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ومَن معه هم الأذلاء[2]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى﴾، فالعزة

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 341)، و«تفسير الطبري» (22/ 659)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 476)، و«الكشاف» (4/ 543)، و«المحرر الوجيز» (5/ 314)، و«زاد المسير» (4/ 289)، و«تفسير القرطبي» (18/ 128)، و«فتح القدير» (5/ 277)، و«التحرير والتنوير» (28/ 248).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 542)، و«فتح القدير» (5/ 277)، و«روح المعاني» (14/ 310)، و«التحرير والتنوير» (28/ 249).

لله ولرسوله ولِمَن آمنوا بالله ورسوله، فلهم عزة الباطن بالإيمان، وعزة الظاهر بالنصر والغنى والتمكين، وفي حال الاستضعاف لهم عزة الثقة بالله والانتساب لدينه وانتظار فرجه.

﴿فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾: وقد عبَّر في شأن المال والخزائن بأنهم لا يفقهون[1]؛ لأن الأمر يتطلَّب فقهًا قلبيًّا عميقًا، في حين أنه عبَّر هنا في شأن العزة بعدم العلم؛ لأن الأمر أوضح وأظهر، فهو مدرَك بالعيان لِمَن أراد، وإن كان بعض المنافقين يغالطون ويجادلون في الحقائق، ويتجاهلون الدلائل الواقعية على ظهور الإسلام وقوته وانتشاره وغلبة أهله.

وهم حسبوها حسية سطحية أن عدد أهل المدينة كذا وعدد المهاجرين كذا، فأهل المدينة أكثر، ولذا يمكن أن نُخرجهم من المدينة، في حين أن الأمر على خلاف تقديرهم لأمرين:

1- أن المهاجرين ازدادوا يومًا بعد يوم؛ وإذا كانت غزوة المُرَيْسِيع في السنة الخامسة، فمن المحتمل آنذاك أن يكون عدد المهاجرين متساويًّا لأهل المدينة إن لم يكن أكثر.

2- أن أهل المدينة أنفسهم أصبح أكثرهم مع صف الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ومع المهاجرين ضدكم أيها المنافقون؛ ولذلك أنتم محشورون منعزلون وعددكم قليل ولكنكم لا تعلمون ولم تدركوا أن ثمة تغيرًا يطرأ على الساحة تتسارع خطاه.

والجملة التهديدية التي قالها ابنُ سَلُولَ كانت في حالة غضب، فكانت في بدايتها صغيرة، ومعظم النار من مستصغر الشَّرر.

---

(1) كما في الآية السابقة. ينظر: «روح المعاني» (14/ 311)، و«التحرير والتنوير» (28/ 250).

وكثيرًا ما تكون الحروب العظيمة بسبب شرارة لا يُؤْبَه لها، والظاهر أن إدراك المنافقين- وكبارهم بخاصة- أن الوقت ليس في صالحهم، وأن قوتهم تتآكل، وقوة الإسلام تزداد، يجعلهم يفتعلون مثل هذه الحوادث، ويستغلونها لإحداث البلبلة وتهييج البسطاء، وتغريرًا لحدثاء العهد بالإسلام، وإضلالًا لهم ليرجعوا إلى الكفر.

وهنا فائدة، وهي أن على العقلاء والحكماء أَلَّا يسترسلوا في سماع كلام الصغار والسفهاء ولو نشروه في وسائل الإعلام، فقد يُثير فتنًا من لا شيء، وطي الكلام وتجاهله ما أمكن أفضل من إشاعته وإعادته وترديده ولو على سبيل النقد أو الرفض له، فإماتة الباطل بتجاهله أفضل وأولى.

ثم إن من المداخل الخطيرة على المجتمعات محاولة زرع الفتنة فيها، وتحريك بذور العصبيات التي تحمل على الاحتراب، كالإقليمية والقبلية والعنصرية والعصبية الجاهلية، والواجب أن يشعر الناس بنعمة الله عليهم بالوحدة: ﴿ ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: 103]، وأن لا يتعاطى طرف ازدراءً أو تهوينًا أو تحقيرًا لغيره، ولا يستعرض قوته وعدته، فالأمر كما قيل[1]:

جاء شَقِيقٌ عارضًا رُمحه *** إن بني عمك فيهم رِماحُ!

وفي القصة مشهد يسترعي الانتباه، وهو أن عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلُولَ بعد ما قال ما قال، استأذن عمرُ رضي الله عنه النبيَّ صلى الله عليه وسلم في قتله، فأبى عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «**ادعُوا لي عبدَ الله بنَ عبد الله بن أُبَيٍّ**». فدعاه، فقال: «**أَلَا ترى ما يقولُ أبوك؟**». قال: وما يقولُ بأبي أنت وأمي؟ قال: «**يقولُ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ**». فقال: فقد صدق والله يا رسولَ الله، أنت والله

---

(1) ينظر: «البيان والتبيين» (3/ 222)، و«شرح ديوان الحماسة» (ص413)، و«معاهد التنصيص» (1/ 72) منسوبًا إلى حَجَل بن نَضْلة.

الأعزُّ، وهو الأذلُّ، أما والله، لقد قدمتَ المدينةَ يا رسولَ الله، وإن أهلَ يثربَ ليعلمون ما بها أحدٌ أبرَّ مني، ولئن كان يُرْضي اللهَ ورسولَه أن آتيَها برأسه لآتينَّهما به. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**لا**». فلما قدموا المدينةَ قام عبدُ الله بنُ عبد الله بن أُبَيٍّ على بابها بالسيف لأبيه، ثم قال: أنت القائلُ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؟ أما والله لتعرفنَّ العزةُ لك أو لرسول الله، والله لا يأويك ظلُّه، ولا تأويه أبدًا إلا بإذن من الله ورسوله. فقال: يا للَخزرج، ابني يمنعني بيتي، يا للَخزرج، ابني يمنعني بيتي. فقال: والله لا تأويه أبدًا إلا بإذن منه. فاجتمع إليه رجالٌ فكلَّموه، فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله. فأتوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال: «**اذهبوا إليه، فقولوا له: خَلِّه ومسكنه**». فأتوه، فقال: أما إذ جاء أمرُ النبي صلى الله عليه وسلم فنعم[1].

ثم جاء ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله، إنه بلغني أنك تريدُ قَتْلَ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ، فإن كنتَ فاعلًا فَأْمُرني به، فأنا أحملُ إليك رأسَهُ، فوالله لقد عَلِمَتِ الخزرجُ ما كان بها رجلٌ أبرُّ بوالدِهِ مني، ولكني أخشى أن تأمرَ به رجلًا مُسلمًا فيقتلَهُ، فلا تَدَعُني نفسي أن أنظرَ إلى قاتلِ عبدِ الله يمشي في الأرض حيًّا حتى أقتلَه، فأَقْتُلَ مؤمنًا بكافرٍ، فأدخلَ النارَ. فقال صلى الله عليه وسلم: «**بل نُحْسِنُ صُحْبَتَهُ، ونَتَرَفَّقُ به ما صَحِبَنا**»[2].

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 666).

(2) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (4/ 256)، و«تفسير الطبري» (12/ 105)، و«تاريخ الطبري» (2/ 110)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (4/ 61)، و«كشف المشكل» (2/ 532)، و«أسد الغابة» (2/ 133)، و«البداية والنهاية» (4/ 158)، و«الإصابة» (4/ 155)، و«السيرة الحلبية» (2/ 599).

وعاده النبيُّ صلى الله عليه وسلم في مرضه، وصلَّى عليه عند موته، وفيه نزل قوله سبحانه:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة: 84][1].

ففي هذا البر والحفاظ ورعاية الحقوق وحسن التأتِّي وسياسة الأمور بصبر ورويَّة وتسامح مع اليقظة والحذر وعزل التأثير السيء للقوى المضادة.

* ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾:

مناسبة الآية لما قبلها[2]: أن من سمات المنافقين أنهم ﴿سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾ [النساء: 142]، بخلاف المؤمنين الأتقياء الذين ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191]، بألسنتهم، وبقلوبهم، وبأبدانهم، بالتزام الطاعة وترك المعصية.

ففي الآية التحذير من صفات المنافقين الذين اعتزُّوا بأموالهم وأولادهم، وظنوا أن المال هو كل شيء، وأن مَن أعطوه المال فقد كسبوه، ومَن حرموه المال افتضَّ وذهب، وأن الغنى دليل الفلاح والنجاح، والفقر دليل الشقاء والتعاسة والتحقير:

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (4672)، و«صحيح مسلم» (2400).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 129)، و«فتح القدير» (5/ 278)، و«التحرير والتنوير» (28/ 250).

﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ﴾، وليس المقصود التخلِّي عن المال، فقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**نِعْمَ المالُ الصالح للمرء الصالح**»[1].

والمال له عبودية وزكاة، وبه يستطيع المسلم أن يعف ويكف وينفق ويتصدَّق ويجاهد، وإنما المذموم تجاوز حدود ما أمر الله به، أو أن يكون المال مشغلة عن ذكر الله.

* ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾ [illegible]﴾:

طلب إليهم أن يكسبوا المال من حلال، وأن ينفقوه في حلال، وأن يبادروا الآجال بصالح الأعمال، وذكَّرهم بأن المال عارية، وهو من الله وإليه، فهو من فضله ورزقه، وسوف يزول عنك أو تزول أنت عنه، وتصبح وحيدًا فريدًا بلا أهل ولا مال، ولذا عبَّر بقوله: ﴿غَفُورٗا﴾ ولم يقل: «من قبل أن يأتيكم الموت»؛ لأن الإنسان يموت وحده، كما قال ربنا: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: 94]، ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: 95]. والإنسان يتعزَّز بقرابته وأهله ومَن حوله، لكن إذا حضرته الوفاة لم ينفعه أحد ﴿﴿٢٣﴾﴾ إذا أتاه الموت على سبيل التمنِّي والدعاء: ﴿[illegible]﴾، يريد أيامًا معدودات، وفرصة ولو قصيرة طالما توفرت له فضيَّعها وسوَّف وماطل وغفل ﴿[illegible]﴾، ولن ينفع هذا التمني بعد إذ وقع الأمر موقعه وحضرت الوفاة.

وفي الآية سر عظيم، فما من أحد يموت إلا وتحضره ندامة؛ إن كان محسنًا ندم أَلَّا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندم أَلَّا يكون نزع وتاب، **وغالب ما يندم عليه المرء عند الموت يتعلق بأمور خلاصتها ما يأتي:**

---

(1) أخرجه الطيالسي (1061)، وأحمد (17763)، والبخاري في «الأدب المفرد» (299)، وابن حبان (3210)، والحاكم (2/ 2، 236) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

1- يندم أَلَّا يكون مؤمنًا صالحًا تقيًّا، كما أشارت الآية، وهذا يتعلق بصلته بربه، وضمن ذلك استذكار الذنوب والمعاصي والمخالفات والأوقات التي أُهدرت فيها، وكلما كانت المعصية أكثر متعةً وأطول وقتًا كانت ندامتها عند الموت أعظم.

2- يندم أَلَّا يكون قدَّم إحسانًا إلى الناس وخيرًا، كما دلَّ عليه الندم في الآية على عدم الصدقة والإنفاق، ويشمل هذا من باب أولى الندم على ظلم الناس أو بخسهم حقوقهم أو العدوان عليهم في أنفسهم أو أهليهم أو أموالهم.

3- يندم على أن يكون عاش عمره في مجاملة للآخرين وتصنع لهم، ولم يعش حياته كما يريد هو، ويتمنى لو أنه اعتزل التمثيل وظهر بشخصيته الحقيقية وأحلامه وطموحاته.

4- يندم على الإفراط في العمل الدنيوي كالوظيفة أو التجارة بما أثَّر على صحته ونفسيته، ومن ثَمَّ حُرم من متعة الحياة وزينتها، وقصَّر في حقوق الأهل والقرابة من أجل شيء لم يعد ينفعه في قليل ولا كثير.

5- يندم على تفويت الأصدقاء الذين كانوا يستحقون أن يضحِّي من أجلهم فضحَّى بهم.

6- يندم على فوات فرص الاستمتاع والسعادة التي كانت على مقربة منه، ولكنه عاش مع المظاهر والشكليَّات وليس مع الحقائق.

7- يندم على كبت مشاعره وأحاسيسه، سواءً كانت إيجابية بالتعبير عن الرضا والحب والامتنان، أو سلبية بالتعبير عن العتب والمؤاخذة.

وقد كتبت المرضة الاسترالية (بروني وير) كتابًا مفيدًا عن أهم خمسة أشياء يندم عليها الإنسان عند الموت[1].

---

(1) اسمه: «أمنيات ما قبل الموت».

❁ ﴿□□□□□□□□□□□□﴾:

النفس: مشتقة من النَّفَس الذي يتردد شهيقًا وزفيرًا، وهو علامة الحياة، فيكون معناه: الروح، **ويحتمل أن يكون المقصود**: الإنسان[1]: ﴿□□□□□□ □□﴾ [المدثر: 38]، ﴿بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [المائدة: 45].

ومصداق هذه الآيات: حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**ويؤمرُ بأربع كلمات: بكَتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيدٌ**»[2]. فهي آجال مضروبة وأعمال مكتوبة لا تتقدم ولا تتأخر.

﴿□□□□﴾: **الخبير** من أسماء الله الحسنى، والخبرة أدقُّ وأخص من العلم، وهي المعرفة بالدقائق واللطائف والأسرار[3].

وهذا مناسب للسياق؛ لأن ما يقوله الإنسان عند بغتة الموت هي دعوى كاذبة غالبًا، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ﴾ [الأنعام: 28]، ولو صحت منه النية لحسن منه العمل، والمؤمن يُؤجر على نيته الصادقة ولو حال القدر بينه وبين العمل؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «**يقولُ الله: إذا أراد عبدي أن يعملَ سيئةً، فلا تكتبوها عليه حتى يعملَها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنةً، وإذا أراد أن يعملَ حسنةً فلم يعملها فاكتبوها له حسنةً، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف**»[4].

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 255).

(2) أخرجه البخاري (7454)، ومسلم (2643).

(3) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص45)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص127)، و«التحرير والتنوير» (28/ 256)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص151).

(4) أخرجه البخاري (7501)، ومسلم (128) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سورة التغابن

* **تسمية السورة:**

اسمها المشهور، ولا تُعرف إلا به: «**سورة التغابن**»[1].

* **عدد آياتها:** ثماني عشرة آية باتفاق علماء العدِّ[2].

* **وهي مدنية** عند جمهور المفسرين[3]، وذهب الضحاك إلى أنها مكية[4].

ولابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة وجماعة أن فيها المكي والمدني[5].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص662)، و«صحيح البخاري» (6/ 155)، و«جامع الترمذي» (5/ 276)، و«تفسير الطبري» (23/ 5)، و«المحرر الوجيز» (5/ 317)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 467)، و«روح المعاني» (14/ 314)، و«التحرير والتنوير» (28/ 258).

(2) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص248)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص309)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 90).

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 448)، و«تفسير القرطبي» (18/ 131)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 187)، و«فتح القدير» (5/ 280)، و«روح المعاني» (14/ 314)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 161)، و«التحرير والتنوير» (28/ 258).

(4) ينظر: «تفسير البغوي» (5/ 448)، و«زاد المسير» (4/ 291)، و«تفسير القرطبي» (18/ 131)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 122)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 349)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7497)، و«تفسير البغوي» (8/ 136)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 135)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 89)، والمصادر السابقة.

وهذا أظهر وأقوى؛ فإن ما في السورة من موضوع البعث ومجادلة المشركين ما هو من أغراض السور المكية، وفيها من التحذير من عداوة الأولاد والأزواج ما هو أشبه بالمدني.

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ﴾:

الاستفتاح بالتسبيح معهود في مطالع السور، وخاصة المسبِّحات، وهو يأتي بصيغة المضارع، كما في هذه السورة، و«سورة الجمعة»، ويأتي بصيغة الماضي، كما في «سورة الحديد»، و«سورة الصف»، ويأتي بصيغة المستقبل(الأمر)، كما في «سورة الأعلى».

وصيغة الماضي إشارة إلى عراقة التسبيح، وأن التسبيح لله وُجد منذ وُجد مَن يسبِّح الله سبحانه وتعالى، فليس أمرًا طارئًا، بل هو راسخٌ قديمٌ قدم الأكوان.

أما في المضارع، فهو إشارة إلى التجدُّد، وأنه ليس شيئًا وقع وانتهى، بل هو مستديم مستمر مستغرق للزمان.

وأما الأمر، فهو إشارة إلى المستقبل وأن التسبيح باق لا يزول[1].

وثمة تسبيح الكون اللاهج بالثناء على الله وتمجيده: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 44].

ومن تسبيح الكائنات: انسياقها لأمر الله في نظام فلكي رباني منضبط لا يتقدم ولا يتأخر، وبهذا فسره بعض أهل العلم[1]، وهو جزء من المعنى، لكن لا يمنع أن نفهم من

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 441- 442، 526)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 43)، و«التحرير والتنوير» (28/ 260)، و«أضواء البيان» (7/ 541)، (8/ 4).

السياق أن كل شيء يسبِّح الله بلغة لا نفهمها؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، في حين أن حركة الأفلاك مما يفقهه الناس ويدركونه ويقرؤونه.

ففي آيات الأمر بالتسبيح إشارة إلى الفرق بين تسبيح الكائنات الاضطراري الذي جُبلت عليه، وبين التسبيح الاختياري الذي يُؤمر به الجان والإنسان فيكون به مكلَّفًا؛ ولهذا لما نزلت: ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ [الأعلى: 1]، قال صلى الله عليه وسلم: «**اجعلوها في سجودكم**». ولما نزلت: ﴿□ □ □□﴾ [الواقعة: 74]، قال: «**اجعلوها في ركوعكم**»[2]. والصلاة جزء منها تسبيح.

والتسبيح: تقديس الله سبحانه وتنزيهه عن صفات النقص كلها، وإثبات الكمال له وحده[3].

﴿زَوۡجٍ﴾ تُطلق غالبًا على غير العاقل[4]، كالسماء والأرض والنجوم والأفلاك.

وفي ذلك إشارة إلى أن في السماوات عوالم عظيمة لا يعلمها إلا الله، وفي الأرض مثل ذلك، فهي تفتح عقل الإنسان على امتداد المخلوقات وسعتها، وأنها كلها على كثرتها تلهج بالتسبيح بربها، أفلا يليق بالإنسان أن يكون مثلها؟! أَلَا يستحق المولى الذي ﴿فَلَا تَأۡخُذُواْ﴾، هذا التسبيح؟! فهو سبحانه متفرِّد بالملك التام المطلق.

---

(1) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (9/ 1006)، و«صفوة التفاسير» (3/ 302).

(2) أخرجه الطيالسي، وأحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وتقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿□□□□□﴾.

(3) ينظر: «لسان العرب» (2/ 471)، و«المصباح المنير» (1/ 262) «س ب ح»، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص64)، وما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم فَلَا﴾.

(4) ينظر: «شرح ابن عقيل» (1/ 147)، و«شرح الأشموني» (1/ 135)، و«شرح التصريح على التوضيح» (1/ 157)، و«همع الهوامع» (1/ 351).

ولذلك من أسمائه: المَلِك، والمالك، ومالك يوم الدين، ولا ملك إلا له؛ لأن ملك الناس ملك ناقص محدود بزمن، أما ملك الله سبحانه فهو دائم لا يزول ولا يحول ولا يتغير[1].

وهو الذي خلق الأشياء ومنحها خصائصها ووجودها، وهو المتصرِّف وحده، فليس ثمتَ مُلْك حقيقي إلا له؛ ولهذا يقول سبحانه يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ويجيب نفسه: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن﴾ [غافر: 16][2].

﴿مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ فلا حمد حقًّا إلا له، ولا يستحق الحمد المطلق إلا هو سبحانه[3]، فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، فهو المحمود بحق واستحقاق، وهو الخليق بقول المتنبي[4]:

تملَّك الحمدَ حتى ما لمفتخر *** في الحمد حاءٌ ولا ميمٌ ولا دالُ

والحمد هو: الثناء على الله بصفات الكمال، كالقدرة والعلم والحلم والشكر والرضا والكرم والجود والفضل[5].

ويلحق الحمد الشكر، وهو الثناء على المحمود بالنعم التي أسداها إلى العباد، فتشكره على السمع والبصر والعقل والمال والولد[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (20/ 167)، و«التحرير والتنوير» (27/ 358)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص65)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(2) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (1/ 236)، و«تفسير الطبري» (1/ 150)، (20/ 299)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 7)، و«تفسير البغوي» (7/ 143- 144)، و«الكشاف» (4/ 551)، و«تفسير الرازي» (27/ 500)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 5)، و«المحرر الوجيز» (2/ 265)، و«تفسير الرازي» (1/ 192)، و«التحرير والتنوير» (28/ 261).

(4) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص489)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (3/ 285).

(5) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠﴾: له القدرة التامة، ومن قدرته خلق السماوات والأرض وما فيهما[2].

وهذا الاستهلال العظيم يوحي بما بعده؛ لأنه سوف يتوجَّه بالتوبيخ والعتاب للشاردين عن الله.

* ﴿تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ﴾:

﴿تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ﴾ أيها البشر[3].

ويحتمل أن يكون هنا وقف، ثم جاء ما بعده مستأنفًا: ﴿بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم﴾.

ويحتمل أنه كلام متصل كالجملة الواحدة، **وبين المعنيين فرق**[4]:

وعلى قراءة الفصل يكون المعنى: أن الله تعالى خلق الناس، ثم بعد ذلك استأنف خبرًا جديدًا، وهو أن الناس أقسام؛ منهم الكافر ومنهم المؤمن، وعلى هذا لا إشكال.

أما على قراءة الوصل فالمعنى: أن الله تعالى خلقكم مختلفين، منكم الكافر ومنكم المؤمن، والمؤمن أشرف وأعظم منزلة، فكان المظنون أن يبدأ به، لكن الله تعالى بدأ

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص19)، و«تفسير الطبري» (1/ 135)، و«تفسير الماوردي» (1/ 53)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص201)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص256)، و«المصباح المنير» (1/ 149) «ح م د».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 5)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 135).

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7498)، و«تفسير القرطبي» (18/ 132)، و«التحرير والتنوير» (28/ 262)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 326)، و«تفسير البغوي» (8/ 140)، و«الكشاف» (4/ 546)، و«المحرر الوجيز» (5/ 318)، و«زاد المسير» (4/ 292)، و«تفسير القرطبي» (18/ 133)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 188)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 124)، و«فتح القدير» (5/ 281).

بالكافر؛ لأنه حال أغلب الناس، كما في آيات كثيرة ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103].

ولأن سياق السورة في معاتبة وتوبيخ صنف من الكافرين، ودحض حججهم وادعاءاتهم، فكان من المناسب أن يبدأ بذلك تمهيدًا لما بعده[1].

وليس في الآية ما يدل على أن الإنسان مجبر لا اختيار له ولا مشيئة؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن للأمر بالإيمان معنى، والله تعالى ضمَّن السورة نفسها الأمر بالإيمان: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [التغابن: 8]، وحذَّر من الكفر، وأن مَن كفر فإن الله تعالى غني عنه، وتوعَّد الكافرين، مما يدل على أن الإيمان أو الكفر هو اختيار العبد لنفسه، وإن كان الله علم ماذا سوف يحدث من العباد جملة وتفصيلًا.

فهو عليم بصير خبير لا تخفى عليه خافية[2]، وقد ثبت أن الله لو شاء ما أشركوا: ﴿مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ﴾ [يونس: 100]، فلو شاء الله أن يجبر الناس على الإيمان لأكرههم عليه فكانوا مؤمنين كلهم، أو جعله جِبلَّة فيهم لا مندوحة لهم عنها كشأن الملائكة، ولكنه أراد بحكمته أن يجعل لهم مشيئة وإرادة، وهي ضرورة نفسية يعرفها كل أحد، أنه إن شاء أن يرفع هذا الإناء أو يضعه أو يشرب أو يقرأ أو يقوم أو يقعد أو يتكلم أو يسكت... وقد يأخذ شيئًا ثم يعزف عنه ويقول: لا أريده، هذا أمر مستقر معلوم، وكذلك ما يتعلق بالأخلاق والدين الأصل فيها أن الإنسان كائن مختار وحسابه على ضوء ما اختار لنفسه.

---

(1) ينظر: «تفسير أبي السعود» (8/ 255)، و«تفسير القاسمي» (9/ 242)، و«التحرير والتنوير» (28/ 262).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 5)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7499)، و«فتح القدير» (5/ 281)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 164).

ومناسبة الآية لما قبلها ظاهر، فبعد ما ذكر أن التسبيح يصدر من السماوات والأرض وما فيها على سبيل الفطرة والجِبلَّة، انتقل إلى خصوص الكائن المختار الذي بمقدوره أن يسبِّح أو يكفر وهو الإنسان، فبيَّن أن خلق الناس خاصة توجد فيه صفة أن يكون كافرًا أو مؤمنًا، وأن كثرة الكفر لا تضر الله شيئًا، ولله عوالم وملائكة تسبِّح دون فتور ولا كفور!

* ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ﴾:

ومن الحقِّ: إتقان خلق السماوات والأرض، ووجود النظام والسنن والنواميس الضابطة لحركة الأفلاك، فلا يبغي بعضها على بعض، ولا تصطدم، وكلها تسير بمقدار يحقِّق مصالح الذين يعيشون على ظاهرها[1].

ومن الحقِّ: أن الله تعالى خلقها لحكمة في الدارين، ولإرادة تتعلق بإنزال الكتب وإرسال الرسل وابتلاء الناس؛ ولهذا ذكر عن المؤمنين تسليمهم ويقظة قلوبهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[2].

﴿ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ﴾ أي: أعطى كل إنسان صورته[3].

ولهذا من أسمائه سبحانه: الخالق، البارئ، المصوِّر، فهذه معانٍ متسلسلة نهايتها التصوير، وهو ظهورك للحياة بهذه الصورة التي أنت عليها[1].

---

(1) ينظر: «تفسير أبي السعود» (8/ 255)، و«روح البيان» (10/ 5)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 56)، و«التفسير المظهري» (9/ 312)، و«تفسير القاسمي» (9/ 242)، و«تفسير المراغي» (28/ 119)، و«في ظلال القرآن» (6/ 3585)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 974).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 32)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 455)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 397)، و«تفسير القرطبي» (18/ 134)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 125)، و«فتح القدير» (5/ 281)، و«التحرير والتنوير» (28/ 264)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 180)، و«تفسير القرطبي» (18/ 134)، والمصادر السابقة.

والله تعالى يمتن على الإنسان بحسن الصورة، واعتدال القوام وجمال الوجه والثغر والشعر واللسان والعقل والحركة، وفيه دليل على أن حسن صور الناس أمر مقصود، وكلها من أسرار الخلقة الربانية للإنسان: ﴿تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا﴾ [التين: 4].

وهذا يصنع إدراكًا لفضيلة الإنسانية، فهو بشر ومختار، وصورته أحسن صورة، ولو شاء الله لجعله كسائر الحيوان، كما قال: ﴿نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ﴾ [الانفطار: 8]، وما يطرأ على هذه الصورة من نقص، فإن الغالب أنه من فعل الناس وتعدياتهم على الأجنة، كتسربات نووية إشعاعية، وهو خلاف الصورة المألوفة العامة بين الخلق كلهم، ومع ذلك هو لا يؤثِّر على أصل الصورة وجمالها، وإذا قارنت الإنسان بالحيوان، وجدت الفرق الكبير في الجمال والاعتدال والأشكال والنظرة والابتسامة والتفاهم، ومع تفاوت الناس في الصورة إلا أنهم يشتركون في حسن الخلقة.

﴿سَلَفَۚ﴾: وهو إلماح إلى أن العمل من إيمان أو كفر سوف يرى ويحاسب عليه(2).

* ﴿كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ﴾:

---

(1) ينظر ما تقدم في آخر «سورة الحشر»: ﴿□□□□□□...﴾ [الحشر: 24].

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 455)، و«تفسير القرطبي» (18/ 134)، و«روح البيان» (10/ 6)، و«تفسير القاسمي» (9/ 242)، و«تفسير المراغي» (28/ 120)، و«تفسير السعدي» (ص866)، و«التحرير والتنوير» (28/ 266).

فعلمه سبحانه محيط بكل شيء، فيعلم ما تعلنون من الأعمال وما تسرون من العقائد والنوايا، ويعلم ما تظهرون وما تسرون، وما سوف يقع منكم من هذا وذاك في المستقبل مما لا تعلمونه الآن[1].

﴿وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾ أي: صاحبة الصدور التي لم تغادرها، كالأشياء المستكنة في الصدر، ومنها الشعور الخفي الذي لا يحس به صاحبه والعقل الباطن (اللاواعي) الذي يحتوي على مخزون المشاعر والانفعالات والبواعث والذكريات التي لا يشعر بها صاحبها[2].

* ﴿ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن﴾:

أي: من قبلكم من الأمم السابقة الذين عُذِّبوا، ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ أي: عاقبة كفرهم في الدنيا بالاستئصال والنكال، ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ﴾ أي: في الآخرة[3].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 351)، و«تفسير الطبري» (23/ 7)، و«تفسير القرطبي» (18/ 134)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 126)، و«فتح القدير» (5/ 281)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 163).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 7)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 33)، و«تفسير السمعاني» (5/ 450)، و«تفسير القاسمي» (9/ 243).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 180)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 33)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 327)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 307)، و«تفسير السمعاني» (5/ 450)، و«تفسير القرطبي» (18/ 134)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 127)، و«التحرير والتنوير» (28/ 268)، والمصادر السابقة والآتية.

* ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ﴾:

﴿نِّسَآئِكُمُ﴾ الذي أصابهم في الدنيا وينتظرهم في الآخرة، ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ﴾ أي: بالحجج الواضحات، ﴿تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾؟ كيف يرسل الله بشرًا مثلنا لهدايتنا[1]؟ وفيه ازدراء للإنسانية.

فاستنكروا أن ينتمي النبي إلى جنس البشر، ولو عقلوا لعرفوا أن غاية تكريم البشرية أن يكون من بينهم مَن يختاره الله للرسالة والنبوة[2].

والبشر لا يهديهم إلا نبيٌّ مثلهم، فلو جاءهم مَلَك ما استطاع أن يتعامل معهم كما يتعاملون هم، ولا يعرف طبائعهم وتكوينهم وعاداتهم وما جُبلوا عليه؛ ولهذا قال الله سبحانه: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا﴾ [الأنعام: 9]؛ فكونه بشرًا أدعى للتأثير والاقتداء؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي﴾ [إبراهيم: 4].

ومن الحكمة في الدعوة أن يكون من كل أمة دعاة من أنفسهم، ولذا فالأبلغ أن يكون الدعاة في الولايات المتحدة الأمريكية من شعبها نفسه، وأن يكون دعاة الأوربيين منهم، وأن يكون مَن يدعو العجم من العجم، ومن الفرس الفرس؛ لأن كونه من جنسهم أدعى أن يكون أعرف بثقافتهم وخطابهم ولغتهم، وأقدر على معرفة طريقتهم في التفكير وأكثر فهمًا واستيعابًا لهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 8)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 180)، و«تفسير الماوردي» (6/ 21)، و«الكشاف» (4/ 547)، و«المحرر الوجيز» (5/ 318)، و«تفسير الرازي» (30/ 553)، و«تفسير القرطبي» (18/ 135)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 136)، و«فتح القدير» (5/ 281).

(2) ينظر: «تفسير المراغي» (28/ 122)، و«في ظلال القرآن» (6/ 3586)، و«التحرير والتنوير» (28/ 269)، والمصادر السابقة.

فاستنكارهم أن تكون هدايتهم من بشر عين الخطأ والإزراء بالإنسانية، ولذا قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ كفروا بالرسل والأنبياء، وأعرضوا عنهم وعن دعوتهم[1].

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن﴾: والله تعالى غني بكل حال، ولكن يذكر الغنى بمناسبة وقوع الكفر، كما في قوله سبحانه: ﴿سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾ [الزمر: 7].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أوَّلَكُم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكُم كانوا على أَتْقَى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا**»[2]. وذلك إشارة إلى أنه حينما دعاهم لم يكن ليستكثر بهم من قلة ولا ليستعزَّ بهم من ذلة، وإنما دعاهم لأنفسهم وأمهلهم وأقام عليهم الحجج وصبر عليهم، وهو الغني وهم الفقراء، ومع فقرهم وكفرهم وغناه سبحانه فإنه يصطفي قومًا غيرهم من المؤمنين العارفين ثم لا يكونوا أمثالهم.

ومعنى استغنى: غَنِيَ، أو استغنى عن تكرار الدعوة لهم، فبعدما رفضوا الدعوة عوقبوا، وهو سبحانه غني عمَّن عصاه حميد لَمن أطاعه[3].

* ﴿بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ □□□□□ □□□﴾:

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 34)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7503)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 128)، و«فتح القدير» (5/ 281)، و«التحرير والتنوير» (28/ 269).

(2) أخرجه مسلم (2577) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 8)، و«تفسير الماوردي» (6/ 21)، والمصادر السابقة.

والزَّعْم هو: حكاية قول مظنته الكذب[1]؛ ولهذا جاء في الحديث: «**بِئْسَ مَطِيَّةُ الرجلِ: زعموا**»[2]. وفي سنده ضعف[3]، **ومعناه: أن يحدِّث بكل ما سمع، ولا يتحقَّق** من أخباره[4].

ومن معانيه: الادِّعاء دون بينة[5]، ومنه زَعْم الذين كفروا هنا؛ فقد ادَّعوا أَلَّا بعث ولا نشور، **والمقصود**: كفار مكة ومَن كان على ديانتهم الوثنية[6]، أما غيرهم كأهل الكتاب فهم يؤمنون بالبعث، وإن لم يكن بالصورة الصحيحة السالمة من الخرافات.

ولما كان زعم الذين كفروا باطلًا قال الله لنبيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾: أقسم عليهم بأن ما زعموه باطل، وأن الله تعالى سوف يبعثهم[7].

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 451)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص380) «ز ع م»، و«المحرر الوجيز» (5/ 319)، و«زاد المسير» (4/ 292)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 380)، و«فتح القدير» (5/ 282)، و«الكليات» للكَفَوي (ص488)، والمصادر السابقة.

(2) أخرجه أحمد (17075)، وأبو داود (4972)، والبخاري في «الأدب المفرد» (762، 763)، وغيرهما من حديث أبي مسعود الأنصاري، أو حذيفة رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «المهذب اختصار سنن البيهقي» للذهبي (8/ 4268)، و«فتح الباري» (10/ 551)، و«الإصابة» (12/ 423)، و«النكت الظراف» (3/ 45- 46)، و«السلسلة الصحيحة» (866).

(4) ينظر: «معالم السنن» (4/ 130)، و«فيض القدير» (3/ 214)، و«عون المعبود» (13/ 214)، وما تقدم في «سورة الحجرات»: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾.

(5) ينظر: «الكليات» للكَفَوي (ص488)، والمصادر السابقة.

(6) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 319)، و«تفسير الرازي» (30/ 553)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 136)، والمصادر السابقة.

(7) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 9)، و«تفسير السمعاني» (5/ 451)، و«تفسير القرطبي» (18/ 135)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 136)، و«التحرير والتنوير» (28/ 271).

وهذه آية من ثلاث آيات في القرآن الكريم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يُقسِم فيها.

وفي «سورة يونس»: ﴿□□□□□□□□□□□□﴾ [يونس: 53]، وفي «سورة سبأ»: ﴿مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: 3].

وفي هذه السورة أقسم على حقيقتين: **الأولى**: البعث، وهي القضية الأهم التي مَن يؤمن بها سيلزمه الإيمان بما بعدها من الحساب.

والثانية: أن الإنسان سوف يُنبَّأ بما عمل: ﴿رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ □□□﴾، وليس المقصود مجرد الإخبار والكشف، بل المحاسبة والجزاء بالخير والشر[1].

﴿□□□□﴾: وما له لا يكون يسيرًا عليه سبحانه، وهو الذي إذا أراد شيئًا ﴿□□□ □□□﴾ [البقرة: 117].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿□□□﴾: والمخاطَبون ربما زعم بعضهم أنهم يؤمنون بالله، ولكن الله يريد أن يكون إيمانًا حقيقيًّا موافقا لما جاءت به الرسل، وأن يتحول من مجرد إيمان نظري عقلي أو لفظي إلى إيمان عملي، فبعض الناس يؤمن بوجود الله، ولكن لا يعبده، ولا يلتزم بشرائعه مطلقًا، ولا يدين بها، فلا ينفعه هذا الإيمان، حتى يتحول إلى إيمان حقيقي والتزام واقعي.

﴿□□□□﴾ وهو القرآن؛ بقرينة الإنزال[2]. ﴿□□□□﴾.

---

(1) ينظر: «فتح القدير» (5/ 282)، و«التحرير والتنوير» (28/ 272)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 9)، و«المحرر الوجيز» (5/ 319)، و«زاد المسير» (4/ 292)، و«تفسير الرازي» (30/ 554)، و«تفسير القرطبي» (18/ 136)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 137)، و«التحرير والتنوير» (28/ 273).

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿□□ □ □□﴾: يجمع أعضاءكم، ثم تعود الروح إلى الجسد، ويخرج الناس من قبورهم، فهذا يوم القيامة، **ومن أسمائه**: يوم الجمع[1].

وسُمِّي: يوم الجمع؛ لأن الناس كلهم يجتمعون فيه[2]، وتجمع لكل نبي أمته[3] كما قال سبحانه: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: 109].

وفيه جمع أعضاء الإنسان بعدما تفرقت؛ وذاك سمي: يوم الجمع، كما قال سبحانه: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [الشورى: 7][4].

﴿□□□□﴾: ولم يرد في القرآن الكريم لفظ ﴿□﴾ إلا هنا، وهو مأخوذ من **الغَبْن**، وهو: أن يبيع الإنسان سلعة بأقل من ثمنها، ويكون الفرق فاحشًا[5].

ووصف ذلك اليوم بـ﴿□□□﴾، والأصل أن التغابن يكون بين طرفين، كما تقول: تضاربا، أو تقاتلا[6].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 10)، و«تفسير الماوردي» (6/ 22)، و«المحرر الوجيز» (5/ 319)، و«زاد المسير» (4/ 293)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 137).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 548)، و«زاد المسير» (4/ 293)، و«تفسير الرازي» (30/ 554)، و«تفسير القرطبي» (18/ 136)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 137)، و«التحرير والتنوير» (28/ 274).

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 22)، و«تفسير القرطبي» (18/ 136)، و«فتح القدير» (5/ 283)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «الكشاف» (4/ 210)، و«تفسير الرازي» (27/ 580)، و«التحرير والتنوير» (28/ 274).

(5) ينظر: «غريب الحديث» للحربي (1/ 29)، و«تفسير الرازي» (30/ 554)، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص317)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 981).

(6) ينظر: «تفسير ابن جزي» (2/ 381)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (2/ 115)، وينظر: «شرح ابن عقيل» (4/ 264)، و«همع الهوامع» (3/ 304)، و«جامع الدروس العربية» (1/ 220).

والوجه الآخر: أنه ما من مكلَّف إلا ويقع له غَبْن يوم القيامة، ويتمنى أن يُعاد إلى الدنيا، إن كان مسيئًا حتى يستعتب ويتوب، وإن كان محسنًا حتى يزداد إحسانًا[1]، فيكون الغَبْن لكل أحد من الناس، حتى الصالح الذي عمل الخير يتمنى أن يعود ليعمل أفضل، وإذا رأى ما عند الله من الفضل والكرامة تمنَّى المزيد، كما جاء في الحديث: «**يودُّ أهلُ العافية يومَ القيامة حين يُعطَى أهلُ البلاء الثوابَ لو أن جلودَهم كانت قُرِضت في الدنيا بالمقاريض**»[2]. ولا تغابن حقًّا إلا في ذلك اليوم.

﴿□ □ □ □ □ □ □﴾: فيه إشارة إلى علاج الغَبْن بالمبادرة إلى التوبة وعمل الصالحات مما يكون سببًا في تكفير الذنوب[3]، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: 114]، وفي استطاعتك يا عبد الله أن تنقذ نفسك من مغبة الغَبْن والتغابن يوم القيامة بأن تبادر للعمل الصالح والثبات على الإيمان.

﴿□ □ □ □ □ □ □ □□﴾: والجنات بالنظر إلى مجموع المؤمنين الذين عملوا الصالحات، وكل امرئ منهم له جنته.

والآية دليل على الخلود الأبدي السرمدي الذي لا يحول ولا يزول ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: 108].

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 328)، و«الوجيز» للواحدي (ص1103)، و«تفسير البغوي» (8/ 141)، و«تفسير القرطبي» (18/ 138)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 132)، و«تفسير الإيجي» (4/ 320).

(2) أخرجه الترمذي (2402)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (202)، والطبراني في «المعجم الصغير» (241)، والخليلي في «الإرشاد» (2/ 666)، والبيهقي (3/ 526)، وفي «شعب الإيمان» (9451)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (3/ 202- 203) من حديث جابر رضي الله عنه. وينظر: «علل الدارقطني» (13/ 348)، و«السلسلة الصحيحة» (2206).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 11)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7506)، و«فتح القدير» (5/ 283)، والمصادر الآتية.

﴿□□□﴾ في مقابل ﴿□﴾، فهذا هو الفوز في الجنة[1].

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾:

ولم يقل ﴿□﴾، ومن هنا أخذ بعض أهل العلم أن ثمتَ فرقًا بين خلود أهل الجنة وخلود أهل النار، وأن خلود أهل الجنة سرمدٌ لا نهاية له، وخلود أهل النار هو المكث الطويل، وهذا ما يُفهم من كلام ابن تيمية في بعض كتبه، وابن القيم، وحكاه شارح «الطحاوية» قولًا في مذهب أهل السنة، واختاره رشيد رضا من المتأخرين، وألَّف فيه الصنعاني.

واختلف أهل العلم في هذه المسألة اختلافًا كبيرًا، والمسألة ليست من مسائل الإجماع، ولا من القطعيات، بل هي من مواطن الخلاف، ومَن أخذ بقول منها فلا حرج عليه[2].

* ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا﴾:

الحديث عن المصائب بعد الحديث عن الإيمان والكفر، قد يكون متعلّقًا بمصائب سببها الكفار بعدوانهم على المؤمنين بالتعذيب أو الأذى أو القتل أو مفارقة الأهل والديار، كما تعرَّض له المؤمنون بمكة، أو تكون المصيبة أحيانًا في كفر قريب، كأب أو أم أو أخ، فيغتم لذلك قريبهم المسلم الذي حاول هدايتهم فلم تنفعهم الذكرى.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 11)، و«فتح القدير» (5/ 283)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 169)، و«أضواء البيان» (8/ 201)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 982).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿مَا قَدْ سَلَفَ إِلَّا﴾.

والمصيبة هي: ما يصيب الإنسان[1]، ولكن جرى العرف اللُّغوي على أنها لا تستخدم إلا في الشر، كما هنا، والمصيبة وإن كان لها سبب معلوم غالبًا، إلا أنها مكتوبة من قبل، ولذا ذكر الإذن الإلهي، وهو العلم والقدر المكتوب عند الله تعالى.

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ﴾: يقول علقمة بن قيس رحمه الله: «هو الرجلُ تصيبه المصيبةُ، فيعلمُ أنها من عند الله، فيسلِّم لذلك ويرضى»[2].

ويقول بعض السلف: يَهْد قلبه إلى أن يكثر من قول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»[3].

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: «يَهْد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[4].

فمَن يؤمن بالله ويعلم أن المصائب بإذنه وأنه يُؤجر على الصبر ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ﴾.

وفي قراءة بفتح الدال وبعدها همزة ساكنة: (يَهْدَأْ قَلْبُه)[5]، أي: يصبح قلبه هادئًا في مواجهة المصيبة؛ لأن المصائب تجعل القلب يضطرب ويرتبك، ويفقد الإنسان قدرته

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 245)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص495)، و«التحرير والتنوير» (28/ 279).

(2) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (3/ 314)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (7)، والطبري في «تفسيره» (23/ 12)، والبيهقي (4/ 110)، وفي «شعب الإيمان» (9503). وينظر: «تغليق التعليق» (4/ 342).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (1/ 602)، و«تفسير الماوردي» (6/ 23)، و«زاد المسير» (4/ 293)، و«تفسير الرازي» (30/ 555)، و«تفسير القرطبي» (18/ 139)، و«فتح القدير» (5/ 283).

(4) أخرجه الطبري (23/ 12).

(5) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 181)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 40)، و«المحرر الوجيز» (5/ 319- 320)، و«زاد المسير» (4/ 293)، و«تفسير القرطبي» (18/ 140)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 134)، و«فتح القدير» (5/ 283)، و«معجم القراءات» (9/ 290- 292).

على الاتزان، فمَن آمن بالله رُزق الهدوء عند المصيبة، فيرضى ويسلِّم ويلجأ إلى ربه فيذكره ويسترجعه.

وقد كتب ابن القيم «عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، وكتب أبو يحيى الغرناطي «جَنَّة الرضا في التسليم لما قدَّر الله وقضى»، وكتب كثيرون مؤلفات عن الصبر على البلاء والمصاب وفضله وحسن عاقبته.

ويُروى أن ذا القَرْنين لما نزل به الموت، وحزنت أمه حزنًا شديدًا، قال لها: يا أم، إذا أنا مت فاصنعي وليمة وادعي إليها الناس، واطلبي أَلَّا يحضر إلى الوليمة أحدٌ أُصيب بمصيبة. فعملت وليمة ودعت الناس إليها وقالت: كل مَن أُصيب بمصيبة فلا يأت. فلم يحضر أحد، قالت: أين الناسُ؟ قالوا: وضعتِ شرطًا لا يتحقَّق في أحد. فعلمت أنه أراد تسليتها بعد موته[1]!

﴿مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ أي: فيما قدَّر من المصائب، وفيما يقع من الناس من التسليم أو الاحتجاج أو الاعتراض، فمَن تذكَّر علم الله تجلَّد وصبر، ﴿□□□□ □□﴾ [الطور: 48].

* ﴿تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾:

أمر بطاعته سبحانه، ثم أمر بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأعاد فعل ﴿نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ﴾، ولم يكتف بالعطف فقط، مع أنه يغني، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: 132]؛ ففي إظهار فعل ﴿نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ﴾ هنا إشارة إلى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة مستقلة، فكما يُطاع الله فيما أمر ونهى، كذلك يُطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر ونهى؛ فتجب طاعته فيما يأمر به، ولو كان غير مقترن بقرائن تبليغ الوحي؛ لئلا يتوهَّم السامع أن طاعة الرسول

---

(1) ينظر: «الاعتبار وأعقاب السرور» لابن أبي الدنيا (ص82)، و«التبصرة» لابن الجوزي (1/ 173).

المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلِّغه عن الله دون ما يأمر به غير التشريع، فإن امتثال أمره كله خير[1]. ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ﴾ [النساء: 80].

ويُؤخذ من هذه الآية الكريمة أن السنة النبوية الثابتة حجة مستقلة بذاتها، وقد تنفرد بتشريع أحكام لم ترد بنصها في القرآن، كما في تحريم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها[2]، وأنه يحرم من الرَّضاع ما يحرم من النسب[3]، وتحريم كلِّ ذي ناب من السباع، وكلِّ ذي مِخْلَب من الطير[4].

﴿ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ﴾: فمهمة الرسول صلى الله عليه وسلم البلاغ، والهداية بيد الله يهدي مَن يشاء ويضل مَن يشاء، فليس على الرسول صلى الله عليه وسلم هدايتهم، وإنما عليه أن يقيم الحجة والبلاغ[5]، وأضاف الرسول إلى ذاته العلية سبحانه، فقال: ﴿سَلَفَ﴾ تشريفًا لمقامه وتعظيمًا لقدره[6].

* ﴿فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾:

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (5/ 97).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (5108، 5109)، و«صحيح مسلم» (1408).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (2645، 5239)، و«صحيح مسلم» (1444، 1445).

(4) ينظر: «صحيح مسلم» (1934).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 13)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 41)، و«الكشاف» (4/ 549)، و«تفسير القرطبي» (18/ 140)، و«فتح القدير» (5/ 283)، و«التحرير والتنوير» (28/ 281).

(6) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (20/ 126)، والمصادر السابقة.

تذكير بكلمة التوحيد، ووحدانية الله سبحانه وتعالى هي التي لأجلها بُعثت الرسل وأُنزلت الكتب، فليس أحد من الرسل بمعبود، بل المعبود هو الله وحده، وليس لأحد شيء من الأمر، فالأمر كله لله.

﴿عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾: فإذا كان المرء موحِّدًا لله، فيلزمه أن يتوكَّل على الله الحي الذي لا يموت، **والتوكل معنى قلبي،** لا تفي به العبارة، وهو جمع بين فعل السبب الممكن وبين الاعتقاد الجازم بأن الأمر بيد الله، وأن ما يفعله الله فهو خير للعبد مما يتمنى.

والتوكل قرين الإيمان: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: 23].

* **﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى﴾:**

هذه الآية مدنية، وسبب نزولها- كما قال ابن عباس وعكرمة وغيرهما[1]- أن أناسًا من المسلمين بمكة أرادوا أن يهاجروا، فمنعهم أولادهم وأزواجهم، فتركوا الهجرة، فلما هاجروا بعد ذلك وجدوا الناس سبقوا وتعلَّموا وحفظوا وفقهوا في الدين، فهمَّ هؤلاء أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم؛ لأنهم كانوا سببًا في تأخر هجرتهم، فأنزل الله الآية.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 14)، و«جامع الترمذي» (3317)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص434)، و«تفسير البغوي» (8/ 142)، و«زاد المسير» (4/ 293)، و«تفسير القرطبي» (18/ 141)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 139)، و«التحرير والتنوير» (28/ 283).

وعبَّر هنا بـ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمْ﴾، ولم يقل: «زوجاتكم»؛ حتى تعم الكلمة الرجال والنساء، وكذلك الأولاد تعم الأبناء والبنات.

و﴿ٱلْأُخْتِ﴾ هنا للتبعيض، أي: أن بعض أزواجكم وبعض أولادكم عدو لكم[1].

ومفهوم العداوة هنا ليس منصرفًا للعداوة في الدين فحسب، بل يشمل الصد عن الخير والإلهاء عنه بأي سبيل، فيكون معنى العداوة أن يكون أثره عليك كأثر الأعداء.

﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾: فلم يقل سبحانه: «ضارّوهم»، أو: «عاقبوهم»، وإنما قال: ﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ أي: احذروا أن يبلغ بكم الحب للزوجة أو الولد أن يرتكب المؤمن الإثم بسببهم أو بترك الطاعات.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي﴾: **ذكر ثلاثة أشياء:** أن يعفوا عنهم، فتعفوا عمن ظلمكم، وأن تصفحوا عن الجاهل، كما قال: ﴿قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ﴾ [الأعراف: 199]، وأن تغفروا للمسيء، **فهي ثلاث درجات**[2].

ويحتمل أن يكون **العفو** أَلَّا تُؤاخذ أحدًا بالعقوبة، وإن جرى منك عتاب له، **والصفح** أن تضرب صفحًا عنه، والصفح درجة أعلى من العفو، وأما **الغَفْر** فمن معانيه: السَّتْر[3]، فلا تذكر ما فعله أولادك وزوجتك من الأعمال السيئة[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 330)، و«تفسير البغوي» (8/ 143)، و«تفسير القرطبي» (18/ 143)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 137)، و«روح المعاني» (14/ 321)، و«التحرير والتنوير» (28/ 284).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 14)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 330)، و«تفسير الماوردي» (6/ 25)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص609)، و«لسان العرب» (5/ 25)، و«تاج العروس» (13/ 247) «غ ف ر».

﴿فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾: فهذه من أسمائه الحسنى، والمغفرة والرحمة من صفاته، والله يحب من عباده أن يغفروا ويرحموا؛ وهو جميل يحب الجمال، وغفور يحب المغفرة، ورحيم يحب الرحماء، وعفو يحب العفو، فمَن أراد أن ينال رضى الله فليتخلق بهذه الأخلاق النبيلة.

* ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾:

وهذا لفظ عام، ولم يأت ما يدل على التبعيض كما في الآية السابقة[2].

وبدأ بالأموال؛ لأن الغالب أنها إذا توفرت شغلت حتى عن الأولاد[3]، وفتنةُ الناس بالأموال ظاهرة لا تحتاج إلى استدلال، وقد يُشغل الإنسان عن ولده ولا يُشغل عن ماله، والأولاد يعم الأبناء والبنات وأولادهم وأحفادهم، وفي هذا يقول الشاعر[4]:

لَوْلا بُنَيَّاتٌ كَزُغْبِ القَطا[5] *** رُدِدْنَ من بَعْضٍ إلى بَعْضِ

لَكانَ لِي مُضْطَرَبٌ واسِعٌ *** في الأَرْضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ

وإنَّما أَوْلادُنا بَيْنَنا *** أَكْبادُنا تَمْشـي على الأَرْضِ

لو هبَّتِ الريحُ على بعضِهم *** لامتنعتْ عيني عن الغمضِ

(1) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (20/ 130)، و«فتح القدير» (5/ 284)، و«التحرير والتنوير» (28/ 285)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 330)، و«تفسير البغوي» (8/ 143)، و«تفسير القرطبي» (18/ 143)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 137)، و«التحرير والتنوير» (28/ 285).

(3) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (10/ 192)، و«روح المعاني» (14/ 322).

(4) ينظر: «عيون الأخبار» (3/ 109)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (1/ 102)، و«جواهر الأدب» لأحمد الهاشمي (2/ 269) منسوبًا إلى حطان بن المعلَّى.

(5) **الزُّغب**: أول ما يطلع من الريش، **والقَطَا**: طائر معروف.

وكان أبو حَكِيم المُرِّي- وهو شاعر جاهلي- يحب أن يعيش من أجل ولده حَكِيم، وكان يقول[1]:

يَقَرُّ بعيني وهو يُنقِصُ مدَّتي *** مرورُ الليالي كي يَشِبَّ حَكِيمُ

مخافةَ أن يغتالني الموتُ قبلَهُ *** فيغشى بيوتَ الحيِّ وهو يتيمُ

والفتنة هي: الابتلاء والاختبار[2]، وليس في هذا ذم للمال ولا للأولاد.

والمقصود أن وصف الولد والمال بالفتنة لا يعني الترغيب في التخلص مما في اليد من المال ولا في إهمال الولد، وإنما هو تحذير وطلبُ ترشيد للعاطفة في هذين المحبوبَيْن، وأكثر الناس إذا اغتنى طغى، كما قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي﴾ [العلق: 6- 7]، فأصبح يتوسع ويتأوَّل، أو يجترئ على الحرام، ويزداد تعلقه بالدنيا.. هذا حال أكثر الناس.

ومن الناس مَن يعطيه الله المال، فلا يزيده إلا إيمانًا وطاعة وتصدقًا وتواضعًا وقربًا ومزيد شكر.

ومثل هؤلاء مَن عناهم بعض الصحابة بقوله: إن فقراء المهاجرين أَتَوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ذهب أهلُ الدُّثُور بالدرجات العُلى، والنعيم المقيم! فقال: «**وما ذاك؟**». قالوا: يصلون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، ويُعتقونَ ولا نُعتقُ! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أفلا أعلِّمُكم شيئًا تُدركونَ به مَن سبقكم، وتسبقونَ به مَن بعدكم، ولا يكونُ أحدٌ أفضلَ منكم إلا مَن صنعَ مثلَ ما صنعتم؟**». قالوا: بلى يا رسولَ الله. قال: «**تسبِّحونَ، وتكبِّرونَ، وتحمدونَ دُبُرَ كلِّ**

(1) ينظر: «حماسة الخالديين» (ص98)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (1/ 434)، و«التذكرة الحمدونية» (9/ 317)، و«الحماسة البصرية» (2/ 52).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 18)، و«تفسير البغوي» (8/ 143)، و«تفسير القرطبي» (18/ 142)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 139)، و«فتح القدير» (5/ 285).

صلاة ثلاثًا وثلاثينَ مرة». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: سمع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**ذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاءُ**»[1].

﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ﴾ تذكير لهم أَلَّا ينسوا أجر الآخرة، فإن الدنيا لا تعدّ شيئًا في مقياس الآخرة[2]، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**والله، ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعلُ أحدُكم إصبعه هذه في اليمِّ، فلينظرْ بمَ ترجعُ؟**»[3].

* ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾:

ولهذه الآية شواهد، كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: 286]، وهي تدل على أن المؤمن لا يكلّف إلا قدر طاقته[4].

وكيف نوفِّق بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 102]؟

ذهب جماعة من المفسرين إلى أن هذه الآية ناسخة، وأن الصحابة رضي الله عنهم لما نزلت: ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ شقَّ ذلك عليهم، فأنزل الله سبحانه التخفيف بقوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ﴾. ونُقل هذا عن الحسن البصري.

---

(1) أخرجه البخاري (843، 6329)، ومسلم (595) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 19)، و«تفسير الماوردي» (6/ 26)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 309)، و«المحرر الوجيز» (5/ 320)، و«زاد المسير» (4/ 294)، و«تفسير الرازي» (30/ 556).

(3) أخرجه مسلم (2858) من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 19)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 309)، و«تفسير البغوي» (8/ 144)، و«الكشاف» (4/ 550)، و«زاد المسير» (4/ 294)، و«تفسير الرازي» (30/ 556)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 140).

والراجح الذي اختاره ابن عباس رضي الله عنهما، وأكثر المفسرين: أنه ليس في الباب نسخ بمعنى إبطال الحكم الأول بالثاني، ولكنه التخصيص لذلك العموم، أو التبيين لذلك المجمل، فالآية الثانية بيَّنت وأوضحت الآية الأولى، وأن تقواه حقَّ تقاته لا تدل على أنه يحمِّلكم فوق قدرتكم، فلا تكليف بما لا يُطاق، وإنما المقصود استيعاب التقوى فيما تقدرون عليه، وفيه تحفيز للنفوس على التقوى[1].

ولاشك أن من تقوى الله حقَّ تقاته أن يعرف الإنسان حدود الاستطاعة؛ لأن تكليف النفس فوق طاقتها خلاف التقوى، وتكليف الزوجة والأولاد فوق طاقتهم خلاف التقوى، والمرء يعرف طاقة نفسه جيدًا، مثل تطبيقه لما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: «**صَلِّ قائمًا، فإن لم تستطعْ فقاعدًا، فإن لم تستطعْ فعلى جنب**»[2].

وثمتَ نوع من الاستطاعة فقهه خفي، وكثير من الفتن تقع بسببه، وهو ما يتعلَّق بالمجموع، كالأسرة والمؤسسة والمدرسة والوزارة والشركة، ففيها قدر من الاستطاعة يراعى؛ لأن تجاهله يحدث مفسدة أكثر مما يرجى فيه من المصلحة، فحمل الناس عليه ليس من التقوى التي أمر بها الشرع، فربما قصَّروا في كثير من الطاعات والعبادات بسبب المشقة، وسياسة المجتمعات أدق وأحوج إلى الفقه، ولذا ينبغي لَمن يخالط الناس بقصد الإصلاح أن يستوعب «فقه الممكن»، فلا يحمل الناس على ما لا يطيقون، وهذا مَزْلق يقع فيه المسؤول أو الوالي الذي يغفل عن طاقة الناس وإمكانيَّاتهم، ويقع فيه الداعية أو المصلح الذي يقودهم إلى المستوى المثالي، دون أن يراعي رغباتهم وهممهم وانفعالاتهم.

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 321)، و«تفسير القرطبي» (18/ 144)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 381- 382)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 140)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 138)، و«فتح القدير» (1/ 420).

(2) أخرجه البخاري (1117) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.

ومحمد صلى الله عليه وسلم كان هو الأسوة في تحقيق التقوى، ولذا لما حاصر الطائف ولم ينل منهم شيئًا قال: «**إنا قافلونَ إن شاء الله**». فثقُل عليهم، وقالوا: نذهب ولا نفتحه**!** فقال: «**اغدُوا على القتال**». فغَدَوْا فأصابهم جراح، فقال: «**إنا قافلون غدًا إن شاء الله**». فأعجبهم، فضحك النبيُّ صلى الله عليه وسلم[1].

وحمل الناس على الصعب والوعر وعلى العزائم لا يطيقه إلا أولو العزم من الناس، وهم قليل، ولهم في فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحُدَيْبِيَة أسوة حسنة مع الشروط التي رضيها صلى الله عليه وسلم وأمضى المعاهدة بها، وكانت فتحًا للمسلمين وتيسيرًا لهم، رغم كرههم لها أول الأمر، وإذا كانت الاستطاعة مشروطة في العبادات، فالاستطاعة فيما يخص أمور المال والدنيا والتعليم والسياسة آكد وألزم.

﴿أَصَلَـٰبِكُمْ وَأَن﴾: **والمراد**: اسمعوا لله، واسمعوا لرسوله، وأطيعوا الله، وأطيعوا رسوله[2].

﴿تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا﴾: والأمر بالإنفاق ليس أمرًا بالتخلِّي عن المال برمته، فإنه لا يُؤمر بالإنفاق إلا الواجد للمال الذي عنده ما يزيد عن نفقته ونفقة مَن يعول من أهله.

ومعنى الآية: أنفقوا إنفاقًا يكون خيرًا لأنفسكم، أو أنفقوا شيئًا يكون خيرًا لأنفسكم[3].

---

(1) أخرجه البخاري (4325)، ومسلم (1778) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 44)، و«تفسير البغوي» (8/ 144)، و«تفسير القرطبي» (18/ 145)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 141)، و«فتح القدير» (5/ 285)، و«التحرير والتنوير» (28/ 288).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 20)، و«الكشاف» (4/ 55)، والمصادر السابقة.

﴿مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾: هذه من الآيات العظيمة التي تُساق مساق المثل، وفيها إشارة جلية إلى موطن الخلل في نفس المرء، فعلى الإنسان أن يتوقَّى شحَّ نفسه، ليس في المال فحسب، وإنما في كل شيء[1].

وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يقول في طوافه: «اللهمَّ قني شُحَّ نفسي». لا يزيد على ذلك، فقيل له في ذلك، فقال: «إني إذا وُقيتُ شُحَّ نفسي لم أسرق، ولم أزنِ، ولم أفعل شيئًا»[2].

والفلاح الذي يبتغيه الناس ﴿□□□﴾ هو بأن يوقى الإنسان شح النفس ويسلم من الأَثَرة.

ولا يشق على المتأمِّل المخالط للناس أن يلمح التشاح بينهم في الطعام والشراب ومواقف السيارات والطريق، وعند الطبيب وفي كل اصطفاف، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: **«فمَن أحبَّ أن يُزَحزحَ عن النار، ويُدْخَلَ الجنةَ، فلتأته منيَّتُهُ وهو يُؤْمنُ بالله واليوم الآخر، ولْيَأْتِ إلى الناس الذي يُحِبُّ أن يُؤْتَى إليه»**[3].

ولهذا كان من أفضل ما مُدح به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنها خلصت نفوسهم من حظ نفوسهم.

* ﴿رَّحِيمًا ٢٣ □□□□□□□□□□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 20)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 44- 45)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 330)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7514- 7515)، و«تفسير الماوردي» (6/ 26- 27)، و«تفسير السمعاني» (5/ 455)، و«تفسير الرازي» (30/ 557).

(2) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (1/ 228)، والطبري في «تفسيره» (22/ 530)، والبغوي في «معجم الصحابة» (4/ 411)، وابن عساكر (35/ 294).

(3) أخرجه مسلم (1844) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

والمقصود: الصدقة، وفيها تأكيد للأمر بالإنفاق، فإن تنفقوا صدقة فكأنكم تقرضون الله، وإنما تقرضون مليئًا سبحانه، وسيوفي لكم ما أنفقتم أضعافًا مضاعفة[1].

﴿□ □□ □ □ □ □﴾: ﴿□﴾ يشكر لعباده أعمالهم الصالحة، كما قال: ﴿وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ﴾ [الزمر: 7]، و﴿□﴾ على العصاة، فلا يعاجلهم بالأخذ والنكال[2].

❊ ﴿□□□□□□﴾:

تتميم للتذكير بعظمة الله تعالى، مع مناسبتها للترغيب والترهيب اللذين اشتملت عليهما الآيات السابقة كلها؛ لأن العالم بالأفعال ظاهرها وخفيها لا يُفِيتُ شيئًا من الجزاء عليها بما رتِّب لها.

ولأن ﴿□﴾ لا يعجزه شيء، و﴿□﴾ الموصوف بالحكمة لا يدع معاملة الناس بما تقتضيه الحكمة من وضع الأشياء مواضعها، ونَوْط الأمور بما يناسب حقائقها[3].

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (1/ 223)، و«تفسير الطبري» (23/ 21)، و«تفسير السمعاني» (5/ 455)، و«المحرر الوجيز» (5/ 321)، و«زاد المسير» (4/ 294)، و«تفسير الرازي» (30/ 557)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 141)، و«فتح القدير» (5/ 285).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 47)، و«تفسير الماوردي» (6/ 27)، و«تفسير القرطبي» (18/ 147)، و«التحرير والتنوير» (28/ 290)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 291).

سورة الطلاق

*** تسمية السورة:**

اسمها الغالب: «**سورة الطَّلاق**»، وهو المتداول في كتب التفسير، والسنن[1].

وتُسمَّى: «**سورة النِّساء الصغرى**»[2]. أما «**سورة النِّساء الطُّولَى**» فهي المستفتحة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1][3].

وقد جاء عن عبد الله بن مسعود وأُبيِّ بن كعب رضي الله عنهما: أنهما كانا يسمِّيانها: «**سورة النساء القصرى**»[4]، يعني: القصيرة.

*** عدد آياتها**: اثنتا عشرة آية **وقيل**: إحدى عشرة آية، **وقيل**: ثلاث عشرة آية[5].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص663)، و«تفسير مقاتل» (4/ 355)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص470)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 305)، و«تفسير الطبري» (23/ 22)، و«تفسير القرطبي» (18/ 147)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 194)، و«فتح القدير» (5/ 287)، و«روح المعاني» (14/ 324)، و«التحرير والتنوير» (28/ 292).

(2) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص182)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7519)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 169)، و«التحرير والتنوير» (4/ 211)، و«التفسير القرآني للقرآن» (2/ 681).

(3) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (1/ 169)، و«التحرير والتنوير» (4/ 211)، و«التفسير القرآني للقرآن» (2/ 681).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (4532، 4910)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 149)، و«الدر المنثور» (8/ 201).

(5) واختلافها في ثلاث آيات: قوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ [الطلاق: 2]، و﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ﴾، و﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الطلاق: 10]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن»

* **وهي مدنية** إجماعًا[1].

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾: الخطاب موجَّه له صلى الله عليه وسلم، إلا أن المقصود الأمة كلها؛ ولهذا لم يقل: «إذا طلقت»، وإنما قال: ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾[2].

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقع منه الطلاق المفارق إلا مرة واحدة؛ وهي قصة ابنة الجَوْن التي استعاذت منه صلى الله عليه وسلم، فقال: «**لقد عُذتِ بعظيم، الحَقِي بأهلك**»[3]؛ وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان يكره الطلاق، وقد جاء في حديث: «**أبغضُ الحلال إلى الله تعالى الطلاقُ**»[4]. والصواب إرساله[5]، ويغني عنه ما في

(ص249)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص314- 315)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 94).

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 457)، و«المحرر الوجيز» (5/ 322)، و«زاد المسير» (4/ 295)، و«تفسير القرطبي» (18/ 147)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 469)، و«التحرير والتنوير» (28/ 292).

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص470)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 401)، و«تفسير السمعاني» (5/ 457)، و«تفسير القرطبي» (18/ 148)، و«فتح القدير» (5/ 287)، و«التحرير والتنوير» (28/ 294).

(3) أخرجه البخاري (5254) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(4) أخرجه أبو داود (2178)، وابن ماجه (2018)، والحاكم (2/ 196)، والبيهقي (7/ 527) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(5) رجَّح إرساله: أبو حاتم والدارقطني وغيرهما.

«صحيح مسلم»، أن الشيطان يبعث سراياه، وأقربهم إليه هو مَن يقول له: ما زلتُ به حتى فرَّقت بينه وبين امرأته[1].

فالطلاق كسر لنفس المرأة، وتفريق للزوجية، وشتات للأولاد، وهدم للبيوت، ومدخل من مداخل الفساد إن لم يقع موقعه الصحيح، والفتنة للرجل والمرأة بسبب الحرمان من الإشباع بعد أن تعوَّدا عليه، وكسر بعض الحواجز التي كانت تحول بين الإنسان وبين المعصية؛ ولهذا فالطلاق مكروه لغير حاجة، وقد يكون محرَّمًا أو جائزًا أو واجبًا بحسب الحال[2].

﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ﴾ أي: في قُبل عدتهن[3]، فـ«اللام» هنا لام التوقيت[4]، كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: 78]، أي: طلقوهنَّ الطلاق الذي تبدأ بعده العدة مباشرةً.

والعدة هي: المدة التي تقضيها المرأة بعد الطلاق ممنوعة فيها من الزواج[5].

والمرسل أخرجه أبو داود (2177)، وغيره، وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (1297)، و«معالم السنن» (3/ 231)، و«علل الدارقطني» (13/ 225)، و«المحرر» لابن عبد الهادي (ص567)، و«البدر المنير» (8/ 65- 67)، و«المبدع» (6/ 293)، و«إرواء الغليل» (2040).

(1) أخرجه مسلم (2813) من حديث جابر رضي الله عنه.

(2) ينظر: «المغني» (7/ 363- 364)، و«الفقه على المذاهب الأربعة» (4/ 263).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 24)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 499)، و«المحرر الوجيز» (5/ 323)، و«تفسير القرطبي» (18/ 153)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 383)، و«روح المعاني» (14/ 325).

(4) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (19/ 147)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (2/ 310)، و«فتح القدير» (5/ 287)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 178)، و«التحرير والتنوير» (28/ 295).

(5) ينظر: «بدائع الصنائع» (3/ 190)، و«مغني المحتاج» (5/ 78)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (29/ 304).

وهذا يقتضي أَلَّا تطلَّق الزوجة إلا وهي طاهر في طهر لم يجامعها فيه، فهذا طلاق السنة[1]؛ حتى تكون مستقبلة لعدتها مباشرة.

والحامل تُطَلَّق في أي وقت؛ لأن عدتها تبدأ فور الطلاق[2].

والطلاق البدعي هو: أن يطلقها في الحيض، أو في طهر جامعها فيه[3].

وثمة طلاق لا يوصف بأنه بدعي ولا سني؛ وهو طلاق الصغيرة والآيسة التي لا تحيض، ومَن لم يدخل بها زوجها بعد[4].

﴿إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا﴾: من **الإحصاء**؛ وهو: الضبط والإتقان، فلا تزيد ولا تنقص؛ لأن النقص ضرر على الزوج، والزيادة ضرر على المرأة[5].

﴿تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ﴾: أمر بالتقوى، وكرَّر الأمر في السورة كثيرًا؛ لأن أعظم ما يحجز الإنسان عن المضارة والإساءة هو الخوف من الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ أي: النساء المطلقات[6]، فالمطلقة الرجعية التي يحق للزوج أن يراجعها دون إذنها ولا إذن وليها؛ فلها ما للزوجات من حقوق إلا المبيت؛ لأنها ما زالت زوجة، وإنما أضاف البيت لهن

---

(1) ينظر: «البناية شرح الهداية» (5/ 282)، و«مواهب الجليل» (4/ 38)، و«مغني المحتاج» (4/ 499)، و«المغني» (7/ 364).

(2) ينظر: «المدونة» (2/ 4)، و«الأم» (5/ 229)، و«المحلى» (9/ 374).

(3) ينظر: «بدائع الصنائع» (3/ 93- 94)، و«حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (2/ 361)، و«المجموع» (17/ 73)، و«المغني» (7/ 366)، و«المحلى» (9/ 377).

(4) ينظر: «البناية شرح الهداية» (5/ 288)، و«اللباب في الفقه الشافعي» (ص328)، و«المغني» (7/ 374).

(5) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 143)، و«التحرير والتنوير» (28/ 297- 298).

(6) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 30)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 312)، و«تفسير الرازي» (30/ 560)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 384)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 143).

في قوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ لأن لها حق الانتفاع بالسكنى فيه[1]، فلا يجوز للرجل أن يطردها من البيت كما يقع كثيرًا.

﴿(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: حتى لو وجدت إحداهن بعض المضايقة في البيت فعليها أن تبقى في منزلها.

والبقاء له مقاصد عظيمة: منها: أنه ربما رأى الزوج منها ما يدعوه إلى مواقعتها، فيحصل بذلك رجعتها.

ومنها: أنه قد يكون لها أولاد منه فيحتاجون إلى رعايتها، وإذا خرجت من البيت قد لا تجد مكانًا يؤويها، وربما استشرفتها العيون ووقعت لها حالات من المضايقة والابتزاز.

والفاحشة التي تسوِّغ خروجهن هي الفعل الشنيع، والغالب أن الفاحشة إذا جاءت معرَّفة بـ(ال) فالمقصود بها: الزنى ونحوه، كما قال: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) □□□ □□□□﴾ [الأعراف: 80]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا﴾ [النساء: 15]، أما إذا جاءت نكرة وبدون إضافة، كما هنا، وكما في قوله: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ﴾ [الأحزاب: 30]، **فالمقصود بها:** الفعل الشنيع أو السيِّئ[2]، وليس خصوص الزنى، كما في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 154)، و«التحرير والتنوير» (28/ 299).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 323)، و«تفسير القرطبي» (14/ 176)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (11/ 78)، و«التحرير والتنوير» (28/ 300).

[الأعراف: 28]، وكما في آية الطلاق هذه، على أنه قد نصَّ بعض الصحابة والتابعين والمفسرين أن المقصود هنا: الزنى، وهو قول الحسن وعطاء وغيرهما[1].

وقال آخرون: المقصود أن تكون سليطة اللسان على أهله، فتفحش في القول وتسب وتخوض في عرضه وعرض محارمه، كأمه وأخواته، أو أن تكون ناشزًا ترفض حقه، فإذا وُجد شيء من ذلك، فإن المصلحة حينئذ متعينة في إخراج هذه المرأة من بيت الزوجية إلى بيت آخر، وهذا مروي عن أُبي بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهما[2].

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾: **والحدود** جمع: حدٍّ؛ وهو الشيء الفاصل بين الحلال والحرام، والحق والباطل[3]، فهذه حدود الله فيما يتعلق بعقد الزوجية من الإمساك والطلاق، وبقاء المعتدة في بيتها لا يجوز العبث بها.

﴿٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: فالذي يخرج المرأة من بيتها قد ظلم نفسه قبل أن يظلمها، بتحميلها آثام ظلم الآخرين، ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾، وهذا ليس خطابًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هي لغة جارية عند العرب في مناسبات كثيرة، أي: لا تدري بعد الطلاق أن يُحدث الله تعالى أمرًا، فيقلب البغضَ إلى محبة، ﴿□□□□□□□﴾ [الأنفال: 24].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 32)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (3/ 904)، و«تفسير السمعاني» (5/ 459)، و«زاد المسير» (4/ 297)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 143)، و«الدر المنثور» (8/ 193)، و«التحرير والتنوير» (28/ 301).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 34)، و«أحكام القرآن» للطحاوي (2/ 326)، و«تفسير البغوي» (8/ 150)، و«تفسير القرطبي» (18/ 156)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 144)، و«التحرير والتنوير» (28/ 301).

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص221) «ح د»، و«المطلع على ألفاظ المقنع» (ص452)، و«التحرير والتنوير» (28/ 304).

وقيل: إن الآية تحتمل معنى أن يراجعها زوجها، وذلك في الطلاق الرجعي فتكون مراجعتها هي الأمر الذي أحدثه الله سبحانه[1].

ويمكن أن يكون سبب الطلاق هو عدم وجود الأولاد؛ فربما تحمل المرأة أو تنجب، وقد يكون سبب الطلاق الفقر وثقل النفقة، فيُحدث الله أمرًا من السَّعة والغنى، وهذا يفتح آفاق المستقبل ويُدرِّب على نظرة التفاؤل، والمقصود: أمرًا طيبًا حسنًا، خلاف ما كان في السابق[2].

وهو تلقين من الله الذي بيده المقادير أن نتربَّى على التفاؤل ونظرة الإشراق والأمل.

وكم أمــرٍ تُســـاءُ به صباحًا *** وتأتيك المَـسَرَّةُ بالعَـشِي

إذا ضاقت بك الأحوالُ يومًا *** فثِقْ بالواحــد الأحــد العلي[3]

*** ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ﴾**:

﴿وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: قاربت أن تنتهي عدة المطلقة[4]؛ وهي ثلاثة قروء، كما قال سبحانه: ﴿مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ﴾ [البقرة: 228]. **والقروء** جمع: قرء، **قيل**:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 38)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 504)، و«تفسير القرطبي» (18/ 156).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 156)، و«التحرير والتنوير» (28/ 306).

(3) ينظر: «معجم الأدباء» (3/ 996)، و«الشقائق النعمانية» (ص373).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 39)، و«التفسير البسيط» للواحدي (4/ 312)، و«تفسير البغوي» (8/ 150)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 145)، و«فتح القدير» (5/ 288).

هو الطهر[1]، فتعتد المرأة ثلاثة أطهار بعد طلاقها، فإذا خرجت من الطهر الثالث فقد خرجت من العدة.

وقيل هو: الحيض[2]، فإذا طلقها في الطهر الذي لم يجامعها فيه بدأت العدة بعد الحيضة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، فإذا طهرت من الحيضة الثالثة واغتسلت خرجت من العدة، وإذا كانت غير ذات قروء فسيأتي حكمها.

وليس المقصود: انتهاء العدة؛ لأنها إذا انتهت لا يجوز للزوج أن يراجعها؛ بل المقصود: شارفن على نهاية العدة، فله الخيار بين أن يمسكها بمراجعتها أو يترك ذلك فتبين منه، بخلاف المعنى الوارد في قوله سبحانه: ﴿أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ﴾ [القصص: 29]، أي: انتهى منه وخرج[3]، ولذا عبَّر هنا ببلوغ الأجل، وعبَّر في قصة موسى بقضاء الأجل.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾: وغالبًا ما يظن الرجل أن المرأة هي المخطئة، وتعتقد المرأة أن الرجل هو المخطئ، ولذا يجد المصلح صعوبةً في إقناع كل من الطرفين أن يغض الطرف عن أخطاء الآخر، ويحاول تصحيح أخطائه هو، فالزوج يلوم الزوجة، والمرأة تلوم الرجل، وبهذا لا يمكن تحقيق الإصلاح.

والله تعالى يعالج المشكلة بتربية حكيمة تحقق الخير للأزواج المتشاكسين بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، والخطاب هنا للرجل بأن يُحسن إليها فلا يعاتبها ولا يوبِّخها

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (4/ 95)، و«زاد المسير» (1/ 199)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 608)، و«تفسير ابن جزي» (1/ 122)، و«فتح القدير» (1/ 270)، و«التحرير والتنوير» (2/ 390).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص235)، و«تفسير الطبري» (4/ 87)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (1/ 252)، و«تفسير النسفي» (1/ 189)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 608)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (7/ 247)، و«تفسير البغوي» (6/ 205)، و«تفسير الخازن» (3/ 363)، و«التفسير المظهري» (7/ 161).

ولا يزجرها ولا يقصِّر معها، و«المعروف» نكرة يشمل كل خير، كالنفقة وحسن المعاملة وأداء الحقوق[1].

﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ﴾، والفراق بمجرده مؤلم، وهو مما تتألم له النفوس، فإذا كان ولا بد فليكن بمعروف دون تعيير ولا فضح ولا تشهير، ومن كرم الرجل أن يُظهر ألمه على فراق زوجته ولا يذكرها إلا بخير، وقد أخذ الشافعي هذا المعنى فقال[2]:

وعاشر بمعروف وسامح مَن اعتدى *** ودافـــع، ولكن ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾

﴿وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ﴾: ظاهر الآية: وجوب الإشهاد على الرجعة، والإشهاد على الطلاق، وبهذا قال كثير من الفقهاء ونُسب إلى بعض الصحابة، وهذا هو أحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد[3]، وإذا وقع الطلاق أو وقعت الرجعة بدون إشهاد صحَّ[4]، وعليه أن يُشهد حتى لا يقع تجاحد أو احتكام، وحتى لا تدَّعي المرأة على زوجها أنها قد خرجت من عدتها، وقد يتوفَّى أحدهما فيقع التردد هل يرثه الآخر أم لا؟ فالإشهاد يقطع دابر التنازع.

وهذا مما يخاطب به ولاة الأمر والقضاة المسؤولون عن مثل هذه القضايا؛ أن يكون ثمة نظام منضبط لتوثيق الرجعة والطلاق وبالشهود، وأن يُشدَّد في هذا الأمر، فكثيرًا ما يذهب بعض الرجال إلى المحكمة لاستخراج صك الطلاق فيجعل تاريخ

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 39)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7531)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 384)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 183).

(2) ينظر: «ديوان الشافعي» (ص163).

(3) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 282)، و«زاد المسير» (4/ 297)، و«التحرير والتنوير» (28/ 309).

(4) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (3/ 609)، و«تفسير القرطبي» (18/ 158).

الطلاق متقدِّمًا أو متأخِّرًا عن الواقع والمرأة لا تعلم، وقد يسافر بها ويعاشرها دون أن يخبرها بوقوع طلاقه.

﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ﴾: معتدلة واضحة لا لبس فيها، ولا مجاملة لأحد، وأن تكون لله، وذلك بضبط الشهادة خوفًا من الله لا من أجل الزوج أو الزوجة أو القرابة[1].

﴿أَرْضَعْنَكُمْ﴾ إشارة إلى الوصايا والأوامر والتوجيهات[2]، ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾، فقرن السياق بين الأحكام التشريعية التي هي قوانين واضحة، وبين الوعظ والتذكير وغرس التقوى في النفوس، والقانون إذا وجد وحده لم يلتزم به الناس؛ فإن المجتمعات تنحرف، ولا بد من وازع الدين والخلق.

﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن﴾: وهذا حافز على التقوى، ولهذه الآية معنى خاص مباشر؛ وهو تقوى الله في شأن الطلاق، بأن يوقعه كما أمر الله، فيطلِّق طلقة واحدة في طهر لم يجامعها فيه عند تأكد الحاجة إلى الطلاق من غير طيش ولا تسرع ولا قصد إضرار، وهو يحسب أن الطلاق خير للمرأة وخير له من بقاء عصمة الزوجية، فمَن امتثل حكم الشرع في أمر الطلاق فقد جعل الله له مخرجًا في ذلك بأن يمكنه مراجعتها[3]؛ لأنه لم يطلقها إلا واحدة، ولا تتطلَّب الرجعة إلا أن يتلفظ بها

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 555)، و«تفسير القرطبي» (18/ 159)، و«فتح القدير» (5/ 288)، و«التحرير والتنوير» (28/ 310).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 42)، و«التحرير والتنوير» (28/ 311).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 43)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 461)، و«تفسير السمعاني» (5/ 461)، و«تفسير الرازي» (30/ 562)، و«تفسير القرطبي» (18/ 159)، و«روح المعاني» (14/ 330).

ويشهد على ذلك عدلين، بخلاف مَن لم يتق الله فطلَّق ثلاثًا جميعًا، أو طلَّقها في حيض، أو في طُهر جامعها فيه، أو على غير السنة مما أوجد عنده نقصًا في التقوى، ومما يدل على تسرعه وكثرة إيقاعه للطلاق لأتفه الأسباب، فهذا يصعب عليه المخرج، وقد لا يجد مفتيًا يخرجه من ضائقته بعد ندمه.

وثمة معنى عامٌ في الآية؛ وهو أن مَن يتق الله في سائر أموره يجعل الله له مخرجًا وفرجًا من كل ضيق، سواء أكان ذلك في شأن أسري أو اقتصادي أو سواهما[1].

والآية تلهم المصلحين أن يحرصوا على تحقيق الرضا والتوافق الاجتماعي، وإذا استطاعوا أن يصنعوا السعادة في بيوتهم فسيجدون أنهم أصبحوا أكثر نجاحًا في حياتهم وأكثر توفيقًا في تجارتهم؛ بل وأكثر طاعة لربهم، ومن هنا فإن من أعظم مهمات المستشار والمصلح الاجتماعي السعي في إيجاد السكن والاستقرار في البيوت.

* ﴿تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

غالب معاناة الناس هي من نقص المال، أو قلة ذات اليد أو الدَّين، وبعض الأزواج يتغيَّر على زوجته بسبب الضائقة المالية، ويصبح متبرِّمًا متلوِّمًا غضوبًا كثير النقد والتأفُّف.

و﴿تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من جهة لم تخطر على باله[2]، وهو داخل فيما يسميه بعضهم: بالتفكير خارج الصندوق، فقد يرزقه الله

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 146)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 364)، و«زاد المسير» (4/ 298)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 221)، و«تفسير النسفي» (3/ 498)، و«فتح القدير» (5/ 289)، و«روح المعاني» (14/ 330).

القناعة، وهي كنز، وهي خير ما يُرزقه المرء، فيتصرف في ماله بطريقة راشدة من غير إسراف ولا تقتير، وقد تكون المرأة سببًا للرزق؛ إما لقرابتها الأغنياء، أو لحسن مشورتها، أو لغير ذلك.

وهذه الحقيقة يجب أن يسلِّم لها المسلم من غير تردد ولا شك، وأن يحسن ثقته بالله حتى يتحقَّق له موعوده، ولا يترك الأسباب منتظرًا الفرج من الله من غير عمل ولا بذل سبب، فإن العمل وبذل الجهد والسبب هو من تقوى الله، على أن يكون في يدي الله أوثق منه فيما يده.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ﴾: وهذا هو البعد الإيماني في الرزق، وهو غائب عن كثير من الحضارات والثقافات والمشروعات؛ ولذلك تقع الأزمات والنكبات بسبب اعتماد الناس المحض على الحسابات المادية، في حين أنهم لو توكلوا على الله حقَّ توكله، لرزقهم كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بطانًا[1]، فهي لم تقبع في وكورها تنتظر «الرزق»؛ بل ذهبت غدوًا ورواحًا، ولكنها لا تعلم على وجه اليقين مكان رزقها ولا نوعه، بل الله يسخر لها من فضله فلا تكاد تموت جوعًا!

وقد ذكر ابن القيم فئتين انحرفا في هذا السبيل؛ من يعملون الأسباب المادية ويغيب عنهم الدعاء والتوكل، ومن يقعدون ولا يعملون، وقد يلجأ أحدهم إلى الدعاء أو الصلاة، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وكمال الإيمان والعقل والحزم

---

(1) كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعًا: «**لو أنكم تتوكلونَ على الله حقَّ توكله، لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ، تغدُو خِماصًا وتروحُ بِطانًا**». أخرجه أحمد (205)، والترمذي (2344)، وسيأتي في «سورة الملك»: ﴿٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾.

فعل السبب مع التوكل على الله، وأَلَّا يقول الإنسان كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78].

﴿بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ﴾: فما أراده الله تعالى سوف يبلغه ويحقِّقه[1].

﴿سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا﴾: فكل شيء عنده بمقدار، والناس يحلمون أحلامًا بعيدة المنال، أو هي على خلاف السنن الربانية، دون أن يبذلوا لذلك أسبابًا.

❋ ﴿(٢٣)□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿(٢٣)□□□□□﴾: هذا حكم جديد في شأن العدة يخص مَن انقطع حيضها أو لم تحض بعدُ، واليائسة هي الكبيرة التي توقَّف عنها الحيض، وهذا قد يكون في سن الستين أو الخمسين، كما قاله الفقهاء من الشافعية وغيرهم[2]، والصواب: أنه يختلف من مجتمع إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى، ومن عصر إلى عصر، والله تعالى قرنه بالإياس من المحيض؛ وهو انقطاع الحيض انقطاعًا كليًّا دون نظر للسن، فهذه عدتها ثلاثة أشهر بدل ثلاث حيض أو ثلاثة أطهار[3].

﴿□□□□﴾: مثل الجارية الصغيرة التي لم تحض، فعدتها ثلاثة أشهر أيضًا[4].

وقد أخذ بعضهم من هذه الآية جواز تزويج الصغيرة التي لم تحض بعدُ، وجواز الدخول بها ومواقعتها[1]؛ لأن غير المدخول بها لا عدة عليها أصلًا.

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 152)، و«المحرر الوجيز» (5/ 324)، و«تفسير الرازي» (30/ 562)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 148)، و«روح المعاني» (14/ 331)، و«التحرير والتنوير» (28/ 313).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 316)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (2/ 15).

(3) ينظر: «بدائع الصنائع» (3/ 195)، و«مواهب الجليل» (4/ 143)، و«المجموع» (18/ 141)، و«المغني» (8/ 142).

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 563)، و«التحرير والتنوير» (28/ 319).

على أن المسألة لم يأت فيها حكم شرعي قاطع بسن معين للزواج؛ ولكن مدار الأمر فيه على تحقيق المصالح ودفع المفاسد، وولي الأمر ينبغي أن يراعي أحوال الناس، وما هم عليه من التقوى والإيمان والحرص، أو ضد ذلك من الشره والغفلة والطمع بالمال.

وقد ظهر اليوم أن بعض الآباء والأولياء يدفعه الطمع إلى أن يزوِّج الصغيرة التي لم تبلغ، فيقدِّم مصلحته على مصلحتها، وإذا فعل ذلك سقطت ولايته عليها؛ لأن عماد الولاية هو الرشد في العقد، وهو أن يزوِّجها بالكفء المناسب الذي تتحقَّق مصلحتها في الزواج به، فلا بأس حينئذ أن يوجد تحديد يمنع الأولياء من أن تكون البنات الصغيرات سلعة تباع وتشترى.

وأحيانًا يقصد بتزويجها مضارة أمها المطلقة وحرمانها من حضانتها، فناسب أن يُمنع من ذلك من باب السياسة الشرعية، ويكون إنفاذ الحالات العادلة التي لا مضارة فيها ولا طمع بواسطة إذن قضائي إداري استثنائي.

﴿□□□□□□□﴾: والآية تدل على أن عدة الحامل: وضعها لحملها[2]، وسياقها في غاية الدقة؛ فإن الله تعالى لم يقل: «أن يلدن»؛ بل قال: ﴿□□□□﴾؛ لاحتمال أن يكون في رحمها أكثر من ولد، فلا تخرج من العِدة إلا بوضع حملها كله، ولاحتمال أن تضع حملها قبل أن يكتمل نموه، ويسمى: ولدًا[3].

---

(1) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (2/ 68)، و«شرح صحيح البخاري» لابن بطال (7/ 247)، و«أحكام القرآن» للكيا الهراسي (2/ 314)، و«المجموع» (16/ 168).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 54)، و«تفسير القرطبي» (18/ 165)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 149)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 166)، و«فتح القدير» (5/ 289).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 563).

﴿□□□□□□□﴾، وهذا عود إلى التقوى والتحفيز عليها للأزواج وللزوجات؛ لأن من النساء مَن قد تعاني ما تعاني في الطلاق، وقد تشعر بالقهر والحرمان والحزن على فراق بيت الزوجية، والبعد عن الأولاد، فهنا خير عزاء للمرأة تذكيرها بالتقوى، وحفظ اللسان والفرج، والصبر، فلعل الأمر الذي ضاقت به ذرعًا أن يجعله الله عاقبته يسرًا: إما برجعة تعود بها الأمور أحسن مما كانت عليه أو بزوج آخر ينسيها آلام الأول وعذاباته.

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

هذه الأوامر والنواهي والتعليمات والأحكام والمواعظ هي أمر الله الشرعي الواجب الإنفاذ والرعاية لمصالح العباد[1].

وفي هذه الآية أعظم العزاء للمبتلَى، ليعلم أن تقوى الله موجبة لرحمته وتكفير السيئات ومضاعفة الحسنات ورفعة الدرجات، وقد يكون ما وقع من طلاق وفراق بسبب ذنب يصيبه الزوج أو الزوجة أو هما معًا، فيقع الطلاق عقوبة، ولا يمنع أن تكون العقوبة المعجَّلة تكفيرًا للسيئات، وقد تحمل المصيبة الزوج والزوجة على تقوى الله ومراجعة النفس، فهذا يداوي الإنسان من الشعور بالكآبة على أمر مضى وانقضى.

❊ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 63)، و«تفسير السمعاني» (5/ 464)، و«تفسير الرازي» (30/ 563)، و«التحرير والتنوير» (28/ 324).

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾: أمر إلهي واجب لكل مطلقة رجعية يؤكِّد لها حق السكن؛ لأنها لا زالت زوجة ما دامت في العدة، حيث يسكن الزوج فيه، وعلى حسب حاله يسارًا أو فقرًا.

والوجد هو: الموجود أو المقدور، وتُنطق بضم الواو أو كسرها أو فتحها، فهي مثلثة، ومعناها واحد، أي: مما تجدون[1].

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ﴾: **والمضارة**: أن يتعمَّد الرجل أن يضرَّ المرأة أو يؤذيها أو يضيِّق عليها بأي طريقة[2]، وقد تقع المضارة من الزوجة، ولكن القرآن وجَّه النهي للرجل؛ لأنه يملك من وسائل المضارة في شأن الطلاق أو الحضانة ما لا تملكه المرأة.

﴿مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾: وذكر الحامل هنا على وجه الخصوص ليس لأن للحامل حكمًا خاصًّا؛ ولكن لأن الحامل تطول عدتها بطول حملها؛ فقد تكون تسعة أشهر، وربما استثقل بعض الأزواج النفقة، ولذلك جاء التأكيد والتذكير بأن الإنفاق على الحامل يجب أن يستمر حتى تضع حملها؛ ولأنه ينفق عليها ويرعى حملها الذي هو ولده[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 340)، و«تفسير الرازي» (30/ 564)، و«تفسير القرطبي» (18/ 168)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 387)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 201)، و«التحرير والتنوير» (28/ 327).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص855)، و«تاج العروس» (9/ 261) «و ج د».

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 327).

(3) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 153).

﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ﴾: وهنا انتهت عقدة الزوجية وبقى تنظيم الأمر لما بعد الطلاق، فبيَّنت الآية حق المطلقة أن تأخذ أجرة على إرضاع ولدها من طليقها مع أنه من رحمها[1]؛ ولكن لا يجب عليها إرضاعه إلا بأجر على والده.

﴿مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ أي: تآمروا، أي: ليأمر بعضكم بعضًا بالمعروف، أو تشاوروا فيما بينكم بالخُلق الكريم[2].

﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾ واختلفتم ولم تطيعوا الله في الائتمار بمعروف ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، وفي هذه الآية إعجاز وإيجاز؛ فالتعريض بـ﴿ءَابَآؤُكُم﴾ تأديب للمرأة أَلَّا تبالغ فتكون سببًا في تولِّي امرأة أخرى إرضاع ولدها، وفيها تأديب للزوج أَلَّا يتشدَّد؛ لأنه إن لم يدفع أجرة للأم دفع أجرة لامرأة أخرى ترضع ولده، والأم أحنُّ وأرحم وأنصح[3].

* ﴿ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 65)، و«تفسير القرطبي» (18/ 168)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 387)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 153)، و«فتح القدير» (5/ 293).

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 466)، و«المحرر الوجيز» (5/ 326)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 387)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 263)، و«فتح القدير» (5/ 293).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 329).

﴿ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾: هنا تقرير قاعدة عامة في شأن الإنفاق على الأهل والولد- وإن كان سياق الآية في شأن أجرة الإرضاع- أن النفقة من الرجل مطلوبة بحسب قدرته إذا كان غنيًّا ينفق نفقة الغني[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ أي: ضُيِّق عليه[2]، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ﴾ أي: فاتقوا الله ما استطعتم.

﴿ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم﴾: وهذا متعلِّق بالمال قبل غيره؛ لأن السياق عن النفقة، وتأمَّل كيف جاء بالعسر واليسر منكرتين: ﴿ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم﴾، ولم يقل: «بعد العسر يسرًا»، في حين قال سبحانه في «سورة الشرح»: ﴿ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣﴾، فذكر أن اليسر مع العسر في الوقت نفسه وليس بعده، وهذا أقوى وأبلغ؛ لأن السورة كلها في سياق أشياء معنوية ليست مادية، فقبلها ذكر انشراح الصدر، ووضع الوزر؛ وهو الهمُّ أو الذنب، ورفع الذكر بين العباد، وفيها معان عظيمة تتعلق بالنبوة والدعوة والعلم، فاليسر موجود في ذلك السبيل مع العسر وليس بعده؛ لأنه يعتمد على الله، ويتفاءل بالخير، وينتظر الفرج، وقد يُحرم من شيء فيعوَّض بخير منه، كما يقولون: انظر إلى النصف المليء من الكأس.

إنه حديث في شأن النبوة والمعاني الروحانية العالية التي يستشعر فيها أصحاب مقاماتها فضل الله في كل عطاء أو منع أو شدة أو رخاء.

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 463)، و«تفسير السمعاني» (5/ 466)، و«تفسير القاسمي» (9/ 262)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 1013)، و«التحرير والتنوير» (28/ 330- 331).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 68)، والمصادر السابقة.

أما هنا فالقصة تتعلق بجانب مادي، ولأناس يتفاوت إيمانهم قوة وضعفًا، وتؤثِّر فيهم الأشياء المادية، وقد تكون متصلة برجل ليس عنده غداء أو عشاء الليلة، أو لديه مشكلة في توفير السكن أو في توفير الطعام أو القوت أو اللباس لأولاده، فهو يشعر بمعاناة، فمن هنا لم يقل سبحانه: «إنه مع العسر»؛ لأنه يحس بعسر، وقد يضعف إحساسه باليسر معه، وإنما بعده يعني: هنا عليك أن تنظر إلى المستقبل، وأن تنتظر اليسر والفرج.

وهذا وعد من الله وتحفيز للنفوس أن تكون متفائلة، والتفاؤل ثبت علميًّا أنه مما يعين على الشفاء من المرض ومقاومته، فتكون قابليته للعلاج قوية، بخلاف المتشائم.

* ثم بعد بيان بعض أحكام الشريعة المتعلِّقة بشؤون الأسرة؛ من طلاق وعدة وحضانة ورضاع ونفقة- وكلها من أحكام الشريعة الواجب امتثالها- كان من المناسب أن يعقِّب بما يتضمن الوعيد لمَن خالف الشريعة وتعدَّى حدود الله، فقال سبحانه: ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ﴾:

والمقصود: عذاب الاستئصال في الدنيا الذي ذكره الله تعالى عن الأمم السابقة[1]، كما ذكر عن قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو غيرهم ممن عاقبهم الله وحاسبهم حسابًا شديدًا، وكأن الحساب الشديد كان هو مقدمات العذاب التي تأتيهم ثم يُنزل عليهم عذابًا منكرًا فظيعًا شديدًا تنكره النفوس، ولا يكاد الناس أن يصدِّقوه لهوله وفظاعته.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 70)، و«تفسير البغوي» (5/ 114)، و«تفسير الرازي» (30/ 565)، و«تفسير الخازن» (4/ 310)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 155)، و«تفسير السعدي» (ص872)، و«التحرير والتنوير» (28/ 334).

* ﴿دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ﴾:

﴿دَخَلۡتُم﴾ تلك القرية ﴿بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾، وهم كانوا يطلبون الربح لكن في غير محله، ولذا كانت عاقبتهم الخسارة التامة؛ خسارة النفس والمال والأهل والدنيا والآخرة.

* ﴿مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣□□ □□□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□ □□□□□□﴾:

وهذا عذاب الآخرة[1]، فجمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ﴾: تذكير بالتقوى في سورة تذكر أحكام الطلاق، ولن يفقه هذا إلا مَن هو على اطلاع على مشكلات الأسر وأحوال البيوت وما يجري فيها، **وأولو الألباب**: أصحاب العقول[2] الذين يُخاطَبون بالإيمان، وهم أهل التكليف، وهم أيضًا مَن ينتفعون بالنصح، وتدرك قلوبهم مقاصده فتلين للحق وتذعن وتنقاد.

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 464)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7552)، و«تفسير القرطبي» (18/ 173)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 388)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 155)، و«التحرير والتنوير» (28/ 335- 336).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 74)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 188)، و«تفسير القرطبي» (18/ 173)، و«فتح القدير» (5/ 294)، و«التحرير والتنوير» (28/ 336).

﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ □﴾ وهو القرآن[1]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الزخرف: 44]، ولكن عقَّب بقوله: ﴿□ □ □﴾، فهل «الذِّكر» هو الرسول؟

قال بعضهم: إن ﴿□﴾ هنا بدل اشتمال من ﴿□﴾؛ لأنه إنما أصبح رسولًا بنزول الذكر عليه الذي هو من الوحي[2].

ويجوز أن يكون في المسألة تقديرٌ؛ أي: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ □﴾، وهو القرآن، وأرسل إليكم ﴿□﴾، وهو محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولكنه حُذف للعلم به[3].

أو أن المقصود بـ﴿□﴾: جبريل[4]، وهو رسول ملكي ينزل بالوحي.

ولكن هذا بعيد؛ لأن السياق هنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو الذي يصدق عليه وصف إخراج الذين آمنوا وعملوا من الظلمات إلى النور.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 75)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 464)، و«تفسير البغوي» (8/ 157)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 388)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 155)، و«التحرير والتنوير» (28/ 337).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 342)، و«تفسير البغوي» (8/ 157)، و«المحرر الوجيز» (5/ 327)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 155)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 1017)، و«التحرير والتنوير» (28/ 337).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 71)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 316)، و«تفسير البغوي» (8/ 157)، و«تفسير الرازي» (30/ 565)، و«تفسير الخازن» (4/ 310)، و«فتح القدير» (5/ 294).

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 188)، و«تفسير الماوردي» (6/ 36)، و«الكشاف» (4/ 560)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 388)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 264).

﴿□ □ □ □ □﴾: وقُرئ بكسر الياء وفتحها: ﴿□﴾، و﴿مُبَيَّنَٰتٍ﴾[1]، فهي شديدة الوضوح، وهي مبيِّنة للناس ما أَشْكَل عليهم، ﴿□□□□□□□□□□﴾، وهم كانوا في الظلمات قبل أن يكونوا مؤمنين، لكن وصفهم بصفتهم التي صاروا إليها بعد؛ وهي أنهم آمنوا وعملوا الصالحات، فأخرجهم الله تعالى من ظلمات الكفر والشرك والجهل والمعصية إلى نور الطاعة والإيمان.

﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾، ذكر تعالى الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه لا يتصور وجود إيمان بلا عمل صالح يمتثل به تكاليف الشرع، وبقدر قوة الإيمان تكون قوة العمل، وهنا أذكِّر بأن المؤمن يؤجر على إيمانه كل يوم؛ بل كل ساعة، حتى ولو لم يكن في عبادة؛ إذ الإيمان هو أعظم الطاعات والقربات.

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿□□□□□□□□□﴾: ذكر تعالى في كتابه السماوات السبع كثيرًا، ولكن ذِكْر الأرض يأتي عادة مفردًا دون النص على أنها سبع، وهنا قال: ﴿□□□﴾، فهل المعنى أن الأرض سبعٌ كالسماوات؟

نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يقول: إنها سبع أراضين تفصل بينها البحار[2].

فعلى هذا كأنها بقع أو قطع من الأرضين متفاوتة تفصل بينها البحار كالقارات، وليست طبقات بعضها فوق بعض.

---

(1) ينظر: «حجة القراءات» (ص498، 712)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص162)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص192)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 248، 388)، و«فتح القدير» (5/ 295)، و«معجم القراءات» (9/ 512).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 37)، و«تفسير القرطبي» (18/ 176)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 181)، و«التحرير والتنوير» (28/ 340).

وذهب الأكثرون إلى أنها طبقات مثل السماوات، بعضها فوق بعض[1]، فقد يكون هذا ما ذكره علماء الجيولوجيا من وجود طبقات الأرض؛ لكن أولئك العلماء لا يتكلمون عن سبع طبقات؛ بل دون ذلك، فهل هم لم يصلوا إلى العلم الحق؟ أو أن ثمة مزيدًا يتعلق بمعرفة طبقات الأرض هو المقصود؟

الله تبارك وتعالى أعلم، ونؤمن بما قال الله على مراد الله، وقد ورد في حديث: «**مَن ظلمَ قِيدَ شبرٍ من الأرض**- يعني سرقه أو أخذه من الأرض- **طُوِّقه من سبع أَرَضِينَ**»[2]. وهذا معناه أنه يعاقب بأن يحمله من سبع أراضين، فأخذ بعضهم من هذا دلالة على أن الأرضين سبع، وجاء في هذا حديث نصه: «**ربُّ السماوات السبع وما أظللن، وربّ الأرضين السبع وما أقللن**»[3].

﴿□ □ □﴾ أي: يتنزل الأمر بين السماوات وبين الأرض، والمقصود هنا أمر الوحي[4]، ﴿□□□□□□□□□□□□﴾، ومن قدرته خلق السماوات وخلق الأرض، ومن إحاطته بالعلم سبحانه تنزيل الوحي وأحكام الحلال والحرام، وهكذا يتوافق

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 174)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 180)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 265)، والمصادر السابقة.

(2) أخرجه البخاري (2452، 2453)، ومسلم (1610، 1612) من حديث سعيد بن زيد وعائشة رضي الله عنهما.

وأخرجه مسلم (1611) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه البزار (2093)، والنسائي في «السنن الكبرى» (8776، 10301)، وابن خزيمة (2565)، وابن حبان (2709)، والحاكم (1/ 446)، (2/ 100)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (465)، والضياء في «المختارة» (8/ 72) (69) من حديث صُهيب رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2759).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 367)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7558)، و«تفسير الرازي» (30/ 566)، و«تفسير القرطبي» (18/ 176)، و«فتح القدير» (5/ 295)، و«روح المعاني» (14/ 340).

الخلق مع الأمر: ﴿بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ﴾ [الأعراف: 54].

❍ ❍ ❍

سورة التحريم

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «**سورة التحريم**»[1].

وفي «صحيح البخاري»- في إحدى النسخ-: «**سورة** ﴿ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ﴾»[2]؛ بالنظر إلى أولها.

وسماها بعضهم: «**سورة النبي صلى الله عليه وسلم**»[3]؛ لذكره في مطلعها.

*** عدد آياتها:** اثنتا عشرة آية باتفاق علماء العدِّ[4].

*** وهي مدنية** باتفاق أهل العلم. **وقيل:** إن فيها آيتين مكيَّتين في آخرها، **والأرجح** أنها مدنية كلها[1].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 369)، و«جامع الترمذي» (5/ 420)، و«تفسير الطبري» (23/ 83)، و«المستدرك» (2/ 493)، و«تفسير القرطبي» (18/ 177)، و«روح المعاني» (14/ 341)، و«التحرير والتنوير» (28/ 343).

(2) ينظر: «التعديل والتجريح» (2/ 925)، و«تفسير الرازي» (32/ 329)، و«عمدة القاري» (19/ 247)، و«إرشاد الساري» (7/ 392)، و«روح المعاني» (14/ 341)، و«التحرير والتنوير» (28/ 343).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 562)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص92)، و«تفسير القرطبي» (18/ 177)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 99)، و«فتح القدير» (5/ 297)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص250)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص315)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص310)، والمصادر السابقة.

* ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا﴾:

يُناديه باسم النبوَّة: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ﴾، وفي القرآن الكريم نُودي بعض الأنبياء عليهم السلام بأسمائهم الصريحة، كقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران: 55]، ﴿وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾ [مريم: 7]، ﴿أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ [الأعراف: 144]، ﴿زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ [الصافات: 104- 105]، ﴿(٢٢) حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ [هود: 48].

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم نودي باسم النبوة؛ لمزيد شرفه ومكانته، ونودي أيضًا بالرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: 67][2].

والفرق بينهما على القول المختار: أن **النبيَّ** هو: مَن نُبِّئ ولم يوحَ إليه بشرع جديد، **والرسول** هو: الذي أوحي إليه بشريعة جديدة[3].

ولهذا كان الأنبياء أكثر من الرسل، وهم كثرةٌ في بني إسرائيل، حيث جاؤوا مجدِّدين لشريعة موسى عليه السلام دون أن يأتوا بشريعة جديدة.

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته، وما ثبت له من الأحكام يثبت لغيره، إلا إذا دلَّ دليل على استثنائه[4].

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 329)، و«زاد المسير» (4/ 304)، و«تفسير القرطبي» (18/ 177)، و«الإتقان» (1/ 66)، و«فتح القدير» (5/ 297)، و«التحرير والتنوير» (28/ 343).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة الشرح»: ﴿قَدۡ سَلَفَۗ تَجۡمَعُواْ﴾.

(3) ينظر: «الكاشف عن حقائق السنن» (2/ 425)، و«روح المعاني» (9/ 165)، و«المجموع البهية للعقيدة السلفية» (2/ 446- 447).

(4) ينظر: «المسودة في أصول الفقه» (ص31).

على أن في الآية عتابًا من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في تحريم ما أحلَّ الله له، وهو متضمّن للنهي، وليس المقصود به التحريم الشرعي بمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم حرَّم في دين الله على الناس ما أباحه الله لهم، **كلا!** ولكنه صلى الله عليه وسلم حرَّم على نفسه شيئًا كان حلالًا عليه في الشرع، كما قال سبحانه: ﴿۞كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ﴾ [آل عمران: 93][1].

وهذا الذي حرَّمه صلى الله عليه وسلم على نفسه هو العسل.

يدل على ذلك: ما جاء في «الصحيحين»، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يشربُ عسلًا عند زينبَ بنت جَحْش رضي الله عنها، ويمكثُ عندها وقتًا طويلًا، قالت عائشة رضي الله عنها: فغرتُ وقلتُ: أما والله لنحتالنَّ له، فتواصيتُ أنا وحفصةُ أن أيَّتُنا دخلَ عليها فلتقلْ له: أكلتَ مَغَافيرَ، إني أجدُ منك ريحَ مَغَافيرَ[2]. فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: «**لا، ولكني كنتُ أشربُ عسلًا عند زينبَ بنت جَحْش، فلن أعودَ له، وقد حلفتُ، لا تُخْبري بذلك أحدًا**».

وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن تُوجد منه رائحة كريهة، فلما دخل على سَوْدَةَ رضي الله عنها، وقد لقَّنتها عائشةُ رضي الله عنها، وتمَّ ترتيب الموقف بإحكام، تقول سَوْدَةُ: والذي لا إله إلَّا هو، لقد كِدْتُ أن أُبادئه بالذي قُلتِ لي وإنه لعلى الباب فَرَقًا منكِ[3]. فلما دنا منها قالت له: يا رسولَ الله، أكلتَ مغافيرَ؟ قال: «**لا**». قالت: فما هذه

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 346).

(2) **المغافير** جمع: مغفور، وهو: صمغ حلو كالناطف، وله رائحة كريهة، ينضحه شجر يقال له: العُرْفُط، يكون بالحجاز.

(3) أي: خوفًا منك.

الريحُ؟ قال: «**سقتني زينبُ شربةَ عسل**». قالت: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ، أي: أن ذلك النحل قد أكل نوعًا من النبت المعروف في الصحراء الذي توجد فيه هذه الرائحة[1].

فلما دخل على عائشة قالت له مثل ذلك، ثم دخل على صفيةَ فقالت مثل ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: «**شربتُ عسلًا عندَ زينبَ، فلن أعودَ له**». فتركه وحرَّمه على نفسه.

قالت سَوْدةُ رضي الله عنها: «سبحان الله! والله لقد حَرَمناه». شعرت بشيء من الحزن، لتسببها في حرمان النبي صلى الله عليه وسلم من شيء يحبه، فهمزتها عائشة رضي الله عنها، وقالت لها: «اسْكُتِي»[2]. أي: دعِ الأمر يمر على ما هو عليه.

وورد في سبب التحريم قصة أخرى، عند النسائي، وغيره- وصحَّح إسنادها الحافظ ابن حجر- عن أنس رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كانت له أَمَةٌ يَطَؤُها، فلم تزلْ به عائشةُ وحفصةُ حتى حرَّمها على نفسه، فأنزلَ اللهُ عز وجل: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ ...﴾ إلى آخر الآية[3].

وحديث تحريم العسل أصح إسنادًا؛ فهو في «الصحيحين»، ولذا رجَّح الخطَّابي والقاضي عياض- كما سيأتي- أنه سبب النزول.

---

(1) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (10/ 76)، و«فتح الباري» (12/ 343- 344).

(2) ينظر: «مسند أحمد» (24316، 25852)، و«صحيح البخاري» (4912، 5267، 5268، 6972)، و«صحيح مسلم» (1474).

(3) أخرجه النسائي (7/ 71)، وفي «الكبرى» (8857، 11543)، والحاكم (2/ 493)، والضياء (5/ 69- 70) (1694، 1695)، والبيهقي (7/ 578). وينظر: «فتح الباري» (9/ 376)، و«لباب النقول» (ص199).

وأخرج الهيثم بن كُليب في «مسنده»- كما في «تفسير ابن كثير» (8/ 159)، و«مسند الفاروق» (2/ 614- 615)- ومن طريقه الضياء (1/ 299- 300) (189) من حديث عمر رضي الله عنه نحوه. وصحَّح إسناده ابن كثير. وينظر: «الاستيعاب في بيان الأسباب» (3/ 433- 434).

وذهب بعضهم إلى أن السبب هو مجموع القصتين، كما قال الحافظ ابن حجر: «الصحيح أنه نزل في كلا الأمرين»[1].

وكما هو ظاهر من سياق الآية، ودلالة الحديث أن تحريم النبي صلى الله عليه وسلم العسل على نفسه إنما كان لترضية أزواجه؛ لأن بعض أمهات المؤمنين وجدن في نفوسهن أن يمكث فترة أطول في بيت زينب؛ ليشرب عندها العسل، ولكن جاء في العتب ما يبرئ النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون تحريمه ما أحل الله له لمصلحة نفسه ومنفعتها الخالصة، حيث قال سبحانه: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

والأزواج جمع: زوج، وهو يُطلق على الذكر وعلى الأنثى[2]، وتسمَّى المرأة: زوجة، والأفصح تسميتها: زوجًا، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 37]، وكما في قوله: ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ﴾ [الأحزاب: 50].

وتسمية المرأة والرجل: «زوجًا» فيه معنى الكفاءة، وهو الأصل، إذ إنهما على قدم المساواة في التكليف وفي الأجر والمثوبة، كما قال الله سبحانه: ﴿زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [آل عمران: 195]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 329- 330)، و«فتح الباري» (8/ 657)، (9/ 289- 290، 375- 376)، (12/ 343)، و«التلخيص الحبير» (3/ 422).

(2) ينظر: «المخصص» (5/ 147)، و«مشارق الأنوار» (1/ 313) «ز و ج».

﴿فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: 35].

وأكَّد على حقوق المرأة في نصوص كثيرة، وأن المرأة لا يُكرمها إلا كريم، ولا يهينها إلا لئيم، وهكذا الأصل في العقوبة والجزاء الدنيوي إلا ما دلَّ الدليل على استثنائه، وكذلك ما يتعلق بأمر العلاقة بين الرجل والمرأة.

والإنسان في البيئات التي لم تستنر بنور الوحي أو غلبت عليها عادات الجاهلية ولو كانت مسلمة، ينظر إلى المرأة على أنها مخلوق من الدرجة الثانية، فيزدريها ويمتهنها وكأنها موضع لقضاء الوطر فحسب، والشيء اللطيف أن يكون تكريس الله لهذه الحقوق في سياق هذه السورة التي جرى فيها ما جرى من أمهات المؤمنين.

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾: وعادة ما يجمع الله تعالى بين المغفرة والرحمة.

والمغفرة هي: السَّتْر، يُقال: غَفَرَ، أي: ستر، ومنه المِغْفر، وهو غطاء الرأس الذي يحميه في الحرب[1]. **فالمعنى**: أن الله تعالى يغفر الذنوب، أي: يسترها ويمحوها عن العباد، وليس يمحو الذنب فحسب، بل يرحم المذنب فيُبدِّل سيئاته حسنات، ويتقبل منه صالح ما عمل ويتجاوز عنه، فمن هنا جمع بينهما[2].

وفي ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين عناية رفيعة بمقام النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه بدأ بوصفه بالنبوة، ثم عاتبه العتاب الرقيق اللطيف: ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾، ثم بالمغفرة والرحمة الدالة على عفوه وتجاوزه سبحانه عما حدث وجرى، مع أنه لم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم الأمر

---

(1) ينظر: «تهذيب اللغة» (8/ 112)، و«مطالع الأنوار» (5/ 162) «غ ف ر».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 90)، و«تفسير القرطبي» (18/ 184)، و«فتح القدير» (5/ 297).

الذي يكون عليه معصية أو إثم، حاشاه من ذلك، ولم يتجاوز أن حلف أَلَّا يأكل العسل مرة أخرى ترضية لأزواجه.

* ﴿مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١﴾:

هنا انتقال الخطاب من النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأمة، و﴿فَرَضَ﴾: بيَّن ووضَّح وأنزل وحكم بتحلة **الأيمان**[1]، وهي جمع: يمين، وتحلتها في «سورة المائدة» في قول الله عز وجل: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: 89]، فإذا حلف أَلَّا يفعل شيئًا، وأراد أن يفعله، كفَّر عن يمينه، ثم لا حرج عليه أن يفعل ذلك الشيء ما دام مباحًا.

وفي «الصحيح» قال صلى الله عليه وسلم: «**وإني والله- إن شاء الله- لا أحلفُ على يمين، فأَرَى غيرَها خيرًا منها، إلا كفَّرتُ عن يميني، وأتيتُ الذي هو خير**»[2].

بخلاف اليمين الغموس: التي تغمس صاحبها في الإثم، والتي بها يأكل المرء حقوق الناس بغير حق، وهي الحلف على أمر ماضٍ باطل، كأن يحلف أنه باعه وهو لم يبعه، أو أن هذه السلعة له وليست له، فلا كفارة فيها[3]، وهي أعظم من أن تُكفَّر، وإنما فيها التوبة والاستغفار، فإن أكل بها حق أحد وجب عليه رد الحق إلى أهله، وجاء في

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 90)، و«فتح القدير» (5/ 298)، و«أضواء البيان» (8/ 209)، و«التحرير والتنوير» (28/ 347).

(2) أخرجه البخاري (6623)، ومسلم (1649) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(3) هذا هو مذهب الجمهور، خلافًا للشافعية. ينظر: «العناية» (5/ 60)، و«االبناية شرح الهداية» (6/ 113)، و«مواهب الجليل» (3/ 266)، و«مغني المحتاج» (6/ 188)، و«المغني» (9/ 496)، و«شرح منتهى الإرادات» (3/ 443).

الوعيد عليها قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا يحلفُ على يمينِ صَبْرٍ يقتطعُ مالًا وهو فيها فاجرٌ، إلَّا لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ**»[1].

﴿إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ﴾: تأكيد لرفقه سبحانه بالنبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وصحابته، وقربه منه، **والمولى** هو: الولي، وهو القريب الرحيم[2].

﴿مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ فيما شرع لكم، فهو العليم بأحوالكم وحاجاتكم، وهو الحكيم في تشريعه المبني على هذا العلم؛ ولهذا جمع بين الاسمين الكريمين[3].

* ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ﴾:

الإسرار المشار إليه هنا هو قوله صلى الله عليه وسلم لحفصة رضي الله عنها لما قالت: أجدُ منك ريحَ مَغَافِيرَ، فقال: «**لا، ولكني كنتُ أشربُ عسلًا عند زينبَ بنت جَحْش، فلن أعودَ له، وقد حلفتُ، لا تُخْبري بذلك أحدًا**».

وقد رُوِي في الإسرار المذكور قصة أخرى، وهي أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم خلى بمارية القبطية- أم ولده إبراهيم- في بيت حفصة في غيبتها في بيت أبيها، وأنها لما عادت إلى بيتها وجدت النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومعه مارية، فغضبت، وقالت:

---

(1) أخرجه البخاري (7183)، ومسلم (138) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 565)، و«تفسير القرطبي» (18/ 186)، و«فتح القدير» (5/ 298). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص885) «و ل ي».

(3) ينظر: «روح المعاني» (14/ 345)، والمصادر السابقة.

أتفعلُ هذا في بيتي وفي يومي، ما صنعتَ بي هذا من بين نسائكَ إلَّا من هواني عليك! فقال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**فإنها عَلَيَّ حرامٌ، ولا تُخْبِرِي بذلك أحدًا**»[1].

ولكن القصة ضعيفة بهذا السياق؛ فهي مروية بأسانيد ضعيفة أو مرسلة، مع نكارة في متنها، ولذا قال الخطَّابي: «إن يمين النبي صلى الله عليه وسلم إنما وقعت في تحريم العسل، لا في تحريم أم ولده مارية القبطية، كما زعمه بعض الناس».

وقال القاضي عياض: «الصحيح أنه في أمر العسل، لا في قصة أم إبراهيم، كما جاء في غير «الصحيحين»، ولم يأت بتلك القصة طريق صحيح».

ونقل النووي كلام القاضي عياض، ثم قال: «وهذا أحد الأقوال في معنى السِّرِّ، **وقيل**: بل ذلك في قصة مارية، وقيل غير ذلك»[2].

فالصحيح أن الإسرار كان في أمر تحريم العسل[3].

وإسرار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بعض أزواجه بالحديث جاء على وفق طبيعة البشر، فما أكثر ما يسر الزوج بالحديث لزوجته ويستودعها من شؤونه الشخصية بحكم خصوصية العلاقة بينهما وحميميتها؛ فإن كلًا منهما لباس للآخر.

---

(1) ينظر: «سنن سعيد بن منصور» (1707)، و«طبقات ابن سعد» (10/ 178)، و«تفسير الطبري» (23/ 84- 85)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (2316، 8764)، و«المعجم الكبير» (12640)، و«سنن الدارقطني» (5/ 75)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (7489)، و«سنن البيهقي» (7/ 578)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص438- 439)، و«الكشاف» (4/ 565)، و«أسد الغابة» (7/ 253)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (4/ 59- 61)، و«الإصابة» (8/ 310)، و«التحرير والتنوير» (28/ 356).

(2) ينظر: «معالم السنن» (4/ 272)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 292- 293)، و«إكمال المعلم» (5/ 29)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (10/ 76)، و«تفسير القاسمي» (9/ 267- 269)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 163)، و«تفسير الرازي» (30/ 568)، و«تفسير القرطبي» (18/ 179)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 224)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 160)، و«المحرر في أسباب نزول القرآن» (2/ 1027- 1038)، والمصادر السابقة والآتية.

﴿إِلَّا مَا قَدْ﴾ أي: لما أفشتْ حفصةُ السِّرَّ لعائشة رضي الله عنهما[1]، أخبر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بذلك، كما يدل لذلك قوله: ﴿سَلَفَ إِنَّهُۥ﴾، أظهر الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم على إفشاء حفصة بالسِّر لعائشة، فجاء الوحيُ بإخباره صلى الله عليه وسلم بذلك، فدخل على حفصة معاتبًا، فعرَّف بعض الكلام وأعرض عن بعض، أي: عاتبها على بعضه، وعرَّفها بعضًا مما أخبره الله تعالى به[2].

ولهذا قيل: «ما استقصى كريمٌ قطُّ»[3]. أي: أن الرجل الكريم لا يستقصي الأمور مع زوجته أو شريكه أو ولده أو صديقه فضلًا عن غيرهم، ولا يُبالغ في الاستقصاء والتحري والإحصاء، فهو أسلوب مُنَفِّرٌ لا يزرع الثقة، ولا ينمي الوازع الديني والرقابة الذاتية، ولذا نهي عن التجسس.

وقيل للإمام أحمد: إن فلانًا يقول: «العافيةُ عشرةُ أجزاء، تسعةٌ منها في التغافل». فقال: «العافيةُ عشرةُ أجزاء، كلها في التغافل»[4].

وكان الشافعي يقول: «الكَيِّس العاقل هو: الفطن المتغافل»[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 91)، و«الكشاف» (4/ 565)، و«المحرر الوجيز» (5/ 329)، و«تفسير القرطبي» (18/ 186)، و«فتح القدير» (5/ 298).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 91)، و«الكشاف» (4/ 565)، و«المحرر الوجيز» (5/ 331)، و«تفسير القرطبي» (18/ 187)، و«روح المعاني» (14/ 345)، و«التحرير والتنوير» (28/ 353).

(3) ينظر: «المجالسة» (1/ 287)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 346)، و«البخلاء» للخطيب (ص78)، و«إحياء علوم الدين» (3/ 256)، و«المحرر الوجيز» (5/ 331)، و«تفسير القرطبي» (18/ 187)، و«التحرير والتنوير» (28/ 353).

(4) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (8028).

(5) أخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (63)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (9/ 123)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (8030)، وابن عساكر (56/ 13). ورُوي عن غيره أيضًا.

فالحَصيف لا يقف عند الأشياء الصغيرة، ولا يتتبَّع كل الأمور، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه القصة؛ حيث ﴿كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾، فعاتب حفصة رضي الله عنها على شيء، وسكت عن شيء.

وما الذي عاتبها عليه، وما الذي سكت عنه؟ لم يُبيِّن القرآن هذا؛ لأن المقصود العبرة، ولذا كان من الحكمة الإلهية أَلَّا يأتي القرآن على ذكرها وتفصيلها؛ لأنها من جزئيات العلاقة الخاصة.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ﴾: لما أخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم حفصة رضي الله عنها وعاتبها على إفشائها سِرَّه، تعجبت وقالت: مَن أخبرك؟ وربما ظنت أن مَن أنبأته هي عائشة رضي الله عنها؛ لأنها الطرف الثالث في القصة، ولكن حفصة تستبعد أن تفعل عائشة ذلك؛ لما بينهما من التعاهد على السِّرِّ؛ ولهذا تعجَّبت كيف علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وتساءلت، ومع أنها في موقف محرج، إلا أنها وجدت الجرأة على أن تسأل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا السؤال!

ولو كان المسؤول أحدنا لغضب أشد الغضب، وأرغى وأزبد، وأعرض عن الجواب بكبرياء، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يجيبها عن ذلك بحلم وأناة: ﴿ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ﴾: ولم يقل: «الله»؛ لأن من المناسب الإشارة إلى شمول علمه وسعته وإحاطته بكل الدقائق، فلا يعزب عن علمه شيء، ولا يخفى عليه شيء[1]؛ ﴿شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ﴾ [المجادلة: 7]، فهذا العليم، وهو الذي يحيط بالدقائق والأسرار،

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 92)، و«تفسير القرطبي» (18/ 188)، و«فتح القدير» (5/ 298)، و«روح المعاني» (14/ 345).

والتذكير بهذا الاسم العظيم هنا له مزيد معنى وإلفات إلى كمال خبرته بخلقه، **ومن هنا ندرك أن الخبرة أخص من العلم**[1].

وفي هذه القصة كشف لشيء من أحوال بيت النبوة، وهو بيت تظلِّله السكينة، والقوامة فيه لأفضل البشر صلى الله عليه وسلم، إلا أنه لم تخرج عن حدود الطبيعة البشرية، والرسل بشر من البشر؛ يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويقع في داخل بيوتهم المشكلات ثم يتدرجون في حلها وإزالتها.

* ﴿أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَآئِبُكُمُ ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَآئِلُ﴾:

ثم يأتي العتاب لحفصة وعائشة رضي الله عنهما: ﴿أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَآئِبُكُمُ ٱلَّتِي﴾[2]، ومجرد ذكر التوبة معناه أنه قد صدر منهما ما يستدعي التوبة[3].

والتوبة تكون من الكبائر ومن الصغائر، ومن اللَّمم، ومن فعل المكروه، أو ترك المستحب، فهو باب واسع، والله تعالى يقول: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: 31]؛ لكن ها هنا المبادرة بذكر التوبة وعرضها يوحي بأنه قد صدر منهما ما يستوجب ذلك؛ وهو إفشاء سرِّ النبي صلى الله عليه وسلم.

و«صغو قلوبهما»، أي: ميلها[1]. **والآية تحتمل معنيين:**

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 354).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 566)، و«المحرر الوجيز» (5/ 331)، و«تفسير القرطبي» (18/ 188)، و«فتح القدير» (5/ 298)، و«روح المعاني» (14/ 347)، و«التحرير والتنوير» (28/ 356).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 84)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 467)، و«تفسير الرازي» (30/ 570)، و«تفسير القاسمي» (9/ 375)، والمصادر السابقة.

1- إن تبتما فقد مالت قلوبكما إلى الحق[2]، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها.

2- إن تبتما إلى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة من ميل قلوبكما إلى غير الحق[3].

وهنا لم يقل: «قلباكما» مع أنهما اثنتان، لما في اللفظ من الشدة والصعوبة في النطق فيما يتعلق بذكر مثنيين في كلمة واحدة، والاثنان أقل الجمع عند العرب[4].

﴿فِي حُجُورِكُم مِّن﴾ أي: إن تُصرَّا على مثل هذا، ويتكرر منكما هذا الفعل في حقه صلى الله عليه وسلم، فما العاقبة؟

﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: حسبه وكافيه وحافظه ومتولِّي أمره[5]، فما بالك بمَن يعاديه أو يؤذيه؟! إن معنى هذا أن كل مَن يؤذيه أو يضاره بشيء فقد عرَّض نفسه لعقاب الله.

﴿لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم﴾: أي: الصالحون من المؤمنين أولياء له[6].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 94)، و«الكشاف» (4/ 566)، و«تفسير القرطبي» (18/ 188)، و«فتح القدير» (5/ 298)، و«روح المعاني» (14/ 347)، و«أضواء البيان» (8/ 220)، و«التحرير والتنوير» (28/ 356).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 188)، و«فتح القدير» (5/ 299)، و«التحرير والتنوير» (28/ 356).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 93)، و«الكشاف» (4/ 566)، و«تفسير القرطبي» (18/ 188)، و«فتح القدير» (5/ 298)، و«روح المعاني» (14/ 347)، و«أضواء البيان» (8/ 220).

(4) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 188)، و«فتح القدير» (5/ 299)، و«أضواء البيان» (8/ 220)، و«التحرير والتنوير» (28/ 356- 357)، و«شرح الكافية الشافية» (4/ 1787)، و«حاشية الصبان» (3/ 108).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 97)، و«تفسير القرطبي» (18/ 189)، و«فتح القدير» (5/ 299).

(6) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 97)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 348)، و«فتح القدير» (5/ 299)، و«روح المعاني» (14/ 348)، والمصادر السابقة.

وبعض المفسرين قال: إن المراد هو: أبو بكر رضي الله عنه[1]، ولا شك أن أبا بكر مولى للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي الآية ثناء عليه؛ لأنه كان يعاتب عائشة، ويقف في حقِّ النبي صلى الله عليه وسلم في كل مشهد.

وبعضهم قال: إن المراد عمر رضي الله عنه[2]، وهو من صالح المؤمنين، وكان يدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا وجد حفصة قد أغضبت النبي صلى الله عليه وسلم في شيء عاتبها ووبَّخها وطالبها بأن تلتزم طاعة النبي صلى الله عليه وسلم وخدمته وتيسير أمره وجعل بيته سكنًا، حتى إن قوله تعالى: ﴿أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ في الآية التي بعدها كانت من موافقات عمر رضي الله عنه للشرع، فكان يقول لحفصة ولغيرها من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم: «عسى ربُّه إن طلَّقكنَّ أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن». فنزلت هذه الآية[3].

وفي الآية إثبات لفضل أبي بكر وعمر، ولفضل الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم من صالح المؤمنين، فوصفهم الله تعالى بالإيمان والصلاح، وهم الموالون لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمجاهدون معه المؤمنون به الذَّابُّون عنه.

و﴿لَمْ﴾ هنا وإن كانت مفردًا، إلا أنها تعني الجمع[4].

---

(1) ينظر: «فضائل الصحابة» لأحمد (98- زوائد عبد الله)، و«تفسير القرطبي» (18/ 189)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 164).

(2) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (31996)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (305، 333- زوائد عبد الله)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 17)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (402، 4483، 4916)، و«صحيح مسلم» (1479، 2399)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص313).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 98)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 193)، و«الكشاف» (4/ 566)، و«تفسير القرطبي» (18/ 189)، و«فتح القدير» (5/ 299)، و«روح المعاني» (14/ 348)، و«التحرير والتنوير» (28/ 358).

﴿بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: واللفظ صريح في العموم، فالملائكة كلهم ظَهِير له صلى الله عليه وسلم، و﴿عَلَيْكُمْ﴾ وإن كان مفردًا إلا أنه مثل قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: 69]، لا يُقصد به رفيق واحد بل رفقاء[1]، فكل هؤلاء مع النبي صلى الله عليه وسلم.

وفيه دعوة لأمهات المؤمنين أن يكنَّ في هذا الصف؛ الصف الذي فيه الله تعالى وجبريل وصالحو المؤمنين والملائكة، وتقديم «صالح المؤمنين» قد يستدل به مَن يرى فضلهم على الملائكة.

وفي هذه الآيات بيان لمقام أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، حتى ولو حصل منهن بعض الهنَّات، فلله في ذلك حكمة، وهن قد شرفن بالاقتران بالرسول صلى الله عليه وسلم، وكونهن زوجاته في الدنيا وفي الآخرة.

وفيه تكريس لعظمة بيت النبوة وجلالة قدره، وأن كل ما يؤثِّر فيه يؤثِّر في المسلمين جميعًا، حتى ينزل القرآن من السماء يتحدث عن بعض حوادثه اليومية.

* ﴿أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

﴿أَبْنَآئِكُمُ﴾ من الله واجبة، فهو أمر متحقّق؛ ولكن الأمر هنا معلَّق بشرط، وهو الطلاق[2]، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم لم يُطلِّق، وإنما آلى من نسائه شهرًا، أي: حلف أَلَّا يدخل عليهن شهرًا، فلما تمَّ تسعة وعشرون يومًا دخل صلى الله عليه وسلم

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 99)، و«تفسير القرطبي» (18/ 191- 192)، و«فتح القدير» (5/ 299)، و«روح المعاني» (14/ 348)، و«التحرير والتنوير» (28/ 359).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 193)، و«روح المعاني» (14/ 350)، و«التحرير والتنوير» (28/ 360).

على نسائه، فقيل له: إنك حلفتَ أن لا تدخل شهرًا؟ فقال: «**إن الشهر يكون تسعةً وعشرين يومًا**»[1].

ويحتمل أن يكون الخطاب متوجِّهًا لأزواجه كلهن تحفيزًا لهن على الطاعة، وتحذيرًا من مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم، والإشقاق عليه.

ويحتمل أن يكون خطابًا لحفصة وعائشة اعتبارًا بما حصل منهما[2].

وفي الآية إثبات الخيرية لأمهات المؤمنين؛ ولهذا نقول: إن محبة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إيمان، والمؤمن الذي يحبُّ رسول الله يحبُّ أصحابه وأزواجه أكثر مما يحبُّ أمه وأباه؛ لأنهن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، فنحبهم لحبِّ الله ولحبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والنيل من زوجة أي أحد بالبهتان أو الوقيعة أو التنقص في كتاب أو مجلس أو موقع أو قناة فيه إساءة وحط من قدر الزوج، ما دامت باقية في عصمته ومات عنها، فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي مات وهو عنها راضٍ، بل مات وهو راضٍّ محب، بل مات بين سَحْرها ونَحْرها، كما حدث للصِّدِّيقة عائشة رضي الله عنها[3]، فالنيل من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم هو نيل من مقام النبوة ومن قدر النبي صلى الله عليه وسلم، وفي الآية وصف لهن بأنهن خيِّرات؛ ولكن توعَّد إن طلقهن أن يبدله خيرًا منهن وأفضل.

ثم شرع في سرد الصفات التي تحقَّقت في هؤلاء النساء، وتتحقَّق في مَن يبدله الله تعالى لو طلقهن:

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (378، 1910، 2469، 5201)، و«صحيح مسلم» (1083-1085).

(2) ينظر: «روح المعاني» (14/ 349- 350).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (1389)، و«صحيح مسلم» (2443).

﴿مَا﴾: بدأ بالإسلام، ويُطلق على الأعمال الظاهرة.

﴿قَدۡ﴾: وثنَّى بالإيمان، وهو الأعمال الباطنة.

وقد يكون الإنسان مسلمًا، ولا يكون مؤمنًا، فالإسلام درجة والإيمان درجة أعلى وأكمل، فإذا ذُكر الإسلام والإيمان معًا دلَّ الإسلام على عمل الظاهر، ودلَّ الإيمان على عمل القلب.

﴿سَلَفَ﴾: **والقنوت**: زيادة العبادة والطاعة[1]، كما قال سبحانه: ﴿**وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ**﴾ [الأحزاب: 31].

وقال بعضهم: القنوت: قيام الليل. وهذا من باب التفسير بالمثال، وإلا فإن المقصود بالقنوت: أن يكون القلب موصولًا بالله تعالى.

﴿ﵞ﴾: تعريض وتذكير بوجوب التوبة على مَن حصل منهن ما حصل مما كان سببًا في نزول الآيات[2]، فإن لم تتبن يأت الله تعالى بمَن هو خير منكن وأصدق توبة.

﴿إِنَّ﴾: يشمل ألوان العبودية لله تعالى بما هو أوسع وأعم من النُّسك والصلاة.

﴿ٱللَّهَ﴾: وقد تكون السياحة: الصوم، كما قال بعض المفسرين.

وقال آخرون: السائحات هن: المهاجرات[3]، والمهاجرات أفضل من غيرهن، مَن هاجرن إلى الله ورسوله إلى المدينة[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 101)، و«الكشاف» (4/ 567)، و«تفسير القرطبي» (18/ 193)، و«فتح القدير» (5/ 299)، و«التحرير والتنوير» (28/ 361).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 361).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 101- 102)، و«الكشاف» (4/ 567)، و«المحرر الوجيز» (5/ 332)، و«تفسير القرطبي» (18/ 193)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 165)، و«فتح القدير» (5/ 299)، و«روح المعاني» (14/ 350).

ثم قال: ﴿كَانَ غَفُورًا﴾، وجاء قوله: «أبكارًا» معطوفًا على «ثيبات»، ولم يرد حرف العطف فيما سبق؛ ليؤكِّد أن هذه الصفات كلها متحقِّقة في كل امرأة، فليست بعضهن ﴿مَا﴾، وبعضهن ﴿قَدۡ﴾، وبعضهن ﴿ۖ﴾ على سبيل التنويع، كلا، بل كل واحدة متحقَّق فيها كل هذه الصفات، فهي مسلمة مؤمنة تائبة عابدة سائحة قانتة[2].

ثم قد تكون ثيِّبًا، وقد تكون بِكْرًا، فهو للتنويع؛ منهن ثيبات ومنهن أبكار[3]، وذلك أن في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ثيبات، وهن غالب نسائه صلى الله عليه وسلم، حتى خديجة رضي الله عنها قد تزوجت قبله، وإنما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها وحدها بِكْرًا[4].

وفي ذلك دليل على أن زواجه صلى الله عليه وسلم لم يكن على سبيل التلذُّذ بالتنويع، وتطلُّب المزيد من المتعة، وإن كانت المتعة جِبِلَّة لا يُلام الإنسان في طلبها فيما أحلَّ الله، **وإنما كان ذلك لمقاصد عظيمة، من أهمها:** نقل خصوصيات الرسالة في داخل البيت وأحوال الزواج وأحوال المعاشرة والوضوء والغسل وغيرها مما لا تستطيع القليل من النساء أن تقوم به، بخلاف قضايا الحياة العامة، فإن كل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتوفرون على معرفتها ونقلها.

❁ ﴿﴿٢٣﴾ [illegible]﴾:

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 361).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 567- 568)، و«فتح القدير» (5/ 299)، و«التحرير والتنوير» (28/ 361)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 332)، و«تفسير القرطبي» (18/ 194)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 391)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 166)، و«روح المعاني» (14/ 350)، و«تفسير القاسمي» (7/ 21)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (4753).

انتقل الخطاب إلى نداء رباني عام لكل المؤمنين؛ بأن يتقوا النار بفعل الطاعة وترك المعصية، ويسعوا في وقاية أزواجهم وأولادهم؛ بأن يوصوهم بذلك، ويحثّوهم عليه ويرغِّبوهم فيه.

وقوله: ﴿□□□□﴾: نكَّرها للتعظيم والتهويل[1]، وهي تسعر بالعصاة والكفار والمجرمين.

والحجارة: قيل: هي حجارة الكبريت؛ لأنها تزيد النار اشتعالًا[2]. **وقيل**: هي الحجارة التي كانوا يعبدونها[3]، كما يدل قوله تعالى: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟﴾ [الأنبياء: 98]، وهي كقوله: ﴿□□□□□□□□□□□□﴾ [البقرة: 24]، فكأن الإنسان حينما يُرمى في النار صار مثل الحجارة، لم ينتفع بشيء من عقله وقلبه وحواسه، فكأنما هو بلا شيء من ذلك.

﴿□□□□﴾ في خلقتهم وقوتهم، فهم غلاظ أقوياء في الخلقة، شِداد على مَن أُمروا به، ﴿□□□□□□□□□﴾: **وصفهم بصفتين**:

الأولى: أنهم ﴿□□□□□﴾ أي: يطيعون الله تعالى، وهذا يشمل قيامهم بالعبادة كما أمرهم الله؛ فإنهم يعبدون الله قائمين وراكعين وساجدين، ويشمل طاعة الله تعالى فيما كُلِّفوا به.

الثانية: ﴿□□□﴾ فهم لا يرتكبون المعصية، ولا يفعلون إلا الطاعة.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 365).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 105)، و«الكشاف» (4/ 568)، و«المحرر الوجيز» (5/ 333)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 167).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (1/ 235)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 167)، و«فتح القدير» (1/ 63)، و«روح المعاني» (1/ 201)، و«أضواء البيان» (1/ 18).

وفيه نفي الكسل والعجز عنهم، فالله تعالى زوَّدهم بالقدرة التي تجعلهم يفعلون كل ما أُمروا به، وهم خزنة جهنم.

* ﴿□□□□□□□□□□□□□﴾:

وهذا التفات في الخطاب بعد انتقال من المؤمنين إلى الكافرين.

وكأن هذا من كلام الملائكة يخاطبون أهلَ النار من الكفار؛ ليكون مشهدًا حاضرًا متصوَّرًا يراه الناس، ويرون الملائكة الغلاظ الشداد يخاطبون أهل النار حين يقولون: ﴿□□□□□□□□﴾ [فاطر: 37]، فيكبتونهم ويوبِّخونهم ويقطعون طريق الكلام عليهم بأن وقت المعذرة قد ذهب وولَّى: ﴿□□□□﴾[1].

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ﴾:

جاء الأمر هنا عامًّا للمؤمنين بعد أن أمر به بعض أمهات المؤمنين.

والتوبة النصوح هي: أن يترك الذنب، ويعزم على أَلَّا يعود إليه حتى يعود اللَّبَن في الضَّرْع، كما قال عمر وأُبَيٌّ ومعاذ رضي الله عنهم[2]، فهي توبة صادقة لا تردد فيها.

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 470)، و«المحرر الوجيز» (5/ 333)، و«تفسير الرازي» (30/ 572)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 392)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 268)، و«فتح القدير» (5/ 302)، و«التحرير والتنوير» (28/ 366- 367).

(2) ينظر: «العظمة» (4/ 1175)، و«تفسير الثعلبي» (4/ 209)، (9/ 350)، و«التفسير البسيط» للواحدي (4/ 322)، و«تفسير القرطبي» (18/ 197)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 213)، و«مدارج السالكين» (1/ 316)، و«الدر المنثور» (8/ 227)، و«روح المعاني» (14/ 352).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح.

وقد نُقل عن علي رضي الله عنه، وغيره أن من شروطها: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما مضى، والعزم الصادق على عدم العود، وأن يُجهد نفسه في طاعة الله كما أجهد نفسه في معصية الله، وأن يرد الحقوق إلى أهلها[1].

وفي هذا يقول ابن المعتز[2]:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها *** وكبيـــرَهـا ذاك التُّـــقى

واصنع كماشٍ فوق أر *** ضِ الشوكِ يحذرُ ما يرى

لا تحقـــرنَ صغيـــرةً *** إن الجبـالَ مـن الحَصَى

﴿قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ ﴾، و﴿كَانَ ﴾ من الله واجبة[3]، فهذا الوعد الطيب الصادق، ﴿تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا﴾.

والتعبير بنفي الخزي عن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين تقرير لفوزهم الأخروي بعد فوزهم الدنيوي، كما قالت خديجة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله لا يخزيك الله أبدًا»[4]. وهو تعريض بالمشركين الذين جاءهم الخزي بالنار التي وقودها الناس والحجارة[5].

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (5/ 123)، و«الكشاف» (4/ 569)، والمصادر السابقة.

(2) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾□□□□□□□﴾.

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 200)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 170)، و«فتح القدير» (5/ 303).

(4) أخرجه البخاري (4953)، ومسلم (160) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(5) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 93)، و«الكشاف» (4/ 570)، و«روح المعاني» (14/ 356)، و«التحرير والتنوير» (28/ 370).

﴿...﴾ حاضرون في الموقف، فإما أن يكون قوله: ﴿.﴾ يعني: في الدنيا، **أو يكون المعنى**: إن الذين آمنوا هم معه في ذلك الموقف لا ينالهم الخزي[1]، و﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: 61]، فهنا ثناء على الذين آمنوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وهم أصحابه الكرام رضي الله عنهم.

﴿غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا﴾: «**النور**» مقابل «**النار**»، فالكفار محشورون في نارٍ ﴿....﴾، أما هؤلاء الأنبياء والذين آمنوا فإن لهم النور الذي يخرج من كتبهم، فهم يُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم، وهذه الكتب فيها من أعمال الخير ما يجعلها نورًا لأصحابها؛ فيظهر نورهم ويمضي.

والعادة أن الإنسان يأخذ الأشياء بيمينه ويعطيها بيمينه، وهؤلاء مؤمنون فيُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم بخلاف الكافرين، نورهم يسعى أمامهم ويسعى من عن يمينهم، أما عن شمالهم فكأن ثمة ظلمة والله أعلم؛ ظلمة الكفر والكافرين والنار؛ فلذلك لم يشر إليها، فهؤلاء المؤمنون يمضون وهم يقولون: ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾: إما أن يكونوا يخافون أن ينطفئ، وهم يرون الناس في كرب القيامة، فينادون ربهم ويدعون بهذا الدعاء الخاشع الملهوف، وما دعوا به إلا أن الله تعالى ألهمهم إياه.

فالمؤمن في مثل ذلك الموقف، وقد جاءه النور وهو ينادي ربه بهذا النداء الجميل: ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾، مثلما كان ينادي في الدنيا: يا مقلِّبَ القلوب ثبِّت قلبي على طاعتك، يا مصرِّفَ القلوب صرِّف قلبي على دينك. ما ألهمهم الله تعالى هذا الدعاء في هذا الموقف إلا وهو يريد أن يتم لهم نورهم ويوصلهم إلى رضوانه.

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 334)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 170)، و«فتح القدير» (5/ 304)، والمصادر السابقة.

كان عمر رضي الله عنه يقول: «إني لا أحملُ همَّ الإجابة، ولكن أحملُ همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ، فإن الإجابةَ معه»[1].

وربما كان هذا إذا انطفأ نور المنافقين، فاستعاذوا بالله أن يكونوا مثلهم.

ويحتمل أن يكون الدعاء من بعضهم، وليس منهم جميعًا؛ لأن نورهم متفاوت على قدر إيمانهم، كحال عبورهم الصراط[2].

﴿مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾: وكأنهم يَبْرؤون من حولهم وقوتهم، وأن الأمر موقوف على رحمته سبحانه.

* ﴿سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾:

أمره بالجهاد، ويشمل ألوان الجهاد؛ ولهذا ذكر الكفار والمنافقين، فأما الكفار المحاربون فجهادهم باللِّسان وبالسِّنان وبالقوة وبالحجة والمال، وبكل ممكن، كما ذكر أهل العلم، وأما المنافقون فإن هدي النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته في جهادهم أنه بالحجة، وما اقتضاه مقام البلاغ والرسالة من البيان والتحذير من أقوالهم وأعمالهم، كما في «سورة المنافقون»[3].

* ﴿ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟

---

(1) تقدم تخريجه في «سورة الرحمن»: ﴿عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 109)، و«الكشاف» (4/ 570)، و«تفسير القرطبي» (18/ 201- 202)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 170- 171)، و«التحرير والتنوير» (28/ 371).

(3) ينظر: «فتح القدير» (5/ 304)، و«أضواء البيان» (8/ 223- 224)، وما تقدم في «سورة المنافقون»، والمصادر السابقة والآتية.

﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾:

ختم السورة الكريمة بأربعة أمثلة ضربها للناس متصلة بالقصص السابقة في بيت النبوة:

أما الأول والثاني: فقوله سبحانه: ﴿ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى﴾.

وهذا المثل يخاطب به الذين كفروا؛ ليُبيِّن لهم أن قرب الإنسان من أحد أولياء الله لا ينفعه، وإنما ينفع الإنسان عمله، فهاتان امرأتان تحت نبيين عابدين صالحين: ﴿حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن﴾: والمقصود بالخيانة عند أكثر المفسرين: خيانة الدين[1].

وقد ذُكر أن امرأة نوح ركبت معه السفينة، ثم طُوي ذكرها بعد ذلك، فهل هي امرأته الخائنة لرسالته، أم هي امرأة له أخرى؟ الله تعالى أعلم[2].

والمقصود هنا امرأة لنوح عليه السلام لم تكن على دينه، خانته بذلك، وكذلك امرأة لوط عليه السلام، وقصتهما معروفة، ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ﴾ مع قربهما.

﴿عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ﴾: دليل على إهمالهم وإخماد ذكرهم، وأنه لا شأن لهم ولا قيمة ولا اعتبار، فإنها تدخل النار ضمن العديد من أهلها دون

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (2/ 195)، و«تفسير الطبري» (12/ 429)، (23/ 111)، و«الكشاف» (4/ 572)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 215)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 374- 375)، والمصادر السابقة.

اعتبار، وفي ذلك تحذير أن يستبدل الإنسان الضلالة بالهدى، أو يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

* ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾:

والمثلان الآخران هما: قصة امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا﴾، وهو موجَّه للمؤمنين أنه لا يضرك أن تكون مع قوم كافرين إذا أطعت الله تعالى واتقيته[1].

ويحتمل أن يكون المعنى: وضرب الله مثلًا من الذين آمنوا؛ فإن امرأة فرعون كانت من المؤمنين.

والأقرب أن ﴿قَدۡ﴾ هذا هو فرعون الذي أُرسل إليه موسى عليه السلام[2].

وكانت امرأته يقال: إنها كانت آسيوية، وفي «الصحيحين» أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم ذكر أن اسمها: «**آسية**»، وفي بعض الروايات: «**ابنة مزاحم**»[3].

وهذا الاسم يبدو أنه عربي، وذكر المؤرِّخون أنها كانت على غير دين أهلها وقومها المصريين آنذاك، وكانت على ديانة التوحيد، وقد آمنت بموسى، وبلغ الخبر فرعون فعذَّبها وعاقبها، ويبدو أنه آخر الأمر طردها وأبعدها عمَّا يسمونه: الحضرة الملكية

---

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 172).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 335)، و«التحرير والتنوير» (28/ 376)، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ شَيۡـٔٗا﴾.

(3) ينظر: «مسند أحمد» (2668، 2957)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (1336، 1576)، و«صحيح البخاري» (3411)، و«صحيح مسلم» (2431)، و«صحيح ابن حبان» (7010)، و«المستدرك» (2/ 497، 575، 594)، و«المختارة» (7/ 21- 22) (2400، 2401)، (12/ 167- 168) (187- 190).

والقصر؛ ولهذا قال: ﴿...ۦ قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ □﴾، فبدأت بالجار قبل الدار، ودعت الله تعالى أن يبني لها عنده ﴿رَّحِيمٗا ٢٣ □﴾؛ لأنها حُرمت من القصر والبيت الذي كانت تعيش فيه، والفراعنة لهم مدافن في قصورهم[1].

وهنا تلحظ كيف أن امرأة تتحدَّى بطش الفرعون وتتمرَّد عليه بإيمانها بالله، وتصبر وتصابر حتى تُطرد أو تُقتل، وكل ما تقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ □□□□□﴾، وتدعو ربها أن ينجيها منه ومن عمله الذي أعظمه الشرك بالله تعالى.

﴿□ □ □ □﴾ أي: المحيطين به من البطانة والأعوان، وربما من أولئك الذين يعذِّبونها[2]، فقد ورد أنهم عذَّبوها رضي الله عنها حتى ماتت[3]، **هذا المثل الثالث.**

❊ **والمثل الرابع:** ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

جاء ذكرها بالاسم صريحًا، ولم يرد في القرآن من أسماء النساء سواها، وأنزل تعالى سورة خاصة باسمها؛ وفي ذلك إشادة بها.

﴿□□□﴾: **الإحصان:** هو جعل الشيء حَصِينًا، ومنه نقول: مدينة حَصِينة، أي: مَنِيعة الأسوار، ليست قصيرة يتجاوزها كل أحد أو يقفز عليها[1].

---

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 172)، و«روح المعاني» (14/ 358)، و«التحرير والتنوير» (28/ 377)، و«أضواء البيان» (8/ 225).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 116)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 99)، و«تفسير الماوردي» (6/ 48)، و«الكشاف» (4/ 573)، و«تفسير القرطبي» (18/ 203)، و«روح المعاني» (14/ 358)، و«التحرير والتنوير» (28/ 377).

(3) ينظر: «مسند أبي يعلى» (6431)، و«المستدرك» (2/ 496)، و«الكشاف» (4/ 572)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 173)، و«المطالب العالية» (3762)، و«الدر المنثور» (14/ 597)، و«السلسلة الصحيحة» (2508).

ومن النساء مَن لا يكون عندها هذا السور، فيؤثِّر فيها الحديث والوسوسة والكلام والإغراء والغزل، فتلين بعد تمنُّع، كما قال أحد الشعراء[2]:

عُسْـرُ النِّساءِ إلى مُياسَرَةٍ *** والصَّعبُ يسلس بَعدَما جَمَحَا

ويشمل إحصان الجسد كله، فالعفة ليست في الفرج فحسب، وإنما عفة الوجه، والعين، واليد، والقلب ذاته، كما قال المتنبي[3]:

ولا عِفَّةٌ في سَيفِهِ وسِنانِهِ *** ولكنها في الكفِّ والفَرجِ والفَمِ

فعفة اليد: الكف عن الحرام، **وعفة الفَرْج**: أَلَّا يقع الإنسان في الفواحش ومقدماتها، **وعفة اللسان**: التوقف عن الكلام الذي لا يجمل ولا يليق.

والفَرْج يُطلق على جيب الدَّرْع[4]؛ وهو ثوب المرأة الذي تلبسه يكون فيه جيب عادةً من الأمام، وكل فتحة في الثوب تسمى: فَرْجًا، كما في قوله تعالى عن السماء: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: 6].

فالفُرُوج هي: الفتحات[1]، والثناء عليها يشمل إحصان جسدها في هيئتها ولباسها وكلامها وقلبها، ومن باب أولى وأكمل فرجها.

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 335)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 173)، و«روح المعاني» (14/ 358)، و«التحرير والتنوير» (28/ 378).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص239)، و«تاج العروس» (34/ 435) «ح ص ن».

(2) ينظر: «طبقات الشعراء» (ص25)، و«العقد الفريد» (8/ 104)، و«شرح ديوان الحماسة» (ص917)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (2/ 468) منسوبًا إلى بشار بن بُرد.

(3) ينظر: «زهر الآداب وثمر الألباب» (4/ 1055)، و«الحماسة المغربية» (1/ 504).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 116)، و«الكشاف» (4/ 573)، و«المحرر الوجيز» (5/ 335)، و«تفسير القرطبي» (18/ 203- 204)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 173)، و«فتح القدير» (5/ 305).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (2/ 210)، و«التفسير اللغوي للقرآن» (ص624).

﴿□□□□﴾: حيث جاء جبريل عليه السلام فنفخ في جيب درعها النفخة السريعة التي تحولت بقدرة الله إلى حمل بصورة خارقة غير معهودة، وولدت من ذلك عيسى عليه السلام[2].

ومن تشريف الله لمريم عليها السلام إسناده النفخ في فرجها لروحه، وهو يعني أن تكون منسوبة إليه، نسبة الخلق والتشريف والتكريم، كما يقال: بيت الله، وناقة الله، أو يكون المقصود: جبريل عليه السلام[3].

﴿□□□□﴾: **ومن كلماته**: عيسى عليه السلام، فهو ﴿٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ١٧١].

ومن كلماته: الكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين، فهي صدَّقت بكلمات ربها كلها، وكتبه المنزَّلة على أنبيائه[4].

وهذا يعني أن الله أثنى عليها بالعلم، وهو دليل على شرف العلم وفضله؛ لأنه لا يقع التصديق بكلمات الله وكتبه إلا مع العلم بها ومعرفتها.

ومن العجيب أنك تجد في بعض الآثار والنصوص الضعيفة تحذير المرأة من الكتابة؛ كحديث: «**لا تعلموهنَّ الكتابةَ**»[1]، وهو حديث مكذوب لا يصح.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 408)، و«الكشاف» (4/ 381)، و«تفسير القرطبي» (17/ 6)، و«فتح القدير» (5/ 85)، و«التحرير والتنوير» (26/ 287).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 335)، و«تفسير القرطبي» (18/ 204)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 173)، و«فتح القدير» (5/ 305)، و«أضواء البيان» (3/ 390).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 116)، و«المحرر الوجيز» (5/ 335)، و«تفسير القرطبي» (18/ 204)، و«التحرير والتنوير» (28/ 378).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 117)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 100)، و«الكشاف» (4/ 573)، و«المحرر الوجيز» (5/ 336)، و«تفسير القرطبي» (18/ 204)، و«فتح القدير» (5/ 305)، و«روح المعاني» (14/ 359).

في حين أن الله تعالى يثني على سيدة نساء العالمين بأنها صدَّقت بكلمات ربها وكتبه، فهي إذًا على اطلاع بالكتب ومعرفة وإيمان بها، والإيمان هنا ليس تقليدًا؛ بل فهم راسخ للحقائق ومعرفة وحجة.

﴿□□□﴾: **والقنوت** هو: الطاعة، وطول القيام في العبادة، **وقيل**: قيام الليل.

وهذا من باب التفسير بالمثال، فجمع الله لها بين العلم الصحيح، والعمل الصالح[2].

وقد كانت متبتِّلة في طاعة الله تعالى ورضوانه، كما وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنساء القانتات، وأمر نساءه أن يَكُنَّ كذلك.

وضَرْبُ المثل بمريم دعوة لنساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين لامتثال هذه الأخلاق العلمية العملية.

❍ ❍ ❍

---

(1) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (2/ 302)، والطبراني في «الأوسط» (5713)، والحاكم (2/ 396)، والثعلبي في «تفسيره» (7/ 62)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2227)، والواحدي في «التفسير الوسيط» (3/ 302)، والبغوي في «تفسيره» (3/ 434)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (2/ 268- 269) من حديث ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما. وينظر: «معرفة التذكرة في الأحاديث الموضوعة» لابن القيسراني (ص248)، و«مختصر تلخيص الذهبي للمستدرك» لابن الملقن (2/ 879)، و«إتحاف المهرة» (17/ 344)، و«السلسلة الصحيحة» (178)، و«السلسلة الضعيفة» (2017).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 117)، و«المحرر الوجيز» (1/ 201)، و«تفسير القرطبي» (18/ 204)، و«فتح القدير» (5/ 305)، و«التحرير والتنوير» (28/ 378))، وما تقدم في قوله: ﴿أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

سورة المُلك

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «**سورة المُلْك**»، وهو الذي في المصاحف، وكتب الحديث، والتفسير[1].

وسماها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**المنجية**»، في قوله: «**إن سورةً من القرآن ثلاثونَ آيةً شفعت لرجل حتى غُفرَ له، وهي: سورة** ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾»[2].

وفي حديث آخر: «**هي المانعةُ، هي المنجيةُ، تُنجِيه من عذاب القبر**»[3].

وبعضهم يسمِّيها: «**سورة** ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾»[4]، كما في الحديث السابق.

وتختصر إلى: «**سورة** ﴿وَإِنْ﴾»[1].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (6/ 158)، و«جامع الترمذي» (5/ 14)، و«تفسير الطبري» (23/ 118)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 197)، و«تفسير القرطبي» (18/ 205)، و«التحرير والتنوير» (29/ 5).

(2) أخرجه أحمد (7975)، وعبد بن حميد (1445)، وأبو داود (1400)، والترمذي (2891)، وابن ماجه (3786)، وابن حبان (787)، والحاكم (1/ 565) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الحاكم، وابن الملقِّن في «البدر المنير» (3/ 561- 563).

(3) أخرجه الترمذي (2890) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1140).

(4) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص667)، و«فضائل القرآن» للمستغفري (2/ 642).

ويُسمَّى الجزء كله: «**جزء تبارك**»[1].

ومن أسمائها- كما في الحديث السابق-: «**المانعة**»؛ فهي تمنع عذاب القبر عن صاحبها[2].

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سماها: «**المجادِلة**»؛ لأنها تجادل عن صاحبها يوم القيامة[3].

وعدَّ بعض أهل العلم لها نحوًا من ثمانية أسماء، وغالبها صفات[4].

* **عدد آياتها:** ثلاثون آية[5]، كما في الحديث السابق.

* **وهي مكية** عند جميع المفسرين[6].

* **وموضوع السورة:** آيات الله في الأنفس والآفاق، والأرض والسماء والنجوم والطيور وغيرها، وإقامة للحجة على الكافرين بدلائل السمع والبصر والعقل.

* ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا﴾:

---

(1) كما في بعض ألفاظ حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدِّم. وينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 325)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 183).

(2) وكما رُوي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «مَن قرأ ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ﴾ كلَّ ليلة، منعه الله بها من عذاب القبر، وكنا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمِّيها: المانعة، وإنها في كتاب الله سورة، مَن قرأ بها في كل ليلة، فقد أكثر وأطاب». أخرجه النسائي في «الكبرى» (10479)، والحاكم (2/ 498)، وحسَّنه الحافظ في «نتائج الأفكار» (5/ 50- 51).

(3) أخرجه عبد بن حميد (603).

(4) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 5- 7).

(5) وقيل: إحدى وثلاثون؛ باعتبار قوله: ﴿رَّحِيمًا ٢٣﴾ [الملك: 9] آية. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص251).

(6) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 118)، و«المحرر الوجيز» (5/ 337)، و«زاد المسير» (4/ 313)، و«تفسير القرطبي» (18/ 205).

تستفتح هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ﴾ أي: تعاظمت بركته، وعظم خيره وعطاؤه وفضله.

و﴿وَإِنَّ﴾ مأخوذ من البركة، **وتعني**: الخير الكثير الدائم[1]، فالله عز وجل هو صاحب الخير والفضل والإحسان والمَنِّ: ﴿□□□□□□□□﴾ [النحل: 53]، فخيره كثير لا يُحصى: ﴿□□□□□□□□□﴾ [ص: 39]، ﴿مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾ [البقرة: 212]، وما رِزْقُ أهل السماء والأرض، والبر والبحر، والأملاك والأفلاك، إلا قطرة في بحر جوده وكرمه، فهو ذو الخير الكثير، وهو ملجأ العبد في ملماته وأحواله وضروراته.

أقولُ لعبد الله لَمَّا لقيتُه *** وقدْ شدَّ أحلاسَ المَطِيِّ مُشـرِّقا:

تتبَّعْ خَبَايا الأرضِ وادعُ مَليكَها *** لعلَّكَ يومًا أنْ تُجابَ فَتُرزقا

سيؤتِيكَ مَالًا واسعًا ذا مثابةٍ *** إذا ما مِياهُ الأرضِ غارتْ تدفقا[2]

فالخير من الله دائم لا ينقطع، كما قال: ﴿نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن﴾ [القلم: 3]، فهو جَوَاد يرزق المؤمنَ والكافرَ، والبَرَّ والفاجرَ، وخيره

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (2/ 262)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص10)، و«معاني القرآن» للنحاس (5/ 8)، و«الكشاف» (4/ 574)، و«المحرر الوجيز» (5/ 337)، و«فتح القدير» (5/ 308).

وينظر أيضًا: «جمهرة اللغة» (1/ 325)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص119) «ب ر ك».

(2) رُوي أن ابن شِهاب الزُّهْري خاطب بها أخاه عبد الله، وقيل: إنه قالها لعبد الله بن عبد الملك بن مروان، وقيل: لعبد الله بن عبد الله بن الحارث، ورُويت من قول عُروة بن الزُّبير، وصحَّح الزمخشري أنها لعمر بن أبي الجدير العجلاني. ينظر: «فضائل الصحابة» لأحمد (432- زوائد عبد الله)، و«إصلاح المال» لابن أبي الدنيا (303، 307)، و«معجم الشعراء» للمرزباني (ص413)، و«أدب الدنيا والدين» (ص211)، و«أسماء شيوخ مالك» لابن خلفون (ص195)، و«بهجة المجالس» لابن عبد البر (1/ 23)، و«تاريخ دمشق» (29/ 350)، (43/ 553)، و«ربيع الأبرار» (1/ 169- 170)، و«تفسير القرطبي» (3/ 306).

يشمل أهل الدنيا وأهل الآخرة، لا يمل مع إلحاح السؤال، ولا ينفد ملكه مع كثرة النوال[1].

اللهُ يغضبُ إن تركتَ سُؤَاله *** وبُنَيُّ آدمَ حين يُسأَلُ يَغْضبُ[2]

وجاء في القرآن الكريم لفظ يشبه لفظ ﴿وَإِنَّ﴾، وهو: ﴿□□﴾، كما في قوله: ﴿□□□□□□□□□﴾ [النمل: 63]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: 43].

وقد جمع النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينهما في دعاء الاستفتاح، حيث كان يقول: «**سبحانكَ اللهمَّ وبحمدكَ، وتباركَ اسمُكَ، وتعالى جَدُّكَ، ولا إله غيرُكَ**»[3]. أي: علت منزلتك، وعظم ملكك وسلطانك[4].

فـ﴿أَصْلَٰبِكُمْ﴾ معناها: علا وارتفع[1]، والله له العلو المطلق؛ علو القدر، والقهر والغلبة، وعلو الذات، فهو العلي الأعلى بذاته وأسمائه وصفاته وجلاله وعظمته[2].

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة القلم».

(2) نسبه الخطَّابي في «العزلة» (ص67) إلى الخُزَيمي، ونسبه ابن رجب في «نور الاقتباس» (3/ 126- مجموع رسائل ابن رجب)، وابن عبد الهادي في «آداب الدعاء» (ص102)، وفي «مراقي الجنان» (ص363) إلى أبي العتاهية.

(3) أخرجه أحمد (11657)، وأبو داود (775)، والترمذي (242)، وابن ماجه (804)، والنسائي (2/ 132)، وابن خزيمة (467) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود (776)، والترمذي (243)، وابن ماجه (806)، وابن خزيمة (470) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر: «الضعفاء» للعقيلي (1/ 288)، و«البدر المنير» (3/ 532- 533، 537- 539)، و«التلخيص الحبير» (1/ 415- 416)، و«نتائج الأفكار» (1/ 396- 405)، و«إرواء الغليل» (340، 341)، و«السلسلة الصحيحة» (2996)، و«فقه العبادة» (2/ 161).

(4) ينظر: «النهاية» (1/ 244)، و«حاشية السيوطي على سنن النسائي» (2/ 132)، و«مرقاة المفاتيح» (2/ 677)، و«فيض القدير» (5/ 99).

وجاء فعل ثالث، وهو: «تقدَّس»، وإن لم يكن ورد في القرآن، لكنه جاء في حديث متكلَّم فيه: «**ربَّنا اللهُ الذي في السَّماء، تقدَّس اسمُكَ**»[3].

و«**تقدَّس**» مثل ﴿وَإِنَّ﴾، و﴿أَصۡحَٰبِكُمۡ﴾، وفيه إثبات القدسية له سبحانه، و«القدُّوس» اسم من أسمائه، وهو المنزَّه عن كل عيب ونقص، المثبت له كل كمال[4]؛ ولهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكة والرُّوح**»[5].

﴿ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ﴾ أي: كل شيء ملكه سبحانه، فهو المَلِك الآمر الناهي، الذي ليس فوقه مَلِك ولا سلطان، وهو يأخذ السماوات والأرض بيمينه يوم القيامة، ويقول: «**أنا المَلِك، أين ملوكُ الأرض؟**»[6].

ومن أسمائه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾، و﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[7].

---

(1) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (1/ 54)، و«النهاية» (1/ 244)، و«شرح أبي داود» للعيني (3/ 388).

(2) ينظر: «مع الله» (ص163).

(3) أخرجه أحمد (23957)، والحاكم (4/ 218) من حديث فَضَالة بن عُبيد رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود (3892)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (70)، والبزار (4080)، والنسائي في «الكبرى» (10810)، والطبراني في «الدعاء» (1082)، والحاكم (1/ 343) من حديث فَضَالة، عن أبي الدرداء رضي الله عنهما.

وفي إسنادهما ضعف. وينظر: «المجروحين» (1/ 308)، و«الكامل» (4/ 145)، والتعليق على «مسند أحمد».

(4) ينظر: «مع الله» (ص71- 74).

(5) أخرجه مسلم (487) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(6) أخرجه البخاري (4812)، ومسلم (2787) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(7) وهي قراءة سبعية، كما تقدم في «سورة الفاتحة»، وينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص30)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص43- 46)، و«مع الله» (ص65).

﴿مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ أي: لا يُعجزه شيء، فله القدرة التامة، والقدرة تدل على العلم.

* وإن من مظاهر قدرته سبحانه خلق السماوات والأرض والأكوان؛ ولهذا قال: ﴿تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾:

واستفتح السورة بهذا الاستهلال الذي فيه التنزيه والتعظيم، ثم قال: ﴿تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ﴾ أي: هذا من بركته وملكه، فالدنيا والآخرة، والموت والحياة، هي خلقه وتدبيره.

وابتدأ بـ«الموت» قبل «الحياة» لوجهين:

1- أن الموت سابق: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]، فالناس كانوا أمواتًا، والأرض كذلك: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: 5].

2- للإشارة إلى أن الإنسان يصير إلى الموت بعد الحياة، وأن عليه أن يذكر الموت فلا ينساه ما دام حيًّا؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**أكثروا ذكرَ هاذمِ اللَّذَّاتِ**»[1]. وهاذم اللَّذَّات: قاطعها[2]. وفي الروايات الأخرى: «**هادم**»[3]، أي: يهدم

(1) أخرجه أحمد (7925)، والترمذي (2307)، وابن ماجه (4258)، والنسائي (4/ 4)، وابن حبان (2992)، والحاكم (4/ 321) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر: «البدر المنير» (5/ 181)، و«التلخيص الحبير» (2/ 207)، و«إرواء الغليل» (682).

(2) ينظر: «المصباح المنير» (2/ 636) «هـ د م»، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (2/ 560-561)، و«مرقاة المفاتيح» (3/ 1160)، و«تحفة الأحوذي» (6/ 489).

(3) وهي رواية ابن ماجه.

اللَّذات، لكن المقصود «**هاذم اللَّذَّات**»، أي: لذات أهل الدنيا، فيأتي الموت على الإنسان فيقطع لذته، أو أن يتذكر الموت فيكدِّر عليه لذته ومتعته، ويحمله على الانقطاع عنها.

إنَّ الحياة انتصار على الموت؛ ولذا فهي الباقية وإن اعترضها الموت، وإنما يخاطب بالشريعة الأحياء، والقرآن ذاته حياة، وذِكْرُ الموت يقمع الغرور والاندفاع، ولكنه لا يعكِّر جمالية الحياة ومتعتها الحلال: «**إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ**»[1].

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾: فالابتلاء مرتبط بخلق الموت والحياة، ويقع على الإنسان ما دام حيًّا، أما قبل أن يكون حيًّا فليس محلًّا للابتلاء والمحاسبة والسؤال.

وفي هذا دليل على شرف الحياة وفضلها، فالإنسان فيها يذكر ربه ويعبده، ويقدِّم لنفسه عملًا صالحًا، كما قال صلى الله عليه وسلم، وقد سُئل: مَن خيرُ الناس؟ فقال: «**مَن طالَ عمرُه، وحسُنَ عملُه**»[2]. وقال: «**وإنَّه لا يزيد المؤمنَ عمرُهُ إلَّا خيرًا**»[3]. فلو مُدَّ لأحدنا ساعة في الأجل، فتصدَّق وصلَّى وذكر الله كثيرًا، لكان له بذلك الخير والأجر العظيم.

إن الحياة دار عمل، وفرصة للتزوُّد بأجور الطاعات والقربات، وما دام هذا النَّفَس يتردَّد، فبإمكان الإنسان أن يستثمر الحياة بجلائل الأعمال: و«**كلُّ معروف صدقةٌ**»[4]، و«**في كلِّ كبد رَطْبة أجرٌ**»[1].

---

(1) أخرجه مسلم (2742) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

(2) أخرجه الطيالسي (905)، وأحمد (17680، 20415)، والترمذي (2329، 2330)، والحاكم (1/ 339)، والضياء (9/ 43) (20) من حديث أبي بَكْرة وعبد الله بن بُسر رضي الله عنهما.

(3) أخرجه مسلم (2682) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) أخرجه البخاري (6021) من حديث جابر رضي الله عنه، ومسلم (1005) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

ولو تصوَّر الإنسان حجم الخير والإحسان الذي يمكن أن يقدِّمه لنفسه وللقريب وللبعيد ما دام حيًّا لشمَّر عن ساعد الجِدِّ.

وأبواب الخير كثيرة وواسعة، حتى اللُّقمةُ يضعها الرجل في فمِ امرأته له بها أجر[2]، بل يتجاوز ذلك إلى الإحسان إلى الحيوان[3].

وفي الحديث المرفوع عن أبي موسى رضي الله عنه: «**مثلُ الَّذي يذكرُ ربه، والَّذي لا يذكرُ ربه، مثلُ الحيِّ والميت**»[4]. فشبَّه الذاكر الله تعالى بالحيِّ، وشبَّه الذي لا يذكر الله تعالى بالميت، وبينهما فرق كبير.

ويرد كثيرًا في تعبير القرآن وَصْف المؤمنين بالأحياء، والكافرين بالأموات: ﴿بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا﴾ [فاطر: 22]، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الروم: 52].

فالمؤمن يفرح بالحياة الطيبة ويحتفل بها، ليس لمجرد المتعة، ولكن أيضًا لما فيها من فرص الخير والبذل والعمل.

فالابتلاء مداره على العمل طيبًا كان أو سيئًا، والآية فيها إيجاز بليغ يدفع للتنافس والاستباق إلى الخيرات، فمَن كان عمله حسنًا فهو إلى الجنة، ومَن كان عمله سيئًا فهو إلى النار.

---

(1) أخرجه البخاري (2363)، ومسلم (2244) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) كما في «صحيح البخاري» (5354)، و«صحيح مسلم» (1628) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (6009)، و«صحيح مسلم» (2244)، و«هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم» (186– 201).

(4) أخرجه البخاري (6407)، ومسلم (779).

وذكر الجانب الحسن؛ حثًّا للناس وتحفيزًا إلى حسن العمل، وفي ذلك إشادة بالعمل وقيمته وأهميته، وأنه ضرورة للنجاح في الدنيا والآخرة.

ولم يجعل كثرة العمل ميزانًا للتفاضل، بل جعل الميزان في إحسان العمل وإتقانه، فدل على أن المطلوب هو الإحسان والإتقان؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إن اللهَ يحبُّ إذا عمل أحدُكم عملًا أن يتقنه**»[1].

وهنا لم يحدِّد نوع العمل؛ كـ«أيكم أحسن صلاة»، أو: «أحسن عبادة»، وإنما قال: ﴿بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠﴾؛ ليشمل العمل كله، فالمدار على إحسان العمل، سواءً كان دينيًّا أو دنيويًّا، اكتسابًا أو بذلًا.

ومن أحسن ما قيل في ذلك: ما ورد أن الفُضيل بن عِياض سُئل عن أحسن العمل، فقال: «أخلصه وأصوبه». ثم قال: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، فلا يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا»[2].

والعمل الخالص هو ما أُريد به وجه الله، والمقصود عمل الآخرة، وأما عمل الدنيا فيكفي فيه أَلَّا يُراد به مقصد سيِّئ، فلو أحسن إلى فقير أو مسكين، ولم يستحضر نية التقرب إلى الله، لكنه لم يعمله رياءً وسمعة، وإنما بدافع حُبِّ الخير أو العطف، فهذا يُؤجر عليه، كما نص عليه أهل العلم، وجاءت دلائله في الكتاب والسنة[3].

---

(1) أخرجه أبو يعلى (4386)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (897)، وابن عدي في «الكامل» (8/ 84)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (4929- 4931) من حديث عائشة رضي الله عنها، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1113).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 356)، و«حلية الأولياء» (8/ 95).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (2320، 2363، 2631، 3467، 6009)، و«صحيح مسلم» (35، 1552، 1560، 2244، 2245)، و«جامع العلوم والحكم» (2/ 65- 66)، وما سيأتي في «سورة

وأما العبادة والقربة المحضة، فلا بد أن يكون مرادًا فيها وجه الله سبحانه.

والشرط الثاني في العمل هو **الصواب**، والصواب في مجال العبادات هو اتِّباع النبي صلى الله عليه وسلم، ولزوم طاعته وطريقته؛ كالصلاة والصيام وسائر العبادات(1).

وأما في المصالح العامة وأمور الدنيا، فأصوب العمل فيه هو ما كانت مصلحته أعظم، وضده ما كانت مفسدته أعظم.

وإنما يَعرف قدر المصلحة مَن رزقه الله البصيرة والعقل، والفهم والإدراك، ومعرفة مآلات الأمور.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ﴾: وما أجمل هذا الختام لهذه الآية! أي: منكم مَن يُخفق في هذا الابتلاء فيعصي، وينحرف، فهذا يُقابله قوله: ﴿تَأْخُذُونَهُۥ﴾؛ فإن الله عزيزٌ قويٌّ منتقمٌ ممن عصاه، فإيراد اسم ﴿حُرِّمَتْ﴾ يناسب حال مَن أخفقوا في هذا الابتلاء تعمدًا للضلال واختيارًا لطريقه.

وأما قوله: ﴿وَقَدْ﴾ فيناسب حال مَن أحسنوا في العمل، ونجحوا في الابتلاء، وعرض لهم في ثنايا ذلك ألوان من الغفلة أو التقصير، فإن الله تعالى غفور لهم، كما قال: ﴿نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [طه: 82](2).

الإنسان»: ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ﴾، و«سورة الماعون»: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ﴾.

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 356)، و«تفسير البغوي» (8/ 176)، و«العبودية» (ص71)، و«تجريد التوحيد المفيد» (ص42)، و«فتح المجيد» (ص372).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 474)، و«الكشاف» (4/ 576)، و«تفسير القرطبي» (18/ 207)، و«التحرير والتنوير» (29/ 15 – 16).

* ثم يقول سبحانه في سياق تعداد النعم، وإقامة الحجة على العباد: ﴿بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ﴾:

والسماء هي هذه القبة التي يراها الناس فوق رؤوسهم[1]، والقرآن خاطب الناسَ بمقتضى ما يعرفون، فالقرآن ليس كتابًا خاصًّا للفلكيين في مختبراتهم ومعاملهم، ولا بالفلاسفة، أو أهل العلوم الدقيقة، بل هو عام لكل الناس؛ للعلماء والفلاسفة والمختصين، وللبادي في باديته، وللمزارع في حقله، وكون هذه السماوات مجرات أو نجومًا أو غير ذلك مما يشاء الله تعالى، فمسألة لم نتعبَّد بها، وإنما نؤمن بأن فوقنا سبع سماوات، وأنها ﴿مِنكُم مِّيثَٰقًا﴾ أي: بعضها فوق بعض[2].

﴿غَلِيظٗا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ﴾ فهي في غاية الإحكام والدِّقَّة والإتقان؛ ولهذا تشقَّق يوم القيامة وتفتح وتكون أبوابًا وتتصدَّع[3].

وقوله: ﴿غَلِيظٗا ٢١﴾ ليس خطابًا خاصًّا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو خطاب لكل أحد[4]، فانظر بعينيك أيها القارئ والسامع، فالله قد أعطاك بصرًا، فانظر في هذه السماوات، هل ترى فيها من ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ﴾؟

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم﴾.

(2) ينظر: «العين» (5/ 108) «ط ب ق»، و«تفسير الطبري» (23/ 119)، و«تفسير البغوي» (8/ 176)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 176)، و«التحرير والتنوير» (29/ 16).

(3) كما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: 25].

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 389)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 221)،)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 92)، و«فتح القدير» (5/ 309)، و«التحرير والتنوير» (29/ 18).

والتفاوت: الاختلاف، أو العيب، أو الخلل[1].

﴿ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾ أي: انظر إلى السماء مرة أخرى، ﴿مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ أي: هل ترى من شُقوق أو صدوع في السماء[2]؟

وهذا يُدرَك بالحِسِّ، وهو لفت إلى معنى الجمال والزينة في الخلق، وأنه من المقاصد العظيمة.

* ﴿كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ﴾:

وليس المقصود مرتين فقط، بل مرة بعد مرة[3]، مثلما تقول لمَن ناداك: لبيك وسعديك. أي: أُجيبك إجابة بعد إجابة مرة بعد أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ﴾، ﴿وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾ [العلق: 1، 3]. ليس المقصود أن تقرأ مرتين، ولكن مرة بعد مرة[4]، وتكرارها هنا ليس مثل قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾ [البقرة: 229]، فإنه سبحانه عند ما

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 170)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص474)، و«تهذيب اللغة» (14/ 235) «ف و ت»، و«المفردات في غريب القرآن» (ص646)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 121)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 11)، و«تفسير الماوردي» (6/ 51)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 44)، و«تفسير القرطبي» (18/ 209)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 177)، و«فتح القدير» (5/ 309)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ﴾.

(3) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 11)، و«تفسير السمعاني» (6/ 151)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 177).

(4) ينظر ما سيأتي في «سورة العلق».

يقول: ﴿عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾ أي: ليس بثلاث، فالثالثة تبين بها المرأة[1].

﴿سَبِيلًا ۝٢٢ حُرِّمَتۡ﴾: لم يقل: «يرجع»؛ لتجنب التكرار مع قوله: ﴿ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾، ﴿كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ﴾، فلم يناسب أن يقول: «يرجع إليك البصر»، وإنما قال: ﴿يَنقَلِبُ﴾؛ لأن النظرة الأولى كانت من الإنسان ابتداءً، فقيل له: كرِّرها، وارجع وانظر مرة أخرى، ثم ارجع مرة أخرى؛ لينقلب، وكأنه يرجع ويرتدّ إليك مكرهًا، فإن الإنسان نظر باختياره مرة أولى، وباختياره مرة أخرى، وكأنه يبحث عن صدوع وتفاوت[2].

﴿عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ﴾ أي: منقطعًا عن ذلك[3].

* ﴿وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾:

﴿وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ﴾ مع الجودة والقوَّة والمتانة والإحكام للسماوات السبع، فالجمال مقصود، وأنت عند ما تشاهد النجوم بالليل- خاصة في الصحراء- بإشراقها وتألقها الذي طالما تغنَّى به الشعراء، ووجد الناس فيه من الجمال الشيء العظيم؛ تشعر بالذهول والانبهار.

وعند ما تدخل قُبَّة فلكية تحكي السماء، تصبح أكثر وعيًا واندهاشًا.

---

(1) ينظر: «بدائع الصنائع» (3/ 97)، و«عمدة الفقه» (ص105).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 20).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 107)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 357)، و«تفسير البغوي» (8/ 176)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 117)، و«فتح القدير» (5/ 309).

الجمال والزينة في السماء وفي الأرض وفي الخلق، كما يشهد قوله: ﴿□□□□□□□﴾ [النحل: 6]. وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ [ق: 6- 7].

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ وهي النجوم[1]، وقد جرت العادة أن يُزيِّن الناسُ قبابهم وسقوفهم بالمصابيح، ويسمونها: الثُّريَّات؛ تشبيهًا لها بالسماوات، على أنها تبدو كلعب الأطفال صغيرة حين تُقارن بالنجوم والمجرات، وهي معلَّقة محكمة بالسلاسل والحديد، في حين أن هذه المصابيح والشموس والأقمار والنجوم والكواكب الضخمة، التي لا يقدر قدرها ولا يحصي عددها إلا الله، لا شيء يمسكها إلا هو: ﴿أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى﴾ [فاطر: 41].

﴿ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾: والمصابيح ثابتة، كما هو معلوم، ولكن تنفصل منها الشُّهب التي تُرجَم بها الشياطين حينما يحاولون استراق السمع[2]، كما قال تعالى: ﴿تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الجن: 9]، وقال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ﴾ [الحجر: 18].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 122)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 177)، و«التحرير والتنوير» (29/ 21).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 577)، و«تفسير الرازي» (30/ 583)، و«تفسير القرطبي» (18/ 211)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 177).

وكان قتادة يقول: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمَن تأوَّل فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به»[1].

وليس مقصود قتادة رحمه الله أنها لم تُخلق إلا لهذه الثلاث، ولكن هذه الثلاث وردت في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَعَمَّتُكُمْ وَخَلَتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ﴾، وقال سبحانه: ﴿ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَتُكُمُ ٱلَّتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾، وقال في «سورة النحل»: ﴿شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، لكن هذا لا يمنع أن يكون الله خلق النجوم لمصالح أخرى مما نعلم وما لا نعلم.

وإنما مقصوده التشنيع على المنجِّمين وأدعياء علم الغيب، وبعض الفلاسفة وبعض الفلكيين في العصور السابقة، الذين ينسبون إلى النجوم من القوة والتأثير في الأقدار ما ليس لها[2].

وأما ما ثبت من مصالح النجوم غير هذه، فهذا لا تثريب فيه، فالشمس- مثلًا- فيها مصالح للإنسان والأرض والنبات والحيوان، لا يعرف البشر منها إلا القليل، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: 85].

﴿وَأَخَوَتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَعَةِ وَأُمَّهَتُ﴾ أي: في الآخرة[3]، ويتكرر عند ذكر الشياطين الوعيد لهم بعذاب السعير، و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ هي النار، أو دَرَك من دَرَكاتها[1].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (4/ 107)، و«تفسير الطبري» (23/ 123)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (9/ 2913)، و«العظمة» (4/ 1226)، و«تفسير الثعلبي» (6/ 12)، و«تفسير الماوردي» (5/ 38)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 46)، و«شرح السنة» (4/ 395)، و«تفسير القرطبي» (18/ 211)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 177).

(2) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص86)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 123)، و«تفسير البغوي» (8/ 177).

أو يقال: إن ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هو الذي يُعذَّب فيه مردة الجنِّ والشياطين، كما في قوله سبحانه في قصة الجنِّ: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾□□□□□□﴾ [سبأ: 12][2].

ويجوز أن يكون المقصود: النار عامة؛ كما في «سورة الجن»: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، **وجهنم**: من أسماء النار[3].

* ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾:

فالعذاب ليس خاصًّا بالجنِّ أو مردة الشياطين، بل هو شامل للعصاة من بني آدم؛ ولهذا عقَّب بقوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى﴾ أي: من بني آدم[4]، ﴿حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم﴾، فهو بئس المصير على بئس العمل، كما قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾، فمظهر العزة أن الله تعالى يُعاقب هؤلاء الكافرين بعذاب جهنم، وبئس المصير.

وبدأ الجملة بذكر وصف الكفر؛ تنويهًا بالعدل، فهم الذين اختاروا هذا المصير المؤلِم، باختيارهم الكفر والجحود، والظلم والعدوان، وهو تمهيد لما سيرد من اعترافهم باستحقاق هذا المصير.

* ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ﴾:

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (9/ 5953)، و«المحرر الوجيز» (4/ 430).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 82)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (3/ 489)، و«تفسير السمعاني» (4/ 321)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (2/ 828).

(4) ينظر: «الكشاف» (4/ 578)، و«فتح القدير» (5/ 310)، و«التحرير والتنوير» (29/ 23).

أي: إذا ألقتهم الملائكة في النار، فهم مقهورون، يُرمون فيها رميًا، كما في قوله تعالى: ﴿بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ وَلَا﴾ [الإسراء: 97]، وقوله: ﴿□□□ □□ □□﴾ [الحاقة: 30- 31].

والشَّهِيق هو: صوت النفس عند خروجه من الحلق، ويجوز أن يكون صوت النار، وأن الله تعالى يجعل لها يوم القيامة من الصفات ما ليس للنار في الدنيا، فيكون لها صوت وشَهِيق، وهذا هو ظاهر النص، **وهو أقرب وأولى**[1].

وقال بعضهم: إن المقصود بالشَّهِيق: صوت مَن دخل النار قبل هؤلاء[2]، كما قال سبحانه: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود: 106- 107].

ويُضعِّف هذا القول أن السياق في وصف النار، وما بعده يؤكِّد اختلاف نار الآخرة عن نار الدنيا، حتى تصبح كأنها حيٌّ يتملَّكه شعور الغضب من هؤلاء البشر الشاردين عن الإيمان!

﴿جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: وهي تغلي بمَن فيها[3].

* ﴿أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 123)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 109)، و«تفسير الماوردي» (6/ 53)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 47)، و«تفسير القرطبي» (18/ 211).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (12/ 577)، و«تفسير الماتريدي» (8/ 13)، و«الكشاف» (4/ 578)، و«تفسير الرازي» (30/ 586).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 390)، و«تفسير الطبري» (23/ 124)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 475)، و«تفسير البغوي» (8/ 177)، و«زاد المسير» (4/ 314).

﴿أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن﴾ أي: تكاد تتقطَّع[1]، فمع أنها متصلة بعضها ببعض، إلا أنها تكاد تتقطَّع من شدة الغيظ والحَنَق على الكافرين.

وهذا أيضًا مما ينبغي أن يُحمل على ظاهره؛ فإن الله تعالى يجعل هذا في النار يوم القيامة، و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماءُ»[2]. فالعذاب في الآخرة ليس كما في الدنيا، وجهنم ليست كما يتخيَّله أحدنا!

والتعبير بالتميّز- وهو التقطّع- كناية عن شدة الغضب، كما يقال: إن فلانًا غضب، حتى خرج منه شعبتان: شعبة إلى السماء، وشعبة في الأرض. ويقصد من وراء ذلك شدة الغيظ والحَنَق[3].

﴿تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ﴾: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تدل على التكـــرار،

والمعنى: أنه يُلقى في النار فوجٌ بعد فوج، وكلُّ فوج يحدث له هذا، فكما أن المؤمنينَ يُحشرونَ إلى الجنة أفواجًا، فإن الكفارَ يُحشرونَ إلى النار أفواجًا، كما قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء: 71]، والتفويج يكون بحسب الأمم، أو بحسب درجة الكفر، أو بحسب نوع الضلالة التي ارتكبوها، فالوثنيون طبقة، وعبدة

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 124)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 110)، و«تفسير القرطبي» (18/ 212)، و«فتح القدير» (5/ 310).

(2) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. أخرجه وكيع في «نسخته عن الأعمش» (1)، وهنَّاد في «الزهد» (3، 8)، والطبري في «تفسيره» (1/ 416)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (1/ 66)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (124)، والبيهقي في «البعث والنشور» (332)، والضياء (10/ 16) (6)، وصحَّحه غير واحد. ينظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري (4/ 316)، و«الفتوى الحموية الكبرى» (ص544)، و«الزواجر عن اقتراف الكبائر» (3/ 440)، و«السلسلة الصحيحة» (2188).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 578)، و«التحرير والتنوير» (29/ 24).

النار طبقة، ومكذبو الرسل طبقة، والملحدون الذين لا يؤمنونَ بالله تعالى طبقة، والله أعلم.

والفَوْج: هم الجماعة من الناس[1].

والخَزَنة جمع: خازن، وهم الملائكة الموكَّلون بالنار، القائمون عليها[2]، **والمقصود**: أنهم قائمون على ديمومة وقود النار، وعلى عذاب أهل النار، وبقائهم فيها، كما في قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: 20].

فخَزَنة جهنم يردُّون على أهلها، كما في قولهم ردًّا على طلب التخفيف، فيقولون لهم: ﴿أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ﴾ [غافر: 50].

وفي هذا السياق ذكر تعالى أن الخَزَنة تقول لهم: ﴿سَلَفَۗ إِنَّ﴾؟ أَمَا جاءكم رسول؟ أما قامت عليكم الحجة؟ أما سمعتم بنبي؟ أما جاءكم كتاب؟

وهو سؤال لإقامة الحُجَّة والبلاغ؛ ولهذا يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لن يَهْلِكَ الناسُ حتى يَعْذِرُوا- أو: يُعْذِرُوا- من أنفسهم**»[3]. أي: لا أحد يدخل

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 125)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 48)، و«المحرر الوجيز» (5/ 532)، و«تفسير القرطبي» (18/ 212)، و«روح البيان» (6/ 373)، و«التحرير والتنوير» (29/ 25)، والمصادر الآتية.

وينظر أيضًا: «العين» (6/ 190)، و«جمهرة اللغة» (1/ 489)، و«الصحاح» (1/ 336) «ف و ج».

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 587)، و«تفسير النسفي» (3/ 513)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 224)، و«فتح القدير» (5/ 311)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (1348)، وابن الجعد (128)، وأحمد (18289، 22506)، وأبو داود (4347)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (1)، والبغوي (4157) من حديث أبي البَخْتري، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

النار ويقول: أنا مظلوم، كما هو الحال في الدنيا، فلو زرت سجنًا من السجون لوجدت كل مسجون يقول: أنا مظلوم[1]، كما قال الشاعر[2]:

ما يدخلُ السجنَ إنسانٌ فتسألُه: ❊❊❊ ما بالُ سجنك؟ إلا قال: مظلومُ

❊ ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

وهذا دليل على أن أهل النار هم مَن بلغتهم الحجة، وجاءهم النذير والرسول، وجاءهم القرآن والبلاغ، فأصرُّوا وكذَّبوا واستكبروا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: 15]، أما أهل الفَتْرة الذين ماتوا قبل الإسلام، أو ماتوا بعد الإسلام، ولم تبلغهم الرسالة والحُجَّة، ولم تصل إليهم الدعوة، فهؤلاء لا يُحكم عليهم بهذا المصير، وإنما يكون أمرهم إلى الله فيما يقتضي كرمه وعدله جل وعز، وفيهم الأقوال المتداولة بين أهل العلم[3].

﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾□□□□□□□□□﴾ أي: جاءنا رسولٌ يُبلِّغ عن الله، فكذَّبنا به وقلنا: ﴿□□□□□□﴾ أبدًا، وهذا نفي مطلق، فكذَّبوا الرسل والكتب والشرائع جميعًا؛ لأن ﴿□﴾ في قوله: ﴿□□□□□□﴾، تدل على استغراق جميع الأشياء، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: 91]. فهذا اعتراف لفظي، حيث ظلوا يستذكرون ما جرى في الدنيا ويحكونه بالتفصيل، ويقرُّون على أنفسهم بوصول الحجة إليهم وقيامها عليهم، وتكذيبهم لها

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿□□□﴾.

(2) ينظر: «البيان والتبيين» (3/ 116)، و«الحيوان» (2/ 307)، و«عيون الأخبار» (1/ 149)، (2/ 132).

(3) ينظر: «أضواء البيان» (3/ 65- 75)، و«أهل الفترة» لموفق أحمد شكري (ص70)، وما بعدها.

ورفض سماعها.. وإنما سماه هنا: ﴿□﴾؛ لمناسبة النِّذارة لحال العذاب الذي يقاسونه، كما يسمى: ﴿□﴾ للمؤمنين.

﴿□□□□□□﴾: يجوز أن يكون هذا من تمام كلامهم، وأنهم كانوا يسخرون بالنذير، ويقولون له ذلك في الدنيا[1].

ومع كونه نذيرًا واحدًا، فقد عبَّر هنا بلفظ الجمع: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾؛ إشارة إلى النذير ومَن آمن به، أو يكون لفظ ﴿□﴾ معبِّرًا عن الجنس، أي: النُّذر، ومَن كذَّب برسول فقد كذَّب بالرسل أجمعين؛ لأن دعوتهم واحدة، كما في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء: 105][2].

ومن الإعجاز أن هذا الكلام نفسه يصلح أن يكون من كلام الخَزَنة للكفار[3]، أي: فهذا الكلام الذي كنتم تقولونه للرسل في الدنيا ينطبق عليكم الآن: ﴿□□□□□ □﴾ أي: كيف يأتيكم رسل الله بالبينات والهدى والحجج، ثم تكذِّبون وتقولون: ﴿□ □□□□﴾ أي: إنْ أنتم يا أهل النار إلا في ضلال، أي: ضياع عن الجادة والطريق والمنهج، ووصفه بأنه ﴿□﴾ أي: بعيد[4]، وليس مجرد انحراف يسير يمكن تداركه.

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير أبي السعود» (9/ 5)، و«فتح القدير» (5/ 311).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (4/ 95)، و«تفسير الماتريدي» (8/ 69)، و«المحرر الوجيز» (5/ 358)، و«تفسير القرطبي» (13/ 119)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 210)، و«فتح القدير» (5/ 335).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 578).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 125)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7595)، و«تفسير أبي السعود» (9/ 5).

رجع الكلام هنا لأهل النار؛ ولذا كرَّر كلمة: ﴿سَبِيلًا ﴾، ويلاحظ أنهم قدَّموا السمع على العقل، وهذا دليل على قوة حجة السمع[1].

والسمع: الوحي الذي أقام به الرسل الحُجَّة على الناس، وهم كانوا يسمعون، لكن لم يكن سمعهم المستفيد، كما قال تعالى: ﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا﴾ [الحاقة: 12]، فهؤلاء كان لهم آذان، ولكنها غير واعية، ومن هنا تأسَّفوا وقالوا: ﴿□□ □﴾.

وفي هذا أيضًا إشارة إلى أن العقل من أعظم النعم، ولا يخاطب بالديانة أصلًا إلا مَن لهم عقول؛ فإن العقل هو مناط التكليف، ومناط الحُجَّة على العباد، وغير العاقل غير مكلَّف، والإسلام جاء ليخاطب العقول، ويحتج على الناس بدلالاتها وأحكامها الصحيحة، ويأمرهم بتحريكها والانتفاع بها، والتبصُّر والنظر في السماوات والأرض، كما قال سبحانه في أول السورة: ﴿ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ﴾، فهذا بصر، ولكنه لا يفيد، إلا مَن كان له عقلٌ يتدبَّر ويعتبر.

وقد نفوا العقل عن أنفسهم، وربما كانوا يعقلون في أمور الدنيا، وفي المصالح المادية، والمكر والكيد والتخطيط، ولكنه عقل محدود، لم يخترق حُجُب المادية، ولم يرشد أصحابها إلى أن يعملوا لآخرتهم، كما يعملون لدنياهم، وأن يحرصوا على أن يحسنوا العمل الصالح الرباني، كما يحسنون العمل الصالح المادي.

❊ ﴿□□□□□□﴾:

و«الاعتراف سيد الأدلة»، وهو من كمال العدل الإلهي مع الإنسان، وليس بعد الاعتراف شيء، فبأي شيء يُعذرون، وقد اعترفوا بذنبهم واستحقاقهم للعذاب.

---

(1) ينظر: «التفسير المظهري» (10/ 23).

﴿ﮭ﴾ أي: بُعدًا وذَهابًا وهلاكًا وبوارًا ودمارًا[1]، ﴿ﮮ ﮯ﴾ فصاروا أصحاب السعير، وصارت لهم وهم لها، يُكونَ ويُصْلَونَ فيها.

فأصحاب السَّعير هم: العصاة والكفار، الذين أخفقوا في الابتلاء، وأساؤوا في العمل، فانتقم الله منهم؛ لأنه ﴿ حُرِّمَتۡ ﴾.

ومن معنى كونهم أصحاب السَّعير: أنهم باقون خالدون فيها لا يخرجون.

❊ وأما الذين أحسنوا ونجحوا في الابتلاء، فأحسن اللهُ إليهم، وغفر لهم؛ لأنه ﴿بَعۡضِ ﴾، فهو ﴿تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ ﴾؛ ولهذا ناسب أن يثنِّيَ بذكر الصالحين، فقال: ﴿ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ﴾:

أي: يخافون الله تعالى بالغيب[2]، والله غيب لم يروه، وإنما قامت الحجج والبينات الكونية والعقلية والسمعية على وجوده وألوهيته ووجوب عبادته.

أو يكون معنى ﴿ﯖ﴾: في خلواتهم، بعيدًا عن عيون الناس، فليس فعلهم ذلك تظاهرًا بالخوف، ولا رياءً، ولا مجاملةً، ولا نفاقًا[3]، فهؤلاء ﴿ﯘ ﯙ﴾ من ﴿بَعۡضِ ﴾، والغَفْر: السَّتْر[4]، فستر ذنوبهم وأخفاها، ولم يؤاخذهم بها؛ لأنهم ليسوا من أصحاب الضلال الكبير البعيد، بل ممن سدَّدوا وقاربوا، وأخطؤوا بالليل ليتوبوا بالنهار، أو

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 125)، و«تفسير السمعاني» (6/ 10)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص474)، و«زاد المسير» (4/ 315)، و«تفسير القرطبي» (18/ 213).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص474)، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص319).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 126)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7596)، و«المحرر الوجيز» (5/ 340)، و«تفسير القرطبي» (18/ 213)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 225).

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 54)، و«المحرر الوجيز» (5/ 340)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 179).

(4) ينظر: «تهذيب اللغة» (8/ 112)، و«مشارق الأنوار» (2/ 138)، و«لسان العرب» (5/ 25) «غ ف ر».

زلُّوا بالنهار ليتوبوا بالليل، وعلموا أن لهم ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ولهم أجر كبير، ولو اقتصر على المغفرة، فقد يُفهم منها محو الذنوب والتسامح عنها فحسب، لكن لما قال: ﴿□□﴾ دلَّ ذلك على أن لهم زيادة على مجرد العفو، إما مقابل حسناتهم، أو المقصود سيئاتهم التي تابوا منها، فأبدلها الله لهم حسنات[1].

* وفي قوله: ﴿□□□﴾ إشارة إلى عظمة الإيمان بالغيب الذي لم يروه، فناسب أن يقول: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ﴾:

أي: سواء كان الإنسان في الملأ أو منفردًا، فالله تعالى مطَّلع عليه، وإذا تكلم العبدُ سرًّا أو جهرًا، فالله يسمعه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ﴾ [المجادلة: 1]، وقد كانت عائشة رضي الله عنها في طرف الحجرة، لا تدري ما تقول هذه المجادِلة، ولكن سمعها الله من فوق سبع سماوات، فأنزل قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 181].

وفي قصة الثلاثة الذين قال أحدُهم: أترونَ أن اللهَ يسمعُ ما نقولُ؟ وقال الآخرُ: يسمعُ إن جهرنا، ولا يسمعُ إن أخفينا. وقال الآخرُ: إن كان يسمعُ إذا جهرنا، فهو

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 720)، و«التفسير البسيط» للواحدي (2/ 559)، (6/ 261)، و«تفسير القرطبي» (3/ 433)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (1/ 356).

(2) كما في «مسند أحمد» (24195)، و«صحيح البخاري» معلقًا (9/ 117)، و«سنن ابن ماجه» (188، 2063)، و«سنن النسائي» (6/ 168)، و«المستدرك» (2/ 481)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (385) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «الحمدُ لله الذي وسع سمعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت، تشكو زوجَها، وما أسمعُ ما تقولُ، فأنزل اللهُ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ ...﴾، وتقدم في أول «سورة المجادلة».

يسمعُ إذا أخفينا. فأنزل اللهُ عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ...﴾ الآية[1].

ومعنى الآية: أن السرَّ والجهرَ عند الله سواء، كما قال: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى﴾ [الرعد: 10]؛ لأنه سبحانه ﴿إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا﴾، فهو عالم بما في قلبك، حتى قبل أن تنطق به، بل هو عالم به قبل أن يكون في قلبك[2].

وهو سبحانه يعلم الوسوسة التي في خاطرك؛ ولهذا قال: ﴿بَيْنَ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا﴾ أي: عليم بالحاجة التي ما زالت في الصدر لم يبح بها صاحبها[3]، كما قال: ﴿شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [المجادلة: 7]. وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: 7]، وأخفى من السِّرِّ الذي لا يعلم به صاحبه ما لم يكن سرًّا، ولكنه سوف يكون سرًّا، فالله تعالى يعلمه، فمن هنا قال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾[4].

وهذه الرقابة الإلهية التي لا يفوتها شيء، حريٌّ أن تجعل المؤمنَ يستحضر رقابة علَّام الغيوب في حركاته وسكناته، وعلانيته وخلوته؛ فإن ذلك يحفِّزه إلى الطاعة ويزجره عن المعصية.

---

(1) أخرجه البخاري (4816)، ومسلم (2775) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير أبي السعود» (9/ 6)، و«أضواء البيان» (2/ 236).

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7597)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 342)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 976).

(4) ينظر ما تقدم في «سورة الحديد»: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾.

وكان من مناسبة هذا السياق أن بعض المشركين كانوا يسخرون من المؤمنين، ويقولون: إن الله تعالى يسمع كلامنا إذا جهرنا، ولا يسمع إذا أسررنا، فاهمسوا، حتى لا يسمعكم إله محمد. ففضحهم تعالى، وبيَّن أنه يسمع هذا الهمس، ويعلمه، وأنزل فيهم قرآنًا يُتلى[1].

* ﴿مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾:

كيف لا يعلم وهو الخالق؟ فقوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ أي: أفلا يعلم الله سبحانه السِّرَّ وهو الخالق وهو اللطيف؟

بلى، فهو خالق الإنسان والعقل والقلب والروح والسِّرَّ والخطرة واللسان والأذن والحركة والهواء الذي ينتقل به الصوت وكل شيء؛ ولذا قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ ولم يحدِّد مخلوقًا، فهو ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 102].

ويحتمل المعنى: ﴿مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾: أَلَا يعلمُ اللهُ مَن خلق؟ فكيف لا يعلم الخالق مَن خلق؟ هذا شيء خلاف العقل؛ لأنه إذا كان هو الخالق للإنسان بكل تفاصيله ودقته، فمقتضى ذلك قدرته عليه، وأن يكون عليمًا مطَّلعًا على كل شيء منه وفيه[2].

﴿بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، و﴿وَإِثْمًا﴾ من اللُّطف، وهو الشأن الخفي[3].

---

(1) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص442)، وما تقدم في حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 127)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 359)، و«تفسير القرطبي» (18/ 214)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 179).

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 11)، و«تفسير السعدي» (ص876)، و«التحرير والتنوير» (29/ 31).

﴿بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا﴾ أي: الذي يعلم دقائق الأشياء وتفاصيلها ومعانيها ومفرداتها، وهذا من خصوص معنى ﴿وَإِثۡمٗا﴾.

و﴿﴾: صاحب الخبرة التامة، ومن خصوص معنى ﴿﴾: الذي يعلم الأشياء قبل وقوعها وحدوثها[1]، والخبرة في البشر هي التي تؤهلهم لتوقع المستقبل وحساباته واحتمالاته، وتسمَّى بعض دوائر البحث: «بيوت الخبرة».

وختام الآية بهذين الاسمين مناسب لقوله: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾، فالله لطيف يعلم السِّرَّ ويعلم الجهرَ، ويعلم الدقيق والجليل، والكبير والصغير، ويعلم كلام الاثنين والثلاثة والأربعة والخمسة، وخبير يعلم ما سيقع من سر أو علانية، ومن خاطرةٍ أو حديث نفس قبل أن تقع.

* ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ﴾:

وهذا من نعمته وفضله وحجَّته سبحانه على عباده، فهي نعمة تحتاج إلى شكر، وآية توجب الإيمان.

والأرض هي محل التكليف بالخلافة: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: 30]، والمخاطبون هم البشر؛ مسلمهم وكافرهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن: 10]، ووصفها هنا بوصف عجيب، وهو ﴿إِلَىٰ﴾[2]، كما تقول: بَعِير مذلَّل، أي: مسخَّر، فالبعير المذلَّل يركبه الصغير والكبير، وربما ضربه أو

(1) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص145، 151).

(2) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 13)، و«تفسير السمعاني» (6/ 11)، و«زاد المسير» (4/ 315)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 179).

وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (10/ 158)، و«لسان العرب» (1/ 772).

استعجله وهو مطرق، وعادة ما يُطلق على البعير المخصَّص للسفر والترحال، حتى صار اسمًا، لا وصفًا، فيقال: هذا ذَلول فلان، يعني: بعيره، وأصله مأخوذ من الذُّل والتذلُّل، فكذلك الأرض جعلها الله مسخَّرة، يحفر الناس فيها ويدفنون ويزرعون ويبنون، ويتحركون عليها ويمشون، فهي قابلة لكل ما يصلح حياة الناس، كما قال سبحانه: ﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾ [المرسلات: 25- 27]، ففي السياق معنى التسخير، وينطوي تحت هذه الكلمة كل نواميس التسخير التي وضعها الله في الكون لخدمة الإنسان.

﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا﴾: وهذا إذن وإباحة يتضمن أمرًا شرعيًّا أو مصلحيًّا؛ أن يسير الناس في مناكب الأرض وفجاجها؛ لمصالح الدين والدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ [المزمل: 20]، فقد ينتقل الأمر للاستحباب أو الوجوب، كما هو الشأن في السفر، حيث تجري فيه الأحكام الخمسة[1].

والمَنْكِب: الكتف، وللأرض مناكب، وهذه المناكب قد تكون هي الجبال، كما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأنها مرتفعة في الأرض مثل المناكب[2].

وقد تشمل الطرق المذلَّلة المعبَّدة للسير، **والأقرب** أن المقصود: جهاتها وأطرافها ونواحيها.

---

(1) ينظر: «الحاوي الكبير» (2/ 358)، و«البناية شرح الهداية» (3/ 35)، و«مواهب الجليل» (2/ 139- 140)، و«الشرح الممتع» (4/ 348- 349).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 127- 128)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 359).

وهو دليل على أن الأصل جواز السفر والتنقل في الأرض، ولا ينتقل الحكم عن ذلك إلا بدليل صحيح صريح، وأن من حقوق الناس أن يضربوا في الأرض ويتنقلوا بين أقطارها.

﴿مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا﴾ أي: مما يخرجه لكم من هذه الأرض، أو ينزله لكم من السماء، أو يكون مشتركًا بينهما، وهو دليل على أن الأصل في المأكول والمشروب الحلّ والإباحة، ولا ينتقل الحكم عنه إلا بدليل.

والرزق هنا يشمل ما أودعه الله في الأرض من المزروعات والنباتات واللحوم، ويشمل المركب الذي يصنعه الإنسان ويسخِّره، فجميع ذلك من رزق الله.

وأطيب المأكول ما أخرجه الله لنا من الأرض من الطيبات، فهو أهنأ وأبرأ وأمرأ وأصح وأنفع للبدن، وإذا اعتاد المرء عليه صار ألذّ، وإن انصرفت عنه أجيال تأثرًا بالصنعة المغرية القائمة في الأطعمة الجاهزة والوجبات السريعة.

﴿تَنكِحُواْ مَا﴾ فهو وإن مشى وأكل وشرب، فعليه ألَّا ينسى أن الحياة إلى نهاية، **والنَّشْر**: البعث، كما قال الأَعْشَى[1]:

لو أَسْنَدتْ مَيْتًا إلى نحرِها *** عاش ولم يُنقلْ إلى قابِرِ

حتى يقولَ الناسُ مما رَأَوْا *** يا عجبًا للميت الناشرِ

أي: المنشور، و﴿﴾ هو: الحياة بعد الموت[2]، كما جاء في أذكار الاستيقاظ من النوم: «**الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النُّشورُ**»[3].

---

(1) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص139).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 129)، و«تفسير الماوردي» (1/ 332)، و«المحرر الوجيز» (5/ 341)، و«تفسير القرطبي» (13/ 3)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 179)، و«فتح القدير» (5/ 313).

(3) أخرجه البخاري (6312، 6325) من حديث حذيفة وأبي ذر رضي الله عنهما، ومسلم (2711) من حديث البراء رضي الله عنه.

* ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا﴾:

أي: أيها الناس، هل أمنتم عذاب الله حين غفلتم عن عبادته، بأن يخسف بكم الأرض ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾ أي: ترتجّ[1]؟ كما هو فعل الزلازل، فما هي إلا ثوانٍ معدودة، فإذا بناطحات السحاب تتساقط، وإذا بالمباني تتهدَّم، وإذا بالبحار تصطفق وتضطرب، وقد يحدث لها طوفان على الأرض، كما في «تسونامي» الذي ضرب بعض بلاد شرق آسيا[2].

* ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾:

وهذا نوع آخر من العقاب، فالأرض لو سكنت، فالله تعالى قادر على أن يبعث عليكم ريحًا قاصفًا، فيهلككم بهذه الريح التي تضرب وجوهكم بالحصباء والحجارة، سواء كان هذا الحاصب من السماء أو من الأرض نفسها.

والتعبير بـ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾ عظيم، فيه إشارة المهابة والجلال للربِّ المدبِّر القدير، وفيه تأكيد العلو؛ علو القهر وعلو القدر وعلو الذات[3]، وفيه إلماح إلى جنوده تعالى في أكوانه، الذين سخَّرهم لمصالح الحياة، ويسخرهم للبطش والعقاب والتنكيل بالمفسدين.

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 55)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 180)، والمصادر السابقة.

(2) ومن ذلك ما حصل من المد البحري في إندونيسيا، وذلك عام (2004م)، والذي خلَّف مئات الآلاف بين قتيل وجريح.

(3) ينظر: «التدمرية» (ص85)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (2/ 144).

﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ﴾ أي: حين ترون هذه الآيات العظيمة كيف يكون نذير الله تعالى لكم، فقد أنذركم ذلك وحذَّركم منه، وأمركم بطاعته، وقال: ﴿□□□□□□ □□□□□□□□□□﴾ [الروم: 41].

* ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾:

فقبل تكذيب العرب بالنبوة كذَّبت أممٌ رسلَ الله عز وجل، فكان نَكِير الله تعالى عليهم بتكذيبهم نَكِيرًا شديدًا وأخذًا وَبِيلًا، **والمعنى**: تهديد هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم[1].

* ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾:

وما أكثر الذين يغفُلون بسبب الإِلْف والعادة! فقد اعتادوا أن يمشوا على الأرض، ناسين ذاهلين عن نعمة بسطها واستقرارها، وكذلك ما يشهدونه في ملكوت السماوات[2].

ولم يقل تعالى: «ألم يَرَوْا الطير»، بل عدَّى الفعل بـ﴿□﴾، وكأنه ضمَّنه معنى: ﴿يَنظُرُواْ﴾[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 130)، و«زاد المسير» (4/ 316)، و«تفسير الرازي» (30/ 593)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 180)، و«التحرير والتنوير» (29/ 36).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 37).

(3) كما في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 185]، وقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦﴾ [ق: 6].

وبين الرؤية والنظر فرق، وهو أن النظر أمكنُ في القصد، فيقال: نظر إلى كذا، أي: تعمَّد وقصد الرؤية، بخلاف «رأى»، فقد تقع قصدًا أو اتفاقًا دون إرادة، وهنا استعمل «يرى» عوضًا عن «ينظر»؛ لأن في السياق تحفيزًا إلى مشاهدة الطير، ومعرفة سرِّ الإبداع والخلق فيها، وإشارة إلى تَكرار حدوث النظر منهم إليها؛ لأنها من المشاهد المتاحة.

﴿ٱلَّتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ أي: تصف بأجنحتها عند الطيران في السماء[1]؛ فإن الطير إنما يكون طيرانه من خلال صف هذه الأجنحة، بمقتضى ما جعل الله تعالى من تكوين جسمه، ومن قدرته على الطيران، ومن تسخير الهواء وقابليته لذلك.

والأصل أنهن خلال الطيران صافَّات، ولكنهن أحيانًا يقبضن؛ ليساعدها هذا على سرعة الطيران واستمراره، والناس إذا رأوا شيئًا لأول مرة اندهشوا منه، فالذي يرى الفيل لأول مرة يندهش لخلقه ويتعجب منه، فإذا تعوَّد على رؤية البعير أو كان في بيئته منذ أن كان طفلًا، فإنه لا يلفت نظره، فالعادة تحرم الإنسان من كثيرٍ من الاعتبار[2].

﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ الذي ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي﴾ [فاطر: 41]، فبإرادته ظلت هذه الطير صافَّات بأجنحتها في السماء، كما بإرادته أمسك السماوات والأرض أن تزولا.

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص475)، و«تفسير الطبري» (23/ 130)، و«زاد المسير» (4/ 316).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 37).

واختار اسم ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ لأن من رحمته وضع نواميس الخلق الجارية، ومن رحمته الصبر على عباده، وعدم معاجلتهم، وتصريف الآيات لهم، وفيه- فوق هذا- الإلماح إلى الرحمة بالمخلوقات، و«**الراحمونَ يرحمهم الرحمنُ**»[1]، «**والشاةُ إن رحمتها رحمك اللهُ**»[2].

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ﴾: والبصير معناه: المبصر، الذي لا يفوته شيءٌ، فهو يرى كل شيء[3].

ومن معاني ﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾: عليم بما يصلح الشيء، كما تقول: هذا الإنسان بصير بهذا العمل، أو بصير بهذه الآلة، أي: أنه صاحب معرفة بها[4].

* ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

والمعنى: هل لكم جند خاص ينصركم من دون الله؟ وهل جندكم من الشياطين والأوثان التي تعبدونها ينصرونكم من دون الله؟ وهو سؤال إنكار واستنكار[5].

---

(1) كما في «مسند أحمد» (6494)، و«سنن أبي داود» (4941)، و«جامع الترمذي» (1924)، و«المستدرك» (4/ 159)، و«الآداب» للبيهقي (28) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (925).

(2) كما في «مسند أحمد» (15592، 20363)، و«الأدب المفرد» (373)، و«مسند الرُّوياني» (942)، و«مكارم الأخلاق» للطبراني (49)، و«المستدرك» (3/ 586) من حديث قرة بن إياس المزني رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (26).

(3) ينظر: «مع الله» (ص141).

(4) ينظر: «تاج العروس» (10/ 198) «ب ص ر».

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 131)، و«زاد المسير» (4/ 316)، و«تفسير القرطبي» (18/ 218)، والمصادر الآتية.

وتكرر اسم ﴿قَدۡ سَلَفَ﴾ في السورة أربع مرات، **وكأن المعنى هنا**: إذا خذلكم ﴿قَدۡ سَلَفَ﴾ فمَن ينصركم؟ وإذا لم تسعكم رحمته العظيمة، فأي أرض تُقِلُّكم، وأي سماء تُظِلُّكم؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ فهم مخدوعون، لا يُفيقون من الخديعة إلا عند الموت، أو عند قيام الساعة.

❊ ﴿(٢٣)□□□□□□□□□□□□□□﴾:

أي: إذا أمسك الله تعالى عنكم الرزق، فهل ثَمَّ أحدٌ غير الله يرزقكم من السماء والأرض؟ كلا.

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى ينزل عليهم المطر الذي تقوم عليه حياة الأرض والنبات: ﴿□□□□□□□□□﴾ [الزمر: 21]، وأهل مكة كانوا يعتمدون كثيرًا على الآبار، ولو أن السماء توقفت عن المطر لجفت هذه الآبار؛ ولهذا قال في آخر السورة: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾.

﴿□□□□□﴾ أي: أصرُّوا وأمعنوا، **فعاب الله عليهم أمرين**[1]:

1- **العتو**، وهو الكبرياء في نفوسهم، والاغترار بالمال والولد والأهل والجاه والمنزلة في الدنيا.

2- **النفور**، وهو الإعراض، فهم لا يحبون أن يسمعوا تذكيرًا ولا وعدًا ولا وعيدًا ولا خيرًا، ولا أن يغيِّروا ما هم فيه من الضلالة، فهم مصرون عليه.

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7602)، و«تفسير الرازي» (30/ 594)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 181)، و«فتح القدير» (5/ 314)، والمصادر السابقة.

وهذا مثال، **والمعنى**: هل الإنسان الذي يمشي قائمًا على قدميه، معتدل الجسد والرأس، على صراط مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، أفضل، أم مَنْ هو مُكِبٌّ على وجهه، مطأطئ الرأس، كأنما يبحث عن معالم الطريق على الأرض، وهو يمشي في طريق غير واضح؛ ولهذا يعثر، فهو في كل حين ينكبُّ على وجهه، يكاد يسقط على وجهه؛ لأن الطريق ليس معبَّدًا ولا مستقيمًا؟

وهذا هو الفرق بين طريق المؤمنين وطريق الكافرين، والله تعالى يضرب لهم هذا المثل، ويدعوهم إلى التأمُّل: هل المضيِّع لطريقه الذي لا يهتدي أفضل وأهدى، أم مَن يمشي سويًّا على صراط مستقيم؟

ويحتمل معنى آخر، وهو: أن الإكباب على الوجه، يعني الخُرور ومواجهة الأرض بالوجه؛ كحال المُحْدَوْدَب الذي لا يقدر على الاعتدال.

والمقصود: ضرب المثال في عالم المعنى، والمقارنة بين المؤمن السائر على الطريق المستقيم ومَن يتوهم ذلك، وهو ليس على شيء، والله أعلم[1].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿وَخَلَقْتُكُمْ﴾ تأكيد لمعاني النعم والآيات يستدعي الشكر والاعتبار.

﴿□□□﴾ أي: خلقكم في بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق؛ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم طفلًا، ثم مراهقًا، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ومنكم مَن يرد إلى أرذل العمر، وكنتم لا تعلمون شيئًا، ولا تقدرون على شيء، حتى كبرتم واستغنيتم.

﴿□□□□□□﴾ وهذه الثلاثة: ﴿□□□□﴾ هي: وسائل المعرفة، وهي أدوات حسية ملموسة قائمة، كما قال سبحانه: ﴿□□□□□□□□□□﴾ [الإسراء: 36]، وبها

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 179- 180)، و«تفسير القرطبي» (18/ 219)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 181).

يهتدي الإنسان إلى الحق والإيمان؛ ولذا قال أهل النار- كما تقدَّم-: ﴿□□□□□□□□□□ □□﴾.

ومن أسرار إفراد ﴿□﴾: أن العادة أن الإنسان يسمع شيئًا واحدًا سماع تيقظ وفهم، وإذا تداخلت عنده الأصوات تشوَّش وفقد التركيز، بخلاف العين، فهي ترى أشياء كثيرة وعديدة في وقت واحد وتستوعبها.

﴿□□□﴾ بيان لحال أكثر الناس من قلة الشكر على النعم السابغة، ولو قَضَوْا حياتهم كلها شكرًا لله سبحانه، ما أَدَّوْا حقيقة الشكر، ولكن الله يرضى عن العبد أن يأكلَ الأَكْلةَ فيحمده عليها، أو يشربَ الشربةَ فيحمده عليها[1].

إِذا كان شُكري نعمةَ الله نعمةً *** عليَّ له في مِثلها يَجِبُ الشكرُ

فكيف بلوغُ الشكر إِلَّا بفضله *** وإِن طالت الأيامُ واتصلَ العُمرُ[2]

فالشاكرون من الناس قليل: ﴿□□□□□﴾ [سبأ: 13].

والشكر من هؤلاء الشاكرين قليل في جنب النعم والعطايا.

❊ ﴿□□□□□□□□□﴾:

﴿□﴾ أي: نشركم[3]، وهذا دليل على نشر عظيم متكاثر، فالله تعالى وزَّعكم ونشركم في الأرض التي خلقها لكم، وسخَّرها لكم، وجعلها مذلَّلة معبَّدة ساكنة.

---

(1) كما في «صحيح مسلم» (2734) من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) ينظر: «الشكر» لابن أبي الدنيا (83)، و«الفاضل» للمبرد (ص95)، و«فضيلة الشكر لله» للخرائطي (45)، و«ربيع الأبرار» (5/ 284) منسوبًا إلى محمود بن الحسن الورَّاق.

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (4/ 64)، و«تفسير القرطبي» (18/ 220)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 55).

فمن مجموع الآيتين- هذه الآية وما قبلها- يتحصل أن الله خلق الأرض مزوَّدة بكل مصالح العباد، وخلق الإنسان مزوَّدًا بأدوات المعرفة والاكتشاف، وسلَّطه وجعله سيِّدًا ممكَّنًا في الأرض إلى يوم الوقت المعلوم، وهو الحشر.

﴿□□﴾ تذكير بالغاية العظمى التي لأجلها بُسطت الأرض، وأُسبغت النعم، فالخلق لم يُخلقوا عبثًا، ولم تذلَّل لهم الأرض لأجل أن يعيشوا فيها فحسب، بل ذلك لغاية عظيمة، هي عبادة الله وطاعته، وإعمار الأرض بإقامة شريعته.

❊ ولكنَّ الكافرين لا يريدون أن يذكِّرهم أحد بالآخرة، ويقولون: أكثرتم علينا بذكر الموت والبعث والجزاء والحساب، فمتى هذا؟ ﴿□□□□□□□□□﴾: ولو كانوا يؤمنون به ما سألوا هذا السؤال؛ لأن سؤالهم على سبيل التعجيز والإنكار، وإلا فإن الرجل الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: يا رسولَ الله، متى الساعة؟ كان يسأل سؤال مستفهم مستعلم، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**ما أعددتَ لها؟**». قال: حبَّ الله ورسوله! فقال: «**أنت مع مَن أحببتَ**»[1].

ولا يعلم موعد القيامة إلا الله، ولا فائدة من السؤال، ولا من الجواب؛ لأنه إذا فُرض ضرب موعد، فلن يتم التحقق من صدقه إلا عند حصوله، وعند حصوله ﴿**لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا**﴾ [الأنعام: 158]، ولن يشاهده إلا مَن كان على قيد الحياة آنذاك، فالناس ليسوا بحاجة إلى موعد مضروب، بل إلى إيمان واستعداد وعمل يقوم به الخلق جيلًا بعد جيل، ورعيلًا بعد رعيل.

❊ ﴿□□□□□□□□□□﴾:

(1) أخرجه البخاري (3688، 6171)، ومسلم (2639) من حديث أنس رضي الله عنه.

أي: ليس إليَّ تحديد وقت الساعة ولا أمرها، فلا أحد يعلمها إلا الله، حتى النبي صلى الله عليه وسلم يقول له ربه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: 63]، ويقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالم بها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 187]. فالنبي صلى الله عليه وسلم هنا يقول: لا أدري متى الساعة، فما أنا إلا نذير، مهمتي النِّذارة وإقامة الحجة عليكم والبلاغ، وعبَّر بـ«المبين»؛ إشارة إلى أنه قام بمسؤوليته التي كُلِّفها خير قيام، وهذه شهادة من الله له بالبلاغ والنِّذارة[1].

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ أي: رأوا هذا الأمر الذي ينكرونه ويتساءلون متى يكون، أمام عيونهم مُزْلِفًا قريبًا سِيئَتْ وجوههم[2].

والزُّلْفة هي: الشيء القريب[3]، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: 31]، وقال: ﴿سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [التكوير: 13]، أي: قُربت لأهلها؛ حتى يدخلوها.

والضمير في ﴿أَرَدتُّمُ﴾ يجوز أن يكون المقصود به الموت، أو عذاب يوم بدر، أو العذاب الذي يلحق الكافرين والمشركين والمعاندين.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 49).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 135)، و«تفسير البغوي» (8/ 180)، و«تفسير الرازي» (30/ 596).

(3) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص475)، و«الصحاح» (4/ 1370)، و«تاج العروس» (23/ 400) «ز ل ف».

أو يكون المقصود: الآخرة والبعث، وأنهم إذا حدث هذا الحدث ورَأَوْه زُلْفة سِيئَتْ وجوههم، أي: ضُربت بالسوء[1].

وذكر الوجه؛ لأنه هو الذي تظهر على قسماته المضمرات من المشاعر والانفعالات والمخاوف.

وهذا رد على سؤالهم عن الوعد ومتى هو.. وبيان أن العبرة في صدق الأمر بذاته وحتمية تحقيقه، أما متى، فهو سؤال غير ذي معنى.. حتى لو فرض قيام الجواب عليه؛ لأن المشكِّك إذا رأى الأمر سِيءَ وجهه، ولم يعد أمامه فرصة للعمل.

وقد يكون سؤال ﴿[]﴾ مشعِرًا بالاستبطاء وتأخر الموعد؛ ولذا قال: ﴿إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي: قالت الملائكة لهم: هذا الشيء الذي كنتم به ﴿شَيۡـًٔا﴾ أي: تطلبونه وتستعجلونه[2]، كما في قول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ [المعارج: 1]، وكما حكى الله عنهم: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: 32].

أو يكون معنى ﴿شَيۡـًٔا﴾: تكذِّبون وتشكِّكون[3].

* ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 57)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 331)، و«تفسير القرطبي» (18/ 220)، و«فتح القدير» (5/ 315)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 137)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 62)، و«تفسير البغوي» (8/ 180)، و«الكشاف» (4/ 582- 583)، و«زاد المسير» (4/ 466)، و«تفسير الرازي» (30/ 596- 597)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 394)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 201)، و«تفسير الماوردي» (6/ 57)، والمصادر السابقة.

﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم؛ ليسأل هؤلاء القوم: ﴿بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ﴾ أي: من المؤمنين ﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا﴾ فنحن عَبيده، وهو ربنا، آمنا به، وعليه توكلنا، ولا تشغلوا أنفسكم بنا: ماذا نريد؟ وما نوايانا ومقاصدنا؟ وما مصيرنا؟ لكن أنتم مَن يُجيركم من هذا العذاب الأليم؟ فالخير لكم أن تفكِّروا بأنفسكم ومآلكم.

لأنهم كانوا يقولون: إن نزل عذاب سوف يصيبكم كما يصيبنا، وإن كانت الآخرة، فسيكون لنا ما ليس لكم من الجنات والأنهار والنعيم.

والتقدير: أمرُنا إلى الله سبحانه وتعالى، ونحن عَبيده، وسواء أهلكنا كما تتمنَّون وتدَّعَّون، وتتوعدون، أو رحمنا، كما نأمل ونرجو، فمَن يجيركم أنتم من العذاب الأليم[1]؟

وهذا الردُّ يكشف أن أعداء الحق في كل زمان ومكان ينصرفون عن الموضوع إلى الشخص، ويُعرِضون عن مناقشة الحجج والبينات إلى مهاجمة الرسل وأتباعهم، والتشكيك في تطابق أقوالهم وأعمالهم، أو في حُسن نواياهم، أو مصيرهم وعاقبتهم.

* ﴿٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾:

فنحن آمنا بربنا وتوكلنا عليه، وظننا به ظنًّا حسنًا أنه لن يُهلكنا، ونأمل أن يرحمنا بفضله ورحمته، وهو أرحم الراحمين: ﴿وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤﴾ [المائدة: 84]، لكن أنتم ليس لكم ذلك، ولم يواجههم بالخطاب، فيقول: «فمَن

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 583)، و«تفسير الرازي» (30/ 597)، و«التحرير والتنوير» (29/ 51-53)، والمصادر السابقة.

يجيركم»؟ من باب عدم القطع عليهم بسوء المصير، وفتح باب الرجوع، وحتى لا تتحول الدعوة إلى حلبة صراع، ليس فيه روح الدعوة والهداية، فأنتم أيها المخاطَبون يمكن أن تؤمنوا وتكونوا مع الناجين الفائزين.

وجمع الله بين الإيمان والتوكل؛ إشارة إلى تحقيقهم للعبادة وللعمل والتوكل، وأن التوكل ليس قعودًا ولا نكوصًا ولا نكولًا، وإنما هو العمل، والإيمان من التوكل، والدعاء من التوكل، وعمل الدنيا من التوكل، وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لو أنَّكم تتوكَّلونَ على الله حقَّ توكُّله، لرزقتم كما يرزقُ الطيرَ، تغدُو خِماصًا، وتروحُ بِطانًا**»[1].

فهذه الطير توكَّلت على الله، لكنها لم تقعد في أعشاشها، وإنما غدت وراحت، وبحثت عن الرزق، فرزقها الرزَّاق سبحانه الذي يرزق الحياتَ في جُحُورها، والبشر في بكورها، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهمَّ بارك لأمتي في بُكُورِهَا**»[2]. أي: العمل المبكِّر أول الصباح، بأن تستقبل الحياة بالعمل والإنجاز، وليس بالقعود، فالإسلام دين يأمر بالعمل، ويجعل بذل كل الأسباب من التوكل.

ولأن غالب الناس في الحوار العقائدي يغلبهم الهوى والعصبية، لما ألفوه من ديانة ومعتقد، ناسب أن يجعلهم في مواجهة مع أنفسهم بدل المواجهة مع الداعين،

---

(1) أخرجه الطيالسي (51)، وأحمد (205، 370، 373)، وعبد بن حميد (10)، والترمذي (2344)، وابن ماجه (4164)، وابن أبي الدنيا في «التوكل على الله» (1)، وأبو يعلى (247)، وابن حبان (730)، والحاكم (4/ 318)، والضياء (1/ 334) (228) من حديث عمر رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (310).

(2) أخرجه الطيالسي، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والبيهقي، وغيرهم من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه، وسيأتي تخريجه في «سورة الضحى»: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ وَحَلَٰٓئِلُ﴾.

وترك الأمر للمستقبل الموعود؛ ليعلموا هم بأنفسهم مَن هو الصادق والكاذب، ومن هو الناجي والهالك، فقال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ﴾.

* ﴿فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ﴾:

أي: إذا جفت آباركم، ولم يُنزل الله تعالى المطر من السماء، فمَن الذي يأتيكم بالماء المَعِين؟

والمَعِين: العذب الذي يُرى بالعيون[1].

والأصل أن هذا الماء من السماء، فإذا قحط المطر، وأجدبت الأرض؛ جفَّت الينابيع، وقد حدث شيء من هذا لقريش لما دعا عليهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فأصابتهم سبع سنوات عِجاف شِداد من القحط والجوع وقلة الماء[2].

ذكر الزمخشري عن رجل سماه أنه قُرئت عليه هذه الآية، فقال: «تأتي به الفؤوس والمعاول». يظن أن بذل الأسباب كافٍ في تحقيق المطلوب، فلما أصبح وجد أنه قد ذهب ماء عينه، فعمي، وهذا من مكر الله تعالى بالمستهزئين[3].

وختام السورة يناسب ما سبق من وجوه:

1- التسخير المشهود في الكون للإنسان، وأن الله لو شاء لمنعه وحرمه منه.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 138)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 362)، و«المحرر الوجيز» (5/ 334)، و«تفسير القرطبي» (18/ 222)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 260).

وينظر أيضًا: «العين» (2/ 255)، و«تهذيب اللغة» (3/ 133) «باب العين والنون»، و«لسان العرب» (13/ 410).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (2932)، و«صحيح مسلم» (2798).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 583).

2- أن الدنيا والآخرة من الله وإليه، فبيده المصلحة والهداية والضرُّ والنفع، وهو الذي إن شاء رحم وإن شاء عذَّب، فاعبدوه واشكروا له.

3- الجمع بين التوكل وفعل السبب، فالماء الغائر يحتاج إلى حفر ومعالجة؛ حتى ينبثق ويُرى، ولكن ذلك لا يكفي حتى يوافق عونًا من الله، كما قيل[1]:

إذا لم يكن عون من الله للفتى *** فأول ما يجني عليه اجتهاده

والله أعلم.

❍ ❍ ❍

(1) ينظر: «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (1/ 177)، و«محاضرات الأدباء» (1/ 532)، و«صيد الأفكار» (1/ 90) منسوبًا إلى علي رضي الله عنه.

سورة القلم

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «**سورة** ﴿وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾»، وهو الذي في معظم كتب الحديث والتفسير[1].

وأحيانًا تُختصر، فيقال: «**سورة** ﴿وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ﴾»، بالحرف الأول منها[2].

وهي إحدى ثلاث سور تبدأ بحرف واحد، مع «سورة ﴿صٓ﴾»، و«سورة ﴿قٓ﴾».

وسُمِّيت في بعض المصاحف: «**سورة القلم**»، إلا أنه يلتبس مع «سورة العلق»، التي يسميها البعض: «سورة القلم»؛ لذكر القلم فيها: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾[3].

*** عدد آياتها:** اثنتان وخمسون آية بالاتفاق[4].

*** وهي مكية** بإجماع المفسرين، حكاه ابن عطية[1].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 329)، و«صحيح البخاري» (6/ 159)، و«المستدرك» (2/ 498)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 134)، و«تفسير القرطبي» (18/ 222).

(2) ينظر: «جامع الترمذي» (5/ 424)، و«مجاز القرآن» (2/ 264)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 203).

(3) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (5/ 162)، و«الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص201)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (2/ 342)، و«زاد المسير» (4/ 466)، وما سيأتي في أول «سورة العلق».

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص252).

ونُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما، وجماعة: أن أولها مكيٌّ وآخرها مدنيٌّ[2].

والجمهور على أنها مكية، وهو المناسب لسياقها وموضوعاتها، وقد نزلت في أول البعثة، ونزل قبلها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ﴾ [العلق: 1] يقينًا، وربما «المدثِّر» و«المزمِّل»، فهي الرابعة أو الثالثة في ترتيب النزول[3].

وإذا أردت أن تتدبَّر السورة، فحاول أن تستحضر الفترة التي نزلت فيها، فإنه لم يكن نزل من القرآن في ذلك الوقت إلا الشيء اليسير، وكانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في أولها عُرضة للهمز واللَّمز والأقاويل من كل جانب، يتجرَّأ عليه صناديد الكفر؛ كالوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث بن كَلَدَةَ، والأَخْنس بن شَرِيق، وأبي جَهْل؛ ليرموه بأبشع الألقاب والأوصاف، فينزل القرآن مدافعًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، يوم لم يكن يملك الدفاع عنه أحدٌ من الناس، وقد وضعوا سَلَا الجَزورِ[4] على ظهره وهو يصلِّي[5]، وضربوا أصحابه، بل ضربوه هو صلى الله

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 345).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 59)، و«تفسير القرطبي» (18/ 222)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 261).

(3) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لقتادة (ص52).

(4) السَّلَا: اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية: المشيمة. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (12/ 151).

(5) كما في «صحيح البخاري» (240)، و«صحيح مسلم» (1794) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يصلِّي عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوسٌ، وقد نُحرت جَزورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقومُ إلى سَلَا جَزور بني فلان، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعثَ أَشْقَى القوم فأخذه، فلما سجدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه. قال: فاستضحكوا، وجعلَ بعضُهم يميلُ على بعض، وأنا قائمٌ أنظرُ، لو كانت لي مَنَعَةٌ طرحتُه عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ساجدٌ ما يرفعُ رأسَه، حتى انطلقَ إنسانٌ فأخبرَ فاطمةَ، فجاءت- وهي جُوَيْرِيةٌ- فطرحته عنه، ثم أقبلتْ عليهم تشتِمُهم...».

عليه وسلم، فجاء أبو بكر رضي الله عنه ليدافع عنه، وهو يقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ﴾ [غافر: 28][1].

وينزل جبريل عليه السلام بالوحي إلى النبي المَكْلوم بما يقذفونه به من أقبح الألقاب والصفات؛ ليواسيه بهذه الكلمات الإلهية النورانية ويثبِّت جنانه، وما أشبه الليلة بالبارحة! فالتواصي والإطباق الإعلامي على كلمة سواء في الحملات التشويهية التي يتعرض لها المصلحون، إنما تواجه باستحضار الموقف النبوي، وتلاوة الذكر الحكيم الملائم لها بإيمان وثقة: ﴿نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الحجر: 97- 98].

* ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾:

﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾ حرف من حروف الهجاء، وتنطق: «نون»، وإنما كُتبت: ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ﴾؛ لأن القرآن ليس كتابًا فقط، وإنما هو كتاب وقرآن، كتاب للمكتوب وقرآن للمقروء، فلا بد أن يتواطأ فيه السمع والبصر.

وفي قوله: ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾ إشارة إلى عدة معان[2]:

1- إعجاز القرآن، فهذا الحرف من صدر السورة من جنس ما تنطقون به أيها العرب، وهذا من الإعجاز اللُّغوي الذي تحدَّى اللهُ به أئمة الفصاحة والبلاغة والبيان، فبُهتوا.

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (3856) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص668)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 329)، و«تفسير التستري» (ص174)، و«تفسير الماوردي» (2/ 198)، و«زاد المسير» (4/ 318)، و«الإعجاز البياني للقرآن» (ص162)، و«الموسوعة القرآنية المتخصصة» (1/ 329)، والمصادر الآتية.

2- فيه إشارة إلى أهمية اللغة، وأن من نعمة الله تعالى على العباد أن مكَّنهم من اللغة، وأقدرهم عليها قراءة وكتابة، وجعلها خصيصة لآدم عليه السلام يوم خلقه، أن زوده بالمَلَكات والمهارات اللُّغوية العظيمة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: 1- 4]؛ ولذا تسمى البهائم بالعجماوات؛ لأنها لا تنطق ولا تفصح، أما الإنسان فالله تعالى ميَّزه باللغة، وما يترتب عليها من الفهم والتفاهم والحوار والذوق والمعرفة والعقل والإدراك.

3- فيه تحفيز إلى التعلم والتعليم؛ ولهذا قال بعضهم: إن المقصود بـ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ﴾: الدواة.

وسواء أصح هذا القول أم لم يصح، إلا أن بداية السورة بـ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾، ومثلها:

﴿قٓ﴾، و﴿صٓ﴾، فيها تحفيز إلى القراءة.

وقد بُعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم في أمة أُمِّيَّة، لا تقرأ ولا تكتب ولا تحسب، والعلم كان عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فجاء القرآن في أول ما جاء ليقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ﴾ [العلق: 1]، وثالث ما جاء: ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾، فبداية الوحي متضمِّنة للتأكيد على أهمية القراءة والكتابة والقلم والعلم، فما جاء الإسلام ليربِّيَ الناس على التقليد، ولا على الهوى، ولا على العاطفة المجرَّدة، لكن جاء ليجعل المعرفة من أهم الأسس في الحضارة[1].

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة العلق».

لقد كان من البداهة أن يحارب الإسلام التقليد؛ لأنه عدوه، ولن يؤمن بالتوحيد والرسالة إلا مَن تحرَّر من سطوة العادات والتقاليد وموروثات الآباء والأجداد: ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: 104].

فالإسلام دين العلم، لا يعاديه، ولا يخشى على حصونه منه، ولا يتوجس من العقل والتفكير، فليس في الإسلام أسرار ولا مشكلات، بل هو دين واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، والعلم والمعرفة والعقل والفهم كلها أدوات تعزِّز الإيمان، إذا استخدمت بالطريقة الصحيحة.

وبعض المفسرين يذكرون أن ﴿وَخَلَقْتُكُمْ﴾ هو: الحوت الذي خلقه الله، وجعل الأرض عليه، فيزعمون أن الأرض على ظهر حوت، وبعضهم يقول: ثَوْر[1].

ومن الطريف أنهم يقولون: إن الثَّوْر إذا تعب نقل الأرض من قرنه الأول إلى قرنه الثاني، فيحدث بسبب ذلك الزلزلة[2].

وهذه أخبار إسرائيلية، جرت عادة بعض المفسرين بنقلها، استئناسًا أو حكاية مجردة، من باب ذكر جميع ما قيل في الآية.

ولكن الناس بحاجة إلى تهذيب كتب التفاسير وتنقيتها من هذه الخرافات، وألَّا تساق الأقوال والروايات المضحكة في معاني كلام الله؛ لأن كلام الله مقدَّس، فلا يُنسب إليه ما هو من قَبِيل المحالات والخرافات، وما هو مدعاة للسُّخرية والاستهزاء.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 403)، و«تفسير الطبري» (23/ 140)، و«تفسير الثعلبي» (6/ 238)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (7/ 4612)، و«تفسير البغوي» (8/ 186)، و«تفسير القرطبي» (18/ 223)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 185- 186)، و«تفسير ابن رجب» (1/ 103)، و«الدر المنثور» (14/ 620)، و«فتح القدير» (5/ 318).

(2) ينظر: «المنار المنيف» (ص138).

والعقلاء كلهم- حتى قبل البعثة- يعرفون أن الأرض ليست على قرن ثور أو ظهر حوت، وإنما هي في الفضاء معلقة، وهذا لفظ القرآن: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ﴾ [فاطر: 41]، فليس ثمة ثَوْر ولا حوت، وإنما هي قدرة الله التي تمسك الطير في السماء، وتمسك النجم والشمس والقمر والأرض والأفلاك كلها، والأرض ليست أكبر هذه الأفلاك، وإنما هي جِرْم صغير بالقياس إلى الشمس وغيرها من الأفلاك.

﴿ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾: يُقسم سبحانه بالقلم؛ إشادة به، وتذكيرًا بأهميته، وقد يكون المقصود هنا القلم الذي كتب اللهُ تعالى به مقادير الخلائق، كما في الحديث: «**أولُ ما خلقَ اللهُ القلمَ، ثم قال له: اكْتُب. قال: وما أكتب؟ قال: القدر. فكتبَ ما يكونُ، وما هو كائنٌ إلى أن تقوم الساعة**»[1].

وليس القلم هو أول المخلوقات، لكن أول خَلْقه له، وفي هذا إشارة إلى علم الله تعالى، أو هو القلم الذي يعرفه الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [العلق: 4- 5][2].

والقلم أثره كبير في بناء الحضارات ورقيها، ولو نظرتَ إلى آثار العلم والكتابة والكتب، لوجدتها عظيمة، والأمم التي كانت تستهدف إسقاط غيرها كانت

---

(1) أخرجه الطيالسي (578)، وأحمد (22705، 22707)، وأبو داود (4700)، والترمذي (2155، 3319)، وابن أبي عاصم في «السنة» (103)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص136)، والضياء (8/ 274، 350) (336، 426) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (133، 3136).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 145)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 18)، وما سيأتي في «سورة العلق».

تستهدف ثقافتها، كما فعل التتار بكتب المسلمين في بغداد حين تعمَّدوها بالإتلاف[1]، والنعمة ليست بخلق القلم، أو صناعته فحسب، بل بإلهام الإنسان أن يكتب، وأن يقرأ، وأن يبحث، وأن يتطور، وقد مر القلم بمراحل تطور، ابتداءً بالكتابة، ثم الوسائل الحديثة من الطباعة وغيرها، ولما تردد المسلمون في استخدامها والإفادة منها تخلفوا، ثم جاءت التقنيات الحديثة الإلكترونية التي فتحت للإنسان مجالًا واسعًا لجمع المعرفة وتوظيفها وتنظيمها والاستفادة منها.

وهذا كله ليس إلا ومضةً من مدلول قوله سبحانه: ﴿وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾، سواء كان الذي يسطرونه ما يكتبونه في سطور اللوح المحفوظ، كما قال سبحانه: ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣)﴾ [الطور: 1- 3]، أو ما يكتبه الأنبياء مما يملونه على أتباعهم من الكتب المقدَّسة والوحي الإلهي، كما كان للنبي صلى الله عليه وسلم كُتَّابٌ للوحي، يملي عليهم فيكتبون، أو كان قَسَمًا بكل ما يُكتب؛ إشادة بأهمية الكتابة والتدوين.

وها هي البشرية تتوارث الكتب السماوية وشروحها، إضافة إلى نوادر المؤلفات البشرية التي بقيت بجودتها وتجديدها وإبداعها، ويحسن هنا استذكار القوائم المخصصة لأكثر الكتب طباعة عبر التاريخ الإنساني.

فهو قَسَمٌ بكل ما يُكتب، سواء كتبه أهل السماء، أو أهل الأرض الأقدمون أو المتأخرون، في خير أو شرٍّ، في حقٍّ أو باطل.

* ﴿اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ﴾:

وهنا تناسب رائع، فيقسم اللهُ تعالى بالعلم والمعرفة والقلم واللغة والمعاني الحكيمة على ضلال ما يدَّعيه المشركون من التُّرَّهات، التي لا تستند إلى برهان، ولا

---

(1) ينظر: «تاريخ ابن خلدون» (3/ 663)، و«النجوم الزاهرة» (7/ 51).

إلى علم، ولا إلى هدى، ولا إلى كتاب منير، ويزكِّي عقل النبي صلى الله عليه وسلم وعلمه.

والأمر المقتضِي للقَسَم: أن المشركين لما كفروا بالدعوة، طاروا كل مُطَيَّر، وقالوا كل ما يخطر على بال، مما لا تقبله العقول ولا الأذواق ولا الأخلاق.

ومن ذلك أنهم وصموا محمدًا صلى الله عليه وسلم بهذه الفرية البذيئة، فقالوا- كما سيأتي-: ﴿عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾، وأن هذا الذي يقوله محمد هذيان تمليه عليه الجن، قصدًا إلى صرف الناس عنه وعن دينه، حتى إن بعضهم وضع القطن في أذنيه؛ خشية أن يسمع شيئًا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم؛ لكثرة ما سمع عنه[1].

﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ﴾ أي: بما أنعم الله به عليك، فهي مثل قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ [الحجر: 98]، أي: وأنت متلبِّس بما أنعم به عليك من العلم والمعرفة والوحي والرسالة والفضل[2]، فهو صلى الله عليه وسلم أفضل البشرية كلها بإجماع العقلاء والمنصفين من المؤمنين وغيرهم، وقد فضَّله الله تعالى على جميع ولد آدم[3]، وهو أول مَن يدخل الجنة[4].

---

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (1/ 382)، و«طبقات ابن سعد» (4/ 233- 234)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (3/ 1561- 1562)، و«تاريخ دمشق» (25/ 11- 13)، و«أسد الغابة» (3/ 77)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 345)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، وما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن﴾.

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 187).

(3) كما في «صحيح مسلم» (2278) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أنا سيِّدُ ولد آدمَ يومَ القيامة**».

(4) كما في «مسند أحمد» (12469)، و«صحيح مسلم» (196، 197) من حديث أنس رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1570)، وما سيأتي في «سورة عبس»: ﴿إِلَّا مَا قَدْ ▯﴾.

وهم إنما وصفوه بالجنون بعد الوحي، **فكأن المعنى**: إن هذه الرسالة التي اختصك الله تعالى بها وميَّزك لست فيها بمجنون، وإنما هي نعمة تفضَّل الله بها عليك.

وكان هؤلاء القوم يستكبرون أن يعترفوا بأنه يُوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فيقولون: إن الذي يأتيه الشيطان، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: 210-212].

وليس المقصود هنا مجرد نفي الجنون، بل نفي كل ما لا يليق بمقامه الشريف، والدفاع عن كمال عقله وعلمه وصدقه ومنزلته صلى الله عليه وسلم في جميع المقامات، وكفى بذلك فخرًا.

والرد والنفي هنا جاء بوحي منزَّل؛ لأن الأمر لا يتعلق بمنزلة إنسان عادي، بل هو متعلِّق بصميم الرسالة والإيمان والتوحيد، مثلما نفى الله عن ذاته العلية ما تقوَّله المتجرِّئون من ادِّعاء الصاحبة له والولد والتعب والبخل، وما زيَّنت لهم الشياطين من الكذب، كما قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا﴾ [المؤمنون: 91]، فيكون من كمال إيضاح الرسالة وبيانها وإقامة الحجة أن ينص على نفيها، ويثبت ضدها.

* ﴿نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن﴾:

بُدئت السورة بالتأكيد بالقَسَم، ثم النفي القاطع لدعوى النقص، وهو الجنون، ثم إثبات للفضيلة هنا، مؤكَّدة بـ«إنَّ»، واللام، وبالتنكير الدال على سعة الأجر وعظمته، وأنه يفوق الوصف، ثم تقرير لديمومته دون انقطاع، فالنبي صلى الله عليه وسلم له الأجر في الدنيا وفي الآخرة، وله الرفعة والثواب والجنة والرضوان[1].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 62- 63)، وما تقدم في أول «سورة الملك».

فـ﴿فِي حُجُورِكُم﴾ تحتمل أن هذا الأجر ليس من الناس، فيمنُّون به عليك، ويتبعون ما يقدمونه بالمَنِّ والأَذَى[1]، كما كان الناس يفعلون في الجاهلية، فقد كانوا يمدحون أنفسهم بما تفضَّلوا به على غيرهم، كما قال النابغة[2]:

عليَّ لعمروٍ نعمةٌ بعدَ نعمةٍ *** لوالِده ليستْ بذات عقاربِ

أي: لا يتبعها المَن والأذى والقيل والقال، فالله سبحانه يذكر أنها نعمة من الله، ليس فيها منٌّ ولا أذى، أو أن هذا الأمر غير مقطوع، بل هو أجر دائم[3].

وهذا من الإعجاز بالإخبار بالغيب الذي صار شهادة، فحين نزلت عليه هذه السورة كان أتباعه يعدون على الأصابع، لكننا اليوم نرى مظان هذا الأجر غير المنقطع، فقد دعا صلى الله عليه وسلم إلى الهُدى؛ فله من الأجر مثل أجور مَن تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء[4]، وسَنَّ سُننًا حسنة، فله أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة[5]، ولا أحد من المسلمين يمنّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل المنة لله ورسوله، كما قالت الأنصار عند ما سألهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم[6].

---

(1) ينظر: «فتح القدير» (5/ 319).

(2) ينظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص29)، و«العمدة في محاسن الشعر وآدابه» (2/ 229).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 403)، و«تفسير الطبري» (23/ 149)، و«روح المعاني» (15/ 29)، و«التحرير والتنوير» (29/ 63).

(4) كما في «صحيح مسلم» (2674) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(5) كما في «صحيح مسلم» (1017) من حديث جَرِير رضي الله عنه.

(6) كما في «صحيح البخاري» (4330)، و«صحيح مسلم» (1061) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

فالله تعالى هو الذي مَنَّ علينا أن هدانا للإيمان، وللنبي صلى الله عليه وسلم في أعناقنا مِنن بعد مِنن، بما علَّمنا وأرشدنا، وسنَّ لنا السُّنن، وبيَّن لنا الطرائق، ونصحنا أصدق النصيحة وأكملها وأوفاها، فالمنة لله ورسوله.

وهو غير مقطوع ما بقي في الأرض مَن يقول: الله الله. ولأجر الآخرة خير وأكمل وأوفى، فإن الله تعالى لا يحتاج إلى سبب ليجود ويغدق، وقد وعد نبيه بما هو خير وأبقى، حتى أنه أعظم الناس منزلة، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**ثم سَلُوا اللهَ ليَ الوسيلةَ، فإنها منزلةٌ في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمَن سأل ليَ الوسيلةَ حلَّت له الشفاعةُ**»[1]. فيُشرع عقب كل أذان أن يقول السامع: «**اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامَّة، والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثْهُ مقامًا محمودًا الذي وعدته**»[2].

* ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن﴾:

تأكيد آخر بـ«إنَّ»، وباللام، وبحرف «على»، فلم يقل: «إنك لذو خُلق عظيم»، وإنما قال: ﴿ٱلَّٰتِي﴾، و«على» تعني التمكن، كما تقول: فلان راكب على الفرس، يعني أنه متمكِّن فوقها، فكأن الخلق العظيم شيء مجسَّد، والنبي صلى الله عليه وسلم متمكِّن عليه[3].

إن خُلقه العظيم صلى الله عليه وسلم ليس شيئًا متكلَّفًا مصطنعًا، أو في حال دون حال، كأن يكون على خُلق عظيم في حال الضعف والمسكنة، حيث لا يستطيع شيئًا فوق ذلك، ولهذا يقول الحكماء: «الأخلاق تبين عند القدرة»، ولقد وصفه ربه

---

(1) أخرجه مسلم (384) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) أخرجه البخاري (614) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 63).

بذلك، وهو ما يزال في مكة يعاني ظلم ذوي القربى وإيذاء كفار قريش وسخريتهم، ثم لما نصره الله وتمكَّن من التشفِّي والانتقام يوم فتح مكة قال لمشركي قريش: «**اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ**»[1]. وهكذا كان خُلقه صلى الله عليه وسلم لا يغيِّره اختلاف الأحوال ولا تعاقب الزمان.

إن من الناس مَن ترى أخلاقه في غاية الدَّماثة والحسن، لكنه مع أهله وولده وخدمه سيِّئ الخلق، ضيِّق العَطَن، سريع الغضب، أما هو صلى الله عليه وسلم فكان خير الناس لأهله، يخصف نعله، ويرقِّع ثوبه، ويكون في مهنة أهله[2]، وما ضرب امرأةً ولا خادمًا ولا أحدًا، إلا أن يُقاتلَ في سبيل الله[3]، وكانت المرأة من نسائه ترفع صوتها عليه، وقد تهجره إلى الليل، فما تتغير أخلاقه[4]، وهو بذلك رسم للمؤمنين سبيل التعامل مع أهلهم وذويهم.

ومن الناس مَن يكون على خُلق عظيم مع الموافق من أصحابه وأصدقائه، لكن إذا اختلف مع أحد تغيَّر حاله وتنكَّر ونسي جميله، أما هو صلى الله عليه وسلم فكان

---

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (2/ 411)، و«أخبار مكة» للأزرقي (2/ 122- 123)، و«الأموال» لابن زنجويه (1/ 214)، و«سنن النسائي الكبرى» (11298)، و«مسند أبي يعلى» (6647)، و«تاريخ الطبري» (3/ 60- 61)، و«شرح معاني الآثار» (3/ 325)، و«سنن البيهقي» (9/ 199)، و«زاد المعاد» (3/ 307- 309)، و«البداية والنهاية» (6/ 567- 568)، و«هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم» (158- 185).

(2) كما في «مسند أحمد» (24749، 24903، 26194)، و«صحيح البخاري» (676، 5363)، و«صحيح ابن حبان» (6440)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (671).

(3) كما في «صحيح مسلم» (2328) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأصله في «صحيح البخاري» (3560). وينظر أيضًا: «صحيح البخاري» (2768، 6038، 6911)، و«صحيح مسلم» (2309).

(4) كما في «صحيح البخاري» (2468)، و«صحيح مسلم» (1479) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

عنوان الوفاء، كما في قصة خَدِيجة رضي الله عنها[1]، وكما في شهادته لأبي العاص بن الرَّبيع رضي الله عنه[2]، وفي حفاوته بأصحابه، وتعاهدهم في السفر والحضر، والغنى والفقر، والقوة والضعف، والحياة والموت.

وكان صلى الله عليه وسلم من خُلقه العظيم أن يصبر عليهم حين قالوا عنه: ﴿

﴾.. ﴿ ﴾ ٱلْأُخْتِ ﴾..

﴿ ﴾.. ﴿ٱلَّتِي﴾، بل كان يدعوهم إلى الله ويتحمَّل الأذية، فربه سبحانه يعزِّيه عن ذلك.

وهذا فيه إشارة إلى أن الأخلاق من المعاني التي عظَّمها الإسلام وأولاها اهتمامًا منذ أول البعثة؛ ولهذا كان من خُلقه العظيم صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى الأخلاق، كما قال: «**إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**». وفي رواية: «**لأُتَمِّمَ صالحَ الأخلاق**»[3]، ولما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم قالت: «كَان خُلُقُهُ القرآنَ»[4].

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (3816)، و«صحيح مسلم» (2435) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا ذبح الشاةَ يقولُ: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خَدِيجة**».

(2) كما في «صحيح البخاري» (3110، 3729)، و«صحيح مسلم» (2449) من حديث المِسْور بن مَخْرَمة رضي الله عنهما.

(3) أخرجه أحمد (8952)، والبخاري في «الأدب المفرد» (273)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (13)، والبزار (8949)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (1)، والحاكم (2/ 613)، والبيهقي (10/ 191– 192)، وفي «شعب الإيمان» (7609)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي إسناده اختلاف أشار إليه البيهقي، وقد صحَّحه الحاكم، وابن عبد البر في «التمهيد» (24/ 333– 334)، وفي «الاستذكار» (8/ 280)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (45).

(4) أخرجه أحمد (24601)، ومسلم (746).

ومن الناس مَن قد يتكلم عن الخُلق بلسانه، لكن عند ما تسأل عنه المحيطين به؛ تجدهم يشتكون من فظاظته وغلظته وسرعة غضبه ونَزَقِه وبخله وكذبه، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد زيَّنه الله تعالى بالأمرين معًا، فجاء دينه يحث على معالي الأخلاق، وكان في سلوكه وتطبيقه العملي خير قدوة لذلك.

وفي هذا حجة علينا نحن المسلمين، أن نقتدي به صلى الله عليه وسلم في أخلاقه، كما نقتدي به في صفة صلاته ونسكه، وهذا الخلق العظيم واسع لا يمكن قصره على بعض الأخلاق والأحوال؛ ولهذا يقول ربنا: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحج: 77]، فجزء كبير من الخير يعرفه الناس بالفطرة، ولا يلزم فيه تفصيل وبيان؛ لأنه مما توارثه الخلق من أصول الأخلاق؛ كالكرم والصدق والعفاف والشجاعة والإحسان والوفاء والعدل.

* ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ﴾:

أي: سترى بعينك أو تعلم[1]، ﴿تَكُونُواْ﴾ هم أيضًا ﴿بِهِنَّ فَلَا﴾: سوف ترون أيكم الذي هو مفتون، أنت أم هم؟

وهذا رد على قولهم: ﴿عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ﴾، ولم يقل: «بأيكم المجنون»؛ لأن من معاني الفتنة: الجنون[2]؛ لأنهم يقولون: فلان فتنته الجن، يعني أصابته بالجنون.

وفيها التربية على الذوق والأدب واللُّطف في الرد، حتى على السفهاء والسبَّابين، وكأن الله تعالى لا يريد أن يقول: إنهم مجانين؛ لأنهم سيكونون غير مكلَّفين

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 62)، و«تفسير الرازي» (30/ 602)، و«تفسير القرطبي» (18/ 229)، و«التحرير والتنوير» (29/ 65).

(2) ينظر: «تهذيب اللغة» (14/ 212)، و«الكليات» للكَفَوي (ص692)، و«تاج العروس» (35/ 492) «ف ت ن».

ولا مأمورين ولا منهيين ولا محاسبين ولا ملومين، فالجنون أمر يخرج الإنسان عن تبعة التكليف[1].

والفتنة أصدق وأصح؛ فهي تدل على المعنى الواسع، أي: أيكم الذي وقع في الفتنة والضَّيْر والنقص والهوى والضلال، أنت أم هم؟ وإلا فليسوا هم مجانين، وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ [سبأ: 24]، وكما قال: ﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ □□□□﴾ [العلق: 11- 14]، وقوله في «سورة الملك»: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾، ويسمى بالتنزل للخصم، أي: انتظروا واصبروا وسوف تبصرون، فكأن المعنى ستعلمون بأيكم وقعت الفتنة.

إن مثل هذه السياقات تدرِّب على الهدوء في المجادلة والمناظرة، وعدم اللَّجاج الذي لا يفضي إلى بيان حق ولا دحض باطل، بل هو مجرد انتصار للنفس، ومحاولة إثبات لصواب المتحدِّث وخطأ الآخر؛ ولذا يقال: كسب الأشخاص أهم من كسب المواقف؛ لأن عينك هنا هي على محاولة هداية الخصم دون يأس، وليست على محاولة للتغلب والانتصار عليه.

* ﴿عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا﴾:

---

(1) كما قال صلى الله عليه وسلم: «**رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظَ، وعن الصبيِّ حتى يحتلمَ، وعن المجنون حتى يعقلَ**». أخرجه أبو داود (4403)، والترمذي (1423)، وابن ماجه (2042)، وابن خزيمة (1003)، وابن حبان (143)، والحاكم (1/ 258) من حديث علي رضي الله عنه.

وأخرجه الطيالسي (1485)، وأحمد (24694)، والدارمي (2342)، وأبو داود (4398)، وابن ماجه (2041)، والنسائي (6/ 156)، وابن حبان (142) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وله شواهد كثيرة، وقوَّاه غير واحد. وينظر: «كتاب الحج من شرح بلوغ المرام» (ص66) (ح714).

وفي هذا إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم ومَن معه هم المهتدون، وأن هؤلاء القوم قد ضلوا عن سبيله وما كانوا مهتدين، ولكنها كسابقتها، لا تنصيص فيها على المهتدين ولا على الضالين، بل فيها رد الأمر إلى الله، ولكن التعبير بـ﴿وَحَلَـٰٓئِلُ﴾ يوحي بهذا، والتعبير بالضلال والهدى يؤكِّد أن النزاع ليس بين العقل والجنون، بل بين الخير والشر، والحق والباطل.

* ﴿قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ﴾:

وهذا من دلائل النبوة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقرؤه، ويلقِّن أصحابه نهيَ الله تعالى له وتحذيره من طاعة المكذِّبين، وقد كان الكفار يقولون له: اترك هذه الدعوة، ولا تفنِّد عباداتنا، ولا تنتقد الشرك والوثنية، ونحن نكف عن تعييرك ووصفك بأنك شاعر أو ساحر أو كاهن أو مجنون، ومرة قالوا له: نعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة. فإذا كان الذي تفعله صوابًا نكون أخذنا جزءًا منه، وإذا كان ما نحن عليه صوابًا تكون قد أخذت شيئًا منه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٍ مَّكَانَ زَوۡجٍ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾ [الكافرون: 1- 3][1]، فالديانة والعبادة والعقيدة ليست قابلة للمساومات والتنازلات، بل هي قضية مبدأ لا يتحول.

* ﴿ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣﴾:

أي: ودَّ كفار مكة أن تسكت فتطاوعهم فيما يريدون، ليسكتوا هم أيضًا عن محاربتك وإيذائك، وفي الآية نهي صريح عن المداهنة.

---

(1) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص467)، و«تفسير البغوي» (8/ 561)، و«تفسير القرطبي» (20/ 225)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 507)، و«الدر المنثور» (15/ 711)، وما سيأتي في «سورة الكافرون»

والمداهنة غير المداراة[1]، فـ«مداراة الناس صدقة»، كما قيل[2]؛ لأنها لا تجاوز حدود المجاملة بما يدرأ شر الطرف الآخر، دون تنازل عن شيء من أصول الدين وقطعياته.

ومعظم الناس قد لا يدركون هذا، فيخلطون بينهما، وربما أغلظوا في القول وأساؤوا في الخُلق، وظنوا هذا من الديانة والقوة والغيرة، وربما فرَّط آخرون وتنازلوا عن حكم شرعي بغير سبب يقتضي ذلك، وداهنوا في دينهم، وظنوا هذا من السياسة الشرعية، في حين أن بينهما فاصلًا واضحًا، والله تعالى لما أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون أوصاهما بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: 44]، وقال: ﴿عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ﴾ [النحل: 125]، فاللُّطف والسماحة والهدوء النفسي والأخلاقي والعبارة الجميلة مداراة حسنة، وسبب لكسب القلوب، وهو من هَدْي الأنبياء عليهم السلام.

والإِدْهان والمُداهنة هي قلب الحق باطلًا، وقلب الباطل حقًّا؛ من أجل رئيس أو وجيه أو متبوع أو مرغوب أو مرهوب.

وثَمَّ درجة ثالثة، وهي باب المصالح والمفاسد؛ كما في عقد الحُدَيْبِيَة الذي لم يكن ادْهانًا، بل تقديرًا صحيحًا للموقف، وتطبيقًا لشرعية الاستطاعة، وهذا الباب شديد الالتباس لدى الناس، وهو يتأثر بالحماس وبالطبع، وبشمولية الرؤية وبكمال التجرد، والله المعين.

---

(1) ينظر: «صحيح ابن حبان» (2/ 218)، و«الغرباء» للآجري (ص78)، و«التوضيح» لابن الملقن (28/ 514)، و«فتح الباري» (10/ 454، 528)، (13/ 52- 53).

(2) ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «السلسلة الضعيفة» (4508).

❊ ﴿□□□□□□﴾:

هذا تأكيد للمعنى الأول: ﴿قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّ﴾ [القلم: 8]؛ ليبيِّن شناعة ما هم عليه، فوصفهم بعشر صفات.

والآيات قيل: نزلت في الأَخْنس بن شَرِيق، **وقيل**: في الأسود بن عبد يغوث، **وقيل**: في أبي جهل، **وقيل**: في الوليد بن المغيرة[1]، وعلى كلٍّ فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

ومن صفات كل واحد من هؤلاء المعاندين المستكبرين أنه ﴿□﴾ كثير الحلف، بالحق وبالباطل، وبمناسبة وبغير مناسبة، وهذا دليل على عدم تعظيمه للحلف؛ لما في قلبه من الفجور، ويكشف عن شعوره بأن الناس لا يصدقونه، فيكثر من الحلف؛ ولهذا ذُكر من معاني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [البقرة: 224]: أي: لا تجعلوا اليمين مبتذلة في حق وباطل، **وقيل**: لا تستكثروا من اليمين بالله؛ فإنه أهيب لقلوبكم؛ ولذا قال: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ﴾. وكانت العرب تمتدح بقلة الأيمان، حتى قال قائلهم[2]:

قليلُ الألَايا حافظٌ ليمينه ❊❊❊ وإِنْ صدرتْ منه الأَلِيَّةُ بَرَّتْ

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (3/ 572)، (23/ 160)، و«تفسير الماوردي» (6/ 63)، و«الكشاف» (4/ 587)، و«تفسير القرطبي» (18/ 231)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 193)، و«فتح القدير» (5/ 323)، و«التحرير والتنوير» (29/ 71).

(2) ينظر: «أنساب الأشراف» (6/ 333)، (8/ 124)، و«حلية الأولياء» (5/ 321)، و«تاج العروس» (37/ 94) «أ ل و» منسوبًا إلى كثير بن عبد الرحمن الخزاعي.

وفي ذلك تعظيم للعهد والميثاق والحلف عند الصادقين المؤمنين، بخلاف مروِّجي الأكاذيب بالادِّعاء والحلف المزيَّف[1].

و﴿□﴾: من المهانة، وهي الحقارة، فالصفة الثانية كونه مهينًا حقيرًا في نفسه وضيعًا لا شأن له:

وما المَرءُ إِلَّا حيثُ يجعلُ نفسَه *** ففي صالح الأعمال نفَسَك فاجعلِ

فاهتماماته وانشغالاته رديئة ساقطة، وشخصيته واهية، مطعون في صدقه وأمانته، ولا يعنيه هذا؛ لأنه استمرأ المهانة وتقبل الإهانة.

* ﴿□□□□﴾:

والهمَّاز: الذي يكثر من همز الناس، أي: يعيبهم، فلا يكاد يمر عليه أحدٌ إلا لمزه بلسانه أو بإشارته أو تقاسيم وجهه.

وأصل الهمز بالأعضاء؛ باليد أو الرِّجْل أو اللِّسان، والغرض من ذلك أذية الآخرين، وعيبهم بأي طريقة كانت[2].

ولا شك أن هذا الفعل الذميم متضمِّن للكِبر، فمن الكِبر احتقار الناس، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**الكِبرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس**»[3].

ويدخل فيه الهمس بالعيب والتنقص؛ لأنه لا يجرؤ على الإعلان بذلك لحقارته، فيجعله سرًّا بينه وبين جليسه، وهو مستعد للإنكار والنفي والحلف على ذلك إذا سُئل!

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (3/ 97)، وما تقدم في «سورة المجادلة»: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾.

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 192)، و«زاد المسير» (4/ 321)، و«فتح القدير» (5/ 320).

(3) أخرجه مسلم (91) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وهو يحاول أن يفسد العلاقة الاجتماعية بين الناس، فقوله: ﴿□﴾ يعني كثير المشي بالنَّمِيمة، وهي: «**القالة بين الناس**»[1]، ينقل كلام هذا في هذا، وكلام هذا في هذا، على سبيل الوقيعة.

وهو يغتاب الناس، وقد قال الله: ﴿**وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ**﴾ [الحجرات: 12]، ويخرج الغيبة بمخارج ومسوِّغات باطلة، ويمشي بالنميمة، فيفسد ما بين الناس من الوُدِّ وحسن الصحبة.

والتعبير بـ﴿□﴾ يدل على كثرة ذلك منه، حتى أصبح كأنه عادة له بكثرة التكرار توصم به شخصيته الخاوية، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الذي يعذَّب في قبره: «**فكان يمشي بالنَّمِيمة**»[2]. وقال أيضًا: «**لا يدخلُ الجنَّةَ قتَّاتٌ**»[3]. أي: نَمَّام[4].

❊ ﴿□□□□□﴾:

﴿**مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ**﴾ صيغة مبالغة، فهو شديد المنع[5]، **والخير**: المال، كما في قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ**﴾ [العاديات: 8][6].

---

(1) كما في «صحيح مسلم» (2606) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (1361)، ومسلم (292) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(3) أخرجه البخاري (6056)، ومسلم (105) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(4) كما في رواية أخرى للحديث.

(5) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 136)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 31)، و«التحرير والتنوير» (29/ 73).

(6) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 452)، و«تفسير البغوي» (8/ 509)، وما سيأتي في «سورة العاديات».

وهنا لم يصفه بالبخل؛ لأن البخل يتفاوت، لكن حينما يصفه بأنه ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، فهذا يعني شدة بخله، حتى لكأنما وضع على الخير أبوابًا موصدة، فلا يصل من خيره إلى الناس شيء.

بل في الوصف ما هو أشد، فهو يمنع الخير من نفسه ومن غيره، فلو وجد إنسانًا يريد أن يتصدَّق أو ينفق، لحاول أن يصرفه عن ذلك، ويمنعه من المضي في بذل الخير بأنواع المعاذير.

على أن هذا الموصوف بهذا الوصف الذَّميم لم يبخل بماله فحسب، بل هو مَنَّاع لكل خير من مال وغيره، فهو يَحولُ بين الناس وبين الإيمان، ويحاول أن يصدَّهم وأن يصرفهم وأن ينشر قَالةَ السوء عن المؤمنين؛ حتى يمنع الناسَ من الخير.

﴿▯▯﴾: فمن شأنه أن يعتدي على الناس، ففيه أَثَرة، ونَزَق، وظلم، وطَيْش؛ ولهذا يبغي على الناس بالمال إن كان تاجرًا، وبالعلم إن كان عالًما، وبالديانة إن كان ظاهره التدين، ويبغي عليهم إن كان شريكًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [ص: 24]، وكثيرًا ما يبغي المختلفون بعضهم على بعض، ويتجاوزون حدود العدل والإنصاف والأخلاق؛ ولهذا قال الله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: 7- 9].

فأساس علاقته مع الناس الاعتداء والتجاوز، أما علاقته مع الله، فأساسها الإثم؛ ولهذا قال: ﴿▯﴾، ومَن ارتكب إثمًا يقال له: آثم، مَن أكل الرِّبا فهو آثم، ومن زنا فهو آثم، لكن الله وصفه بأنه ﴿▯﴾ أي: كثير الإثم[1]، وهذا معناه أن الإثم لم يعد مجرد حالات خاصة، فإن المؤمن قد يُخطئ، وقد يعصي، وقد يستزله الشيطان، أو تستزله

---

(1) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (20/ 213)، و«تفسير القاسمي» (9/ 430)، و«التحرير والتنوير» (29/ 74).

النفس الأمَّارة بالسوء، ولكنه سريع الأَوْبَة، لا يقيم، ولا يصر على المعصية، أما هذا، فالإثم مطبوع عليه، حتى أصبح جزءًا من خُلُقه وشخصيته، ودخل فيمَن وصفهم الله بقوله: ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ﴾ [البقرة: 81].

وفي تقديم وَصْفه بأنه ﴿▯﴾ على وصفه بأنه ﴿▯﴾ إشارةٌ إلى عظم شأن حقوق الناس، وأن الدين جاء بحفظ الحقوق والأمر بها، ووعده بأعظم الأجر على أدائها، وتوعَّد بأعظم الوعيد على الإخلال بها، وهذه معانٍ يحتاجها الناس الذين يقرؤون القرآن، فيتعلَّمون أن حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة[1]، وأن من غير المفهوم أن يكون فرد ما أو مجتمع متصفًا بالتدين التعبدي، محافظًا على قرباته، ثم هو يستخف بالحقوق الإنسانية، ويعتدي عليها، ولا يقيم لها وزنًا، ولا يعترف- ولو نظريًّا- بالكثير منها!

❊ ﴿▯▯▯▯▯﴾:

﴿▯﴾- بضم العين والتاء وتشديد اللام-: غليظ الأخلاق[2].

وفي ذلك إشارة إلى أن من علامات التدين والإيمان: الرفق والسماحة، فلا تكن فظًّا ولا غليظًا ولا عبوسًا، بل تواضع وابتسم وطيِّب كلامك.

﴿▯▯﴾ أي: إضافة لما سبق في الآية قبلها من اعتدائه على الناس، وجرأته على حدود الله، فهو غليظ قاسٍ، لا يندَى ولا يلين ولا يتأسف ولا يتراجع، وكأن هذا

---

(1) ينظر: «المنثور في القواعد الفقهية» (2/ 56)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (4/ 241).

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 192)، و«زاد المسير» (4/ 321)، و«تفسير الرازي» (30/ 604)، و«تفسير القرطبي» (18/ 232).

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (11/ 423)، و«تاج العروس» (29/ 425) «ع ت ل».

السياق يفسِّر نمطًا من الطِّباع المرذولة والأخلاق الفاسدة في فِئام من الناس تبين عند الأزمات، فيتسلطون بغير حق، ويهاجمون ويكذبون ويزوِّرون ويمعنون في إجرامهم، بلا تردد ولا ضمير ولا خوف من الله، ولا من عباده، ولا حساب للعواقب!

﴿□﴾: **والزَّنَمة**: قطعة صغيرة من اللحم معلَّقة برقبة الحيوان أو أذنه[1].

ويحتمل أن يكون المعنى: أنه ملحق بقومه، وليس منهم[2].

وقد ورد أن الوليد بن المغيرة ادَّعاه أبوه وعمره ثماني عشرة سنة، أما النضر بن الحارث بن كَلَدَةَ فقد ورد أنه لم يكن من قريش، وإنما كان من ثَقِيف أو غيرها، ثم جاء إليهم وأصبح حَلِيفًا لهم.

وليس المقصود هنا التعيير بالنسب، وإنما معاملته بنقيض ما يدَّعي، فبعدما قطع عنه الفخر بالأخلاق وبالدين، قطع عنه الفخر بالنسب، وقال: إنه ملحق بهؤلاء القوم، وليس منهم أصالةً، فلم يعد له ما يفخر به من أمر الدين ولا من أمر الدنيا.

وجرت العادة أن الملحَق بالقوم وليس منهم أصالة يكون مزايدًا على ما يذهبون إليه، فيكون ملكيًّا أكثر من المَلِك- كما يقال- لأنه يريد بهذا إثبات رسوخه وولائه، أو الحصول على موقع متقدِّم، بسبب حاجة المجموعة التي ينتمي إليها، لسلاطة لسانه وجرأته في مهاجمة الخصوم، وهو أمر يتكرر في حِقَب التاريخ.

❁ ﴿□□□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «لسان العرب» (12/ 275)، و«تاج العروس» (32/ 335) «ز ن م».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 164)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 335)، و«زاد المسير» (4/ 321- 322)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 193).

هذا على سبيل الاستنكار، أن يكفر ويعاند لكونه ذا مال وولد، وقد ورد في قصة الوليد بن المغيرة قوله تعالى: ﴿□□□□□ □□□□□□□﴾ [المدثر: 12- 14]، فبدلًا من أن يشكر كفر[1].

وقد يكون المعنى: أن كفره وإيغاله في الشر والتنقيص من صاحب الرسالة وأتباعه، هو للحفاظ على مكاسبه من المال، وتحقيق الفرص التي يحتاج إليها للمزيد من لُعاعة الدنيا[2] له ولبنيه! ولذا يُوصف المال والولد بأنه فتنة، وكم من عقل رشيد ضل وتجاهل الحق لأجل منصب أو رئاسة أو فرصة تجارية.

❊ ﴿□□□□□□□□﴾:

أي: إذا قُرئ عليه القرآن يكذِّب، ويزعم أن قصصه وأخباره أساطير مأثورة عن السابقين، والوليد هو أول مَن قال: هذا ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [المدثر: 24][3]، وبعد ذلك تلقَّفته عنه أفواه زعماء الكفر والضلالة، فصاروا يقولون: هذه ﴿□﴾، **والأَسَاطير** جمع: أُسطورة، وهي الأُكذوبة، **وقيل**: هي كلمة عربية مأخوذة من السطر والكتابة[4]، أو كلمة رومية معرَّبة[5].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 362)، و«تفسير الطبري» (23/ 421- 422)، وما سيأتي في «سورة المدثر».

(2) أي: الشيء القليل منها.

(3) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 362)، وما سيأتي في «سورة المدثر».

(4) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص37)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص57)، و«إعراب القرآن» للنحاس (2/ 7)، و«تهذيب اللغة» (12/ 229)، و«لسان العرب» (4/ 363) «س ط ر».

(5) ينظر: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (9/ 439)، و«اللباب في علوم الكتاب» (16/ 538)، و«التحرير والتنوير» (29/ 76)، (30/ 198)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا﴾، و«سورة الفيل»: ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن﴾.

* ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ﴾:

أي: سنضع له وَسْمًا مثل ما يُوسم الحيوان، والعادة أن وَسْم الحيوان يكون في أذنه ليُعرف، أما هذا فوَسْمه على الخرطوم، **والخرطوم**: الأنف، وغالبًا ما يُستخدم للحيوان، مثل خرطوم الفيل، **والمقصود** هنا: أنف الإنسان[1].

وذكره هنا مناسب لقوله: ﴿وَإِنۡ﴾، ففيه إشارة إلى غياب الجوانب الإنسانية فيه، وظهور الجوانب البهيمية والحيوانية من جنس الشَّرَه في الأكل والشرب، والعدوانية، وتميزه عنها بإرادة الشر ومنع الخير والتسلط على الناس، فهذه صفات بارزة فيه.

وقد حدث هذا يوم بدر، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن صاحب هذه الآية ضربه المسلمون يوم بدر على أنفه، فكان وَسْمًا فيه إلى أن مات، وأصبح الناسُ يعرفونه به[2].

وهذا مناسب لسياق الوعد، فإنه لم يكن وقت نزول الآية موسومًا، بل توعَّده الله بذلك.

قصة أصحاب الجنة:

بعد المواجهة مع الملأ المشركين المتمرِّدين العُتاة، ينتقل السياق إلى قصة لم تُذكر في غير هذه السورة، وقد ضربها الله مثلًا لزعماء قريش، كما سيضرب المثل بصاحب الحوت للنبي صلى الله عليه وسلم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 170)، و«تفسير الماوردي» (6/ 66)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 91)، و«تفسير البغوي» (8/ 194)، و«زاد المسير» (4/ 322)، و«التحرير والتنوير» (29/ 77).
وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص279) «خ ر ط».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 170)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 15)، و«زاد المسير» (4/ 322)، و«تفسير الرازي» (30/ 606)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 195)، و«التحرير والتنوير» (29/ 78)، والمصادر السابقة.

* ﴿مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾:

﴿مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ أي: اختبرناهم بالمال والولد والزرع والإيمان والكفر[1]، ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا﴾: وهذه جنة كانت في اليمن، قريبة من صنعاء، في قرية اسمها: ضَرَوانُ، قيل: كان صاحب البستان رجلًا كريمًا، يعطي الفقراء والمساكين والمحتاجين، وكان له ثلاثة من الولد، فلما تُوفِّيَ تغيَّرت طريقتهم، وقرَّروا أن يمنعوا الفقراء والمساكين حقَّهم؛ فعاقبهم الله تعالى عقابًا عاجلًا، فأحرق جنتهم، فأصبحت كالصَّريم[2].

وَضَرْبُ الله تعالى المثَلَ في هذه القصة إشارة إلى أن أهل مكة إن أصرُّوا على كفرهم وجحودهم، فسوف يصنع الله تعالى بهم كما صنع بأصحاب الجنة[3].

﴿تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾ أي: حلفوا لَيَصْرِمُنَّها صباحًا، وفي آية سابقة قال: ﴿□□□﴾ [القلم: 10]، وهؤلاء أقسموا، وقال في آية سابقة: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ [القلم: 12]، وهؤلاء منعوا الخير، فهنا تشابه، وقد تقاسم هؤلاء الإخوة فيما بينهم على قطع ثمار الجنة ﴿أَ﴾ أي: أول الصباح، قبل أن يأتيهم الفقراء والمساكين؛ قصدًا إلى حرمانهم من ثمارها.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 607)، و«تفسير القرطبي» (18/ 239)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 195).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 406)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 483)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 16)، و«تفسير القشيري» (3/ 619)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 98)، و«تفسير البغوي» (5/ 138)، و«الكشاف» (4/ 590)، و«تفسير الرازي» (30/ 607)، و«تفسير القرطبي» (18/ 239)، و«فتح القدير» (5/ 323).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 175)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 197).

والصِّرام: قطف الثمرة من النخل في موسم معروف[1].

* ﴿بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾:

ما قالوا في قَسَمهم: إن شاء الله؛ لأنهم واثقون بقدرتهم على ذلك، ولم يستثنوا حق الفقراء والمساكين؛ لأنهم قصدوا أن يصرموها أول الصبح؛ حتى لا يعلم بهم أحد[2].

* ﴿٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾:

والطائف غالبًا يأتي بالليل، ومنه يقال: الطَّيْف، يعني الحُلُم الذي يراه الإنسان في المنام، وهذا الطائف نار أحرقتها وهم نائمون، كانوا يظنون الأمور على ما يرام[3].

* ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا﴾:

والصَّريم: الليل المظلم[4]، الذي ليس فيه برق ولا نور، فأصبحت المزرعة كالليل المظلم، وهم لا يعلمون بذلك.

وبين **الصَّرْم**- الذي هو القطف- **والصَّريم**- الذي هو الليل- تناسب لفظي، وفيه تعجيب وسخرية من حالهم وجهلهم وسوء تدبيرهم.

* ﴿غَلِيظٗا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا﴾:

---

(1) بكسر الصاد وفتحها، وأصل المادة الدلالة على القطع، ومنه: الصُّرم والصَّرم، وهو القطيعة. ينظر: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 410)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 287)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 338).

وينظر أيضًا: «مختار الصحاح» (ص175)، و«لسان العرب» (12/ 334) «ص ر م».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 171)، و«تفسير الماوردي» (6/ 67).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 349)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 400)، و«التحرير والتنوير» (29/ 82).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 174)، و«جمهرة اللغة» (2/ 744) «ر ص م».

نادى بعضُهم بعضًا آخر الليل، وكلٌّ واحد يستعجل الآخر: إذا كنتم عازمين على الصِّرام فهيَّا عجِّلوا.

وهذا لا يُقصد به الشرط، وإنما يُقال على سبيل الاستبطاء والحث على التعجيل[1].

والغُدُوُّ: الذهاب المبكِّر في أول النهار[2]، والعادة أن أصحاب المصالح يبادرون إليها؛ ولذا عدَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الغدوةَ في سبيل الله أو الرَّوْحةَ خيرًا من الدنيا وما فيها[3]، وقال: «**كلُّ الناس يغدُو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو موبقُها**»[4]. فرايات المبادر إلى الخير أو الشر تُرفع وتتنافس أول النهار مع أشعة الشمس الأولى أو قبلها، حيث تتجدَّد الحياة في الكون وما يحتويه.

* ﴿قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ﴾:

﴿قَدْ﴾ وهذا يوحي بالسرعة والعجلة، ومع الانطلاق هم ﴿ﯓ﴾ كل واحد يهمس في أذن الثاني[5]، في حين يخبرنا الله العليم بماذا يتخافتون، فعلم بهم أول الأمة وآخرها، القاصي والداني، وأنهم كانوا يقولون: ﴿كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ

---

(1) ينظر: «فتح القدير» (5/ 324)، و«التحرير والتنوير» (29/ 81- 83).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 240)، و«تفسير النسفي» (3/ 522)، و«فتح القدير» (5/ 324). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص603)، و«لسان العرب» (15/ 116)، و«القاموس المحيط» (ص1317) «غ د ا»، و«فتح الباري» (6/ 14).

(3) كما في «صحيح البخاري» (6568) من حديث أنس رضي الله عنه.

(4) أخرجه مسلم (223) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 176)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 208)، و«تفسير البغوي» (8/ 196)، و«فتح القدير» (5/ 324).

سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ أي: لا يدخل عليكم مزرعتكم أو حديقتكم أحد من المساكين، فأَحْكِموا الإغلاق.

* ﴿عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾:

وأقرب معاني الحَرْد هنا: المنع، فهم يظنون أنهم قادرون على أن يمنعوا الفقراء والمساكين، وما كان بينهم وبين الوصول إلى الحديقة إلا يسير.

ومن معاني الحَرْد: الحقد والمقت والغضب، فهم غاضبون على الفقراء والمساكين، ناوون بهم شرًّا[1].

وهكذا هو الإنسان الجحود، يظن أن بيده تدبير الأمور، فهذه أمواله يتصرف فيها ويُعطي ويمنع، وهذه أرضه، وهذا قراره.. فيأتيه الله من حيث لا يحتسب، وغالبًا ما يحمله الغرور على تكرار حماقاته دون اعتبار، وقليلًا ما يفيق ويرعوي ويستغفر ويتوب.

* ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ﴾:

أي: أخطأنا طريق جنتنا[2]، ثم أدركوا أن هذا عقاب الله تعالى لهم، وأنهم قد ضلوا حينما منعوا الفقراء حقهم؛ ولهذا قالوا: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم﴾ أي: أن الله تعالى أراد حرماننا ﴿□ □ □﴾ [النبأ: 26]، و«الجزاء من جنس العمل»، فلما

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 207)، و«زاد المسير» (4/ 323- 324)، و«فتح القدير» (5/ 324)، و«التحرير والتنوير» (29/ 84).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 332)، و«تفسير الطبري» (23/ 180)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 105)، و«تفسير السمعاني» (6/ 25)، والمصادر السابقة.

حرموا الفقراء والمساكين رأوا المصيبة والنكبة، وجرى بينهم حوار أشبه ما يكون بالمراجعة والنقد للنفس والتبكيت لها.

* ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن﴾:

﴿وَأُمَّهَٰتُ﴾ أي: سنًّا، وأعقلهم، وأعدلهم، وأكثرهم إيمانًا، وأفضلهم رأيًا[1]، ويبدو أنه لم يكن على رأيهم، بل كان معترضًا، ولكنه رآهم مصرِّين على ذلك، فوافقهم وانطلق معهم؛ ولهذا كان أسرعهم أَوْبة وإفاقة: ﴿نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ أي: تسبحون الله تعالى فتعطون المساكين حقهم ولا تبخسونهم[2].

* ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟﴾:

سبَّحوا ربهم بعد ما رَأَوْا العاقبة، واعترفوا بذنبهم، وهذا دليل على إيمانهم[3].

* ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟﴾:

واللَّوم درجة وسط دون التوبيخ وفوق العتاب، فأنت تعاتب ثم تلوم ثم توبِّخ، فهم كانوا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ويقولون: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن﴾، لكن هذا التلاوم مفيد؛ لأنه تضمن اعترافًا بمسؤولية كل فرد منهم، وكل واحد منهم يُلْقي

---

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 21)، و«تفسير الماوردي» (6/ 69)، و«تفسير الرازي» (30/ 609)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 182)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 208)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 148)، و«تفسير الماوردي» (6/ 69)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 106)، و«الكشاف» (4/ 591)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 338)، و«تفسير البغوي» (8/ 197)، و«تفسير القرطبي» (18/ 244)، و«التحرير والتنوير» (29/ 87).

باللائمة على نفسه ويقول: أنا كنتُ ظالمًا، أما التلاوم غير المفيد فهو التلاوم الذي يُقصد به إلقاء التَّبِعة على الآخرين، وتبرئة النفس من ذلك، والتهرب من المسؤولية.

* ﴿بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾:

آمنوا بالله واعترفوا بالخطأ؛ ولذلك أبدلهم الله تعالى خيرًا منها؛ لأنهم أنابوا[1].

وهي حال قليلة الحدوث، فالغالب هو الإصرار حتى نزول العذاب، كما في قصة صاحب الجنتين في «سورة الكهف»[2].

وسرد هذه القصة بخاتمتها الطيبة الإيجابية فيه عظة وعبرة وزجر وتحذير لا يحمل على اليأس والقنوط.

* ﴿رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾□□□□□□□□□﴾:

يعني: هذا جزء من عذاب الدنيا بذهاب المال[1]، وفيه تعريض أن يصيب الله كفار مكة بعذاب، وإن كانوا في نعمة فارهين، وقد حدث هذا، فلما استكبروا دعا عليهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم وقال: «**اللهمَّ أعنِّي عليهم بسَبْعٍ كسَبْعِ يُوسفَ**»[2].

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 197)، و«الكشاف» (4/ 592)، و«تفسير القرطبي» (18/ 245)، و«فتح القدير» (5/ 326)، و«روح المعاني» (15/ 37)، و«التحرير والتنوير» (29/ 88).

(2) في قوله تعالى: ﴿□□وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾□□□□□□□□□□□﴾.

❊ ﴿□□□□□□□﴾:

بعد أن ذكر جنة الدنيا والمال والبنين ذكر أنه أعدَّ للمتقين ما هو خير من ذلك، وقد كان أولئك القوم يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: نحن خيرٌ منكم في الدنيا، وسوف نكون خيرًا منكم في الآخرة، كما قال صاحب الجنة: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الكهف: 36]، أما أصحاب الجنة فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ [القلم: 32].

فقوله: ﴿□□□□□□﴾ فيه تذكير وبيان أن جنة الآخرة ليست كجنة الدنيا الزائلة التي لا يُؤمن عليها الآفات والطوفان والجفاف[3].

❊ ﴿□□□□﴾:

كلا والله، لا يكون هذا! بل بينهم البون الشاسع ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: 18][4].

❊ ﴿□□□□□﴾:

أي: بأي ميزان، وبأي منطق حكمتم بأنكم سوف تكونون أفضل من المؤمنين في الآخرة؟!

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 183)، و«المحرر الوجيز» (5/ 351)، و«تفسير الرازي» (30/ 610)، و«تفسير القرطبي» (18/ 245)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 197).

(2) أخرجه البخاري (1007، 4774)، ومسلم (2798) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(3) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماءُ». وقد تقدم في «سورة الملك»: ﴿أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 184)، و«تفسير السمعاني» (6/ 27)، و«المحرر الوجيز» (5/ 351)، و«تفسير الرازي» (30/ 611)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 198)، و«فتح القدير» (5/ 327)، و«التحرير والتنوير» (29/ 92).

هذا حكم جائر لا يقوم على اعتبار العمل والإيمان والأخلاق، بل على اعتبار شرف النسب أو السمعة أو المكانة العابرة في الدنيا.

❊ ﴿□□□□□□﴾:

هل بنيتم هذا الحكم على كُتب درستموها، فأوصلتكم إلى هذه الحقيقة؟!

وفي ذلك إشارة إلى أهمية العلم والمعرفة، وأن أي دعوى يدَّعيها الإنسان بدون علم وحجة فهي مردودة عليه، وكما قال صلى الله عليه وسلم: «**لو يُعطَى الناسُ بدَعْواهم، لادَّعى ناسٌ دماءَ رجال وأموالَهم، ولكنَّ اليمينَ على المُدَّعى عليه**»[1].

وهم كانوا أُمِّيِّين، لا كتاب لهم، فمعظم ما وقعوا فيه سببه الجهل والعماية والتقليد الراسخ في عقولهم لموروثهم، وكانوا يعرفون أهل الكتاب، ويعتقدون بفضلهم، ففي الآية تعريض بجهلهم.

فهذا المدَّعِي أنه سيكون في الآخرة أفضل من بلال وعمار وصُهيب رضي الله عنهم، أين يجد البيِّنة على ذلك؟ أله كتاب درس فيه ذلك؟ أله حجة وبرهان؟

❊ ﴿□□□□□□﴾:

يعني: هل هذا الكتاب الذي تدرسون فيه على هواكم، فيه الشيء الذي تختارونه، وفيه أن لكم الجنة والمجد والفضيلة والرفعة، حتى في الآخرة؟

وهذا سخرية منهم، واستضعاف لعقولهم، وكأن هذا الكتاب الذي يدرسونه جعل لهم كل ما يختارونه، كما قال: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل: 62].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

---

(1) أخرجه البخاري (4552)، ومسلم (1711) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا سؤال تهكُّمي، **والمعنى**: هل جاءكم نبيٌّ أو رسولٌ بأَيْمان مغلَّظة من عند الله بعقود وعهود لكم خاصة يا معشر قريش؟!

لقد كانوا يقولون: نحن أهل الحرم وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية وأهل بيت الله، فهل لهم أَيْمان إلى يوم القيامة- وليس فقط في الدنيا- بأن تكون لهم الدنيا، ولهم الخير، حتى يوم القيامة؟!

﴿□□□□﴾ كأن الحكم صار لكم في الدنيا، وصار لكم في الآخرة، في حين أن أحدكم لا يستطيع أن يتحكَّم في نفسه.

ولغة الغالب المتسلِّط المغرور تقول له: إن لك الدنيا وأنت فيها بمَعْزِل عن الهلاك والزوال، وكلما ذهب منك جيل ورث السُّؤْدُد جيل آخر يجدِّد أمرك، وكأنك استثناء من سنن الله ونواميسه في كونه.

وتقول له: إن لك الآخرة أيضًا، خاصة حين ينخدع بزخرف المدح والثناء والإطراء وتسويغ ما يقع منه وإلباسه لبوس العمل الصالح.

وقريش كانت تغتر بقيامها على البيت الحرام وخدمة الحجيج، وترى لها بذلك فضلًا على سائر العرب!

❊ ﴿□□□□□﴾:

أي: اسألهم يا محمد: مَن هو الذي يكون زعيمًا لهم بهذا؟ **والزعيم** هو: القائد أو الكفيل، كما قال: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ﴾ [يوسف: 72][1]، مَن الذي يتكفَّل عن جماعته وقومه بأن يعطيهم هذه الوعود في الدنيا والآخرة؟ لم يكن لهم كتاب يدرسون فيه، ولا عندهم عهود ومواثيق من الله بالغة إلى

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (13/ 253)، (23/ 186)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (7/ 2174)، و«تفسير الماوردي» (3/ 62)، و«تفسير القرطبي» (18/ 247).

يوم القيامة، وما عندهم كفيل يكفل لهم ذلك ويتعهَّد لهم به، فما سر ثقتهم وطمأنينتهم إلى مستقبلهم، وكأنه لا يعنيهم، أم أنهم حاصلون على أمان قاطع؟

* ﴿□□□□□□□□□□﴾:

فهل لهم أحد ينصرهم من الأوثان والأنداد والمعبودين؟

﴿□ □ □ □ □﴾: ليأتوا بهم في الدنيا؛ ليثبتوا هذا الأمر، أو ليأتوا بهم يوم القيامة[1].

إن السياق يحاصرهم بكافة الاحتمالات والوجوه بأسئلة صريحة لا ينتظر منهم إجابتها، بل عليهم أن يواجهوا بها أنفسهم؛ علَّها أن تقودهم إلى الحقيقة.

* ﴿□□□□□□□□□□ ﴾:

﴿□□□□﴾ أي: سوف تبين حقائقهم ومصايرهم في ذلك اليوم العظيم، يوم الشدة العظيمة، والعرب كانوا يعبِّرون عن الشدة بهذا[2]، كما صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: ﴿□□□□﴾: عن شدةٍ[3]، والشاعر يقول[4]:

قد شَمَّرتْ عن ساقها فشُدُّوا *** وجَدَّتِ الحربُ بكم فجِدُّوا

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 186)، و«الكشاف» (4/ 593).

(2) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص89)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص481)، و«إعراب القرآن» للنحاس (5/ 10)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص436) «س ا ق».

(3) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 335)، و«تفسير الطبري» (23/ 196)، و«المستدرك» (2/ 499)، و«تفسير القرطبي» (18/ 249)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (18/ 77)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 199)، و«فتح الباري» (13/ 428).

(4) ينظر: «الكامل في اللغة والأدب» (1/ 298)، و«تاريخ دمشق» (12/ 130)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (21/ 208) منسوبًا إلى الحجَّاج الثقفي.

لأن الناسَ في الشدة يكشفون عن سُوقهم، والمرأة تكشف عن ساقها للخدمة، والرجل يكشف عن ساقه للقتال أو للهرب أو للانشغال عن ستره وملاحظته.

وصحَّ من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه ما يوضِّح هذه الشدة؛ ففي «الصحيحين»، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يكشفُ ربُّنا عن ساقه، فيسجدُ له كلُّ مؤمن ومؤمنة، فيبقى كلُّ مَن كان يسجدُ في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهبُ ليسجدَ، فيعودُ ظهره طبقًا واحدًا**»[1].

﴿□□□﴾ حين يتجلَّى ربنا سبحانه، ﴿□□﴾ لا يملكون السجود في ذلك اليوم، وهم يخاطَبون الآن حيث يستطيعون، وبمقدورهم أَلَّا يكونوا من أهل ذلك الموقِف العصيب.

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾:

هذا خشوع اضطراري بسبب الانتكاسة التي يشعرون بها، والذِّلة التي تغشاهم من كل مكان، وقد كانوا في الدنيا سالمين، أصحاء الأبدان، أقوياء الأجسام، الواحد منهم عُتُلٌّ طويل عريض، فيستكبرون عن السجود، أما الآن فهم يريدونه فلا يمكنون منه[2].

* ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ﴾:

---

(1) أخرجه البخاري (4919، 7439)، ومسلم (183).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 353)، و«تفسير الرازي» (30/ 615)، و«تفسير القرطبي» (18/ 250)، و«فتح القدير» (5/ 329)، و«التحرير والتنوير» (29/ 99).

أي: اتركني معهم، واتركهم لي، ولا تحمل لهم همًّا، ولا تقلق منهم، ولا تدخل معهم في شيء، دعني وإياهم.

وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتطمين له بأن يمضي في دعوته ويصبر، وفيه تهديد ووعيد شديد لهم؛ لأن الله عز وجل صاحب القدرة التامة والعلم والملك يتوعدهم بأنه لهم بالمرصاد وإن أمهلهم[1].

والمقصود بـ﴿هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: القرآن، أو حديث الآخرة والغيب والجنة والنار[2].

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾: وفي هذا وعيد شديد، والاستدراج أن تُنزل عدوك درجة بعد درجة، فتتدرَّج معه، وتمهله وفق خطة محكمة يقع في نهايتها في الفخ أو المصيدة بعدما ظن أنه فاز أو نجا!

ومن أي طريق سيستدرجهم؟ من الجهة التي لا يعلمونها ولا يدركونها، مثل مَن يتوقع أن يأتيه العدو من هذه الجهة، وعنده يقين بذلك، فيفاجأ به وقد خَتَله[3] من الجهة الأخرى التي لم تكن تخطر على باله، ولو كان يعلم لاتَّقى ذلك الاستدراج، لكن إذا كان البلاء سيصيبهم من حيث لا يعلمون، فكيف لهم بتلافيه؟ اللهم ارحمنا ولا تكلنا إلى أنفسنا.

وهذا وإن كان وعيدًا للكفار، إلا أنه يمنع المرء المسلم أن يغتر بعطاء الله، فقد يكون ذلك استدراجًا لا رضًا، كما قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: 55- 56]، فقد يعطيك الله المال والولد والسُّمعة والرئاسة والجاه والمنصب والزوجة والسكن والعافية، فلا تقل: هذه

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 198)، و«الكشاف» (4/ 595)، و«تفسير القرطبي» (18/ 251)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 303)، و«فتح القدير» (5/ 329).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 72)، والمصادر السابقة.

(3) أي: خدعه.

النعم دليل على أن الله راضٍ عني، فالله يقول: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾، حتى العلم بالشريعة أو التعبد والصلاح قد يكون استدراجًا، إن لم يصاحبه صدق إيمان وخضوع وانكسار وتواضع لله.

والله يستدرج الكافرين في الدنيا من حيث لا يعلمون، كما في قصة موسى عليه السلام، فقد نشأ في حِجْر فرعون، وكذلك قريش كادوا للنبي صلى الله عليه وسلم، فأنقذه الله منهم، وحماه وأظهر دعوته.

* ﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا﴾:

الإملاء: الإمهال، ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [الطارق: 17]، وكما قال سبحانه: ﴿نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ [آل عمران: 178]، أي: أمهلهم وأَنْظرهم وأعطِهم الفرصة بعد الفرصة[1].

والمرء من طبعه العجلة في الدعاء وتوقع التغيير ونزول العذاب ونصرة المؤمنين والمظلومين، ولكن الله لا يعجل لعجلة خلقه، ولا يستجيب لرغبات البشر السريعة التي ربما يندمون عليها بعد وقوعها!

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (6/ 200)، و«الكشاف» (2/ 531)، و«المحرر الوجيز» (5/ 353)، و«تفسير القرطبي» (18/ 252).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص777)، و«النهاية» (4/ 363)، و«لسان العرب» (15/ 290) «م ل ا».

﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾: الكيد هنا في مواجهة كيد الكائدين وكفر الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [الطارق: 15- 16]، فكيدي في مقابل كيدهم ومكرهم وتكذيبهم.

وقوله: ﴿مَتِينٌ﴾ يعني: ليس ككيدهم وكيد أنصارهم من الشياطين، فكيدهم ضعيف، كما قال الله: ﴿٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ﴾ [النساء: 76].

ووصفه بأنه ﴿مَتِينٌ﴾ يُوحي بأنه بطيء؛ ولكنه مؤكَّد راسخ عصي على التدارك[1].

* ﴿تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا﴾:

أي: هل أنت تسألهم أجرًا، فتريد منهم أن يعطوك مقابل دعوتك مالًا؟ ﴿فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ أي: يقولون: العطاء ثقيل علينا، هذا هو المَغْرم، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ بالله من المأْثَم والمَغْرَم، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ يا رسولَ الله من المَغْرَم! فقال: «**إنَّ الرجلَ إذا غَرِمَ حدَّث فكذبَ، ووعدَ فأخلفَ**»[2].

وفي هذا دليل على أنهم أصحاب أموال، وفيه تعريض بمنعهم للخير، وحبهم الشديد للمال، فهل تكذيبهم بسبب أنه كان يطلب منهم أجرًا؟ كلا، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ [الأنعام: 90]، ﴿إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ﴾ [الفرقان: 57]، ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ [الشعراء: 109].. وهكذا جواب

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (9/ 192)، والمصادر السابقة.

(2) أخرجه البخاري (2397)، ومسلم (589) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الرسل جميعًا، فالدعوة ليست خاضعة للمساومات المالية، ولا تتطلَّب من المدعوين ضرائب وأموالًا باهظة، بل هي دعوة التطهر والصلاح، والغالب أن أهلها هم الفقراء والضعفاء والمساكين، فهل هؤلاء من الدَّيْن مُثْقَلُون، يقولون: لن ندفع ما يترتب على دعوتك من تبعات واستحقاقات مالية؟!

* ﴿قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾:

فيعلمون كل شيء، ويطَّلِعون على الغيب وينقلون منه، ليس الأمر كذلك، فهم لا يعلمون، ولا يكتبون، ولا يقرؤون!

والنبيُّ صلى الله عليه وسلم نفسه لا يعلم الغيب، فهل عندهم من الغيب ما ليس عنده؟!

* ﴿وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ﴾:

كما ذكر الله تعالى قصة أصحاب الجنة مَثَلًا لقريش، وتهديدًا لهم بأنهم إن كفروا سيعذِّبهم؛ ذكر لنبيه صلى الله عليه وسلم قصة ذي النُّون[1].

والمقصود بقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾: لقضائه وقدره[2]، وإن كان الحكم يشمل أيضًا الأمر الشرعي، فالله يكتب ما يشاء، ويعجِّل ما يشاء، ويؤجِّل ما يشاء؛ فاصبر لحكم الله بالمرض والصحة، والقوة والضعف، والغنى والفقر، فلا بد من الصبر على القَدَر، واصبر لحكم الله الشرعي، فإذا أمرك الله بالصلاة فَصَلِّ، وإذا أمرك بالإعراض

---

(1) النُّون: الحوت.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 199)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 486)، و«التحرير والتنوير» (29/ 104).

فأعرِضْ، وإذا أمرك بالهجر فاهجرْ هجرًا جميلًا، وإذا أمرك بالصبر فاصبر صبرًا جميلًا.

﴿٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ أي: فلا يقع منك ما وقع لصاحب الحوت، وهو يُونس عليه السلام، وكان في العراق في نِينَوَى[1]، فضاق ذَرْعًا بقومه: ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي﴾ [الأنبياء: 87]، أي: أن لن نضيِّق عليه، وأنه لا يلزمه دعوة هؤلاء القوم[2]، فخرج مغاضبًا، وركب السفينة، فعطبت وأُلقي في البحر: ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن﴾ [الصافات: 142]، يعني: آتٍ بما يُلام عليه[3].

﴿وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾: نادى ربه: ﴿فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن﴾ [الأنبياء: 87]: ظلمة جوف الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل[4]، وقد رُوي أن الملائكة كانوا يقولون: يا ربَّنا، هذا صوت معروف من مكان غير معروف![5].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (19/ 638)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (6/ 1987)، و«تفسير القرطبي» (8/ 384)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 366)، و«التحرير والتنوير» (11/ 290).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (16/ 378)، و«تفسير الثعلبي» (6/ 302)، و«تفسير الماوردي» (3/ 466)، و«التفسير البسيط» للواحدي (15/ 164)، و«المحرر الوجيز» (4/ 97)، و«زاد المسير» (3/ 209)، و«تفسير القرطبي» (11/ 332)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 366).

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (7/ 60)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 18)، و«التفسير المظهري» (8/ 144)، و«فتح القدير» (4/ 471).

(4) ينظر: «تفسير البغوي» (5/ 351)، و«زاد المسير» (3/ 210)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 367).

(5) ينظر: «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (32)، و«تفسير الطبري» (19/ 628)، و«الدعاء» للطبراني (47)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (1079)، و«الدر المنثور» (10/ 359)، (12/ 474).

والكظم يكون في داخل الإنسان ولا يبوح به، فكان يُونس ضائقًا بما جرى من قومه، وهو أيضًا مكظوم في بطن الحوت بما صار إليه الأمر، نادمٌ على ما جرى منه، عالمٌ أنه لا يزيل عنه هذا الكرب إلا الله، كما قال سبحانه عن يعقوب: ﴿□□□□□□ □﴾ [يوسف: 84].

* ﴿ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾:

فقد جعل الله تعالى الحوت يلقيه بالساحل، فأخرجه الحوت، كما في قوله: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن﴾ [الصافات: 143- 144]، فتداركته نعمة الله وعنايته، فسلم من الذم والعقاب، وتحقَّق له الاجتباء وحسن المآب، فعلى الإنسان أن يسبِّح الله إذا عصى مثلما سبَّح أصحابُ الجنة: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ﴾ [الملك: 29]، وكما ألهم الله يُونس عليه السلام التسبيح والاستغفار: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ﴾ [الصافات: 143].

﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾: يعني أتى بما يذم عليه[1]، وهو قد نُبذ بالعراء، ولكنه غير مذموم، فالله تعالى غفر له.

أو أن المعنى: ﴿ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ لبقي في بطن الحوت، كما في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 201)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 486)، و«تفسير الماوردي» (6/ 73- 74)، و«التحرير والتنوير» (29/ 106).

وَأَن ﴾ [الصافات: 144]، ولكن ﴿ٱلۡأُخۡتِ﴾ فأخرجه من بطن الحوت، وأخرجه بعفو ومغفرة.

* ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾:

يعني: أرسله إليهم مرة أخرى، واختاره واصطفاه، فآمن قومه، ومتَّعهم الله إلى حين.

فهي دعوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر، وعدم الاستعجال للمكذِّبين، وتفويض الأمر لرب العالمين، فالأمر منه وإليه، وهو ولي الصالحين بالعاقبة الحسنة، ومتوعِّد المفسدين بالنَّكال، لكن متى؟ وكيف؟ وأين؟ فهذه موكولة إلى الجبار المدبِّر، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: 123].

وقد يقع كثيرًا للمصلحين والغيورين استبطاء التغيير والفرج، والانزعاج من تقلب الظالمين في البلاد، وتَلَعُّبهم بالعباد، ويرون أنهم يدعون ويدعون، ولا يُستجاب لهم، وفي مثل هذا السياق قوله تعالى: ﴿□□﴾ [الأنعام: 35].

* ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾:

أي: ينظرون إليك نظرًا حديدًا[1]، ويقولون فيك قولًا شديدًا، ويحاولون أن يؤثِّروا في دعوتك، وأن يجعلوك تنزلق عن الطريق وتنحرف ولو قليلًا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: 74].

وقال قبل: ﴿ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ [القلم: 9].

---

(1) من الحدة. ينظر: «لسان العرب» (3/ 142)، و«تاج العروس» (8/ 10) «ح د د».

ومن معاني هذه الآية أنهم بشدة نظرهم إليه وحِدَّته يحاولون أن يسقطوه عن الطريق، فلا يدعوه يمشي صلى الله عليه وسلم.

وحمله بعضهم على المعنى الحِسِّي، واستدلوا به على إثبات الإصابة بعين الحاسد[1]، **والأقرب** أن المقصود معنوي.

﴿جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ﴾: وهذا قد نفاه ربه في أول السورة[2]، فأعاد ذكره في آخر السورة؛ توبيخًا لهم، وتعجيبًا منه بعدما ساق في السورة من المعاني والقصص والأمثال ما فيه مقنع للعقلاء.

* ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ﴾:

في صدر السورة أثنى الله على النبي صلى الله عليه وسلم بكمال العقل، وصدق الدعوة، ونفي تهم الأدعياء والأغبياء، وفي آخر السورة قال: ﴿جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ﴾ إشارة إلى أن الأمر بالنسبة للمشركين لم يكن متعلِّقًا بشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما كان متعلِّقًا بهذا القرآن، فمنذ أن سمعوه بدؤوا يشرقون ويغربون ويقولون ما لم يقولوه من قبل، فمشكلتهم ليست مع شخصه، بل مع دعوته التي تسلبهم ملكهم ورياستهم، وتكسر عاداتهم وتقاليدهم الشركية، وتعيد تشكيل عقولهم وأديانهم وعلاقاتهم وعاداتهم، وهي خير لهم عاجلًا وآجلًا، وعز وشرف، ولكنهم لا يفقهون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ □□﴾ [الزخرف: 44].

﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟﴾ فهم يحاصرونه في مكة، ويلاحقونه من بيت إلى بيت، ويقولون: أسلم من بني فلان رجل، وأسلم من بني فلان اثنان،

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 202)، و«تفسير البغوي» (8/ 201).

(2) عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ﴾.

وأسلم أبو بكر، وأسلم علي، وأسلم مصعب. والأمر أعظم وأوسع، فهي رسالة الله للبشر، ومهما حاصروها فهي إلى انتشار وانتصار.

وهذه رابع سورة في القرآن فيها: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ﴾[1]، ففيه أن هذا القرآن سيشرق ويغرب، ويسمع به الناس، ويرتفع صوت الأذان بـ«أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله» في جميع أرجاء الأرض، فلا يبقى في الأرض بيت مَدَرٍ ولا وَبَر إلا أدخل الله تعالى فيه هذا الدين، بعزِّ عزيزٍ، أو بذُلِّ ذليل[2].

وهذه القوة والعزة التي وعد الله تعالى بها تحقَّقت، وهذا من الأجر غير الممنون، فحقَّق الله تعالى ما وعد به رسولَه صلى الله عليه وسلم من الخلود والفلاح والنجاح، ولم يقبضه حتى نزل عليه: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [النصر: 2].

والحمد لله رب العالمين.

❍ ❍ ❍

(1) كما هنا، و«سورة يوسف» (104)، و«سورة ﴿صٓ﴾» (87)، و«سورة التكوير» (27).

(2) كما في حديث تميم الدَّاري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«ليبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَر ولا وَبَر إلا أدخلَهُ الله هذا الدينَ، بعزِّ عزيز أو بذُلِّ ذليل، عزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكفرَ»**. وتقدم تخريجه في «سورة الذاريات»: ﴿□□□□□□ □□﴾.

سورة الحاقة

*** تسمية السورة:**

اسمها عند عامة المفسرين والمحدِّثين والعلماء: «**سورة الحاقة**»[1].

*** عدد آياتها:** اثنتان وخمسون آية[2].

*** وهي مكية** بإجماع العلماء[3].

*** وقد ورد في فضلها** حديث مشهور: «**شَيَّبتني هودٌ، وأخواتها:** ﴿ٱلَّتِيٓ﴾، و﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾، و﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ﴾»[4]. ولا يصح[5].

* ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا﴾:

يستهل ربنا سبحانه هذه السورة العظيمة بقوله: ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ بالمد المثقَّل، فكأن الإنسان عند ما يمد الحاء يرتفع إلى علو شاهق بقدر طاقته، ثم تأتي القاف المشدَّدة،

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص671)، و«تفسير مقاتل» (4/ 413)، و«صحيح البخاري» (6/ 159)، و«جامع الترمذي» (5/ 424)، و«تفسير الطبري» (23/ 205)، و«تفسير القرطبي» (18/ 257)، و«التحرير والتنوير» (29/ 110).

(2) وقيل: إحدى وخمسون آية؛ باعتبار قوله: ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ الأولى ليست رأس آية، واختلف في قوله: ﴿□□□□□﴾ [الحاقة: 26] أيضًا. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص253)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص315)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص310)، و«التحرير والتنوير» (29/ 111).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 356)، و«زاد المسير» (4/ 328)، و«تفسير القرطبي» (18/ 256).

(4) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (5804) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وأكثر طرقه لا تذكر: ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾.

(5) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (1931)، وما تقدم في أول «سورة الواقعة».

فكأنه ينزل بثقل، وكأنك تسمع صوت ارتطام شديد وضربة مُدوية؛ هي: ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾، ﴿بَيۡنَ﴾، ﴿□﴾، ﴿مِنۡهُ﴾، واستفتح تعالى السورة بهذا اللفظ المعبِّر، ولم يبيِّن ما هي ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾، فـ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ وصف لموصوف محذوف، وقد لا يُعرف أول الأمر ما هي.

ومن معناها:

1- أنها مأخوذة من الحقِّ، فهو شيء يحق، أي: يقع؛ ولهذا سماها تعالى بـ﴿ٱلَّٰتِيٓ﴾ فقال: ﴿ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [الواقعة: 1]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا﴾ [الحاقة: 15]، ومنه قوله سبحانه: ﴿□□□□□□□□□﴾ [يس: 70].

2- أنها حقٌّ من حيث إن كمال العدل يقتضي البعث، فيقتص من الظالم للمظلوم، وينتصر للمغلوب الضعيف المستضعف من الغالب المعتدي.

فهي حق بمقتضى العدل والحكمة الإلهية التي قد لا تظهر بتمامها في الدنيا.

3- وهي حقٌّ؛ لأن الله يحق فيها الحق، ويبطل فيها الباطل، ففي الدنيا جدل كثير وأسئلة ومنازعات وخصومات، وكل أمة قد زُيِّن لها عملها، كما قال: ﴿ۆزَيَّنَّالِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: 108].

ومن حكمة الله أن جعلها كذلك؛ لأن هذه المنافسات من أسباب ديمومة الحياة وتدافع القوى: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾[1][البقرة: 251].

ومن حكمة الله أن جعل للبشر في هذه الدنيا طرقًا شتى: ﴿□□□□﴾ [الجن: 11]، و«**كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له**»[1]، وأقام على الجميع حجته البالغة التي قد تظهر وقد تخفى، لكنه في الآخرة يحق الحق ويبطل الباطل، وينتصر للحق، ويقيم القسط والميزان.

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 25)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 128- 130)، و«تفسير البغوي» (8/ 204).

وهي ﴿ٱلۡأَخِ﴾، وهي ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾، وهي ﴿مِنۡهُ﴾، وهي ﴿ۗ﴾، وهي ﴿بَيۡنَ﴾، وهي ﴿ٱلَّتِيٓ﴾.

وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمَّى وطوله وتنوعه وكثرة أحداثه، ولا تجد هذا في أسماء ﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾ في القرآن الكريم.

* ﴿مَا قَدۡ سَلَفَ﴾:

وهذه صيغة قرآنية متكرِّرة، مثل قوله: ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنًا﴾ [القارعة: 2]، وهو سؤال تعظيم وترهيب، يذهب بالعقل كل مذهب، ويحرِّك الخيال؛ لتصوُّر معنى ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾، واستحضار أحداثها؛ لأن الإيمان بالآخرة لا يكفي فيه قيام حجة العقل أو الشرع ليكون مؤثِّرًا، بل ينبغي أن يلامس المشاعر والأحاسيس، ويداعب الخيال، وأن يعيش المرء فيه على سبيل التوهم، حتى يصبح كالحقيقة القريبة.

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾:

قال سُفيان بن عُيينة: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يخبره به»[2].

وهذا في الغالب؛ فقد جاءت: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾ ثلاث عشرة مرة، كلها أخبره بها، إِلَّا ما في هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾، وما عداها فقد أخبره بها، وهي:

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (4945، 4949، 7551)، و«صحيح مسلم» (2647- 2649) من حديث علي وجابر وعمران رضي الله عنهم.

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (3/ 45)، و«تفسير الطبري» (23/ 207)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص313)، و«تغليق التعليق» (3/ 204- 205)، و«فتح الباري» (4/ 255)، و«عمدة القاري» (11/ 130)، و«إرشاد الساري» (3/ 430).

في «سورة المدثر»: ﴿قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾، وفي «سورة المرسلات»: ﴿□□□□□□﴾، وفي «سورة الانفطار»: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا﴾، وفي «سورة المطففين»: ﴿إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾، وأيضًا: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ ۦ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، وفي «سورة الطارق»: ﴿زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟﴾، وفي «سورة البلد»: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ﴾، وفي «سورة القدر»: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾، وفي «سورة القارعة»: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾، وأيضًا: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ﴾، وفي «سورة الهمزة»: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ فكلها أخبره عنها، إلا ما في «سورة الحاقة».

أما ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم﴾، فقد جاءت ثلاث مرات: في «سورة الأحزاب»: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾، وفي «سورة الشورى»: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا﴾، وفي «سورة عبس»: ﴿إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ﴾، فلم يخبره فيها صراحة، إلا أنه في الثالثة قد يكون أخبره؛ لأنه قال: ﴿فَلَا

تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ﴾، فهو وإن لم يصرِّح هل هو تزكَّى أم لا، إلَّا أن «لعل» من الله تعالى للتحقيق[1].

والمقصود التعظيم والتهويل، وتوجيه الإنسان إلى أن يسأل: ﴿مَا قَدۡ﴾؛ لأن لغة البشر عادةً تقف عاجزة، وتقصر عن التعبير عن بعض المعاني التي لا نظير لها فيما يرى ويشاهد ويلمس، فالناس يعرفون أشياء؛ لأنهم رأوها بأعينهم، أو بمقايستها بشبيهاتها، أو بالشهود الذين يصفونها، لكن أمر ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ شيء عظيم، فما رَأَوْهُ ولا رَأَوْا مثله، ولا رآه أحد من الناس فيصفه لهم، فإنه من أمر الغيب، وهو أمر بالغ في الهول مبلغًا لا يعلمه إلا الله سبحانه؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ أي: لا تدري ولا أحدٌ يدري[2].

وعادةً ما يرد بعد هذه الصيغة ما يشبه الجواب الذي يزيد الأمر مهابةً وعظمة.

أما إذا جاء اللفظ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ بصيغة المضارع، فإن الأمر يختلف، وقد يدل على نفي العلم، كما في قوله تعالى: ﴿إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ﴾ [عبس: 3]، أي: لست تدري[3]، وعادةً تكون متضمِّنة لإثبات جواب، مثل قوله: ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ وَلَا﴾ [الشورى: 17]، ففيه إشارة إلى أن الساعة قريبة.

* ﴿رَّحِيمًا ٢٣ □□□﴾:

---

(1) باختصار من تتمة «أضواء البيان» (8/ 491– 492)، وينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (5/ 144)، و«فتح الباري» (4/ 255– 256)، و«الإتقان» (2/ 165)، و«التحرير والتنوير» (29/ 114).

(2) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7660)، و«تفسير البغوي» (8/ 204)، و«تفسير القرطبي» (18/ 257)، و«التحرير والتنوير» (29/ 113).

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة عبس».

و﴿مِنۡهُ﴾ هي ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾، لكنه ذكر لها اسمًا آخر؛ زيادة في تهويلها، وملء العقول والأسماع والقلوب بهولها، فلم يقل: «كذَّبت ثمودُ وعادٌ بها»، ولم يقل: بـ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾؛ لأن التكرار إذا زاد على ثلاث فهو غير مستساغ في لغة العرب؛ ولهذا نوَّع سبحانه في اللفظ، فجاء باسم جديد يكشف عن صفة من صفاتها الرَّعيبة، وهو القرع، أي: الضرب بشدة على الأسماع والقلوب[1].

وذكر الله ثمودَ وعادًا؛ لأنها قبائل من العرب العاربة الذين كانوا ثم بادوا، وهم معروفون بمساكنهم القريبة نسبيًّا من مكة في جزيرة العرب، وقد كان العرب يمرون على مساكنهم، فيشاهدون آثارهم القائمة، ولم تغن عنهم قوة أجسامهم وعمارتهم حين جاءهم العذاب، وفي ذلك العبرة والعظة لغيرهم.

وفي ذلك تنبيه لقريش أنكم لستم أكثر منهم عددًا ولا أقوى منهم، فهم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ﴾ [الروم: 9].

وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤﴾ [مريم: 84]، فإن آمنوا وإلا فإن العقاب ينتظرهم.

❁ ﴿□□□□□﴾:

وديار ثمود تقع في الحِجْر، شمال الجزيرة العربية، وهم قوم صالح، وما زالت آثارهم موجودة على الطريق بين الحجاز والشام، وكانت قريش يمرون عليها وهم ذاهبون إلى الشام، ومر بها النبيُّ صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى تبوك[2]، وقد كانوا

---

(1) ينظر: «تفسير القشيري» (3/ 760)، و«تفسير الرازي» (32/ 265)، و«تفسير أبي السعود» (9/ 192)، و«روح البيان» (10/ 499).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (3378، 3380)، و«صحيح مسلم» (2980).

أشداء أقوياء: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [الحجر: 82]، فذكر الله هنا أنهم أُهلكوا ﴿□﴾.

وفي ذلك إشارة ضمنية إلى جريمتهم، وهي الطغيان، والجزاء من جنس العمل؛ فلأنهم طغوا وكفروا وكذَّبوا نبيَّهم صالحًا عليه السلام: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم﴾ [الأعراف: 77]، وفي هذا التحدِّي طغيان ظاهر، فكان عقابهم بـ﴿فَإِن﴾ التي قضت عليهم وأهلكتهم عن بَكْرة أبيهم، وترك الله تعالى بيوتهم وآثارهم عِبْرة تدل عليهم.

وفي عذابهم أقوال أخرى[1].

❋ ﴿□□□□□□□﴾:

﴿□﴾ للتقسيم والتنويع، و﴿□﴾ كانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية[2]، وقد كانت العرب تسمع أخبارهم، وترى آثارهم، وآثار قوم لوط، كما قال تعالى: ﴿سَبِيلًا ۝٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ﴾ [الصافات: 137، 138].

والريح الصَّرْصَر العاتية: الريح الشديدة، التي لا تذر شيئًا أتت عليه إلا جعلته كالرَّميم، **و﴿□﴾ تحتمل عدة معان:**

أنها التي تَصِرُّ، فيُسمع لها صوت، والرياح إذا عصفت بالأبواب والنوافذ يكون لها صوت مخيف وصفير مرعب.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 207- 209)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7660- 7662)، و«تفسير الماوردي» (6/ 76)، و«زاد المسير» (4/ 328)، و«فتح القدير» (5/ 334).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 23)، و«تفسير البغوي» (7/ 262)، و«تفسير القرطبي» (16/ 204)، و«في ظلال القرآن» (4/ 1895)، و«التحرير والتنوير» (26/ 45).

أو أنها الريح الباردة، زيادة على شدتها التي تحدث صوتًا[1]، واجتماع هاتين الصفتين يجعلها أكثر شدة وقسوة؛ ولذلك كانت العرب تقول: «الريح الصِّر تهلك الحرث والنَّسْل»، كما قال سبحانه: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾ [آل عمران: 117].

وكان العربي[2] يقول لغلامه:

أَوْقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قرُّ *** والرِّيحُ يا واقدُ ريحٌ صِرُّ

علَّ يرى نارَك مَن يمرُّ *** إن جَلَبَتْ ضيفًا فأنت حُرُّ

ووصفها بكونها ﴿□﴾ أي: بالغة في الشدة مبلغها[3]، وهو مناسب لحال القول، فإنهم عَتَوْا عن أمر ربهم، فعُذِّبوا بالريح العاتية.

* ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿□ □﴾: الأصل أن الرِّياح مسخَّرات للناس، ومبشِّرات بالخير والمطر، وفي القرآن مواضع كثيرة يذكر الله تعالى فيها هذا المعنى، لكنه هنا ذكر الرِّيح بالإفراد، وهذا دليل على أنها عَقِيم، كما في قوله: ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ﴾ [الذاريات: 41]، ليست رياحًا يهدِّئُ بعضها بعضًا ويعزِّز بعضها بعضًا، وإنما هي ريح واحدة، وقد رُوي أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا عصفت الريحُ يقول: «**اللهمَّ اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا**». ولا يصح[4]، ولكنه ظاهر في لغة القرآن، فالقرآن

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 166)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 169)، والمصادر السابقة.

(2) تقدم تخريجه في «سورة القمر»: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾.

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 421)، و«تفسير الطبري» (23/ 209)، و«الكشاف» (4/ 599)، و«تفسير القرطبي» (18/ 259)، و«التحرير والتنوير» (29/ 116).

(4) أخرجه أبو يعلى (2456)، والطبراني في «المعجم الكبير» (11533) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (4217).

يذكر ﴿ ﴾ للعذاب، ويذكر ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ في الغالب للرحمة، كما قال: ﴿ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي﴾ [الروم: 46]، فهي بمجموعها مسخَّرة للبشر في الزرع والحرث والمطر والإنبات والتلقيح والتبشير، وأما الريح الواحدة فمسخَّرة للهلاك.

والتعبير بالتسخير فيه سُخرية، مثل التعبير بالتبشير بالعذاب، وبدل أن تكون مسخَّرة لهم صارت مسخَّرة عليهم.

﴿ ﴾: وهنا تحديد مدة العذاب، ومعناه أن الريح بدأت في الصباح وانتهت في الليل؛ ولذلك صارت الأيام أكثر من الليالي.

وأما قوله تعالى: ﴿ ﴾ فهو استعمال قرآني ليس مشهورًا عند العرب، **ومعناه:** أنها متصلة متتابعة غير منقطعة[1]، ومما يعرفه الناس أنه قد تعصف الرياح ثم تسكن ثم تعصف، لكن الأمر بالنسبة لهؤلاء كان متصلًا دون انقطاع أو هدوء أو توقف.

وقد رأينا آثار الدمار المرعب الذي خلَّفه إعصارات كثيرة، مع أنهم كانوا يرصدون حركته ويقدِّرون سرعته، فلم يستطيعوا له دفعًا ولا تحويلًا، وليست هذه الأعاصير في شدتها كالريح التي سُلِّطت على القوم المذكورين.

ومن معناه: أنها قاضية، **والحَسْم:** القضاء، ومنه تسمية السيف بالحُسام؛ لأنه يقطع[2]، فالريح أبادتهم واستأصلتهم، ولم تستثن منهم أحدًا؛ ولهذا قال تعالى هنا: ﴿

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص671)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 338)، و«تفسير الطبري» (23/ 211)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 167)، و«المحرر الوجيز» (5/ 357)، و«التحرير والتنوير» (29/ 117)، وما تقدم في «سورة القمر»: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾.

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 622)، و«تفسير القرطبي» (18/ 259)، والمصادر السابقة.

﴿▯▯▯﴾، وقد يكون الضمير عائدًا إلى أرضهم، أو يكون المقصود في هذه الحادثة العظيمة: فترى القومَ فيها صرعى مجندلين على الأرض.

﴿▯▯▯▯﴾: وفي «سورة القمر»: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾، وتقدَّم أن كل ما كان الفارق فيه بين المفرد والجمع هو تاء التأنيث، فإنه يجوز تذكيره وتأنيثه، مثل: «شجر، وشجرة»، فيُذكَّر باعتبار اللفظ، ويؤنَّث باعتبار المعنى[1].

فقد شبَّههم بالنخل التي اجْتُثت من فوق الأرض، **والعَجُز**: نهاية الشيء[2]، وهو تشبيه مبتكر مرعب، وأصبح الشعراء يستعيرونه في الحوادث العظيمة، ومنه قول يحيى البَرْمَكي للرَّشِيد[3]:

إن البَرَامكةَ الذيـ *** ـن رُمُوا لديك بداهيهْ

صُفْرُ الوجوه عليهمُ *** خِلَعُ المَذَّلة باديهْ

فكأنهم مما بهم *** أعجازُ نخل خاويهْ

فأصبح مثلًا يُضرب، وسبحان الله! كم في ذكر الأعجاز من الإعجاز؛ لأنه أشار إلى اقتلاع النخل من جذوره، وهذا قلَّما يحدث؛ فإن النخلة قد تنكسر في الريح العاصف أو تميل، لكنها لا تنقلع؛ لتجذرها في الأرض، وهذا الأخذ الشديد يذكِّرنا

وينظر أيضًا: «جمهرة اللغة» (1/ 534)، و«الصحاح» (5/ 1899)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص335) «ح س م».

(1) ينظر ما تقدم في «سورة القمر».

(2) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 319)، و«تفسير القرطبي» (18/ 261)، و«التحرير والتنوير» (29/ 118)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «العين» (1/ 215)، و«لسان العرب» (5/ 370) «ع ج ز».

(3) ينظر: «العقد الفريد» (5/ 327)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (22/ 145)، و«سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» (3/ 411).

بقول الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود: 102].

وقد اختلف المفسرون في قوله: ﴿□﴾[1]، **والأقرب** أنها: مقطوعة الرأس، وإذا كانت أصولها قد قُلعت، فأولى أن تكون رؤوسها قد تحطَّمت وقُطِّعت، فأصبحت جذوعًا مجتثة من فوق الأرض خاوية من رؤوسها.

وفي هذا إشارة إلى أن هؤلاء القوم لا ثمرة ولا بركة فيهم، وقد شبَّههم الله بأعجاز النخل الخاوية التي ليس فيها ثمر ولا عُسُب ولا شيء يُنتفع به.

ووجه الشبه بينهم وبين أعجاز النخل الخاوية الطول والثقل، من حيث الشكل وقلة النفع، فهم كانوا مقطوعي الخير والنفع.

* ﴿□□□□□□﴾:

هذا خطاب لغير معيَّن، ممن قرأ؛ ليعتبر وليتذكَّر جزاء مَن طغى وعصى، والعرب كانوا يعرفون ذلك، وفي هذا تلويح لهم وتهديد بالعقاب الإلهي.

إنه عذاب استئصال جاء عليهم عن آخرهم، ولم يترك مُخْبِرًا عنهم.

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ﴾:

ذكر مختصر لـ﴿أَرَدتُّمُ﴾ وقومه، وقصته مفصَّلة في القرآن، وقبل فرعون أمم كثيرة؛ منها: أمة نوح، وإبراهيم، ولوط، وشُعيب عليهم السلام، وقوم عاد، وثمود.

وأما المؤتفكات: فهي التي جاءت بالإفك، وهو: الكذب أو الإجرام[1]، **والأقرب** أن المقصود قوم لوط، فقد ذكرهم الله تعالى في غير موضع بهذا[2].

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 167- 168)، و«تفسير الماوردي» (6/ 78)، و«زاد المسير» (4/ 200)، و«تفسير القرطبي» (18/ 261)، و«فتح القدير» (5/ 335)، و «التحرير والتنوير» (27/ 194)، والمصادر السابقة والآتية.

وهم ثلاث قرى، **وقيل**: أربعون قرية في بلاد الشام، وكانوا يأتون الذكران من العالمين، وجريمتهم الكبرى تكذيب رسالة الرسل، وإمعانهم في الشرك والكفر، فلما دعاهم نبيُّهم إلى الطهارة والتوحيد رفضوهما، بل اعتبروا الطهارة جريمة، فقالوا: ﴿قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النمل: 56]، أي: لا يصلح أن يجلس أناس يتطهَّرون بيننا، وهذا مسخ في الفطرة؛ لأن الفطرة البشرية السليمة تَأْبَى مثل هذا العمل.

وكان لوطٌ عليه السلام يقول لهم: ﴿تَجْمَعُوا بَيْنَ﴾ [الحجر: 71]، أي: انكحوا النساء كما أمركم الله وأحل لكم وشرع، وليس المقصود بناته فقط، وإنما بنات القرية والقبيلة، بأن يتزوجوهن[3]، ولكن الله أخبر عنهم أنهم ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الحجر: 72]، والسَّكْرة: نوع من الإدمان وانتكاس الفطرة، والافتتان بالمتعة العابرة الحرام، وتطلبها مهما كلَّف الأمر، واستحسانها ولو كانت قبيحة[4]؛ لأن الإدمان يفسد الذوق أو يلغيه، ومثل هذه كثير من الحالات الشاذة التي تجد التشجيع والترغيب والقانون الذي يحميها، وفي العالم الغربي شُرِّعت قوانين تسوِّغ الشذوذ، وهذا من مسخ الفطرة والانتكاس.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 215)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 169)، و«تفسير البغوي» (8/ 208)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 209).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 422)، و«تفسير الماوردي» (6/ 78)، و«تفسير الرازي» (30/ 623)، و«تفسير القرطبي» (18/ 262)، و«التحرير والتنوير» (29/ 121)، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (14/ 91)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (6/ 2062)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 337)، و«التحرير والتنوير» (12/ 127).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (14/ 91)، و«الكشاف» (2/ 585)، و«فتح القدير» (3/ 167).

* **والخاطئة**: الفعلة الشَّنِيعة من تكذيب الرسل وسبِّهم ورد دعوتهم، فتعود إلى ما فعله فرعون ومن قبله من الأمم، وما فعله قوم لوط؛ ولذا فسر الخاطئة بما بعدها من عصيانهم لرسول ربهم: ﴿إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾:

و﴿قِنطَارٗا فَلَا﴾ هو: الرسول المرسَل إلى كل قوم من هؤلاء، فإفراد ﴿قِنطَارٗا﴾ أي: رسول لكل جماعة منهم، والإفراد هنا أجمل نظمًا من أن يقال: «فعَصَوْا رُسُلَ ربهم»، لما في إفراد ﴿قِنطَارٗا﴾ من التفنن في صيغ الكَلِم من جمع وإفراد؛ تفاديًا من تتابع ثلاثة جموع؛ لأن صيغ الجمع لا تخلو من ثقل؛ لقلة استعمالها، فأن يأتي بجمع ثم مفرد ثم جمع أجمل في السياق[1].

وفي ذلك إشارة إلى أن الرسل عليهم السلام كأنهم رسولٌ واحد؛ لأنهم جاؤوا برسالة واحدة في حقيقتها؛ ولهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**الأنبياءُ إخوةٌ لعَلَّات**[2]**، أمهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ**»[3]. فأصل الدين هو التوحيد: ﴿مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾ [آل عمران: 19]، وكل الرسل بُعثوا بدين واحد، وهو التوحيد: ﴿كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ [المؤمنون: 32]، ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا﴾ [هود: 2]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء: 105]، ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ﴾ [الشعراء: 160]، ﴿غَلِيظٗا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ﴾ [الشعراء: 141]، ولم يُبعث فيهم إلا رسولٌ واحد، ولما كذَّبوه صاروا في حكم من كذَّب الرسلَ جميعًا.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 121- 122).

(2) **أولاد العلَّات**: الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد. أراد أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (15/ 119).

(3) أخرجه البخاري (3443)، ومسلم (2365) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ أي: مرتفعة شديدة قوية، لا يحتاجون بعدها إلى غيرها[1].

* ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ﴾:

﴿وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾: ارتفع وزاد[2]، **والمقصود** هنا: الطوفان الذي أغرق قوم نوح، وقد يكون عمَّ الأرض كلها؛ ولهذا امتن الله تعالى على الناس الموجودين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم نَجَوْا زمن الطوفان، فهم ومَن بعدهم من ذرية مَن كانوا محمولين في الجارية- وهي السفينة- مع نوح، ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: 3]، أي: من ذرياتهم، حملناكم وأنتم في أصلاب آبائكم.

وعلى هذا فالناس الذين عاشوا على الأرض وامتدوا فيها هم من ذرية نوح، وممن حمل الله تعالى مع نوح عليه السلام[3].

والتعبير بالحَمْل يذكِّر بحمل المرأة بجنينها، وكأن البشرية وُلدت من جديد بعد عصر آدم، وسَلِمت من الانقراض، والتعبير بلفظ ﴿تَأۡخُذُونَهُۥ﴾ يعزِّز هذا؛ فإن لفظ ﴿تَأۡخُذُونَهُۥ﴾ يُطلق على الأنثى.

* ﴿أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا﴾:

﴿أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ﴾ أي: القصة التي سقناها لكم تذكرة وعبرة.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 422)، و«تفسير الطبري» (23/ 218)، و«تفسير الماوردي» (6/ 79)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 210)، و«التحرير والتنوير» (29/ 122).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 345)، و«تفسير الرازي» (30/ 623)، و«تفسير القرطبي» (18/ 263)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 210).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 221)، و«تفسير الرازي» (30/ 623)، و«تفسير القرطبي» (18/ 263)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 210).

فمن الاعتبار: الاعتبار بقصص الأنبياء عليهم السلام، والاعتبار بآيات الله تعالى في الكون وفي النفس، والاعتبار بالتجارب والدروس التي تقع للإنسان أو لغيره؛ ولذا فعمر الإنسان لا يقتصر على السنوات التي عاشها فحسب، وإنما يمتد سنين طويلة مضت أخبره الله عنها خبر الصدق، وسنين طويلة قادمة في الدنيا ثم في الآخرة.

﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم﴾: وفعل: تَعِي، واسم الفاعل: واعٍ، و﴿مِنكُم﴾ لم يرد في القرآن في غير هذا الموضع، وهو اليوم من أكثر الأفعال استخدامًا في الدعوة إلى الفهم والإدراك والاعتبار من جهة، وفي الدعوة إلى الفعل والتصرف الملتزم بالمنهج الشرعي الحق من جهة أخرى.

وكلا الأمرين مراد في الآية:

- فهم قصص السابقين وأسباب هلاكهم.
- الاعتبار بذلك، بفعل الخير المفضي إلى البقاء والمجد والعز، وتجنب ما يؤول إلى الشر والفساد والهلاك.

وعبَّر بالأُذُن؛ حفاوةً بالسماع، وتأكيدًا على الاهتمام بالوعي الذي يبدأ من الأُذُن، ولأن المرء إن غفل عن سماع الحكمة والعبرة، فهو عن تدبرها أغفل؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [ق: 37]، ولأن المقام مقام حديث عن قصص السابقين، ولا سبيل إلى إدراكه ومعرفته إلا بالسماع.

وقوله: ﴿مِنكُم﴾ أي: صاحبة وعي وإدراك وفهم[1]، وفي ذلك إشارة إلى العقول؛ لأن الأُذُن لا تَعِي بذاتها، فالأُذُن هي مجرى للصوت أو السمع، ولكن الوعي هنا هو لمدرك الحس، وهو العقل والفهم والفؤاد.

وفي ذلك دليل على عظيم نعمة الحواس والعقل، وأن من تقدير هذه النعمة الانتفاع بها، وقد حثَّ الإسلام على العقل والتفكر والتدبر والنظر والاعتبار.

* ﴿غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾:

لم يبيِّن مَن الذي نفخ، ولا ما هو ﴿تَنكِحُواْ﴾؛ لأن المقصود وقوع النفخة، والناس غالبًا ما يسألون أسئلة تفصيلية لا تنفعهم كثيرًا، ويغفلون عن المعنى والأثر والاعتبار.

و﴿تَنكِحُواْ﴾ في لغة العرب هو: القَرْن[2]، لكنه ليس كالقَرْن الذي نعرفه في الحيوانات، بل هو شيء غيبي، لا تحيط به عقول البشر.

والنفخات في القرآن ثلاث:

النفخة الأولى: نفخة الفَزَع: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: 87].

النفخة الثانية: نفخة الصَّعْق: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا﴾ [الزمر: 68]، فالناس كلهم يصعقون ويموتون.

والنفخة الثالثة: نفخة البعث: ﴿بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾ [الزمر: 68].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 263)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 405)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 210)، و«التحرير والتنوير» (29/ 122).

(2) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (1/ 416)، و«تاج العروس» (12/ 362) «ص و ر».

وقيل: هما نفختان، والذي ينفخ هو: إسرافيل عليه السلام[1].

وبعضهم يقول: ﴿نَكِحُواْ﴾ جمع: صورة، أي: في صور الناس، وهذا من نتيجة النفخ في الصور، فإنه إذا نفخ في الصور المرة الأولى خرب الكون كله وتهدَّم بإذن خالقه ومنشئه[2].

وأما النفخة الثانية، فهي التي يقوم فيها الناس لرب العالمين، وتذهب كلُّ روح إلى جسدها وصورتها.

وهنا تساؤل: كيف نجمع بين الآيات التي تدل على حصول نفختين أو ثلاث، وبين هذه الآية التي تنص على ﴿مَا نَكَحَ﴾؟

والجواب: ليس المقصود أنه لا يكون بعدها نفخة أخرى، إذ إن الأمر لا يستدعي أكثر من نفخة لتحقيق المراد، فالواحدة تكفي لهذا، فإذا نفخ في الصور حصل الدمار الذي يريده الله سبحانه وتعالى، فهي واحدة في وقتها لا تحتاج إلى تكرار، وفيه إشارة إلى ضخامتها وعظمتها وهولها[3].

والنفخة الثانية هي أيضًا نفخة واحدة يقوم فيها الناس لرب العالمين، والأمر لا يتطلب التكرار.

* ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾:

والإخبار هنا بدكِّ الأرض يوافق ما جاء في قول الله تعالى: ﴿أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [المزمل: 14]، وما جاء في «سورة القارعة» من وصف

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (9/ 339)، و«تفسير الماتريدي» (8/ 707)، و«المحرر الوجيز» (4/ 272)، و«روح المعاني» (12/ 283)، و«التحرير والتنوير» (29/ 124).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (3/ 313)، و«تفسير الماوردي» (4/ 229).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 601)، و«روح البيان» (10/ 137).

الجبال يوم القيامة بأنها ستكون ﴿غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا﴾، وكذلك مما يترتب على دَكِّ الجبال بسطها، فتصبح كما قال سبحانه: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ [طه: 106]، وهذا من معاني الدَّكِّ؛ فإن العرب إذا قالوا: هذه الناقة دَكَّاء، أي: ليس لها سَنام، بل ظهرها مستوٍ[1].

ووصفها بأنها ﴿سَبِيلًا﴾ يدل على أن ما جاء في «سورة الفجر»: ﴿□□□□□□□ □﴾، لا يعني التكرار، بل يعني التأكيد والقوة والشدة[2].

* ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾:

أي: حدثت الحادثة الرهيبة، ذات الشأن المهيب، وما كان وعدًا في علم الغيب اليوم، هو واقع يُشاهد بالعيان ويُسمع بالآذان.

* ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾:

فهذه السماء المتينة القوية تنشق لهول ذلك اليوم العظيم، فالملائكة فيها نازلون صاعدون في المهمات الجسام والخَطْب الجَلَل.

﴿﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ضعيفة رِخْوة[3]، ليست كعادتها.

* ﴿وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾:

---

(1) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (2/ 324)، و«تاج العروس» (27/ 150) «د ك ك».

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة الفجر».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 225)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 176)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 490)، و«التحرير والتنوير» (29/ 127).

﴿وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾: وليس المقصود مَلَكًا واحدًا، وإنما الملائكة كلهم أو جلّهم، فهو اسم جنس يشمل الجمع[1]، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الكتابُ أكثر من الكتب»[2].

﴿وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ أي: قائمون على بقية أطراف السماء المتشققة، التي ما زالت باقية قائمة[3]، وهو جمع: رجا، أي: ناحية[4].

وقد يكون المقصود ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ أي: على أرجاء الأرض وأرجاء الكون[5]، فحتى الملائكة في أمر عظيم، لا يتكلمون بسبب المشهد العظيم الرهيب.

﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱلَّتِيٓ﴾: وهنا موعد فصل القضاء، فيأتي الله تعالى لفصل القضاء بين عباده، بما لا تحيط به العقول، ولا تدركه المدارك، ولا يعلم كيف هو سبحانه إلا هو، أما البشر فتأتي في عقولهم خيالات وتصورات وتهيؤات، و«كل ما خطر في بالك، فالله ليس كذلك»، فكل خيال يعرض فهو مجافٍ للحقيقة، ولا سبيل إليه لمعرفتها؛ لأن شأن الله أعظم من أن يحيط به عقل أو يلحقه خيال.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 625)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 406)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (5/ 149)، و«الكشاف» (1/ 331)، و«البحر المحيط في التفسير» (2/ 757)، و«التحرير والتنوير» (29/ 127).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص671)، و«تفسير الطبري» (23/ 227)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 212)، و«روح المعاني» (15/ 51).

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 216)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 176)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص346) «ر ج ا»، و«تفسير الرازي» (30/ 625).

(5) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 81)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 157)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 406)، والمصادر السابقة.

والعرش ورد ذكره في القرآن الكريم نحو عشرين مرة؛ منها: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ [الزمر: 75]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5].

ووُصف بأنه «كريم»، و«عظيم»، و«مجيد»، فهو من الخلق الغيبي الذي لا يقدر قدره إلا الله، ولا تحيط به الظنون، ولا تبلغه الأوهام.

والعرش هنا ﴿ٱلْأُخْتِ﴾، يعني فوق الثمانية الذين يحملونه، وفوق الملائكة الذين هم على أرجائها، وفوق أهل الموقِف والمحشر كلهم، فالله تعالى أعلى من كل علي، وأعظم من كل عظيم.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي﴾ أي: من الملائكة، والله أعلم بصفة كل مَلَك، وفي الحديث: «**أُذِنَ لي أن أحدِّث عن مَلَك من ملائكَة الله من حملة العرش: إِنَّ ما بين شَحْمة أُذُنِهِ إلى عاتِقِهِ مسيرةُ سَبعمئة عامٍ**»[1].

وقوله: «**سَبعمئة عامٍ**» هل هي سبعمئة عام من الأعوام التي نعرفها، أو من الأعوام التي عند الله؟ الله أعلم.

وقد يكونون ثمانية أصناف من الملائكة، أو صفوف، أو طبقات، أو ما شاء الله، كما قال الحسن البصري: «ما أدري: أثمانية أشخاص، أو ثمانية آلاف، أو ثمانية صفوف، أو ثمانية عشرات، أو ما شاء الله»[2]. فالله أعلم.

وقد جاء من شعر عبد الله بن رَواحة رضي الله عنه[3]:

---

(1) أخرجه أبو داود (4727)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (846) من حديث جابر رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (151).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 602)، و«تفسير الرازي» (30/ 626).

(3) ينظر: «تاريخ دمشق» (28/ 112– 113)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 238).

شهدتُ بأنَّ وعدَ الله حقٌّ *** وأَنَّ النـــارَ مثـــوى الكـــافرينا

وأَنَّ العرشَ فوقَ الماءِ طافٍ *** وفـــوقَ العـرش ربُّ العـــالَمينا

وتحملُهُ ملائكةٌ كرامٌ *** ملائكةُ الإِله مُسوِّمينا

وهذا من كلام ابن رَواحة رضي الله عنه، ليس فيه نص نبوي، ولا نص قرآني، والله غني عن خلقه، وغني عن العرش، ولكن هذا مما بيَّنه الله تعالى في كتابه، فنؤمن به كما بيَّنه، ونقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: 285]، ولا نشبِّه الله تعالى بشيء من خلقه، وكل هذه المشاهد الرهيبة المتتالية المقصود بها تحريك قلب الإنسان للتذكر، فينبغي أَلَّا يشتغل عنها بتتبع الإسرائيليات وغرائب المرويات في شأن ذلك وتفصيلاته.

* وأولى من الجدل الطويل حول غيب رمزت له هذه الآيات أن يتساءل القارئ: لماذا هذا العرش يُوضع؟ ومَن المقصود؟ مَن القاضي؟ ومَن المحاكَم؟ ومَن الشهود؟ وما النتيجة المحتملة لهذه المحكمة العادلة؟ وهذا ما وجهت إليه الآيات بعدها: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي﴾:

والخطاب للثقلين، يُعرضون على ربهم سبحانه، ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾؛ لأن الله ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا﴾ [غافر: 19]، فكما لا تخفى عليه منكم في الدنيا خافية، فكذلك في الآخرة[1].

ومن معاني الآية: أن ما كانوا يخفونه في الدنيا يظهره الله تعالى يوم القيامة، عيانًا أو كالعيان، كما قال: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: 16][1].

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿مَا قَدْ سَلَفَ ﴾.

وهنا صار الخطاب لهم جميعًا؛ لأنهم المقصودون بهذا الموقِف، والمجموعون للحساب، بخلاف الآية قبلها المتعلِّقة بذكر العرش وحملته، حيث كان المخاطَب فيها الرسولُ صلى الله عليه وسلم، على ما يقتضيه ظاهر اللفظ: ﴿ٱلۡأَخۡ وَبَنَاتُ﴾.

* ﴿فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ﴾:

﴿فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي﴾ أي: بيده اليمنى، واليمنى هي علامة اليُمْن والبركة والفَأْل، والأمر على ظاهره أن المؤمنين يأخذون كتاب أعمالهم بأيديهم اليمين[2].

﴿دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ﴾: ﴿بِهِنَّ﴾ تنبيه للتأكيد، أي: خذوا! انظروا! اقرؤوا كتابي[3]، يقولها لَمن حوله، وحُقَّ له ذلك؛ لأنه الفوز الأبدي.

وينسى أن كل أحد مشغول بنفسه: ﴿□□□□□□□﴾ [عبس: 37]، وأن المرء يفر من أقرب قريب، ففرحته أنسته ذلك كله، فهو يعرض لهم كتاب نجاحه وفوزه، ويطلب إليهم قراءته، قائلًا: ﴿بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ﴾، غير جاحد رحمة الله وفضله.

* ﴿دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ﴾:

أي: أيقنت، **والظَّن** يُطلق أحيانًا على اليقين[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 177)، و«تفسير الرازي» (30/ 627)، و«التحرير والتنوير» (29/ 129).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 231)، و«تفسير القرطبي» (18/ 269)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 213)، و«التحرير والتنوير» (30/ 222).

(3) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 346)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص850)، و«تفسير البغوي» (8/ 211)، و«تفسير القرطبي» (18/ 269)، و«الكليات» للكَفَوي (ص952)، والمصادر السابقة.

وقوله هذا قد يكون استذكارًا لإيمانه الذي هو سبب نجاته، كما في موضع آخر: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ □□□□□ □□□□□□□□﴾ [الطور: 26- 27]، وهو بيان حسن؛ لأن تأهلهم لرحمة الله كان بسبب أعمال صالحة قدَّموها، ويعزِّزه قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ □□﴾.

* ﴿أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن﴾:

أي: مرضية[2]، ولكن العيشة نفسها راضية، فهي راضية بصاحبها، وصاحبها راض بها، وكأن الرضا انتقل من الشخص نفسه إلى العيشة، والإنسان حين يكون مرفَّهًا في سكنه ووظيفته وصحته وزوجته وأولاده وأموره كلها، يقول: حياتي راضية، أي: في رضا.

* ﴿تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا﴾:

عالية ذاتًا ومكانًا، فهي عالية الصفات والقدر، وفي مكانٍ عالٍ، وهذا من علو أصحابها[3].

* ﴿مَا قَدۡ سَلَفَ﴾:

فمع أنها عالية، إلا أن قطوفها دانية، أي: قريبة المأخذ، مذلَّلة للآكلين[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 232)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 180)، و«التحرير والتنوير» (29/ 131)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿□□□□□□﴾.

وينظر أيضًا: «العين» (8/ 152) «ظ ن»، و«التصاريف لتفسير القرآن» (ص262).

(2) ينظر: «العين» (1/ 137)، و«معاني القرآن» للفراء (2/ 16)، و«تفسير الطبري» (23/ 233)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 355)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص271)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 629)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 261)، و«فتح القدير» (5/ 339)، و«التحرير والتنوير» (29/ 133).

والقَطْف هو ما يطيب من الثمر[2]، فإذا أراد قطفه دنا منه، وأطيب ما يكون المأكل حين يكون الآكل هو الذي اختاره في شجرته، ثم قطفه بيده.

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾:

وهذا أمر تكريم؛ لأن الآخرة ليس فيها تكليف.

وهنا تلحظ انتقال الخطاب من المفرد إلى الجمع، فقد كان السياق حديثًا بضمير الفرد، وهنا قال: ﴿إِنَّ﴾، وكأن كل واحد منهم كان يضيَّف ضيافة خاصة، ويرحَّب به ترحيبًا خاصًّا، والأمر لا يتعلق بفرد بعينه، بل بكل ﴿حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي﴾[3].

والهنيء: الطيِّب الذي لا يخالطه هم ولا غم ولا كَدَر ولا مرض، بخلاف مأكولات الدنيا، فمهما طاب الطعام في الدنيا، فإن التُّخَمة تفسد البطن، وأغلب العلل والأمراض من البطن[4].

والحكم الإلهي لهم بالهناءة بما أسلفوا، هو إشادة بعملهم، ولا شك أنهم دخلوا الجنة برحمة الله، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**لن يُدخلَ أحدًا منكم عملُه الجنةَ**».

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 233)، و«تفسير البغوي» (8/ 211)، و«الكشاف» (4/ 671)، و«زاد المسير» (4/ 378)، والمصادر السابقة، وما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلْتُم﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 233)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 172)، و«تفسير القرطبي» (18/ 270).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 629)، و«التحرير والتنوير» (29/ 134)، والمصادر السابقة والآتية.

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 388)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 491)، و«تفسير القشيري» (3/ 674)، و«الموسوعة القرآنية» (8/ 618).

قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلَّا أن يَتَغَمَّدَنِي اللهُ منه بفضل ورحمة**»[1].

ولكن أعمالهم جعلتهم أهلًا لهذه الرحمة؛ فرحمة الله قريب من المحسنين، وفي ذلك تذكير بالعمل، وأن أهل الجنة دخلوها بسبب أعمالهم، وأهل النار دخلوها بسبب أعمالهم.

فأهل الجنة ذهب عنهم التعب والعناء والجهد، وثبت الأجر، وأهل النار ذهبت عنهم اللذة، وبقي الإثم:

إنَّ أحلى عيشةٍ قضيتها ❁❁❁ ذهبتْ لذاتُها والإثمُ حَلْ[2]

و﴿ٱللَّهَ﴾ تُقال في الدنيا على سبيل الدعاء والتمنِّي والتكريم[3]، لكنها في الجنة تُسمع من الملائكة المقرَّبين الموكَّلين، ومن الولدان، وغيرهم، وهي حكم قاطع من رب العالمين أنهم أفضوا إلى الدار التي لا يمرض أهلها ولا يموتون، ولا تتكدَّر نفسياتهم أو يحزنون، ولا يملون.

❁ ﴿□□□□□□ □□□□□□﴾:

﴿□□□□□□﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [الانشقاق: 10]، وهذا يحتمل أن بعض أهل النار يأخذ كتابه بشماله، وبعضهم يأخذه من وراء ظهره، والمعنى الآخر- وهو الأقوى- أن يجمع بين الآيتين، فيقال: يأخذ الواحد منهم كتابه بشماله من وراء ظهره[4].

---

(1) أخرجه البخاري (5673، 6463، 6467)، ومسلم (2816، 2818) من حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «عون الأطفال شرح لامية ابن الوردي» (ص14).

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص846) «هـ ن أ».

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 239)، و«تفسير البغوي» (8/ 374)، و«تفسير الرازي» (31/ 99)، و«روح البيان» (10/ 378).

﴿□□□□□﴾: فهذا من شؤم عمله الخبيث، وعلامة خيبته وخسرانه، فيقول: ﴿□ □□□﴾: ليتني لم آخذ هذا الكتاب؛ لأنه يشعر بالعار والخزي والخسارة والهوان من حمله لكتاب الفضائح والقبائح حين تبين الأمور وينكشف المستور.

❊ ﴿□□□□□ □□□□﴾:

يا ليتني لم أعرف هذا الحساب ولم أُخلق، وليت الموت كان القاضي عليَّ ولم أُبعث، يا ليتني كنتُ ترابًا مدفونًا في التراب[1].

فلا يطمع في مصير المؤمنين ولا يحلم به: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: 54]، هو يتمنى الخلاص فحسب، أو أن يكون حجرًا أو شجرًا أو عدمًا.

❊ ﴿□□□□□□﴾:

لقد كان ذا مال في الدنيا، ولكن ماله لم يغن عنه شيئًا، بل هو من أسباب إخفاقه واغتراره، وغالب أتباع الأنبياء من الضعفاء والفقراء.

❊ ﴿□□□□﴾:

فقد كان ذا سلطان ورياسة، وجاه ومنصب، لكنها لم تنفعه، ولم يبق منها إلا خبر يتذكره في الموقف الصعب بحسرة وندم.

ومن معاني السلطان: الحجة[1]، فيكون المعنى: ذهبت عني حجتي، فلا حجة لي الآن ولا عذر[2]، كما قال: ﴿بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ﴾ [المرسلات: 35- 36].

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 183)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7683)، و«تفسير الماوردي» (6/ 84)، و«تفسير البغوي» (8/ 212)، و«تفسير الرازي» (30/ 630)، و«فتح القدير» (5/ 340)، و«التحرير والتنوير» (29/ 135).

* ﴿□□□﴾:

وهذا أمر إلهي، ينفَّذ فورًا دون إبطاء ولا تأخير، وهو موجَّه لملائكة ﴿□□□□□ □□□□□□﴾ [التحريم: 6].

ولعله كان يومًا يضع الأغلال في أطراف الضعفاء ويعذِّبهم ويستعلي عليهم، وربما كانت هذه اليد مُنعَّمة محلَّاة بالأساور الثمينة!

وغلُّوه أي: ضعوه في الأغلال، فيُغل من يديه ورجليه[3].

* ﴿□□□□﴾:

﴿□﴾: أدنى دَرَكات النار[4]، أي: ضعوه فيها يصلاها بكل ذرة منه، ولعله كان لا يُطيق حر الشمس، ولا يحتمل لسعة الرَّمْضاء.

* ﴿□□□□□□□□﴾:

إنها سلسلة مرعبة محدَّدة الطول، ذرعها ﴿□□﴾، بذراع لا يعلمه إلا الله، فليس بذراعي ولا ذراعك، ويقال: بذراع المَلَك[5]، وقد يكون العدد هنا غير مقصود، وإنما

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 217)، و«معاني القرآن» للنحاس (1/ 493).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 236)، و«تفسير الماوردي» (6/ 85)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 175)، و«تفسير البغوي» (8/ 212)، و«زاد المسير» (4/ 332)، و«تفسير الرازي» (30/ 630)، و«فتح القدير» (5/ 340).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 272)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 216)، و«التحرير والتنوير» (29/ 137)، و«التيسير في أحاديث التفسير» (6/ 299).

(4) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 382)، و«فتح القدير» (1/ 611).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 238)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 31)، و«المحرر الوجيز» (5/ 361)، و«زاد المسير» (4/ 332)، و«تفسير القرطبي» (18/ 272)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 262)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 216)، و«روح المعاني» (15/ 56).

كان تعبيرًا عن الكثرة، كما في قوله: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 80]. وكثيرًا ما يعبَّر عن الكثرة بعدد السبعين[1].

والأقرب أن العدد هاهنا مقصود؛ لأنه جملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، وفي سياق الوصف، والله أعلم.

والمقصود الاعتبار، فالكافر يُسلك في هذه السلسلة، حتى تحيط به من كل جانب، فلا مطمع له من الخلاص منها؛ لأنه قيَّد نفسه بأغلال الشهوة، أو أغلال التبعية، أو أغلال الهوى، أو أغلال التقليد، أو أغلال المال والسلطان، وغفل عن ربه، فكان الجزاء من جنس العمل.

وذِكْر السلسلة يدعو إلى التيقظ لسلاسل الذنوب التي يمسك بعضها بنواحي بعض، حتى تحيط بالعبد: ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ﴾ [البقرة: 81].

وأكثر ما يرهق الناس في الضلال والخطأ، هو تلك الحلقات المتصلة من العادات السيئة بالذكريات الماضية التي يزينها الشيطان، والعلاقات التي يصعب الانفكاك منها.

❊ ﴿□□□□□□□﴾:

إشارة إلى عظمة الله سبحانه وتعالى، وعِظَم جُرم الكفر بالله[2].

وذلك في مقابل المؤمن الذي قال: ﴿دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (11/ 598)، و«تفسير الرازي» (30/ 631)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 407)، و«التحرير والتنوير» (29/ 138).

(2) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (20/ 370).

❁ ﴿□□□□□□﴾:

وتأمل كيف قرن الله بين تَرْك الإيمان بالله، وتَرْك إطعام المسكين.

ففي هذا تأكيد للمعاني الإنسانية لهذا الدين، وأن الإيمان من تجلياته وآثاره: الشفقة على الضعفاء والمساكين والأيتام والأرامل والأيامى والمعدومين، وليس احتقارهم أو ازدراؤهم أو نهب حقوقهم.

وما يقع اليوم في بلاد المسلمين من سلب للحقوق، واعتداء على أموال الضعفاء وأعراضهم وابتزازهم، فإنه مناف لتعاليم الدين، وغريب حال هذه الأمة تخالف تعاليم دينها، في حين تجد أن أُممًا أخرى تعظِّم حرمات الناس وتحمي حقوقهم، ليس بتأثير شريعة سماوية كشريعة الإسلام، بل بثقافة إنسانية وتجربة ميدانية.

وما نرى هذه المخالفات في بلاد الإسلام لآدابه وحرماته، إلّا شرًّا مؤذنًا بخطر عظيم، يوجب على كل عالم وداعية وخطيب ومُصلح أن يعظِّم من شأن هذه الحرمات في أعين الناس، كما يدعو الناسَ إلى الإيمان بالله العظيم، وإلا فإن الخطر داهم، والبوار قادم.

وقد ورد أنه لما رجعت مُهاجرَةُ الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أَلَا تحدِّثُوني بأعجبِ ما رأيتم بأرضِ الحبشة؟**». فقال فتيةٌ منهم: يا رسولَ الله، بينا نحن جلوسٌ، مَرَّت علينا عجوزٌ من عجائزِهم، تحملُ على رأسها قُلَّةً من ماء، فمرَّت بفتىً منهم، فجعلَ إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها على ركبتيها، فانكسرت قُلَّتُها، فلما ارتفعت التفتت إليه ثم قالت: ستعلمُ يا غُدَرُ[1]، إذا وضعَ اللهُ الكرسيَّ، وجمعَ الأوَّلين والآخِرين، وتكلَّمَتِ الأيدي والأرجلُ بما كانوا يكسبون، فسوف تعلمُ

---

(1) معدول عن: «غادر»؛ مبالغة في وصفه بالغدر.

أمري وأمرَكَ عنده غدًا! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**صَدَقَتْ، ثم صَدَقَتْ، كيف يقدِّسُ الله قومًا لا يُؤْخَذُ لضعيفِهم مِن شديدِهم؟**»[1].

وقال: «**لا قُدِّسَتْ أمةٌ، لا يأخذُ الضعيفُ فيها حقَّه غيرَ مُتَعْتَعٍ**[2]»[3].

أي: غير متردِّد، لا يخاف في ذلك كبيرًا ولا رئيسًا، ولا ذا جاه، وإنما يأخذ حقه وهو مطمئن؛ لأن النظام يحميه والمجتمع يحميه.

والوعيد هنا هو على ترك الحضِّ على طعام المساكين، فقد بخل بماله وبخل بجاهه أو فصاحته وسماع الناس له، فلم يكن قدوة للآخرين في بذل المعروف، ولا محرِّكًا لهممهم في العطاء، وقد يعذر الرجل بعدم التصدق؛ لقلة ذات اليد، لكنه غير معذور في ترك الحض على طعام المسكين، وكذلك المجتمع بمؤسساته وجمعياته ووسائل إعلامه، عليه السعي لإيصال الحقوق للفقراء والمساكين والمعوزين، وألا يعتبر هذا تفضلًا ولا منَّة، بل هو حق لهم على القادرين.

---

(1) أخرجه ابن ماجه (4010)، وأبو يعلى (2003)، وابن حبان (5058، 5059)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (7549) من حديث جابر رضي الله عنه.

وأخرج ابن أبي عاصم في «السنة» (582)، والبزار (4464)، والبيهقي (6/ 95)، (10/ 94)، وفي «الأسماء والصفات» (860) نحوه من حديث بُريدة بن الحُصيب رضي الله عنه.

(2) أي: من غير أن يصيبه أذى أو يزعجه.

(3) أخرجه ابن أبي شيبة (22105)، وابن ماجه (2426)، وأبو يعلى (1091) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وأخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (3274)، والطبراني في «المعجم الكبير» (24/ 233) (591)، وفي «الأوسط» (5029)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (6/ 3316)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (11232) من حديث خَوْلة رضي الله عنها.

وله شواهد. ينظر: «المستدرك» (3/ 256)، و«مختصر تلخيص الذهبي للمستدرك» لابن الملقن (4/ 1894- 1897)، و«البدر المنير» (9/ 541- 545)، و«التلخيص الحبير» (4/ 338)، و«السلسلة الضعيفة» (14/ 355- 357) (6647).

* ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾:

لأنه لم يقدِّم إيمانًا، ولم يقدِّم إحسانًا، فلا كان ممن آمن بالله، ولا كان ممن حضَّ على طعام المسكين، فكان جزاؤه ألَّا يجد اليوم صديقًا يقف معه أو يسانده.

* ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ﴾:

لأنه كان لا يحض على طعام المسكين، فلن يجد هو طعامًا يشبعه إلا الغِسلين.

والغِسْلين: أحد أطعمة أهل النار، مثل الزَّقُّوم والضَّريع[1].

وقيل: هو: غُسالة أبدان أهل النار، أو هو: من شجر جهنم.

يقول قتادة: «هو شرُّ الطعام وأخبثه»[2].

والسياق يدل على خبثه من جهة أنه الطعام الوحيد لهم، ليس لهم طعام سواه، وكأنهم مضطرون إليه؛ لعدم وجود غيره، ولهذا قال في موضع آخر: ﴿قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ﴾ [الغاشية: 6- 7]. فيجوز أن يكون الضَّريع والغِسْلين واحدًا[3]، **ويجوز أن يكون المعنى**: أنهم يقتصرون على هذا تارة وعلى هذا تارة، فهي أحوال لهم

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 240)، و«تفسير القرطبي» (18/ 273)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 217)، و«الدر المنثور» (14/ 681)، و«فتح القدير» (5/ 343).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 241)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7688)، و«البحر المحيط في التفسير» (6/ 419)، و«فتح القدير» (5/ 341).

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 216)، و«المحرر الوجيز» (5/ 362)، و«التحرير والتنوير» (30/ 297).

يتقلبون فيها، وكلها شرٌّ عليهم[1]، أو يكون هذا طعام طبقة، وذاك طعام طبقة أخرى[2].

* ومما يوحي بشدة قبحه ورداءته: قوله سبحانه: ﴿شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا﴾:

فهو طعام خاص بالخاطئين، لا يسيغه سواهم، ولا يتجرَّعه غيرهم.

وهذا كاف في تشنيعه وتبشيعه، وقال ابن زيد: «الغِسلين والزَّقُّوم لا يعلم أحدٌ ما هو»[3]. وهذا أجود من قول: إنه غُسالة أهل النار[4].

والخاطئ: المذنب، بعكس المخطئ الذي يفعل الشيء عن جهل[5].

* ﴿مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

قَسَم إلهي عظيم، قال بعض أهل العلم: هذا أعمُّ قَسَم في القرآن؛ لأنه سبحانه أقسم بكل شيء، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، والكون فيه المرئي وغير المرئي، وكذلك الغيب والشهادة[6].

---

(1) ينظر: «الانتصار للقرآن» (2/ 598)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 8222).

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 463)، و«الكشاف» (4/ 743).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 241)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7688)، و«تفسير القرطبي» (18/ 273)، و«فتح القدير» (5/ 341)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 300).

(4) ينظر: «الكشاف» (4/ 606)، و«تفسير أبي السعود» (9/ 26)، و«التفسير المظهري» (10/ 56)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر: «تفسير الماوردي» (3/ 75)، و«المحرر الوجيز» (4/ 277)، (5/ 362)، و«تفسير الرازي» (18/ 505)، و«تفسير القرطبي» (20/ 126)، و«فتح القدير» (5/ 341)، والمصادر السابقة.

(6) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص175).

وليس المرئي وغيره مقصورًا على المغيب، فثَمَّ في خلق الله العظيم مما حولنا ما تعجز العين عن إدراكه؛ لضآلة حجمه، وهو مع ذلك شديد الأهمية، حتى الذرات والجزئيات والنيترون والإلكترون والنانو.. تدخل في ذلك.

والعلم لا يزال يكتشف في الكون المحيط بنا عوالم هائلة لا نراها، فكيف بالأكوان كلها والمجرات والسماوات، فكيف بالآخرة، وبالملائكة والعوالم العليا.. فكيف بالجنة والنار.. وما يعلم الله ولا يعلم الناس؟!

إنه لقَسَم عظيم، وفيه تربية للعالم على التواضع، وترك الاستكبار، أو الغرور بالمعرفة، أو سرعة التكذيب بما لا يحيط به.

* ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾:

أي: هذا القرآن قول رسول كريم، إما النبي صلى الله عليه وسلم، أو جبريل عليه السلام[1]، فسمَّاه: رسولًا، وهو الرسول البشري محمد صلى الله عليه وسلم الذي بلَّغه للناس، أو الرسول الملائكي وهو جبريل عليه السلام، نزل به من رب العزة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى في السورة الأخرى: ﴿حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن﴾ [التكوير: 19- 22].

والأقرب أن ﴿مِّيثَاقًا﴾ هنا يشملهما معًا، على أن الله تعالى هو المتكلِّم بهذا القرآن على وجه الحقيقة، فالقرآن كلامه سبحانه، وإنما نسبه إلى الرسول لأنه بلَّغه، وليس في

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 492)، و«تفسير الماوردي» (6/ 86)، و«تفسير القرطبي» (18/ 274)، و«التحرير والتنوير» (29/ 141- 142).

الأمر التباس؛ لأنه لما سماه رسولًا دل على أنه مرسَل بهذا الكلام المقدَّس، وليس منشِئًا أو مبتدعًا له من عند نفسه، وإلا لما كان رسولًا[1].

* ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ ﴾:

أي: هو قول الله سبحانه، أوحى به إلى نبيه صلى الله عليه وسلم، وليس كما تزعمون أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم تلقَّاه من شاعر، أو قاله من عند نفسه وهو شاعر، كما قال: ﴿□□□□□□□□﴾ [الطور: 30].

﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ﴾، كما قالت طائفة أخرى منكم ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

والمعنى- والله أعلم-: أنكم لا تؤمنون أصلًا، ولا تتذكَّرون، والعرب تقول: «قليل» للمبالغة في النفي، وأنه لا يوجد منه شيء أبدًا[2].

ويحتمل أن يكون المعنى: أنهم أحيانًا يقع في قلوبهم بعض الإيمان، ولكنهم يقمعونه ويكبتونه؛ حفاظًا على أموالهم وأولادهم وسلطانهم ومصالحهم[3]، أو يكون المراد إقرارهم بالألوهية أحيانًا حين يُسألون: من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله[4].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 274)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 217)، و«أضواء البيان» (7/ 466).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 348)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (1/ 196)، و«تفسير البغوي» (8/ 214).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 634).

(4) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 275).

ونفى عن نبيه الشعر، كما قال: ﴿□□□□□□□□﴾ [يس: 69]. وهم أدرى الناس بالشعر والشعراء، كما نفى عنه الكَهانة وسَجْعها وزَمْزَمَتها[1]، وهو صلى الله عليه وسلم أبعد الناس منها، ولكنهم كانوا يقولون ذلك زجرًا للمغفَّلين عن التفكير في القرآن ودلالاته.

ولو تأملوا لوجدوا أن ما فيه من الأخبار والقَصَص والمواعظ والحِكَم والأسرار والوعد والوعيد والأحكام، ما لا يمكن معه وصفه بغير الوحي من الله العزيز العليم.

* ﴿سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾:

فهو من الله سبحانه، ليس من إنشاء هذا الرسول، ولا من جبريل، ولا من قول الشعراء ولا الكهان.

* ﴿وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ﴾:

أي: لو زاد هذا الرسول بعض القول والحديث ونسبه إلى الله تعالى[2]- وحاشاه صلى الله عليه وسلم- ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾، ويوحي الله هذا القرآن إلى النبي صلى الله عليه وسلم بهذا التهديد، ولا يملك صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إلا أن يقرأه على الناس، ويحفِّظهم إياه، ويضرب بالحجة بين ظهورهم، مع أن التهديد موجَّه إليه هو، وهذا من عظمة القرآن وحفظه، وتكفَّل الله سبحانه بأن يقصم ظهر كل مَن ينسب إلى الله الكذب والزُّور، فمع محبة الله له واصطفائه واختياره، وعِلْم الله

---

(1) زمزمة الكاهن: الكلام الخفي الذي لا يفهم. ينظر: «جمهرة اللغة» (1/ 201) «ز م ز م».

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 218).

به سبحانه، يأتي هذا التهديد؛ إقامةً للحجة على المشركين بأن هذا كلام الله سبحانه وتعالى.

وفي موضع آخر توعَّد مَن يكتم شيئًا من وحيه، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: 67]، وقال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ [الإسراء: 74- 75].

فهو إذًا مُبلِّغ، ليس عليه إلا البلاغ والبيان والدعوة والصبر حتى يحكم الله.

وهو دليل على عظمة القول على الله بغير علم، ووجوب التثبُّت والتحرِّي في الكلام في الديانة، وعدم التسرع أو الجزم إلا بحجة ظاهرة، ورحم الله الإمام مالك فإنه قلَّما يفتي بشيء إلا تلا هذه الآية: ﴿□□□□□□□□□﴾ [الجاثية: 32][1]، ولكن لا يقول: هذا حكم الله وهذا دين الله إلا في القطع الذي لا مِرية فيه ولا تردد، وما أكثر الجاهلين والمتقوِّلين!

﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾: يجوز أن يكون المعنى- كما قال الحسن وغيره-: إن الله تعالى يأخذ منه بيده اليمنى، ثم يقطع رقبته[2]. والسيَّاف- أحيانًا- إذا أراد أن يضرب الإنسان بالسيف يأخذ بيده اليمنى، ثم يضربه من الأمام، أما لو أخذه بالشمال فربما ضربه من خلفه، فهذا أشد ما يكون من الأخذ.

ومن معاني قوله: ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾ أي: بالقوة[3].

---

(1) ينظر: «حلية الأولياء» (6/ 323).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 243)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 191)، و«الكشاف» (4/ 607)، و«المحرر الوجيز» (5/ 363)، و«تفسير الرازي» (30/ 634- 635)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 266).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 218)، و«تفسير البغوي» (8/ 214)، والمصادر السابقة.

إذا ما رايَةٌ رُفِعَت لِمَجدٍ *** تَلَقَّاهـــا عَــرابَــةُ بِاليَميـــنِ[1]

فقولهم: أخذ الشيء بيمينه، أي: بقوة، وليس بالضرورة أن يكون باليد اليمنى.

* ﴿أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ﴾:

﴿الرَّضَاعَةِ﴾: عرق ممتد من القلب للرأس، وهو الذي يقطع من الذبيحة، فيسيل دمها فتموت[2]، والله سبحانه يقول هذا عن رسوله ومصطفاه، تأكيدًا على رسالته واختياره، وعلى صدقه وأمانته، فإن ربه أسرع له بكل خير، وأعطاه فأجزل، وكتب له الظهور والغلبة والنصر والفتح والعز.

وقد يحدث أن يدَّعي بعض الناس النبوة، ثم يمهلهم الله تعالى إلى أوان عقابهم، أو يعذِّبهم على يدي بعض أوليائه، كما حصل لمُسيلمة الكذَّاب والأسود العَنْسي، وأدعياء النبوة عبر التاريخ إلى زماننا هذا كثير، ولكن الله يفضحهم حتى لا يكادون يُعرفون، ولا يوجد لهم أتباع ولا شرائع، ولا تقوم لهم قائمة.

* ﴿نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾:

فلو فُرض أن تقوَّل على الله بعض الأقاويل؛ لفعل الله به هذا، ثم لا أحدٌ يحول بين الله تعالى وبينه أو يحميه أو يحجزه[3]، وهذه من أعظم دلائل النبوة، وقرآنية القرآن.

ومَن يريدون المجد والسؤدد وثناء الناس ينسبون الأشياء لأنفسهم، وقد يُخمِلون ذكر مَن أخذوا عنه؛ لئلا ينافسهم، أما أن يعلن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(1) ينظر: «جمهرة اللغة» (2/ 994)، و«مقاييس اللغة» (6/ 158) منسوبًا إلى الشَّمَّاخ.

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص484)، و«لسان العرب» (13/ 441) «و ت ن».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 245)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 408)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 218)، و«التحرير والتنوير» (29/ 147).

أنه ليس سوى مبلِّغ وناقل، وأنه ليس له من الأمر شيء، وأنه لا يدري ما يُفعل به ولا بهم، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله، فإنها النبوة تتجلَّى في صدقها ووضوحها ونصاعتها، والحمد لله رب العالمين.

* ﴿ٱلَّتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن﴾:

فحين أعرضتم عنه أنتم، ولم تتَّعظوا به وتتَّبعوه، فسوف يقيِّض الله له مَن هم جديرون بهذا الوصف من الأخيار الذين ربما ازدريتموهم واحتقرتموهم، ولكن الله فضَّلهم عليكم بتقواهم وصلاح قلوبهم[1].

* ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ﴾:

أي: أرسلنا هذا الرسول، وأنزلنا هذا القرآن، ونحن نعلم أن منكم مَن لن ينتفع بهذا الوحي، ولكن: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ [الأنفال: 42][2].

* ﴿عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ﴾:

الحَسْرة: ما يتحسَّر عليه الإنسان بعد فوات الأوان، مأخوذة من: الحَسْر، فتقول: فلان حَسَر عن ثوبه، إذا رفع ثوبه قليلًا، أو حَسَر رداءه[3]، فهنا قال: «حَسْرة»؛ لأنهم يظهرون الألم بعد فوات الأوان:

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7692)، و«تفسير الماوردي» (6/ 87)، و«التحرير والتنوير» (29/ 148- 149).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 246)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 192)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 439)، و«الكشاف» (4/ 607)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص234)، و«مختار الصحاح» (ص72)، و«تاج العروس» (11/ 11) «ح س ر».

نَدِمَ البُغاةُ ولاتَ ساعةَ مَنْدَمِ *** والبَغيُ مَرْتَعُ مُبتغيه وَخِيمُ[1]

فهذا الكتاب المبين حَسْرة على الكفار في الدنيا؛ لأنهم لا يستطيعون أن يقاوموا حجته، ولا أن يردُّوه، وحَسْرة عليهم؛ لأن الله تعالى يكتب لأهله النصر والقوة والتمكين، رغم أنوف الكائدين، ثم هو حَسْرة عليهم في الآخرة؛ لأن الحجة قامت به عليهم[2].

* ﴿أَصَٰحِبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ﴾:

وحقُّ اليقين: هو: العلم الصادق القاطع الذي لا شك فيه، وهو المقطوع به شرعًا بلا تردد ولا جدال، **والمقصود**: الوحي والقرآن.

أما عين اليقين فهي: المعاينة ورؤية الشيء الموعود حين يرى أهل الجنة الجنة وأهل النار النار عيانًا كفاحًا مواجهة[3].

* ﴿ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾:

أي: سبِّحه بأسمائه الحسنى، ونزِّهه عما يقول الكافرون والظالمون، ووحِّده إذ جحده المشركون، واعترف بعظمته إذا نسبوا إليه الأنداد أو الصاحبة أو الأولاد.

---

(1) ينظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (1/ 377)، و«شرح الأشمونى لألفية ابن مالك» (1/ 269)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (4/ 175) منسوبًا إلى غير واحد.

(2) ينظر: «تفسير التستري» (ص176)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 493)، و«تفسير الماوردي» (6/ 87)، و«تفسير البغوي» (5/ 150)، و«تفسير الرازي» (4/ 182)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 247)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 33)، و«تفسير السمعاني» (6/ 43)، و«تفسير البغوي» (8/ 215)، و«الكشاف» (4/ 607)، و«المحرر الوجيز» (5/ 363)، و«زاد المسير» (4/ 334)، و«تفسير القرطبي» (18/ 277)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 219)، و«روح المعاني» (15/ 61)، و«تفسير السعدي» (ص884)، و«التحرير والتنوير» (29/ 150).

ولَمَّا نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم: «**اجعلوها في ركوعكم**». أي: قولوها في الركوع، تسبيحًا له وتنزيهًا، وإقرارًا بعظمته ومجده سبحانه، ولَمَّا نزلت: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ قال: «**اجعلوها في سجودكم**»[1].

والركوع هو تحية الملوك والأكابر في الجاهلية، فيناسبه أن تقول: «سبحان ربي العظيم»، **والسجود** خضوع يذل فيه الإنسان جبهته لله سبحانه وتعالى، فناسب أن يقول: «سبحان ربي الأعلى»، فيناجي الأعلى فوق عرشه بالاعتراف له، والإيمان به، فيا أيها المؤمن الكريم، سبِّح باسم ربك العظيم تسبيح الحامد المؤمن المنتظر لثوابه الخائف من عقابه.

❍ ❍ ❍

---

(1) أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وتقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿□□□□□﴾.

سورة المعارج

* **تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة المعارج**»[1].

وتسمى بـ«**سورة** ﴿إِنَّ﴾»، كما في كتب السنن، والتفسير[2].

وقد تُختصر فيقال: «**سورة** ﴿﴾»[3]؛ إذ ليس في القرآن الكريم من السور المفتتحة بفعل ﴿﴾ إلا هي[4].

* **عدد آياتها:** أربع وأربعون آية[5].

* **وهي مكية** باتفاق أهل التفسير[6].

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾:

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص485)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 312)، و«تفسير الطبري» (23/ 248)، و«تفسير البغوي» (5/ 150)، و«المحرر الوجيز» (5/ 364)، و«تفسير القرطبي» (18/ 278).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص673)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 344)، و«صحيح البخاري» (6/ 159)، و«جامع الترمذي» (5/ 426)، و«زاد المسير» (4/ 335)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 220)، و«التحرير والتنوير» (29/ 152).

(3) ينظر: «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص556).

(4) وذكرها أبو عمرو الداني في «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص354) باسم: «**سورة الواقع**».

(5) وقيل: ثلاث وأربعون آية، وقد اختلفوا في قوله: ﴿□□□□﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص354)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص316).

(6) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 364)، و«زاد المسير» (4/ 335)، و«تفسير القرطبي» (18/ 278)، والمصادر السابقة.

ومعنى الآية: أن داعيًا دعا وسأل واستعجل العذاب الواقع.

والسؤال هنا يحتمل أنه سأل عن العذاب، والله تعالى لم يقل: «سأل سائلٌ عن العذاب»، وإنما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ﴾، فهذا يدل على أن ﴿ ﴾ ليست مجرد سؤال عفوي أو بريء، وإنما هو سؤال مقرون بالاستعجال والاستهزاء[1].

وقد ورد أن هذا السائل هو: النضر بن الحارث بن كَلَدَةَ، وكان يقول: اللهمَّ إِنْ كان ما يقولُ محمدٌ هو الحقَّ من عندك فأمطرْ علينا حجارةً من السماء أوِ ائْتنا بعذاب أليم. فأنزل اللهُ هذه السورة[2].

وقد حكى الله تعالى عنهم هذا الاستعجال والاستفتاح في مواضع من القرآن، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ﴾ [الحج: 47]، وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ ﴾ [العنكبوت: 53]، وقوله: ﴿تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ [الشورى: 18].

وهنا نلحظ التوافق في قوله: ﴿تَنكِحُواْ مَا﴾، وأما المؤمنون فهم ﴿سَلَفَ ۚ﴾، وقد افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بقوله: ﴿ إِنَّ﴾، ثم بعد آيات قال: ﴿تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ ﴾، فأثنى على المؤمنين الذين يخافون ولا يستعجلون العذاب، ويعلمون أن العذاب عند الله، فيطلبون الإمهال والمغفرة.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (6/ 310)، و«تفسير الماوردي» (6/ 89)، و«زاد المسير» (4/ 335)، و«تفسير الرازي» (30/ 640)، و«تفسير النسفي» (3/ 536)، و«روح المعاني» (15/ 62)، و«التحرير والتنوير» (29/ 155).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (11/ 145)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص445)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 48)، و«روح المعاني» (12/ 166)، و«التحرير والتنوير» (29/ 153)، والمصادر السابقة.

ومن معاني ﴿ﱁ﴾: أنه دعاءٌ من السائل على نفسه بالعذاب، كقولهم: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: 32]، وقد كان الكفار كثيرًا ما يدعون على أنفسهم بالعذاب استهزاءً وسُخرية[1].

فهذا السائل سأل، بمعنى استفسر واستفهم، وقال: متى العذاب؟

ويقع أحيانًا أن يسأل أحدٌ أو يطلب العذاب على سبيل المباهلة، أن يعذَّب هو أو يعذَّب خصمُه؛ لشدة اعتقاده فيما يرى هو بصواب نفسه، أو لإظهار ذلك بقصد تثبيت الأتباع وعدم زعزعة ثقتهم به.

وليس المقصود أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم هو الذي سأل فاستعجل العذاب على المشركين، فهذا بعيد[2]؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يطلب إمهالهم وإنظارهم، وألَّا يُعاجَلوا، ولما عرض عليه المَلَكُ يوم العقبة أن يُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبين، قال: «**بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم مَن يعبدُ اللهَ وحدَه لا يُشركُ به شيئًا**»[3]. وكان يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لقومي، فإنهم لا يعلمونَ**»[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 89)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 220)، و«التحرير والتنوير» (29/ 156).

(2) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (10/ 270)، و«فتح القدير» (5/ 344- 345).

(3) أخرجه البخاري (3231)، ومسلم (1795) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(4) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (2096)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (2488)، وابن حبان (973)، والآجري في الشريعة (1004)، والطبراني في «الكبير» (5694، 5862)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (1376) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وينظر: «فتح الباري» (7/ 372- 373)، (8/ 508)، (12/ 282)، و«السلسلة الصحيحة» (3175)، و«السلسلة الضعيفة» (7088)، وما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم شَيۡـًٔا﴾، و«سورة الشرح»: ﴿جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ فَلَا﴾.

وأما ما ورد أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لما أبطأت عليه قريشٌ وتأخرت قال: «**اللهمَّ أعنِّي عليهم بسَبْع كسبع يُوسفَ**»[1]. أي: سبع سنين، فأصابتهم مجاعة، حتى كانوا يرون ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان من الجوع، وحتى أكلوا أوراق الشجر والعظام من الجوع، وقالوا: ﴿**رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢**﴾ [الدخان: 12]، فهذا ليس المقصود به العذاب، وإنما الشدة التي تضعفهم عن الصدِّ عن سبيل الله، وهذا هو الظاهر من السياق.

* ﴿**رَّحِيمًا ٢٣**﴾:

لقد سأل هذا السائل بالعذاب مستبعدًا مستعجلًا مستهزئًا، وفي الآية ذاتها جوابه الملائم لاستعجاله، فالعذاب آت لا محالة، وهو واقع في موعده المضروب، لا يقرِّبه استعجالهم ولا يؤخِّره، ولا يدفعه عنهم إلا تجنب أسبابه التي أساسها الكفر، إذ هو عذاب للكافرين، وهم المقصودون به، وقد يُصيب غيرَهم تبعًا، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سُئل: يا رسولَ الله، كيف يُخسفُ بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقُهم، ومَن ليس منهم؟ قال: «**يُخسفُ بأولهم وآخرهم، ثم يُبعثونَ على نياتهم**»[2].

وقد مضت سنة الله تعالى أنه إذا عذَّب قومًا أخذهم كلهم، فيردون موردًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى، وقد يعم مَن ليس منهم تبعًا، فهذا أمر عام دلَّت النصوص عليه.

---

(1) أخرجه البخاري (4809)، ومسلم (2798) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾.

(2) أخرجه البخاري (2118)، ومسلم (2884) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ثم هو ليس له دافع يدفعه عنهم، فإذا نزل فلا حيلة في دفعه ولا رفعه، كما عذَّب الله أقوامًا بالصَّيْحة أو الزلزال أو الطوفان، فإذا وقع فإنه لا يُرفع، وإن كان المقصود عذاب الآخرة فمن باب الأولى لا يدفعه أحدٌ عنهم إلا الله.

❁ ﴿▯▯▯▯▯﴾:

وكأنه يبيِّن لماذا لا يملك أحدٌ دفعه؛ لأنه من الله، ومَن ذا يرد عذاب الله؟ فالله هو الذي أرسله على الكافرين جزاءً وفاقًا.

و﴿▯﴾ جمع: مِعْرج، أو: مِعْراج[1]، أي: ذو الرِّفعة والعُلو[2].

وفيه تأكيد لعلو الله سبحانه وتعالى، كما في قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: 15]، ولهذا كان من أسمائه: العلي[3].

ومن معاني ﴿▯﴾: الطرق والمدارج التي تصعد بها الملائكة إلى السماء[4]، كما في قصة المعراج، ووصفه سبحانه بهذا يؤكِّد أَلَّا مدفع لهذا العذاب، فذو المعارج هو صاحب السلطان الأعظم على خلقه وكونه، وصاحب العرش العظيم[5]، فكل ملوك الدنيا وجيوشهم وأجنادهم لا تنفع ولا تدفع عذاب الله في الدنيا، فضلًا عن الآخرة.

---

(1) ينظر: «لسان العرب» (2/ 322)، و«تاج العروس» (6/ 95) «ع ر ج».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 250)، و«تفسير القرطبي» (16/ 85)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 220)، و«الإتقان» (2/ 49)، و«التحرير والتنوير» (29/ 157).

(3) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص48)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص108-109)، و«مع الله» (ص163).

(4) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 220)، و«زاد المسير» (4/ 336)، و«تفسير القرطبي» (18/ 281)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 272)، و«فتح القدير» (5/ 345).

(5) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7698)، و«فتح القدير» (5/ 345)، و«التحرير والتنوير» (29/ 156)، و«تفسير السعدي» (ص885).

ومن باب آخر، فجنوده عظيمة، منها الملائكة التي لها طرق بين السماء والأرض، ولها القدرة التي منحها الله إياها في عذاب الكافرين في الدنيا، كما عذَّب قومَ لوط، وعذابهم في الآخرة، كما بيَّنه القرآن في مواضع.

❁ ﴿□□□□□□□□□□□□﴾:

والرُّوح المقصود به: جبريل عليه السلام، وإنما خصَّه لشرف منزلته، كما قال سبحانه: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ﴾ [القدر: 4][1].

وقد يجوز أن يشمل الرُّوح: أرواح بني آدم، فإن أرواحهم تصعد في النوم وعند قبض الرُّوح، على ما فصَّلته الأحاديث، كحديث البراء بن عازب رضي الله عنهما الطويل[2]، وغيره، وخاصة أرواح المؤمنين[3].

وقوله تعالى: ﴿□□□□□□□﴾: يجوز أن يكون المقصود مدة عروج الملائكة، أو مدة العذاب الواقع للكافرين في ذلك اليوم[4].

وعلى المعنى الثاني أن العذاب إنما يكون في ذلك اليوم الطويل الذي هو يوم القيامة، فهي إشارة إلى أن الله تعالى لن يعذِّب هذه الأمة عذابًا عامًّا قبل ذلك اليوم، ولن يُسلِّط على هذه الأمة عذاب الاستئصال الذي سُلِّط على الأمم السابقة، كأمة

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 251)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 494)، و«تفسير القرطبي» (18/ 281)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 221)، و«فتح القدير» (5/ 345)، و«التحرير والتنوير» (29/ 157).

(2) كما في «مسند الطيالسي» (789)، و«مسند أحمد» (18614)، و«سنن أبي داود» (3212، 4753، 4754)، و«المستدرك» (1/ 37).

(3) ينظر: «زاد المسير» (4/ 336)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 221).

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 198)، و«تفسير القشيري» (3/ 629)، و«زاد المسير» (4/ 336)، و«فتح القدير» (5/ 345).

نوح وهود وشُعيب وصالح وغيرهم من المكذِّبين الذين أرسل الله تعالى عليهم عذابًا أفناهم عن آخرهم.

وقد صحَّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**سألتُ ربي أن لا يُهلكَ أمتي بالسَّنة، فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلكَ أمتي بالغرق، فأعطانيها**»[1]. فلما بُعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم أمنت أمته ذلك، وصار يأتيهم عذاب جزئي؛ ولهذا قال ربنا سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾، وهذا شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم، فوجوده أمانٌ لأمم الأرض من العذاب التام المطبق، وهذا الأمان الأول، والأمان الثاني هو: الاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: 33][2].

أما إذا كان المعنى أن عروج الملائكة والرُّوح إلى الله تعالى هو الذي يكون في ذلك اليوم، فيُشْكِل عليه أن عروجَهم يقع باستمرار، فالملائكة تصعد وتنزل في أمر الوحي، وفي أمر الموت والحياة، وفي شؤون كثيرة كلَّفهم الله بها، وأقدرهم عليها.

ويحتمل أن المقصود: كمال العروج في ذلك اليوم الذي يحشر فيه الناس، فهو يختلف عما قبله.

وقد ورد أن الله تعالى يقول للناس في ذلك اليوم: «**إني قد أنصتُّ منذُ خلقتُكم إلى يومكم هذا، أسمعُ كلامكم، وأُبصرُ أعمالكم، فاليومَ أنصتوا إليَّ، فإنما هي صحفُكم تُقرأ عليكم وأعمالُكم، فمَن وجدَ خيرًا فليحمد اللهَ، ومَن وجدَ غيرَ ذلك**

---

(1) أخرجه مسلم (2889، 2890) من حديث ثوبان وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (11/ 151)، و«المحرر الوجيز» (2/ 521)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 48)، و«الدر المنثور» (7/ 105).

فلا يلومنَّ غيرَ نفسه»[1]. فيسكت الناسُ ولا يتكلمون، قال الله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [النبأ: 38].

وقد جاء أيضًا في حديث الشفاعة: «**إن ربي قد غضبَ اليومَ غضبًا، لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»**[2]. فذلك يوم له ميزته وخاصته، ومنها كثرة نزول الملائكة فيه وصعودها.

وطوله منذ أن يُبعث الناس إلى أن يصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار خمسون ألف سنة، كما ذكر الله تعالى هنا، وكما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يُؤدِّي منها حقَّها، إلَّا إذا كان يومُ القيامة، صُفِّحت له صفائحُ من نار، فأُحْمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما**

---

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (180)، والطبري في «تفسيره» (3/ 611)، (24/ 386- 388)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (9/ 2928- 2931)، والطبراني في «الأحاديث الطوال» (36)، وأبو الشيخ في «العظمة» (386)، والبيهقي في «البعث والنشور» (609) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهو حديث طويل، يُعرف بـ: حديث الصُّور. قال ابن كثير: «هذا حديث مشهور، وهو غريب جدًّا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم مَن وثقه، ومنهم مَن ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة؛ كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفلَّاس، ومنهم مَن قال فيه: هو متروك. وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر، إلا أنه يُكتب حديثه في جملة الضعفاء.

قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، قد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه، فغريب جدًّا، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة، وجعله سياقًا واحدًا، فأُنكر عليه بسبب ذلك، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجَّاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنَّفًا قد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، فالله أعلم». وينظر: «تفسير ابن كثير» (3/ 287- 288)، و«البداية والنهاية» (19/ 322)، و«فتح الباري» (10/ 368- 369).

(2) أخرجه البخاري (4712)، ومسلم (194) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بَرَدَتْ أُعيدتْ له، في يوم كان مقداره خمسينَ ألفَ سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار»[1].

وقال بعضهم: إن المقصود لو أن أحدًا من الناس كان هو الذي يتولَّى الحساب بموجب مقاييسهم وطرائقهم في الدنيا، لكان يستغرق هذه المدة، أما الله تعالى فإنه يحاسب الخلائق في ساعة من نهار[2].

وهذا ليس بظاهر، بل الظاهر أن طول ذلك اليوم خمسون ألف سنة من أيام الدنيا، ولكن الله تعالى يخفِّف هذا اليوم عن المؤمنين[3].

وذكر طول اليوم مناسب لاستفتاح السورة بسؤالهم عن العذاب، واستعجالهم إياه.. فمقاييسهم ساذجة محدودة، وهم بمعزل عن إدراك الأمور العظيمة التي تنتظرهم؛ ولهذا ناسب أن يوجِّه نبيَّه إلى الصبر، وهو الجدير بمَن يعلم ما عند الله من الآماد والأحقاب التي تنتظر البشر: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤﴾ [مريم: 84].

❊ ﴿□□□□﴾:

والصبر: حبس النفس على الشيء[4]، فلا يستعجل، ولا يستجيب لمشاعره الشخصية، فالأمر بالصبر تربية ربانية كثيرة الورود في التنزيل، وجاء بالمصدر: ﴿□﴾ للتأكيد، ثم وصفه بأنه جميل، فالصبر خُلق جميل، وعند ما يصفه الله تعالى بأنه جميل، فالمقصود صبر ليس فيه تشكٍّ ولا جزع ولا استعجال ولا تسخط.

---

(1) أخرجه مسلم (987) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 90)، و«فتح القدير» (5/ 345).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص673)، و«تفسير القرطبي» (18/ 282).

(4) ينظر: «مختار الصحاح» (ص172) «ص ب ر»، و«التفسير الوسيط» للواحدي (1/ 131).

وبعض الناس قد يصبر، ولكن لا يكون صبره جميلًا، فيتذمَّر ويتكلَّم ويُفضي بالسر لبعض أقاربه وخلصائه، ويذكر لهم أنه تحمَّل من فلان شيئًا عظيمًا، وصبر عليه.

وهذا يؤكِّد على الخلق العظيم الذي لا يُتصور حصول النجاح إلا به، كما قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»[1]. وكما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**مَن يتصبَّرْ يُصبِّرْهُ اللهُ**»[2]. فيكون صابرًا، ثم صبورًا.

والذين يواجهون العَنَت والأذى، يعرفون معنى الصبر الذي يحبس النفس عما لا يجمل بالأحرار، ويعرفون مستوياته ودرجاته، وأن الصابر قد يَضِيق أو يبوح لبعض خلصائه وخاصته، أو يتردد أو يشك، أما الصبر الجميل فبمَعْزل عن ذلك كله.

❊ ﴿□□□□﴾:

أي: يستبعدون العذاب بعقولهم فيجحدونه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾ [ق: 3].

أو يستبعدون زمانه؛ ولذلك لا يقيمون له وزنًا؛ لأنهم مشغولون بالشيء القريب، وهو الدنيا[3].

وكثير ممن يطرقون طُرق الهلاك حين يسمعون الناصح والمحذِّر يضرب لهم الأمثال ويخوِّفهم ما قد يقع لهم من الأحوال، يشيحون بوجوههم، ويشعرون أنها مخاوف لا حقيقة لها، ولا تحملهم على تغيير طريقتهم أو تجنّب ما يفضي إلى العِثار.

---

(1) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (630)، ووكيع في «الزهد» (198)، وأحمد في «الزهد» (612)، والبخاري (8/ 99) معلقًا، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (1/ 50)، والحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (5/ 172).

(2) أخرجه البخاري (1469)، ومسلم (1053) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(3) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾».

❁ ﴿□□□﴾:

أي: في الوقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿□□□□□□□□﴾ [الأحقاف: 35]، وقال: ﴿□□ □□□□□□□﴾ [النازعات: 46]، وحكى أنهم يتساءلون ويتخافتون فيما بينهم: كم لبثنا في الدنيا؟ فيقول بعضهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ [طه: 103]، فيقول سبحانه: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: 104]، فأعقلهم يؤكِّد أن لبثهم لم يكن سوى يومٍ واحدٍ، فإذا جاء يومُ القيامة تغيَّرت الموازين والحسابات تغيرًا كبيرًا، وقد كانوا من قبل يستعجلون به، فهم الآن يقولون كلامًا آخر، وقد كانوا في الدنيا ينظرون إلى الآخرة المستقبلة بسخرية واستبطاء، فإذا هم في الآخرة ينظرون إلى الدنيا الماضية بتعجب وتقليل[1]!

❁ ﴿□□□□□﴾:

المُهْل: المعدن المذاب، دُرْدِيُّ الزيت المذاب[2]، أي: ما يبقى في أسفل الزيت من البقايا والحُثالة.

فهذا أحد تشبيهات السماء يومئذ، أنها تكون كالمعدن المذاب.

وقد جاءت صفات أخرى في شأن السماء؛ كقوله سبحانه: ﴿□□□□□□□﴾ [الرحمن: 37]، أي: مالت إلى الحمرة[3]، ولعل المقصود بالدِّهان هنا مثل قوله: ﴿□﴾ أي: الزيت أو دُرْدِي الزيت.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 255)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 200)، و«تفسير الماوردي» (6/ 91)، و«زاد المسير» (4/ 337)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 224).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (3/ 282)، و«تفسير الرازي» (30/ 641)، و«تفسير القرطبي» (18/ 284)، و«الدر المنثور» (9/ 531).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 226)، و«تفسير السمعاني» (5/ 331)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 498)، و«فتح القدير» (5/ 165).

ويحتمل أن يكون المقصود أن هذا يقع مرة بعد أخرى، فيوم القيامة يوم طويل، مقداره خمسون ألف سنة، فتقع تحولات في أحوال السماء وألوانها وشكلها وهيئتها، وكذلك الأرض[1].

* ﴿□□□□﴾:

العِهْن: الصوف، وغالبًا ما يُطلق على الصوف الملون المصبوغ[2]، وقال سبحانه: ﴿مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا﴾ [القارعة: 5]، أي: المفرَّق[3].

والجبال في الدنيا ملونة، كما قال تعالى: ﴿أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ [فاطر: 27]، فمنها الأبيض والأحمر والأسود، فهكذا يوم القيامة تتغير حقيقتها وتذهب كثافتها وتصبح كالصوف المنفوش، ويكون فيها ألوان وطرائق مختلفة.

والمرء ينظر من حوله، فيرى الجبال من أعظم ما خلق الله، وبها يُضرب المثل في الشدة والقوة والرسوخ، ويرفع رأسه فيرى السماء في سموقها وإحكامها وجمالها.. ففي ذلك اليوم تتفتت الجبال، فتبدو كالقطن أو الصوف، وتضعف السماء، فتغدو كالمُهْل، فما بالك بالإنسان الضعيف الذي هو المقصود من وراء كل تلك الحوادث؟!

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (13/ 728)، (24/ 254)، و«تفسير الماوردي» (3/ 143- 144)، و«المحرر الوجيز» (3/ 347)، و«زاد المسير» (2/ 520)، و«تفسير الرازي» (19/ 111).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 594)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 8411)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 213).

وينظر أيضًا: «العين» (1/ 108) «ع هـ ن»، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص537).

(3) ينظر: «روح المعاني» (15/ 448)، و«التحرير والتنوير» (30/ 512)، وما تقدم في «سورة الواقعة»، وما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿قِنطَارًا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ﴾.

وعادة ما يلجأ الناسُ بعضهم لبعض عند حلول الحوادث، ويتبادلون الحديث مع معارفهم وأصدقائهم، ويقلِّبون وجوه الرأي، وطرائق الحياة، ولكن هيهات ذلك في موقف القيامة.

* ﴿□□□□□﴾:

فكل إنسان مشغول بنفسه؛ لما يرى من الهول، ولا يعنيه أن يسأل عن حال أقرب قريب.

وقد أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعري لما مات أبوه، ورثاه بقصيدة، فيها[1]:

فيا ليتَ شِعري هل يخفُّ وقارُه *** إذا صار أُحْدٌ في القيامة كالعِهْنِ؟

وهل يَرِدُ الحوضَ الرَّويَّ مبادرًا *** مع الناس أم يأبَى الزّحامَ فَيَستأني؟

يقول: هل سيزاحم مع الناس من أجل الحوض، أم أنه لا يريد أن يزاحم فيستأني؛ لأنه كان في الدنيا وقورًا قليل المخالطة للناس؟

والحَمِيم: الصديق اللَّصيق الوثيق[2]، **والحَمِيم أيضًا**: الماء الحار، وكلاهما يرد في القرآن في حديثه عن الآخرة، في فرار الحَمِيم من حَمِيمه، وفي الماء الحَمِيم الذي يشربه أهل النار[3]، وقد جمع المعنيين الشاعر فقال[4]:

لا تَغْتَرِرْ ببني الزَّمان ولا تَقُلْ *** عند الشَّدائد: لي أخٌ ونَدِيمُ

---

(1) ينظر: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (15/ 444).

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص254- 255)، و«المحرر الوجيز» (4/ 236)، و«تفسير الرازي» (30/ 641)، و«تفسير القرطبي» (18/ 273)، و«التحرير والتنوير» (29/ 160).

(3) كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [يونس: 4]، وقوله: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد: ١٥]، وقوله: ﴿□□□□﴾ [النبأ: ٢٥]. ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 85)، و«المحرر الوجيز» (5/ 361)، و«تفسير القرطبي» (13/ 117)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «معجم الأدباء» (5/ 2207)، و«الوافي بالوفيات» (24/ 100) منسوبًا إلى الحريري.

جرَّبتُهم فإذا المُعاقِرُ عاقرٌ *** والآلُ آلٌ والحَمِيمُ حَمِيمُ

والمعنى ظاهر، ففي يوم القيامة لهول المطلع وكرب الموقف وانشغال كل امرئ بنفسه، يقول كل امرئ منهم: نفسي نفسي، ولا يسأل الصديقُ صديقَه عن حاله ولا عن شيء مما يجري: ﴿□□□□□□□﴾ [عبس: 37]، ولم يبيِّن سبحانه متعلّق السؤال، أي: لا يسأل أي سؤال، لا عن نفسه، ولا عن أحد، ولا عما يجري.

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يطلب منه شيئًا من باب المسألة، فلا مجال لمساعدة أو دعم أو إسناد أو شفاعة[1].

* ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟﴾:

كأن بعض الناس قال: كيف يسأله وهو لا يراه أصلًا؛ لكثرة الخلق المحشورين للعرض والحساب في صعيد واحد.

فكانت هذه الآية جواب التساؤل، أي: يجعل الله بعضهم يُبصر بعضًا على رغم ذلك، فيتمكنون من رؤيتهم، وقد يكون هذا من المؤمنين وهذا من الكفار، أو هذا في الجنة وهذا في النار، وهذا في مكان وهذا في مكان آخر، ومع ذلك يراه ويُبصره، ويتعمَّد أن يصد عنه، ولا يسأله عن شيء.

ولا غرابة، فمع بُعد العهد وحدوث الحوادث العظيمة والتحولات الجسيمة، إلا أن ذلك الموقف كما وصفه الله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: 2]، حتى الوالد لا يسأل ولده، والزوج لا يسأل زوجته، والأم

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 641).

لا تسأل ولدها، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ [الأنعام: 94]، ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ﴾ [العنكبوت: 25].

إنه تأكيد لمسؤولية الفرد عن نفسه، فلا يسأل أحدٌ عن أحد، ولا ينفع أحدٌ أحدًا، إلا بما أخبر الله به من الشفاعة.

هنا الفرد في مواجهة صارمة مع ذاته، كما كان في الدنيا مسؤولًا عنها؛ ولكنه مشغول عنها بالآخرين، حتى يصل الحال إلى أن المستحق للعقوبة يتمنى أن تنزل بأقرب قريب وأحب حبيب لينجو منها هو!

﴿ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ﴾: هذا المجرم هو الذي كان في الدنيا يستعجل العذاب، ويسأل: متى هو؟ فها هو في يوم القيامة يود لو يفتدي العذاب بأخلص أصدقائه وأقرب الناس له رحمًا، وربما هؤلاء الناس الذين يراهم ويبصرهم في عَرَصات يوم القيامة قد كانوا في الدنيا من أسباب ضلاله، وربما كان يستعرض أمامهم قوته وذكاءه وكبرياءه وسخريته، ومن أجلهم كذَّب أو كفر، لم يعد يلتفت إليهم، بل وَدَّ لو يفتدي نفسه بهؤلاء جميعًا، يود أن يخلص من العذاب، ويدفع فدية مقابل تخليصه من العذاب، ولو ﴿فَلَا﴾ الذين خُلقوا من صلبه، وبدأ بالبنين؛ لأنهم أشد الناس علاقة به؛ فإن الولد بَضْعة من أبيه، وموضع حبه[1].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 161).

وثمة فرق بين النسب الذي تعزَّز وترسَّخ بالتقوى والإيمان، وما ليس كذلك، فكل نسب ينقطع يوم القيامة، إلا نسب النبي صلى الله عليه وسلم وسببه، كما قال صلى الله عليه وسلم[1].

* ﴿مِنْهُ شَيْـًٔا﴾:

والصاحبة: الزوجة[2]، وهي أقرب من الأخ لقلب الإنسان بعد بنيه؛ ولذا بدأ بها، ثم عطف عليها الأخ.

* ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾:

قال مالك: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا﴾: أمه؛ لأنه يأوي بعد أن انفصل عنها[3].

والأكثرون على أن المقصود بـ«فَصِيلته التي تُؤْويه»: أفراد القبيلة القريبة منه، كما يقولون: القبيلة والفخذ والفصيلة، فهم الأقارب المحيطون بالرجل، مثل العم وابن العم، وهذا أقرب[4]، فيكون السياق بدأ متسلسلًا بالبنين، ثم بزوجته، ثم بأخيه، ثم بفصيلته، وهي الدائرة الأوسع.

والترتيب في «سورة عبس» عكس هذا؛ لأنه هنا يريد أن يفتدي بهم، فناسب أن يبدأ بالأقرب والأحب؛ إظهارًا لشدة حاجته واستعداده للفداء، ولذا قدَّم بنيه، ثم

---

(1) كما في «مسند أحمد» (18907)، و«المستدرك» (3/ 158) من حديث المِسْور بن مَخْرمة رضي الله عنهما: «**وإن الأنسابَ يومَ القيامة تنقطع، غيرَ نسبي وسببي وصِهْري**». وينظر: «البدر المنير» (7/ 487-490)، و«السلسلة الصحيحة» (2036).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 260)، و«المحرر الوجيز» (5/ 367).

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 92)، و«تفسير القرطبي» (18/ 286)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 225)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 361).

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 92)، و«تفسير القرطبي» (18/ 286)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 225)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 361)، و«التحرير والتنوير» (29/ 161).

زوجته، ثم أخاه، ثم قبيلته، ثم الناس جميعًا، على معنى أن تقول: فلان قد هجر حتى أقربَ الناس إليه، فهم مضرب المثل، وهو لم يعد يبالي بأحد من الناس.

وجاء في «سورة عبس» عكس ذلك؛ لأن الأمر هناك أمر فرار: ﴿□□□□□□﴾، فبدأ بالأخ، وانتقل إلى مَن هو أقرب: ﴿□□□﴾، ثم انتقل إلى الأقرب: ﴿□□□﴾. والفرار قد يعني التنصل من المساعدة التي جرت عليها العادة في الدنيا، أن الإخوة يساعد بعضهم بعضًا، وكثيرًا ما يحتاج الأبوان إلى المساعدة من الأبناء، أما الزوجة والأولاد فهم محل الضرورة، فكان الفرار تدريجيًّا، يبدأ بالأخ، ثم الأبوين، وأخيرًا يفر حتى من بنيه وزوجه، وقد يكون الاختلاف بين الموضعين للتنويع، ففيما يتعلق بالفرار بدأ بالأبعد ثم الأقرب، وفيما يتعلق بالافتداء بدأ بالأقرب، وهم الأبناء، ثم الصاحبة، ثم الأخ، ثم الفصيلة[1].

* ﴿(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ﴾:

فليس عنده تردد أن يفتدي بالناس كلهم، فيعذّبوا من أجل أن ينقذ نفسه، وهذا الكافر كان يمكنه في الدنيا أن يفتدي بأقل من ذلك، ولكن كانت السخرية والاستعجال تهكمًا وتحديًا يمنعه من ذلك.

وهل يقول الإنسان هذا الكلام بلسانه، أم بقلبه، ويدل عليه لسان حاله؟

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 135).

السياق تعبير عما يود أن يكون، لكن لم يصرِّح بأنه يقول ذلك تلفظًا، وفي سياقات أخرى ما يدل على أنه يقول ذلك عند مناسبته، كما في قوله: ﴿□□□□□□ □□ □□﴾ [الحاقة: 28- 29]. وفي بعض نصوص السنة ما يرشد إلى ذلك[1].

إن كشف هذا الموقف الجليل لا يحمل المؤمن على جفاء القرابة والتنكر لها في الدنيا، فالصلة والخُلُق الكريم قربة إلى الله، وسبيل إلى النجاة في الموقف العصيب، و«**الرَّاحمونَ يرحمهم الرحمنُ**»[2]، ومَن وصل رحمًا وصله الله[3]، ولكنه يحمل على تقديم الحق والصواب ومرضاة الله على كل حبيب أو قريب؛ ليكون فراره إلى الله، ونعم بالله، وليس فراره إلى نفسه التي هي الأخرى تفر منه.

﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾: ولم يقل: «فينجيه»، وإنما قال: ﴿أَفْضَىٰ﴾، وهي تدل على الاستبعاد، أي: مع هذا كله يا ليت الأمر ينفع! ويا ليته ينجو، لكن هيهات!!

* ﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

﴿بَعْضٍ وَأَخَذْنَ﴾ كلمة تقال للردع والزجر، تدل على النفي[4]، أي: لن يُنجيه قريب ولا بعيد ولا حميم ولا صديق ولا شفيع.

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (3334، 6538، 6557)، و«صحيح مسلم» (2805) من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**يُقالُ للكافر يومَ القيامة: أرأيتَ لو كان لك ملْءُ الأرض ذهبًا، أكنتَ تفتدي به؟ فيقولُ: نعم. فيُقالُ له: قد سُئلتَ أيسرَ من ذلك**».

(2) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقد تقدم في «سورة الملك»: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾.

(3) كما في «صحيح البخاري» (5987)، و«صحيح مسلم» (2555) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 221)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 496).

والضمير ليس إلى مذكور سابق، والعرب يقولون: هذا ضمير الشأن، ويقصدون به الإشارة إلى أنه إذا جاء أمر جَلَل، فإنه يُورد ضميره قبله، فقوله تعالى: ﴿مِنكُم مِّيثَاقًا﴾ أي: إن الأمر أو القصة أو الخبر أو الشأن يتعلق بشيء عظيم[1].

و﴿مِّيثَاقًا﴾ من أسماء النار، أو دَرَكة من دَرَكاتها، وهي مأخوذة من التلظِّي، وهو شدة الاشتعال[2]، كما قال سبحانه: ﴿□□□□﴾ [الليل: 14]، أي: تتوقَّد وتشتعل وتتلمَّظ، تريد هؤلاء الناس.

* ﴿ ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ﴾:

أي: تنزع الشَّوَى، فتأخذه أخذًا قويًّا شديدًا.

والشَّوَى: جلدة رأس الإنسان، **وقيل**: الأطراف[3]؛ فالصياد إذا ضرب ولم يصب الصيد في مقتل، وإنما أصاب أطرافه، يقولون: أشوى، أي: أصاب الأطراف[4]، ومنه قول العامة إذا كان الأمر المَخُوف أهون مما ظنوا قالوا: أشوى.. يعني: أسهل وأهون.

والذي يظهر أن المراد ليس أنها تنزع الجلدة من الإنسان، وإنما المقصود أنها تنزع الإنسان بجلدته وتنزعه بأطرافه، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 642)، و«الكشاف» (4/ 610).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 93)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 218)، و«فتح القدير» (5/ 347)، و«التحرير والتنوير» (29/ 163).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 261)، و«تفسير الماوردي» (6/ 93)، و«تفسير البغوي» (8/ 222)، و«زاد المسير» (4/ 337)، و«تفسير القرطبي» (18/ 288)، و«روح المعاني» (15/ 68).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 261)، و«المحرر الوجيز» (5/ 367)، و«تفسير الرازي» (30/ 643).

مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ﴾ [الرحمن: 41]، أي: يُحمل بأطراف يديه ورجليه وجلدة رأسه، ويلتقط التقاطًا[1].

* ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

أي: تنادي مَن كان في الدنيا قد أدبر وتولَّى عن قبول الحق والانقياد له، وليس ببعيد أن يكون نداءً حقيقيًّا[2]؛ فقد ذكر الله تعالى عن النار أشياء كثيرة ليست من شأن النار في الدنيا، مثل التغيُّظ والزَّفِير والتميُّز[3].

وقال بعض الأئمة: إن المقصود هنا دعاء الخَزَنة الذين وكَّلهم الله تعالى بالنار، فعبَّر عن دعاء الخَزَنة ومناداتهم لهؤلاء القوم بأنه دعاء النار[4].

والأول أقرب، وحقائق الآخرة والغيب ينبغي أن تبقى على ظاهرها، وألَّا تخضع لموازين العرف والعادة والمادة.

وهنا تناسبٌ بين قوله سبحانه في أول السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾، والإخبار هنا عن النار بأنها ﴿مَا﴾، لقد كانوا في الدنيا يدعونها ويستعجلونها، ويوم القيامة هي التي تدعوهم وتستعجلهم، وتقول: تعالوا، هذا ما كنتم تُوعدون.

إن النار يوم القيامة ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ﴾، فهي لا تنادي الإنسان بنسبه ولا بحسبه ولا ببلده ولا بقبيلته، وإنما بعمله، وهذه الآيات

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7231)، و«فتح القدير» (5/ 166)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 223)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 225).

(3) كما في قوله تعالى في «سورة الفرقان»: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا﴾، وينظر ما تقدم في «سورة الملك»: ﴿وَأَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 94)، و«تفسير القرطبي» (18/ 289)، و«التحرير والتنوير» (29/ 164).

تصف القوم المكذِّبين المستعجلين الذين تدعوهم النار، وقد أُعدَّت لهم، لا يستطيعون الافتداء منها، ولو بأقرب الناس إليهم، **والإدبار**: الإعراض، يقال: ﴿ءَابَآؤُكُم﴾: إذا ولَّاك ظهره[1]، فهؤلاء أعرضوا أولًا ثم أدبروا، والإنسان قد يعرض فيكتفي بالسكوت، وقد يخالف الطريق ويعترض عليه.

وأصل التولِّي: الإقبال، ومنه المولَى، قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ [الأنفال: 40][2]، **والمعنى**: أن هذا الإنسان أدبر وأعرض عن الحق وتولَّى شيئًا آخر، أعرض عن الإيمان وتولَّى الكفر، لقد أدبر عن النور وتولَّى الظلام، فهو أدبر عن شيء وتولَّى ضده، وهكذا المرء لا يخلو: إذا هجر طريقًا انتقل بفطرته إلى ضده، فإذا لم يسلك الإنسان طريق الخير سلك طريق الشر، وإن لم يشغل نفسه بالخير شغلته بالشر، وإن لم يشغل وقته في طاعة شغله بمعصية.

فهذا الإنسان في الدنيا أعرض عن الإيمان ومقتضياته بطوعه واختياره، فإذا كان يوم القيامة نادته ﴿مِّيثَٰقًا﴾ ليأتيها مكرهًا، وقد كان يمكن أن يأتي الحق والإيمان في الدنيا طائعًا مختارًا.

* ﴿إِلَّا مَا قَدۡ﴾:

أي: جمع المال في أوعية، وأحكم إغلاقه[3].

وجمع المال ليس عيبًا لذاته، وإنما المذموم ألَّا يتورَّع عن الكسب الحرام، أن يبخل به عن إنفاقه على ما أوجب الله، فلا يُطعم منه المسكين، وقد عاب القرآن على

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص307) «د ب ر».

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص886) «و ل ي».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 265)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7712)، و«تفسير البغوي» (8/ 223)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 225).

المشركين إمساكهم عن إطعام المسكين، كما كان يعيبهم على الشرك بالله وتركهم للصلاة، وكما سجَّل عليهم إدبارهم وتوليهم عن الإيمان سجَّل عليهم أنهم جمعوا الأموال بكل سبيل، وجعلوها في أوعية، وأغلقوا عليها، فلا يُطْعم منها يتيم ولا مسكين، ولا يُؤدَّى منها حق، ولا يراعى ما لله تعالى فيها من الشكر الواجب.

وفي القدر السابق من السياق تبدو طبيعة الإنسان المتناقضة، التي تستعجل العذاب وهو واقع، وتستبعد العقاب وهو قريب، وتنسى ما مرَّ عليها، حتى يصبح العمر كله عندها يوم القيامة وكأنه ساعة من نهار، وترفض الإيمان الاختياري، لتحتمل عذابًا قسريًّا قهريًّا يوم الدين؛ ولذا ناسب أن يسلط الضوء على هذه النفسية العجيبة!

* ﴿سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ﴾:

والأقرب أن المقصود جنس الإنسان، وبعضهم يقول: المقصود الكافر، أو شخص بعينه، كالنضر بن الحارث بن كَلَدة، أو غيره من أعيان المشركين[1].

والصواب أن المقصود جنس ابن آدم[2]، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: 72]، ومثل قوله: ﴿أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ﴾ [عبس: 17]، ومثل قوله: ﴿﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ﴾

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 265)، و«تفسير الرازي» (30/ 643)، و«تفسير القرطبي» (18/ 289)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 366).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 39)، و«المحرر الوجيز» (5/ 368)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 411)، و«التحرير والتنوير» (29/ 166)، والمصادر السابقة.

[الأنبياء: 37]، وفيها الإشارة إلى ما جُبل عليه الإنسان بالفطرة من ضعف أو عجلة أو ظلم أو جهل.

والله تعالى يُسجِّل على جنس الإنسان أنه ﴿كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا﴾، وكلمة ﴿كَانَ﴾ تأتي أحيانًا بذكر الخلق الجسماني، مثل قوله: ﴿مُّبِينًا ٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ﴾ [الإنسان: 28]، يعني: قوة أجسامهم في الدنيا[1]، وتأتي أحيانًا لذكر الخلق النفسي والروحي، كما في هذه الآية.

﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي: جُبل بفطرته على الهلَع[2].

والعلماء مختلفون في أجمع عبارة يُفسَّر بها الهَلَع[3]:

وأجمع وأجمل ما يقال في تفسيرها: هو ما بعدها في السياق، وقد سُئل ثعلب عن معنى ﴿فَاحِشَةً﴾ عند العرب، فقال: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾[4].

والهَلوع: الضعيف المتهالك المسترخي عند الأزمات، فإذا صام بان عليه الجوع، وصار يترقَّب أوان الفطر، وإذا خاف انتفض واضطرب ولم تحمله قدماه، وإذا حلَّت به نازلة أو مصيبة جزع، وإذا توقَّع ضررًا أو مرضًا بالغ في التخوُّف والتحوُّط[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 372)، و«تفسير القرطبي» (19/ 151)، و«فتح القدير» (5/ 427)، و«التحرير والتنوير» (29/ 409- 410).

(2) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (20/ 400)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 384)، و«روح البيان» (10/ 163).

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 94)، و«زاد المسير» (4/ 338).

(4) ينظر: «إيجاز البيان عن معاني القرآن» (2/ 839)، و«تفسير القرطبي» (18/ 290).

(5) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص414)، و«تفسير الطبري» (23/ 265)، و«تفسير الماوردي» (6/ 94)، و«تفسير البغوي» (8/ 223).

والتعبير بصيغة المبالغة: ﴿فَٰحِشَةً﴾، ﴿حُرِّمَتْ﴾، ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾، يدل على هذه الطبيعة المتطرِّفة الغالية البعيدة عن الاعتدال[1].

ومع المال تجده مستعجلًا، يريد أن يجمعه بكل حيلة، فهو شديد الحرص.

والمقصود بـ﴿(٢٢)﴾ هنا: الفقر أو الجوع أو المرض[2]، وهذه تُسمى في القرآن الكريم «سيئة» أيضًا، كما قال الله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ﴾ [الأعراف: 168]، فالمقصود الشر الدنيوي.

﴿أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ والمقصود بـ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾: الرزق والعافية والسَّعة والمال والولد[3]، فإذا أصابه الخير فإنه يحبسه ويبخل به أن ينفقه على محتاج.

والتعبير بـ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ عجيب؛ فهو يوحي بتأثير الأحوال في الإنسان عامة، وفي الهلوع خاصة، فهي تقترب منه وتحيط به وتداخله.

وهو يدل أيضًا على أن الأحوال لا تدوم، فهي تمسي اليوم بخير وغدًا بغيره، وتصبح على حال وتمسي على سواها، والعاقل الحكيم إن أصابته نعمة فرح وسُرَّ، ولم يخرجه ذلك إلى أَشَر وبَطَر ونسيان واعتقاد دوام الحال، وإن مسه ضرٌّ أو شرٌّ صبر وانتظر فراقه بالفرج والحول من الله، ولم يقنط أو ييأس.

وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا (٨٣)﴾ [الإسراء: 83].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 167).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 267)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7713)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 226)، و«تفسير أبي السعود» (9/ 32).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 267)، و«تفسير الرازي» (30/ 644)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 226)، و«التحرير والتنوير» (29/ 170).

وقد يتساءل البعض: إذا كان الله خلق الإنسان كذلك، فكيف يعاتبه على شيء جَبَله عليه؟

والجواب: إن الله تعالى خلق الإنسان على مقتضى حكمته في الدنيا لمصالح، وجبله على الشهوة، فهو يضبط هذه الشهوة فيصرفها في طريقها الصحيح الذي خُلقت له؛ لاستمرار دفة الحياة وحفظ النوع والتكاثر والابتلاء والامتحان، ويدافعها عن مراتع الهوى والهلكة، وإذا زل أو عثر، سارع بالتدارك مستعينًا بالله.

وإن وضعها الإنسان في خير أو في شر، فهذه مسؤوليته، وهكذا موضع الطباع الأخرى؛ كحب المال، فإذا سيطر حب المال وطغى صار مذمومًا لتجاوزه حد المباح.

والآية الكريمة تدل على أثر الإيمان في تهذيب الإنسان، وهي من أعظم الدلالات القرآنية على أن الإيمان والعبادات- ولا سيما الصلاة- ذات أثر كبير في تهذيب الأخلاق، فقد يكون الإنسان شرسًا سيِّئ الطبع، سيِّئ الخلق، بسبب التربية أو البيئة أو الطبائع الموروثة، أو الظروف التي ألـمَّت به؛ فتجده قاسيًا غليظًا جحودًا نَزِقًا طائشًا متسرِّعًا، ثم إذا به بالتقوى والإيمان والصلاة يُذعن ويلين، والآية تؤكِّد هذا المعنى وتبرزه بقوة.

* ولهذا قال: ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ﴾:

استثنى الله فئة من الناس وصفهم بالمصلِّين، وهم المسلمون، كما قال في «سورة المدثر»: ﴿□□□□□ □□ □□□□□□﴾، **والمصلُّون** هنا هم المؤمنون بالله[1]، وذكرهم

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7847)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 455)، و«فتح القدير» (5/ 399)، و«التحرير والتنوير» (29/ 327).

بالصلاة؛ لأنها أخص الصفات الإيمانية العملية، فدلَّ على أن الإنسان يمكن بفعله وبمحاولته وبعبادته أن يُهذِّب كثيرًا من أخلاقه.

وهذا ما تجده في تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه؛ فقد كانوا على بعض أخلاق الجاهلية، فلما جاء الإسلام أَذْعَنوا ولانوا وذلُّوا وانقادوا، وفي قصة الرجل الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: أوصني. قال صلى الله عليه وسلم: «**لا تغضبْ**». فردَّدَ مرارًا، قال: «**لا تغضبْ**»[1].

وهذا يتطلَّب أن يكون الإنسان رقيبًا على نفسه، أما الذي يسلِّط ملاحظاته على الآخرين ويعيبهم ويبحث عن مثالبهم، فهو يمضي قُدُمًا لا يلوي على شيء، منشغلًا بمثالب الناس عن عيوبه، فهو لا يصحِّح نفسه، ولا يرى لنفسه خطأً أصلًا، إلا على سبيل التواضع والتنظير!

ويكفي الصلاة شرفًا أن جعلها الله تعالى عنوانًا للإيمان وللأخلاق الكريمة والصفات النبيلة، ولا يُوصف الإنسان بالمصلِّي إلا إذا كان مداومًا على الصلاة، ومع ذلك أكَّد هذا بقوله: ﴿ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ﴾ أي: مستمرون عليها، لا ينقطعون عنها، ولا يضيِّعونها، لا يشغلهم عنها مال ولا أهل ولا ولد، ولا فرح ولا خوف ولا حزن، وهذا ملائم لسلامتهم من الهَلَع؛ لأنه كلما حزبهم أمر فزعوا إلى الصلاة، كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم[2]، ولأن الدنيا والتجارة والبيع لا تلهيهم عن الصلاة، بل هذَّبت أخلاقهم، وربَّتهم على الإيمان تربية ربانية.

---

(1) أخرجه البخاري (6116) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) كما في «مسند أحمد» (23297)، و«سنن أبي داود» (1319) من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّى».

وكلمة «**الدَّوام**» لا تعني البقاء الأبدي، كما يتوهم بعضهم، فيقولون: الدَّوام لله[1]. وهذا معلوم قطعًا؛ فالله تعالى هو الحي الذي لا يموت، وإنما المقصود الدَّوام النسبي الذي يكون في أمر الدنيا، والعرب يسمون المطر المتواصل: دِيمة[2]، ولما سُئلت عائشةُ رضي الله عنها عن عمل النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «كان عملُه دِيمةً»[3]. أي: كان إذا عمل عملًا أثبته، كما في حديث آخر[4].

فالدَّائم هو: المستمر، وليس من صفات الله تعالى، وإن كان قد يُخْبَر به عن الله، لكن على سبيل الخبر لا على سبيل الاسم أو الوصف.

ومن معنى الدَّوام: الإقبال على الشيء المقصود[5]، فإذا صلَّى فإنه لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، فهو مداوم على استقبال القبلة لا ينصرف عنها، بل يظل مقبلًا على صلاته بكليته، بقلبه وجوارحه، ولا يكترث لشأن الدنيا ما دام في مناجاته لربه.

* ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي﴾:

والزكاة تُقرن مع الصلاة في القرآن كثيرًا، فالصلاة حق البدن والروح، والزكاة حق المال، قال ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، والسُّدِّي، وغيرهم: «الحقُّ المعلوم هو: الزكاة»[6].

---

(1) ينظر: «معجم المناهي اللفظية» (ص621)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (1/ 790).

(2) ينظر: «تهذيب اللغة» (14/ 147)، و«الصحاح» (5/ 1924) «د ي م»، و«المفردات في غريب القرآن» (ص323) «د و م».

(3) أخرجه البخاري (6466)، ومسلم (783).

(4) أخرجه مسلم (746) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(5) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 206)، و«تفسير القرطبي» (18/ 291)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 226).

(6) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 270)، و«تفسير الرازي» (30/ 645)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 370).

وهذه الآية نزلت بمكة قبل فرض الزكاة بمقاديرها وأنصبتها المعروفة، وقد قرَّر العلماء أن في المال في أول الإسلام حقًّا يجب إخراجه للمساكين[1].

* ﴿حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾:

والسائل هو: الذي يسأل الناس ويمد يده، **وأما المحروم** فهو المتعفِّف، وهو نقيض السائل[2]، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]؛ ولهذا لا يعرفه الناس ولا يعطونه؛ لأنه لا يسألهم شيئًا، وقد نهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن المسألة، فقال: «**مَن سأل الناسَ، وله ما يغنيه، جاء يومَ القيامة ومسألتُه في وجهه خُموشٌ، أو خُدوشٌ أو كُدوحٌ**»[3]. لأن المسألة تذل الإنسان، وتريق ماء وجهه، ومن الإيمان أن تُعطي المحتاج ولا تضْطَره للسؤال، أن تبحث عنه، لا أن يبحث هو عنك، ولكن قد يقع للناس ضرورات أو مجاعات أو أحوال نازلة مفاجئة تحمل بعضهم على أن يسأل الناس؛ ولذا اعتبر الله حاله فذكره في الآية.

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «**للسائلِ حقٌّ، وإن جاء على فرسٍ**»[4].

---

(1) ينظر: «كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص17- 21)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي﴾، وما سيأتي في أول «سورة الأعلى».

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 343)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 74)، و«روح المعاني» (15/ 71)، و«التحرير والتنوير» (29/ 172).

(3) أخرجه أحمد (3675)، وأبو داود (1626)، والترمذي (650)، وابن ماجه (1840)، والنسائي (5/ 97)، والحاكم (1/ 407) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (499).

(4) أخرجه أحمد (1730)، وأبو داود (1665)، وابن خزيمة (2468)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (1/ 290)، والطبراني في «الكبير» (2893) من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (1378).

على أنه إذا كان السائل متكثِّرًا، فلا ينبغي إعطاؤه؛ لأن في ذلك إغراءً له على الكسل، وامتهان السؤال، والخلود للدَّعة والراحة، وتعويدًا على البطالة، وكثيرًا ما تتحول المسألة إلى عادة وإدمان، حتى لو أثرى الإنسان واستغنى، فإن نفسه تميل إلى مد اليد والتعرُّض للسؤال.

ويدخل في المحروم ذلك المحارَف المتعثِّر، الذي كلما اشتغل في شيء أخفق ولم يوفَّق، فدخل في التجارة وأسَّس المحل وأقام البناء، ثم خسر، وانتقل إلى شركة واجتهد وخسر، ثم دخل في الأسهم ونكب، وذهب للزراعة فلم يُوفق، فهذا يُسمى محارَفًا، أي: لم تقع في يده حرفة، وهو من صنف المحرومين[1].

وبعض الناس ربما يداومون على صلاتهم، ولكنهم لا يؤدُّون حقَّ الله في أموالهم، ويظهر فيهم البخل والشُّح والأَثَرة؛ ولذا جمع الله بين المحافظة على الصلاة وإخراج الزكاة للبراءة من الهلع؛ فالصلاة سكينة القلب، والزكاة طهارة المال والبراءة من تقديم حب الدنيا والعاجل على حب الله ورسوله.

* ﴿ٱلَّتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ﴾:

و﴿فَإِن﴾: الجزاء والدينونة والحساب[2]، فهم يؤمنون بيوم القيامة، والعادة جارية أن يعبِّر القرآن عن ذلك بالإيمان، لكن هنا عبَّر بالتصديق؛ ليبيِّن أن التصديق جزء مَكِين في الإيمان وأساس رَكِين، ولكنه لا يكفي حتى يصاحبه إحساس القلب بهذا التصديق.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 273)، و«تاج العروس» (23/ 136).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 208)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 496)، و«المحرر الوجيز» (5/ 369)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 227)، و«التحرير والتنوير» (29/ 173)، وما سيأتي في «سورة الانفطار»: ﴿سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ ﴾.

* ولذا عقَّب بذكر الخشية والخوف والإشفاق: ﴿تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ﴾:

أي: خائفون وجلون[1]، وهذه الصفة أعلى من مجرد التصديق العقلي.

ميَّز الله بين أولئك المستبعدين المستعجلين عذاب الله، وبين الذين هم به مصدِّقون ومنه مشفقون، يدعون الله تعالى بأن يدفعه عنهم، كما قال: ﴿٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ [الرحمن: 46]، فإذا صدَّق بيوم الدين فلا بد أن يخاف ويبتعد عن الكبائر، ويُؤْثِر ما عند الله، ويسرع بالتوبة.

* ﴿أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ﴾:

وإنما يأمنه المنافق والمكذِّب بيوم الدين، فهو يستبعده، بل وربما يستعجله تحديًا وسخرية، وقد سُئل الحسن البصري رحمه الله عن النفاق، فقال: «والله ما أمنه إلا منافقٌ، ولا خافه إلا مؤمنٌ»[2].

فعلى العبد أن يملأ قلبه من شعور الإشفاق من عذاب الله، وأن عذاب الله تعالى غير مأمون، وليعلم أن الرسل والأنبياء يقولون يوم القيامة: «**اللهمَّ سلِّم سلِّم**»[3]. فما بالك بمَن دونهم؟! ولعل هذا الخوف يكون سببًا في نجاة العبد، وفي مرضاة الرب.

وكرَّر في الموضعين ذكر ﴿مِنّ﴾، ولم يقل: ﴿□﴾؛ إشعارًا بقربهم ورحمته بهم، ولذا فإن المؤمن جمع عملًا وخوفًا، والمنافق جمع إساءة وأمنًا، ووصف الربوبية فيه

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 276)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 227)، و«تفسير السعدي» (ص887).

(2) أخرجه البخاري (1/ 18) معلقًا، والفريابي في «صفة النفاق» (81)، وأبو بكر الخلال في «السنة» (1656)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (2/ 757) (1057). وينظر: «فتح الباري» (1/ 111)، و«تغليق التعليق» (2/ 53- 54).

(3) أخرجه البخاري (7437)، ومسلم (182) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تلطف وتعطف، وإضافته إليهم لا تخلو من تأمين وتطمين، فـ«**مَن خاف أَدْلَج، ومَن أَدْلَجَ بلغَ المنزلَ**»[1].

* ﴿بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ لَفَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾:

وهذا له اتصال بالإشفاق والخوف؛ فإنه لا شيء يردع الإنسان عن الشهوة كالخوف من الله؛ ولهذا يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ**»[2]. فالخوف من عذاب الله هو خير رادع عن الوقوع في الكبائر.

والمقصود بحفظ الفروج: حفظها من الانكشاف، كما في حديث بَهْز بن حَكِيم، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**احفظ عورَتكَ، إِلَّا من زوجتكَ، أو ما ملكت يمينُكَ**»[3].

فالنظر إلى عورات الناس لا يجوز إلا لحاجة أو ضرورة[4]؛ ولذا عُوتب آدمُ وحواءُ عليهما السلام بكشف سوءاتهم، وامتنَّ الله على ذريته باللباس المواري لها.

ولهذا قال: ﴿سَلَفَۗ إِنَّ﴾ أي: مع أزواجهم، ﴿ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، وملك اليمين: لفظ يُطلق على الرَّقيق، ويقصد بها هنا: الإماء، ﴿٢٣﴾.

---

(1) كما في «مسند عبد بن حميد» (1460)، و«جامع الترمذي» (2450)، و«قصر الأمل» لابن أبي الدنيا (115)، و«الضعفاء» للعقيلي (4/ 382)، و«المستدرك» (4/ 307) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (954، 2335).

(2) أخرجه البخاري (6772)، ومسلم (57) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه أحمد (20034)، وأبو داود (4017)، والترمذي (2769)، وابن ماجه (1920)، والحاكم (4/ 179).

(4) ينظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (14/ 19).

وما أجمل هذا التعبير! فإن عادة الإنسان أنه قد يجد في نفسه بعض الاستقذار للعلاقة الجنسية لأسباب عديدة، والآية تنفي الملامة ما دامت العلاقة في حدود ما أباح الله، وهو معنى أخلاقي تربوي نفسي مهم للآباء وللأزواج وللمربِّين، ومهم للشباب وللفتيات؛ ليفرِّقوا بين الحياء المشروع والخجل المذموم، وبين التبجح المرذول وبين الفطرة السوية، وقد جعل الله للرسل عليهم السلام أزواجًا وذُرية، وجاء الإسلام ليُهذِّب الغرائز ويرتقي بها؛ حتى لا يشعر الإنسان أن العلاقة الجنسية شيء مستقذر أو ممقوت، ما دامت في الحلال، بل هي تحصين للنفس وللزوج، وقد سمى الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك صدقة، فقال: «**وفي بُضْع أحدكم صدقةٌ**». قالوا: يا رسولَ الله، أيأتي أحدُنا شهوته، ويكون له فيها أجرٌ؟! قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ**»[1].

❊ ﴿□□□□□□□□﴾:

والمقصود بـ﴿□ □﴾: كشف العورات والاندفاع وراء الشهوات المحرمة، و﴿□﴾ هم الذين تعدَّوْا حدودَ الله تعالى، فعُوقبوا[2].

والتعبير بـ«العادي» يختلف عن «المعتدي»، فالمعتدي: المغتصب بالقوة؛ لأنه من العدوان، **أما العادي** فهو: الذي تجاوز حدًّا وخطًّا مرسومًا له، حتى لو كان بالتراضي بينهما، فالقوانين التي تجرِّم الفعل حين يكون اعتداء وتبيحه حين يكون بالتراضي، هي أحكام جائرة عادية معتدية على حدود الله.

والآيات كلها في صفة المؤمنين المصلِّين، ولكن سياق آية الفروج موجَّه إلى الرجال أصالة وإلى النساء تبعًا؛ لقوله: ﴿سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾،

---

(1) أخرجه مسلم (1006) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (17/ 12)، و«أضواء البيان» (5/ 309).

والمرأة لا يحل لها ملك يمينها؛ وذلك لأن الرجال أكثر تطلبًا للوصال وجرأة عليه وقدرة ومالًا وتقلبًا وحركة وسفرًا، والمرأة وإن كانت طرفًا، إلا أن الغالب أنها مطلوبة وتابعة فيما يظهر، والله أعلم[1].

* ﴿□□□□□□﴾:

تشمل الأمانات: التكاليف الشرعية؛ كالصلاة والصوم والزكاة والغسل والوضوء، وحتى الإيمان فهو أمانة، وتشمل أمانات الناس من القيام بواجب السلطة أو الوظيفة أو أداء الأمانة، سواء كانت أمانة في المال أو السر أو العلاقة أو العهد والميثاق[2]، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: 91]، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أَدِّ الأمانةَ إلى مَن ائتمنكَ، ولا تَخُنْ مَن خانكَ**»[3].

وفي الأمانة يقول الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: 72]، وهنا قال: ﴿□ □ □﴾؛ لأنهم مصلُّون؛ فاستثناهم من الهلوعين، أما الذي لا يراعي الأمانة فهو الظلوم الجهول الهَلوع، والإيمان يُربِّي الإنسان على حفظ العهد والأمانة، حتى مع الكافر والفاجر.

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (5/ 410)، و«تفسير القرطبي» (12/ 105).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 277)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 496)، و«تفسير البغوي» (5/ 410)، و«روح المعاني» (15/ 71).

(3) أخرجه الدارمي (3639)، وأبو داود (3535)، والترمذي (1264)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (184)، والحاكم (2/ 46) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه أحمد (15424)، وأبو داود (3534)، والبيهقي (10/ 456) من حديث رجل من الصحابة رضي الله عنه. وينظر: «الأم» (5/ 112)، و«علل ابن أبي حاتم» (1114)، و«العلل المتناهية» (973-975)، و«ميزان الاعتدال» (2/ 345)، و«إغاثة اللهفان» (2/ 77- 78)، و«التلخيص الحبير» (3/ 209-210)، و«السلسلة الصحيحة» (423).

وقد تجد من المسلمين ومَن يتظاهرون بالصلاح مَن يكونون بين أقوام كافرين، فيستحلون دماءهم وأموالهم، ويدخلون بلادهم بموجب العهد والأمانة والميثاق والأوراق الثبوتية الرسمية، ثم يغدرون بهم ويسرقون ويغشُّون ويكذبون، وهم بذلك يزعمون أنهم مؤمنون!

ويا للعجب! كيف يسوّغ للمسلم أن ينقض العهود؟!

وكيف تدعو الناس إلى الإسلام وأنت تمد يدك لجيوبهم لتسرق ما فيها؟!

وكيف تدَّعي الإيمان وأنت تكذب؟!

وكيف تبرم للناس مواثيق ثم تخونها؟!

قد كان أشراف العرب في الجاهلية يأنفون من خَفْر الذمم ونقض العهد وخيانة الأمانة، كما في قصة أبي سفيان مع هرقل[1].

فهذا الأثر العملي للصلاة حين تطبع شخصية المؤمن، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «مَن لم تأمرْهُ صلاتُه بالمعروف، ولم تنهَهُ عن المنكر، لم يزددْ من الله إلا بعدًا»[2]، ورُوي مرفوعًا، ولا يصح[3].

لكن جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿□□□□□□□□□□﴾ [العنكبوت: 45].

❊ ﴿□□□□□﴾:

ومن أعظم الشهادة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ومنها أن يكون المسلم قدوة لغيره في الأخلاق، فيشهد بحق على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (7)، و«صحيح مسلم» (1773).

(2) أخرجه أحمد في «الزهد» (878)، وأبو داود في «الزهد» (126)، والطبراني في «المعجم الكبير» (8543)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2994).

(3) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (2).

ومنها الشهادة بالحق الواضح لصاحبه، سواء أكان قريبًا أم بعيدًا، عدوًّا أم صديقًا، مسلمًا أم كافرًا، لا تحمله القرابة والصلة والعاطفة على تجاوز العدل أو كتمان الشهادة، كما قال سبحانه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 8]، وقال: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ [البقرة: 283].

❊ ﴿□□□□□□﴾:

أعاد الصفة التي بدأ بها، وهي الصلاة، واستخدم فعل ﴿□﴾، وهو فعل مضارع يدل على الاستمرار وتجدد الاهتمام بالصلاة، فهم يحافظون على الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها، والخشوع والإقبال على الله تعالى، والأذكار والقرآن والتسبيح والدعاء.

وأجد في هذا الموضع من الحفاوة بالصلاة ما لم أجده في غيره من القرآن؛ لأنه جعل اسمهم: ﴿ٱلۡأَخِ﴾، ثم بدأ صفاتهم بدوام الصلاة، ثم ختمها بالمحافظة عليها، ولا غرابة ما دامت قلوبهم مشفقة وجلة عامرة بالإيمان[1].

❊ ﴿□□□□□﴾:

ويا له من موعود عظيم كريم، وهو وعد يأتي في مقابل وعد أولئك المكذِّبين: ﴿بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ﴾، ولم يقل أنهم «في جنة»، بل قال: ﴿□□﴾، كما هو أسلوب القرآن في مواضع، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤﴾ [القمر: 54]، وقد يعبِّر بالمثنى، كما في قوله: ﴿٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ [الرحمن: 46]، ثم قال: ﴿□□□□﴾ [الرحمن: 62]، فهي أربع جنان

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 174)، و«إعراب القرآن وبيانه» (10/ 216).

أو أكثر، وقد يعبَّر بـ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾، كما في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ [الحشر: 20]. والمفرد على تسمية العموم، وهو الغالب، و﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ على إرادة درجاتها، كما هو مفصَّل في «سورة الرحمن»، و﴿جَنَّٰتٍ﴾ أيضًا على إرادة طبقاتها، كما قال صلى الله عليه وسلم لأم حارثة رضي الله عنها: «**إنها جنانٌ في الجنة، وإن ابنك أصابَ الفردوسَ الأعلى**»[1]. وكما هم على صلاتهم دائمون، فهم في جناتهم خالدون؛ جزاءً من ربك عطاءً حسابًا.

وفي هذه الجنات من ألوان الكرامة، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر.

❊ ﴿□□□□□□﴾:

لماذا هم ﴿□﴾ أي: مسرعين؟! فالْمُهْطِع هو الذي يمشي بسرعة، وهو رافع رأسه، إما على سبيل الكِبْر، أو على سبيل الاستهزاء أو السُّخْرية[2].

❊ فهم مهطعون في هذه المشية الغريبة المستنكرة: ﴿□□□□□□﴾: بعضهم عن يمينك وبعضهم عن شمالك، أي: وبعضهم أمامك وبعضهم وراءك، فإنه قد يُكتفى باليمين والشمال عن الأمام والخلف، كما قال الشاعر[3]:

---

(1) أخرجه البخاري (2809) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (13/ 706- 707)، و«تفسير الماتريدي» (6/ 409)، و«تفسير الماوردي» (6/ 96)، و«تفسير الرازي» (30/ 646)، و«تفسير القرطبي» (18/ 293)، و«فتح القدير» (3/ 138)، و«التحرير والتنوير» (29/ 176).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص233)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص442)، وما تقدم في «سورة القمر»: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: 8].

(3) ينظر: «أمالي القالي» (2/ 190)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (4/ 1099) منسوبًا إلى قَطَري بن الفُجاءة.

فلقد أراني للرِّماح رديئةً *** من عن يميني تارةً وأمامي

أي: أحيانًا أمامي أو عن يميني أو ورائي أو عن شمالي، فهؤلاء القوم يُحيطون بالنبي صلى الله عليه وسلم من كل جهة.

وقوله: ﴿□﴾ جمع: عِزَة، أي: فئة، فمعنى ﴿□﴾: جماعات متفرِّقة، بعضهم هنا، وبعضهم هناك، وناس يتلفتون هنا، وناس ينظرون هناك[1]، كما ذكر الله تعالى في «سورة المطففين»: ﴿□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□﴾.

* ﴿□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□﴾:

استفهام تهكمي يهز الوجدان هزًّا، أكل واحد منهم ينتظر أن يكون له جنة نعيم وحده، فلماذا هذا الكبرياء؟! أليسوا هم الهلوعون الجزوعون المنوعون؟! أليسوا ممن ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ﴾ [المعارج: 17- 18]؟! أهذا يؤهِّلهم لجنة النعيم؟!

﴿□□﴾ أي: لن يأتيهم هذا، ولن يتحقق لهم؛ فلقد تمادى طمعهم فتجاوز الدنيا إلى الآخرة، وقال قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصلت: 50].

﴿□ □ □ □﴾ فهم يدركون مم خُلقوا، وهو لا يؤهلهم لجنة النعيم؛ لأنه ماء مهين: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ [المرسلات: 20]، خُلق الإنسان من نُطْفة ثم مُضْغة ثم عَلَقة، فهو شيء حقير صغير، ومع ذلك فقد اختاره ربه سبحانه واصطفاه ورقاه في المدارج، حتى أصبح ذا شأن ومكانة، فالرسل تُبعث إليه، والملائكة تنزل من أجله، والقرآن يُخاطبه، والرب سبحانه يناديه ويناجيه ويدعوه:

---

(1) ينظر: «مجاز القرآن» (2/ 270)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 233)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص565) «ع ز ا»، و«تفسير البيضاوي» (5/ 247)، و«فتح القدير» (5/ 351)، و«التحرير والتنوير» (29/ 177).

﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: 53]، وهو يعرض ويطغى ويسخر ويمضي في غيه دون ارعواء!

* ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ﴾:

هذا قَسَم، مثل قوله: ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾ [القيامة: 1]، ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [البلد: 1]، فيقسم عز وجل بذاته العلية، وأنه رب المشارق والمغارب، أي: مشارق الشمس ومغاربها، وهي ثلاثمئة وستون مشرقًا وثلاثمئة وستون مغربًا، في كل يوم مشرق ومغرب لا يتكرر في العام[1]، أو مشارق الشمس والقمر والنجوم ومغاربها[2]، وجاء بالجمع هنا؛ لأن الأمر يتعلق بالإعجاز والقدرة.

وأيضًا: يتعلق بهؤلاء الناس الذين لا يُحصي عددهم إلا الله، وتتنوع مساكنهم ومقارهم ومطالعهم ومغاربهم، وفي «سورة الرحمن» قال: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ﴾؛ لأن «سورة الرحمن» كانت تخاطب الجن والإنس، وكل شيء ورد فيها مثنى مثنى، وفي الموضع الثالث قال: ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ [المزمل: 9] مفردًا؛ لأن المقام مقام التوحيد، وبيان وحدانية الله سبحانه وتعالى الذي قال: ﴿وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ﴾ [المزمل: 9].

فالله عز وجل يقسم هنا بذاته العلية وربوبيته وبالمشارق والمغارب بالعموم الذي لا يند عنه شيء على قدرته.

وتضمين القسم ذكر المشارق والمغارب له صلة بالاستعجال الذي سجله عليهم في صدر السورة، وكأنهم لا يرصدون حركة الأفلاك والنجوم والشمس والقمر،

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 283)، و«تفسير الماوردي» (5/ 37).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 371)، و«التفسير المظهري» (10/ 70).

والتي يقرب معها البعيد ويهرم معها الشاب ويضعف معها القوي، وأحيانًا يقوى معها الضعيف، فتقع حركة التبديل والإحلال، بزوال قوم ومجيء آخرين في حركة سنية ربانية لا تحابي..

* ﴿قِنطَارًا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا﴾:

أي: قادرون أن نأتي بخير منهم بدلًا عنهم، ونبدلهم بهم، وتدور الأيام والليالي على سواهم[1]، أفكانوا يعتقدون أنهم خالدون؟! ﴿□□□□□□□□□□﴾ [محمد: 38].

ويحتمل أن يكون المقصود أن نأتي بهم يوم القيامة فنعيد خلقهم أقوى وأحسن مما خلقناهم في الدنيا[2]، كما قال: ﴿أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم﴾ [الإنسان: 28]، ويكون المقصود بالخيرية هنا خيرية القوة والجسد، وليست خيرية الإيمان والتقوى؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا﴾، وفي الآية الأخرى قال: ﴿(٢٢) حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ﴾ [الواقعة: 60، 61]، **فالمقصود**: نُعيد خلقهم في الآخرة بطريقة أعظم مما في الدنيا[3]، فإذا كانوا يستغربون إعادة الإنسان كما هو، فالله تعالى يُعيدهم يوم القيامة بخلقة أعظم.

ومما يقوِّي هذا المعنى، وأن المقصود الإشارة إلى شيء سيقع فعلًا: أنه لم يقل: «وإن شئنا»، أو: «ولو شئنا» على سبيل الاحتمال، بل قال: ﴿أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ﴾،

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 439)، و«تفسير السمعاني» (6/ 52)، و«تفسير القرطبي» (18/ 295)، و«التحرير والتنوير» (29/ 180).

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 229)، و«التحرير والتنوير» (29/ 180).

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7283- 7284)، و«تفسير الرازي» (29/ 418)، و«تفسير القرطبي» (17/ 217)، (19/ 94)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 547)، و«فتح القدير» (5/ 188)، وما تقدم في «سورة الواقعة».

فكأنه شيء قادم ﴿إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم﴾ أي: خلقناهم مرة أخرى بخلقة أخرى أقوى وأعظم[1]، وقد ورد أنهم يُبعثون في صورة أبيهم آدم عليه السلام[2].

وابن القيم قال بهذا المعنى، ووافق الزمخشري، مع ما بينهما من التباعد في المعتقد![3].

وقوله: ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا﴾ أي: لا أحد يُعجز الله سبحانه ولا يغلبه، وهو القوي العزيز الذي أمره بقول: ﴿□﴾، وله الجنود التي لا يعلمها إلا هو، لا تعصيه طرفة عين.

* ﴿مُّبِينًا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾:

أي: اتركهم ولا تأس عليهم ولا تحزن واصبر، وذرهم في خوضهم يلعبون، ولا تدخل معهم في مماحكات أو مجادلات لا طائل من ورائها ما داموا لا يبحثون عن الحق، ولذا سمَّى ما هم عليه: خوضًا ولعبًا؛ لأنهم غير جادين في حديثهم وسؤالهم.

وهذا ليس أمرًا متعلقًا بقتالهم أو عدمه، فالبعض يقولون عن مثل هذه الآيات: هي منسوخة بآية السيف[4]، وزعم بعضهم أن آية السيف نسخت أكثر من سبعين آية[5].

---

(1) ينظر: «تفسير البيضاوي» (5/ 273).

(2) كما في «صحيح البخاري» (3327)، و«صحيح مسلم» (2834) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 675)، و«التبيان في أقسام القرآن» (ص198).

(4) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (8/ 280)، و«تفسير الرازي» (13/ 64)، و«تفسير القرطبي» (18/ 296)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 376)، و«فتح القدير» (5/ 353)، وما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾.

(5) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 248).

وهذا فيه نظر ظاهر، حتى آية السيف لم يحصل اتفاق على تعيينها، وإنما هذه توجيهات إلهية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يعرض عنهم، وأن يتركهم وما هم فيه، مع القيام بالدعوة.

والخَوْض هو: الكلام في الأمور التي لا يحسنها الإنسان[1]، كما قال الله تعالى: ﴿تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾ [التوبة: 69]، فمَن تكلم بغير حجة، فهذا يسمى خائضًا[2].

وقوله: ﴿تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ﴾ كأن هذا اليوم كائن حيٌّ شاخص يلاقونه وينتظرهم وينتظرونه، وهو يسعى إليهم كما يسعون هم إليه، وفي بعض القراءات: (**يَلْقَوْا**)[3].

و﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ﴾ هو اليوم الذي يستعجلونه، وهو واقع بهم، وقد عاصروا في هذه الدنيا الكثير من الأيام، وشاهدوا المشارق والمغارب، وسمعوا كثيرًا من العبر والتحولات والأجيال التي حلَّت محل غيرها، ولكنهم ظنوا أنفسهم شيئًا مختلفًا، وأن السنة لا تجري عليهم.

* ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾:

---

(1) ينظر: «تهذيب اللغة» (7/ 196)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص302)، و«تاج العروس» (18/ 324) «خ و ض».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (11/ 551)، و«تفسير الماتريدي» (5/ 424)، و«تفسير الماوردي» (2/ 380)، و«المحرر الوجيز» (3/ 57)، و«التحرير والتنوير» (10/ 259).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (6/ 120)، و«إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص497)، و«فتح القدير» (5/ 353)، و«معجم القراءات» (10/ 90).

والمقصود بـ﴿غَلِيظًا﴾: القبور[1]، و﴿٢١﴾ أي: سريعين مُهْطِعين[2]، ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ﴾، **والنُّصُب**: التمثال والصنم[3]، فشبَّه إسراعهم بحالهم في الدنيا حينما يركضون إلى أصنامهم، **ومعنى** ﴿نَكَحَ﴾: يركضون إلى هدف معلوم![4].

* ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾:

ولم يقل: «خاشعين»؛ إشارة إلى أن الخشوع هنا ليس خشوع الإيمان الذي كان يُطلب منهم في الدنيا في الصلاة، كما مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا﴾ [المؤمنون: 2]، وإنما هو خشوع الذل والاضطرار والخوف. ﴿إِلَّا﴾ أي: تغشاهم وتغمرهم من كل مكان ﴿مَا قَدْ﴾، فمَن لم يذل في الدنيا لربه أذلّه الله تعالى يوم القيامة بالعذاب، ومَن ذل لله وعفَّر جبهته لجلاله واستغفره وصلَّى وخشع واعترف له بالوحدانية، فإن الله تعالى يحفظه يوم القيامة ويمنحه العز والأمن.

وقوله: ﴿سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ إشارة إلى ما كانوا يستبعدونه، وهو يوم البعث والنشور، فها هو قد تحقَّق أمام نواظرهم، فتبدأ السورة باستعجالهم العذاب، وتنتهي بالإشارة إلى هذا اليوم الذي كانوا يستعجلونه حين يسمعون الوعد به، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص366)، و«تفسير الطبري» (23/ 284).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 498)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 247)، و«روح البيان» (10/ 170).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 224)، و«تفسير الماوردي» (6/ 97)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص807) «ن ص ب».

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 285)، و«تفسير الماوردي» (6/ 97)، و«الكشاف» (4/ 614).

سورة نوح

* **تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «**سورة نوح**»، كما في المصاحف، وكتب التفسير[1].

وسُمِّيت- كما في «صحيح البخاري»-: «**سورة** ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾»[2]، أو: «**سورة** ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾»، كما في بعض التفاسير[3]، ويبدو أن هذا الاسم مشهور عند السلف.

* **عدد آياتها:** ثمان وعشرون آية باتفاق علماء التفسير[4].

* **وهي مكية**[5] نزلت بمكة، ونزل قبلها ما يزيد على أربعين سورة، والظاهر أنها نزلت جملة واحدة، فهي بهذا تشبه «سورة الجن» التي نزلت في سياق واحد غير منقطع.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 443)، و«تفسير الطبري» (23/ 288)، و«المستدرك» (2/ 502)، و«المحرر الوجيز» (5/ 372)، و«فتح القدير» (5/ 355).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (6/ 160)، و«التحرير والتنوير» (29/ 185).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص675)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 348)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 39).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 447)، و«تفسير الطبري» (23/ 288)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 499)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص255)، و«الكشاف» (4/ 615).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 288)، و«زاد المسير» (4/ 341)، و«تفسير القرطبي» (18/ 298)، و«الكشاف» (4/ 615).

* **موضوعها:** قصة نوح عليه السلام، وهو أول الرسل، كما جاء في حديث الشفاعة يوم القيامة، قالوا له: «**يا نوحُ، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض**»[1].

وكان قبله آدم عليه السلام نبيًّا مُكلَّمًا[2] مُعلَّمًا، وعلَّم أهله وذريته وأولاده الإيمان والتوحيد، وظلت البشرية بعد آدم قرونًا على الهدى والإيمان، ثم حصل التغيير، وكان أصله أنه لما مات الأولون من أهل الديانة والعبادة والتقوى والإيمان قال الشيطان لِمَن بعدهم: لو نصبتم لهم نُصبًا، حتى تستعينوا بهم وتتذكروهم. فنصبوا لهم في محافلهم نُصبًا- أي: تماثيل- كالأصنام، فلم تُعبد، ثم اندرس العلم فعُبدت، كما جاء في «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما[3].

فبعث الله تعالى نوحًا عليه السلام مجدِّدًا لدعوة التوحيد؛ **ونوحٌ** ليس اسمًا عربيًّا، فلا معنى لقول مَن يقول: إنه مشتق من النَّوْح، أو ما أشبه ذلك، وإنما هو اسم أعجمي[4]، أرسله الله تعالى إلى قومه وكان عمره يوم أُرسل ثلاثمئة وخمسين سنة، على ما حكاه بعضهم[5]، **والأقرب** أن عمره كان أربعين سنة، كعادة الله تعالى في

(1) أخرجه البخاري (3340)، ومسلم (194) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) كما في حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ الأنبياء كان أولًا؟ قال: «**آدمُ**». قلتُ: ونبيًّا كان؟ قال: «**نعم، نبيًّا مكلَّمًا**». أخرجه الطيالسي (480)، وأحمد (21546)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (298).

ونحوه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. أخرجه أحمد (22288)، وابن حبان (6190)، والحاكم (2/ 262). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2668).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (4920).

(4) ينظر: «تفسير السمرقندي» (2/ 246)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (4/ 2413)، و«اللباب في علوم الكتاب» (5/ 160)، و«روح المعاني» (15/ 76)، و«التحرير والتنوير» (29/ 186).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص827).

(5) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 98)، و«المحرر الوجيز» (4/ 310)، و«زاد المسير» (3/ 402)، و«تفسير القرطبي» (13/ 332).

إرسال الرسل والأنبياء على رأس الأربعين[1]، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:14].

وهذه السورة حكاية مجملة لعمر دعوته عليه السلام في قومه، والتي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا.

قيل: إن قوم نوح كانوا قلة[2].

ومن حكمة الله تعالى أنه لما كان البشر قليلًا كان الله يمد في أعمارهم؛ تعويضًا عن النقص الموجود في العدد، فقد كانت أعمارهم تطول، لاقتضاء حكمة الله أن يمتدوا وينتشروا.

* ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ﴾:

الاستفتاح التحم بضمير العظمة؛ لتكريس مبدأ الربانية في دعوة نوح عليه السلام، وترسيخها في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، وعادة ما يستخدم ضمير الجمع في هذا السياق فيما للملائكة فيه مدخل، فالرسالة تكون بواسطة مَلَك، كجبريل عليه السلام أو غيره، وكذلك التثبيت، ومثله العذاب للمكذِّبين.

وقد يكون المقصود بـ﴿عَلَيْكُمْ﴾ عموم الناس في زمنه؛ لأنه لم يكن ثَمَّ يومئذ إلا قومه[3]، وعليه يكون الطوفان الذي أرسله الله تعالى قد اجتاحهم وعمَّ الأرض كلها، ولم ينج إلا مَن كان مع نوح في السفينة.

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 170)، و«تفسير القرطبي» (18/ 298)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 268)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 177)، و«زاد المسير» (2/ 374)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 321)، و«في ظلال القرآن» (6/ 3710).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 187).

وقد يؤيِّد هذا المعنى حديث الشفاعة ومجيئهم إلى نوح عليه السلام وقولهم له: «**يا نوحُ، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض**»[1].

فيحتمل أن يكون نوح أُرسل إلى الخلق كلهم، ويحتمل أن يكون أُرسل لقومه، والطوفان عمَّ الأرض التي كان فيها قومه الذين كذَّبوه، ولا يمنع هذا أن يكون في مواضع أخرى من الأرض أممٌ وأقوام لم يُرسل إليهم نوحٌ[2].

وقد يعتضد هذا المعنى بقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: «**وكان النبيُّ يبعثُ إلى قومه خاصةً، وبُعثتُ إلى الناس كافةً**»[3]. ويتعزَّز هذا بظاهر سياق الآية الكريمة.

وخلاصة هذه الرسالة ذكرها الله تعالى في صدر الآية عنوانًا للقصة كلها، فقال: ﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ﴾ أي: أنذرهم العذاب الأليم، والمعنى ظاهر، أي: ادعهم إلى التوحيد والإيمان بالله وطاعته واتِّباع رسله، حتى لا يُعذَّبوا.

وقد يكون العذاب الأليم: الطوفان الذي اجتاحهم بعد ذلك، أو هو العذاب الأليم في الآخرة؛ لأن الرسل جاؤوا كلهم جميعًا يُذكِّرون بالآخرة ويحذِّرون من عقاب الله تعالى لأهل معصيته[4].

---

(1) تقدم قريبًا.

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (3/ 168)، و«تفسير المنار» (12/ 89- 91).

(3) أخرجه البخاري (438)، ومسلم (521) من حديث جابر رضي الله عنه.

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 98)، و«تفسير القرطبي» (18/ 298)، و«التحرير والتنوير» (29/ 186- 187).

والأقرب إرادة الأمرين معًا، فالأنبياء يحذِّرون أقوامهم عذاب الآخرة وعذاب الدنيا، خاصة عذاب الاستئصال الذي كان ينزل بالأمم السابقة المكذِّبة، فيبيد خضراءها، ولا يكون معه مَدْفَع.

* ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾:

فيه دلالة على أنه عليه السلام قام بهذه الدعوة بمجرد ما أوحى الله تبارك وتعالى إليه، من غير تلبُّث ولا تريُّث ولا تأخُّر، فقام إلى قومه فنادى بحرف (يا)، وفيه توجيه ولفت للأنظار، ثم وجَّه خطابه لهم بقوله: ﴿أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، والكسرة على الميم قائمة مقام ياء المتكلِّم[1]، وكأنه يقول: يا جماعتي، يا أهلي. وهذا تذكير بالرابطة التي بينه وبينهم، وأنه واحد منهم.

وكان من حكمة الله أنه يبعث النبيَّ من القبيلة نفسها؛ لأنه لو كان الرسول أجنبيًّا أو غريبًا، لرفضوه ونبذوه.

وهو سبحانه لم يبعث ملائكة، بل بشرًا ﴿قِنطَارًا فَلَا﴾ [آل عمران: 164].

- لأن كون الرسول منهم يجعلهم يراعون القرابة والعلاقة بينه وبينهم.

- ولأنه حين يكون منهم فإنه يتقن لغتهم ولسانهم: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن﴾ [إبراهيم: 4].

- ولأنه أعرف بعاداتهم وطرائقهم وأعرافهم، وما يمكن أن يؤثِّر في الدعوة قبولًا أو رفضًا.

- ولأنه مثلهم في العقل والفكر والشعور والإحساس والاحتياج، وهذا يُسهِّل المداخل في الدعوة، إذ كيف يدعو المرءُ جنسًا لا يعرف مواقع رضاه ولا غضبه ولا حبه ولا بغضه ولا احتياجه ولا استغناءه.

---

(1) ينظر: «إعراب القرآن وبيانه» (10/ 222).

وهذا دليل على أن الداعية ينبغي أن يتحرَّى كل الأسباب والوسائل التي تكون مدعاة إلى قبول دعوته.

﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ﴾، و«إنَّ» من أدوات التوكيد، والنَّذير: منذر، كما يقال: فلان سميع، أي: مُسْمِع للناس، يُسْمِع الناسَ[1]، فليس المقصود أنه يَسْمَع، ولكن تأتي بمعنى أنه يُسْمِع، وبمعنى أنه جَهِير الصوت، كما قال عمرو بن مَعْدي كرب[2]:

أَمِن ريحانةَ الدَّاعي السَّميعُ *** يُؤَرِّقُنــي وأصحـابي هُجــوعُ؟

أي: الداعي المصوِّت الذي يصيح فيُسْمِع الناسَ.

و﴿وَأُمَّهَٰتُ﴾: بيِّن النِّذارة، ونص على أنه لهم، فهم المقصودون بالرسالة، والمصلحة تعود لهم، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في دعوته قومه وصعوده على الصفا: واصباحاه، واصباحاه! فاجتمعت إليه قريش، فقال: «**إني أنا النَّذيرُ العُريان**»[3]. والنذير العُريان هو الذي كان ينذر الناس، ومن شدة حرصه يخلع ثوبه ويلوِّح به للناس إذا كانوا بعيدين، يحذِّرهم العدوَّ، وهذا مَثَلٌ يُضرب، فيقال: «النَّذير العُريان»[4].

* ثم شرع في تحديد ماهية الدعوة ولبابها وأساسها: **﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾: فذكر ثلاثة أمور:**

---

(1) ينظر: «لسان العرب» (8/ 164)، و«تاج العروس» (7/ 291)، و«التحرير والتنوير» (29/ 188).

(2) ينظر: «ديوان عمرو بن معدي كرب» (ص136).

(3) أخرجه البخاري (6482)، ومسلم (2283) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(4) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (15/ 48)، و«فتح الباري» (11/ 316- 317).

1- ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّتِي فِي﴾ أي: وحِّدوه، ولا تعبدوا إلا إياه، وهم كانوا مشركين، قد تركوا عبادة ربهم، فهو يدعوهم إلى التوحيد، والعبادة هي التذلُّل[1]، كما يُقال: طريق معبَّد، أو بعير معبَّد، إذا كان مذلَّلًا[2]، وطَرَفة بن العبد يقول[3]:

إلى أن تَحامَتني العَشيرَةُ كُلُّها *** وأُفرِدتُ إِفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

أي: تُرك وحده ترك البعير الجرب، فالتعبيد هو الإطراق، والبعير المعبَّد هو الذي حُمل عليه كثيرًا حتى تعب وأجهد.

فالعبودية تعني الذل لله سبحانه وتعالى، والانقياد والاعتراف بألوهيته، وتقديم حقه سبحانه، وأساسه الإيمان بقوة الله وقدرته وكماله وعلمه وسائر صفاته، وأنه المدبِّر المصرِّف المستحق للعبادة.

2- ﴿حُجُورِكُم﴾: والفرق بين التقوى والعبادة، أن العبادة هي فعل ما أمرنا الله تعالى بفعله، والتقوى ترك النهي[4]، **والمطلوب في الإيمان شيئان:**

- **فعل الأمر**؛ كالتوحيد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم، والحج.

- **ترك النهي**؛ كترك الفواحش والمُوبقات والقطيعة والرِّبا والزِّنا والفجور والشرك.

فهما ركنان لا بد منهما، وقد تكون المنهيات في زمن نوح عليه السلام قليلة، وكذلك المأمورات؛ لأن أصلها التوحيد، وما وُجد بعد ذلك في شريعة موسى أو

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (7/ 381)، و«تفسير القرطبي» (1/ 232)، و«التحرير والتنوير» (1/ 326).

(2) ينظر: «تفسير الراغب الأصفهاني» (1/ 58)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص29).

(3) ينظر: «ديوان طرفة بن العبد» (ص25).

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 220- 221)، و«تفسير الرازي» (30/ 649).

عيسى أو في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن قوم نوح مأمورين به، إنما كانوا مأمورين بالأصول العامة والكليات[1].

3- ﴿مِّن﴾: لأنه نبيٌّ مبلِّغ عن الله، فهم إذا آمنوا به وأطاعوه عبدوا الله واتقوه، ولو لم يطيعوا هذا النبي لم تتحقق لهم العبادة، أي: فيما آمركم به من طاعة الله.

* ﴿ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا﴾:

وعدهم هنا بشيئين: دنيوي وأخروي، **والمغفرة**: السِّتر، ومنه المِغْفر الذي يستر به الرأس[2]، **فالمعنى**: أن يستر الله ذنوبكم عليكم، ولا يؤاخذكم بها، ولا يفضحكم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وتعني محو الذنب والعفو عنه.

وقوله: ﴿بِهِنَّ فَإِن﴾: إما أن تكون ﴿بِهِنَّ﴾ بمعنى: ﴿شَيْـًٔا﴾، أي: يُسامحكم عن ذنوبكم[3]، أو تكون ﴿بِهِنَّ﴾ هنا للتوكيد[4]، وهذا جيد على طريقة نُحاة الكوفة، فهم يزيدون ﴿بِهِنَّ﴾ في الإثبات[5]، كما لو سألك إنسان: هل هناك مطر في البلد؟ فتقول: نعم، قد كان من مطر. أي: هناك مطر، ومطر قوي، فهكذا قول الله: ﴿ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم كلها، ولا يُبقي منها شيئًا، وهو في النفي أوضح، كما لو سألك أحدهم فقال: أجاء أحد إلى هذا المكان؟ فتقول: ما جاء من أحد.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 189).

(2) ينظر: «تهذيب اللغة» (8/ 112)، و«الكليات» للكَفَوي (ص666) «غ ف ر».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 289)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7729).

(4) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 189).

(5) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 231)، و«فتح القدير» (5/ 356).

ومثله قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [المائدة: 19]، أي: ينفون مطلقًا أن يكون أتاهم بشير أو نذير، فهي للتوكيد، وأنه ما جاءهم من أحد.

ويجوز أن تكون للتبعيض[1]، أي: يغفر بعض ذنوبكم، وإن آخذكم ببعضها، وهذا متصوَّر وواقع أن الله يغفر للمؤمن ذنبًا برحمته، ويؤاخذه بذنب آخر بعدله؛ لحكم وأسباب تظهر أو تخفى[2].

وقد يُحمل المعنى على أن تُغفر لهم ذنوبهم التي كانت قبل إسلامهم؛ لأنهم كانوا على جهالة وعمى، والإسلام يَجُبُّ ما قبله، ثم إذا أذنبوا بعد الإسلام فلا تغفر لهم إلا بتوبة تتجدَّد منهم، وهذا تشجيع وتحفيز لهم إلى الإيمان؛ لتُمحى ذنوبهم.

وفي الآية فضيلة الاستغفار، وأنه لا ينبغي أن يُحتقر من الذنب صغير ولا كبير، وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يستغفر ربه، ويكثر من ذلك، كما في دعاء «سيد الاستغفار»[3]، وكان من استغفاره صلى الله عليه وسلم: «**اللهمَّ اغفر لي ذنبي كلَّه، دقَّه وجلَّه، وأوله وآخره، وعلانيته وسِرَّه**»[4]. وكان يدعو ويقول: «**اللهمَّ اغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفتُ، وما أنت أعلمُ بِهِ مني، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، لا إِله إِلَّا أنت**»[5].

---

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 213).

(2) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7729)، و«المحرر الوجيز» (5/ 372).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (6306).

(4) أخرجه مسلم (483) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(5) أخرجه البخاري (6317) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (771) من حديث علي رضي الله عنه.

﴿لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا﴾: **والتأخير** معناه دفع عذاب الدنيا الذي كان متوعَّدًا عليهم[1]، فهو كان نذيرًا لهم قبل العذاب الأليم الدنيوي والأخروي، فإن أطاعوا سلموا من عذاب الآخرة بالمغفرة، وسلموا من عذاب الدنيا بتأخيرهم إلى الآجال التي تنتهي فيها أعمار؛ كل منهم على حِدَة، وليس أن يعاجلوا بعذاب يأخذهم جميعًا.

ومن لطف دعوته عليه السلام أن اختار لهم المعنى الإيجابي في الإنذار، فلم يقل: «إن لم تطيعوا فسوف يأتيكم العذاب»، بل قال: «إن أطعتم فسوف يُدفع عنكم العذاب»، فبدأ بالترغيب، وهو الأصل، والترهيب إنما يكون بعد ذلك لَمن أصرَّ، والدعوة عامة ينبغي أن تبدأ بجانب الترغيب، وإثارة المعاني الإيجابية في النفوس، ثم يكون الترهيب للمصرِّين والمعاندين والمكذِّبين والجاحدين.

وقوله: ﴿تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا﴾: **والأجل المسمَّى**: الأجل المكتوب المضروب[2]، فلهم أعمارهم المحدودة مهما طالت.

وغالبًا ما يُطلق الأجل على آجال الإنسان، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لأمِّ حبيبة رضي الله عنها لما سألت طول العمر: «**قد سألتِ اللهَ لآجال مضروبة**»[3].

وفي ذلك إشارة إلى أن الدنيا قصيرة مهما طالت، كما قال الشاعر[4]:

إذا عاش الفتى مئتين عامًا *** فقد ذهب اللَّذاذةُ والفَتاءُ

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7730)، و«تفسير الماوردي» (3/ 126)، و«تفسير الرازي» (30/ 649)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 231)، و«فتح القدير» (5/ 356).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 290)، و«التحرير والتنوير» (29/ 190)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه مسلم (2663) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(4) ينظر: «الكتاب» لسيبويه (2/ 162)، و«مجالس ثعلب» (ص59)، و«سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» (1/ 803) منسوبًا إلى الرَّبيع بن ضَبْع الفزاري، وكان من المعمَّرين.

والذي سماه هو الله تعالى، وهو غير معروف للناس، وإنما يعلمه الله عز وجل؛ ولهذا قال سبحانه في ذكر الغيب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: 34]، فهذا مما استأثر الله تبارك وتعالى بعلمه؛ ولذا وصفه بـ﴿بِهِنَّ فَلَا﴾ على صيغة المبني للمجهول، الذي لا يعرفه صاحبه ولا غيره.

وقوله: ﴿جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا﴾ **يحتمل** أن المقصود آجالهم المسماة المضروبة، فلا يؤخَّر الأجل، فلا طاعة تدفعه ولا معصية تقرِّبه، فهو أجل مكتوب.

ويحتمل- وهو أوسع وأقرب- أن الأجل المسمَّى يشمل الأعمار، ويشمل آجال الله تعالى للأمم؛ لأن الله يقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ﴾ [الأعراف: 34]، فكما للأفراد آجال فللأمم آجال، فإذا جاء أجل الأمة حل بها عذاب الله وطُويت صفحتها.

وأجل الأمة يكون بالاستئصال بالطوفان أو بغيره، ويكون بتكاثر أسباب الضعف والشيخوخة والإهمال والتراخي، حتى تهلك الأمة وسط موجة من التلاوم والتشاتم وتبادل الاتهام.

ويحتمل أن ﴿□□﴾ هو: يوم القيامة؛ لأن نوحًا عليه السلام لما دعاهم إلى التوحيد ذكَّرهم بالبعث والنشور والجزاء والحساب، والمشركون والكافرون والمكذِّبون آنذاك لا ينفعهم أن يطلبوا مهلة أو تأجيلًا أو إنذارًا أو رجوعًا[1].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 228)، و«تفسير الماوردي» (6/ 99)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 250)، و«تفسير البغوي» (5/ 156)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (2/ 840)، و«زاد المسير» (4/ 341)، و«تفسير القرطبي» (18/ 229).

وقوله: ﴿تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ إشارة إلى أنهم لم يكونوا يعلمون؛ لأنهم لم يكونوا مؤمنين ولا مسلمين ولا عالمين.

* ﴿مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا﴾:

والقرآن اختصر آمادًا طويلة في قصة نوح عليه السلام، ولا يفهم أنه أُرسل في الليل، بل هو دعاهم زمانًا طويلًا، حتى كاد ييأس من إجابتهم.

فالذين يستدلون بها على جواز الدعاء على الكافرين عامة، عليهم أن يدركوا أن هذا لم يقع منه إلا بعد مئات السنين، فلا ينبغي للداعي الاستعجال، بل القصة تلهم الصبر والأَنَاة وطول النفَس.

ولا يُفهم من هذا أن دعوته كانت مستغرقة الليل والنهار، فنوح عليه السلام مثل غيره يصلِّي وينام ويأكل ويشرب، وقومه كذلك، وليس المطلوب في الدعوة الإلحاح الذي يُنفِّر الناس، بل الاستمرار في تحيُّن الأوقات المناسبة، وعدم اليأس، ومراعاة التنويع، وتحرِّي أوقات الإجابة.

والمقصود أنه كان يتعاهدهم ويتخوَّلهم، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يتخوَّلُنا بالموعظة في الأيام؛ كراهةَ السآمة علينا»[1].

وهذه الآية تفيد أنه كان يُنوِّع الوقت، فأحيانًا يكون الليل أفضل، حيث الناس في سمر واجتماع، والأذهان في حالة صفاء واسترخاء، وأحيانًا يكون النهار أفضل.

والدعوة ليست براءة للذمة فحسب أو إقامة الحجة، كلا، فالمقصود الفائدة والنفع؛ ولهذا يقول ربنا سبحانه: ﴿□□□□□﴾ [الأعلى: 9]، إن نفعت فذكِّر، أما إذا عرفت أنها لا تنفع، فاصبر وانتظر وقتًا آخر، كإنسان ليس لديه استعداد للسماع والقبول، فتؤجِّل الكلام معه إلى وقت آخر يكون عنده تأهّل وجاهزية للاستماع.

---

(1) أخرجه البخاري (68)، ومسلم (2821).

* ﴿رَّحِيمًا ٢٣ □□□□﴾:

بدلًا من أن يزيدهم قربًا من الله سبحانه وإقبالًا على دعوته، والعجب أن يفر العبد من ربه مع أن مصيره إليه.

وكيف يفرُّ المرءُ عنه بذنبه *** إذا كان تُطْوَى في يديه المَراحلُ[1]؟

لأنهم كفروا بدعوته، وصاروا يسخرون منه، ويجمعون الأدلة والحجج على تكذيبه.

* ﴿□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

وفيها دليل على أن هذه أصبحت عادة لهم، فكلَّما دعاهم قابلوه بفعلهم ذلك، وجاء بقوله: ﴿□□﴾؛ ليُبين العجب من هؤلاء القوم، فهو لم يدعهم إلى نفسه ولا إلى أمر يخصه، بل إلى مغفرة الله لهم.

والمغفرة من أثر الدعوة للتوحيد، ليكونوا أهلًا للمغفرة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ [النساء: 48]، ولكن كان ردهم باستمرار هو إحكام غلق آذانهم وجعل أصابعهم فيها؛ خشية أن يتسرب إليها شيء من الحق.

والأذن لا تستوعب الأصبع كله، وهو لم يقل: «أناملهم»، وإنما قال: ﴿□﴾؛ إشارة إلى مبالغتهم في ذلك[2].

﴿□ □﴾ زيادة على ذلك غطَّوْا وجوههم بثيابهم[1]، وغالبًا ما يقال: استغشى ثيابه، لَمن غطَّى وجهه ورأسه بثوبه، كما قال تعالى: ﴿□□□□□□□□□□﴾ [هود: 5]، أي:

---

(1) ينظر: «زاد المعاد» (3/ 13).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 373)، و«تفسير الرازي» (30/ 651)، و«التحرير والتنوير» (29/ 195)، و«التفسير الواضح» (3/ 754).

الإنسان الملتحف المتلفِّف المتغطِّي، فهم يغطُّون عيونهم ووجوههم بثيابهم؛ حتى لا يرونه، فهم لا يريدون أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه، وربما فعلوا ذلك لأنهم لا يريدون أن يعرفهم بأعيانهم(2).

وقاموا بذلك من أجل أمر آخر هو العناد والتكبر: ﴿□□□﴾.

والإصرار: العناد المُفْرِط، والمداومة على الشرك، ورفض الحوار بشأنه(3)، عكس ما حكى الله عن المؤمنين: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 135]، فالمؤمن لا يصرُّ ولا يستكبر، بل إذا ذُكِّر تذكر، وإذا قيل له: استغفر. استغفر، حتى لو كان مغضبًا.

وفي الحديث قصة الرجل المغضَب الذي قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إني لأعلمُ كلمةً، لو قالها لذهب عنه ما يجدُ، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرَّجيم**». فقالوا له ذلك، فقال: أَتُرَى بي بأسٌ، أمجنُونٌ أنا؟ اذهب(4).

فالمؤمن إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه ذكر الله فاستغفر لذنبه ولم يُصر، أما هؤلاء القوم فهم يُدعون ليغفر الله لهم فيُصرون على ما فعلوا وهم يعلمون.

والاستكبار أنهم يرون في أنفسهم شيئًا لا يرونه في هذا النبي، فهم يحتقرونه ويزدرونه، ويقولون: نحن أكثر أموالًا وأولادًا وجاهًا، فكيف نُطيعه؟ وهذا هو ما

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (22/ 251)، و«تفسير البغوي» (8/ 230)، و«زاد المسير» (4/ 342)، و«تفسير القرطبي» (18/ 300)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 232).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 651)، و«الكشاف» (4/ 616)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 232)، و«التحرير والتنوير» (29/ 195).

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 100)، والمصادر السابقة.

(4) أخرجه البخاري (6115)، ومسلم (2610) من حديث سليمان بن صُرَد رضي الله عنه.

قالوه لنوح عليه السلام: ﴿□□□□□﴾ [الشعراء: 154]، فأنت واحد مثلنا، ليس لك ميزة علينا.

وأيضًا قالوا: ﴿□□□□□□□□□□□□□□﴾ [هود: 27].

وهكذا قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [الزخرف: 52- 53].

ودعوة الله لا تميِّز بين الناس، بل هي لِمَن سبق إليها؛ ولهذا لما قالت قريشٌ للنبي صلى الله عليه وسلم مثل هذا، وقالوا له: اطرُد هؤلاء، قال له الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: 52][1]، أي: لا تطرد أحدًا آمن، فقيرًا كان أو مسكينًا، ضعيفًا أو كَفِيفًا، عاجزًا معوقًا، ما دام مسلمًا.

فقوم نوح فعلوا أمرين حسِّيَّيْن، وهما: إغلاق الآذان والعيون، وترتب على ذلك أمران معنويان، وهما: الإصرار والاستكبار؛ ولهذا كان الكبر من أعظم أعداء الإصلاح والدعوة، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبر**»[2]. والتواضع هو سيد الأخلاق.

❊ ﴿□□□□□﴾:

---

(1) كما في «صحيح مسلم» (2413) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم (91) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

يذكر عليه السلام أنه راعى الوقت في قومه، فدعاهم بحسب المناسبة، ليلًا ونهارًا، وراعى الأسلوب والطريقة في مخاطبة الفرد والجماعة، وفي الإعلان والإسرار؛ للبحث عن مفاتيح تحرِّك قلوبهم وتحقِّق استجابتهم.

وكثير من الناس عند الصدمة الأولى يفقد صبره، وربما يعامل مَن لم يستجب له معاملة سيئة، وقد لا يكون الأمر يتعلق بدعوة إيمان وكفر وهُدى وضلال، وإنما بخلاف محتمل، أو بأمور ملتبسة، والكثير من الناس يسيطر عليهم الاندفاع والعدوانية والروح الغضبية، فهؤلاء ينبغي أن يتعلَّموا من مدرسة الأنبياء عليهم السلام الصبر والمصابرة والمرابطة.

وكأن نوحًا في أول الأمر كان يتعاهدهم سرًّا، واحدًا واحدًا؛ ليكون بعيدًا عن الناس، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته السرية، من باب التدرج؛ ولأن بعض الناس قد يرفض الدعوة مجاملة للآخرين، أو حياءً، وربما يؤثِّرون فيه، ويحرِّضونه على التمسك بدينه، فكان عليه السلام يأتيهم واحدًا واحدًا، ثم انتقل إلى الجهار، كما في الآية الكريمة، وصار يغشاهم في الملأ والتجمعات، ويرفع صوته يدعوهم إلى الله.

❊ وفي المرحلة الثالثة راوح بينهما فقال: ﴿□□□□□□□□﴾:

فأسر، ثم جهر، ثم جمع بين الجهر والإسرار، وراوح وزاوج بينهما.

والأصل في الدعوة الإعلان والإجهار؛ لأنها تغيير لواقع الناس، وإقامة للحجة وبيانها؛ ولذا قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «ولتُفْشُوا العلمَ، ولتَجلسوا حتى يُعَلَّمَ مَن لا يَعْلَمُ؛ فإِن العلمَ لا يَهْلِكُ حتى يكونَ سرًّا»[1].

---

(1) وضُبطت أيضًا: «حتى يَعْلَمَ مَن لا يَعْلَمُ». ينظر: «صحيح البخاري» (1/ 31)، باب كيف يُقبض العلم، و«فتح الباري» (1/ 194- 195)، و«تغليق التعليق» (2/ 88)، و«إرشاد الساري» (1/ 195- 196).

وقد دلَّت الآثار والتجارب على أن تناجي مجموعات من الناس وسط المجتمع المسلم في مسائل من العلم واستسرارهم غالبًا ما يكون بداية فتنة؛ لأنه يُفضي إلى أن يعتنقوا آراء غريبة، بعيدًا عن عيون المجتمع والأمة وعامة الناس وخاصتهم.

أما أن يسر أعماله وشؤونه الخاصة، فهذا لا بأس به.

أما تعليم العلم في العقيدة والتفسير والفقه والحديث والآداب والأخلاق، فيجب أن يكون علانية، وأن يبذل للناس كلهم، وألا يتناجى فيه قوم دون غيرهم من المسلمين.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم والرسل جميعًا يخالطون الناس ويصبرون على أذاهم، ويأمرون بمخالطة الناس وبالصبر على أذاهم.

وفي الآية دليل على أن وسائل الدعوة وطرقها ليست توقيفية، فيمكن أن يستخدم للدعوة كل وسيلة مباحة، في المسجد والشارع والنادي والسوق وفي المناسبات المختلفة، وكذلك الكتابة، فقد كتب العلماء المؤلَّفات والمصنَّفات، واستخدام القنوات الفضائية والإذاعات والصحافة والإعلام ومواقع الإنترنت، وكل ما يجد من الوسائل التي طرأت وأفاد الناس منها وأمكن الوصول إليهم من خلالها، والأمر في ذلك واسع، ووسائل الدعوة ليست توقيفية، بحيث لا يجوز لأحد أن يستخدم وسيلة إلا أن تكون منصوصًا عليها، كلا، وإنما هذه الوسائل مفتوحة ما لم يثبت الدليل بتحريمها.

وحتى على الزعم بأن الوسائل توقيفية، فبمقدور الداعية أن يدخل كل وسيلة جديدة تحت بند من البنود القديمة.

❊ ﴿□□□□□□□﴾:

وهذا يوحي بطرائق دعوته لهم، فمع تنويعه في الأساليب والأوقات كان ينوِّع في الصيغ والعبارات وجوانب العرض، فمرةً يستخدم الترغيب، ومرة الترهيب، ومرة يعدهم بمرغبات دنيوية، ومرة بمرغبات أخروية؛ من أجل استمالتهم والتأثير فيهم.

وهو هنا يذكِّرهم بالاستغفار، ويذكر اسم الرب الذي هو الخالق المدبِّر، وينسبه إليهم، وهو أسلوب ترغيب.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بالاستغفار[1]، ولما قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: يا رسولَ الله، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال صلى الله عليه وسلم: «**قل: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت، فاغفرْ لي مغفرةً من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفورُ الرحيمُ**»[2].

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم: «**مَن لزم الاستغفارَ، جعلَ اللهُ له من كلِّ همٍّ فرجًا، ومن كلِّ ضيق مخرجًا، ورزقه من حيثُ لا يحتسب**»[3].

فعلى المؤمن ألا يُفارق الاستغفار، ولو بعد الطاعات، بل هو أفضل الاستغفار، كما أثنى الله على المنفقين بقوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠﴾ [آل عمران: 17]، فيستغفر بعد الطاعة؛ خشية أن يكون قد قصَّر فيها، وكان صلى الله عليه وسلم بعد الفريضة يقول: «**استغفرُ اللهَ، استغفرُ اللهَ، استغفرُ اللهَ**»[4].

---

(1) كما في «صحيح مسلم» (2702) من حديث الأَغَرِّ المزني رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «**يا أيها الناسُ، توبوا إلى الله؛ فإني أتوبُ في اليوم مائةَ مرةً**».

(2) أخرجه البخاري (6326)، ومسلم (2705).

(3) أخرجه أبو داود (1518)، وابن ماجه (3819)، والحاكم (4/ 262) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (705).

(4) كما في «صحيح مسلم» (591) من حديث ثَوْبان رضي الله عنه.

والاستغفار بعد العبادة مناسب، ولا يستغني العبد عن الاستغفار؛ فربما وقع في صلاته أو عبادته خلل وتقصير، فناسب أن يستغفر بعد الصلاة، وإن لم يحصل من ذلك شيء فلأجل أن يقطع على نفسه العُجب بالعمل، وإن كان على لهو استغفر؛ لأنه تلهَّى عن طاعة الله، وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا خرجَ من الخلاء قال: «**غُفرانكَ**»[1]. يطلب المغفرة عن وقت ليس مناسبًا للذكر بحكم الضرورة، فيستغفر ربه عن ذلك الوقت، أو يستغفر عن التقصير في شكر النعمة[2].

* ﴿□□□□زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ يشَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾:

وهنا أغراهم بأمور دنيوية من ثمرات الاستغفار، فمثلما قال عن الآخرة: ﴿□□□﴾، أغراهم بمرغِّبات دنيوية، وقد كانوا أهل زرع وحرث وسَعة في الأموال والأولاد، فقال: ﴿□□□□﴾ أي: المطر والغيث[3].

والمدرار: المستمر الذي لا يُخشى معه قحط ولا جدب[4]، ومنه در الضَّرْع إذا تجمَّع فيه اللَّبَن[5].

---

(1) أخرجه أحمد (25220)، وأبو داود (30)، والترمذي (7)، وابن ماجه (300)، وابن الجارود (42)، وابن خزيمة (90)، وابن حبان (1444)، والحاكم (1/ 158) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر: «إرواء الغليل» (52).

(2) ينظر: «معالم السنن» (1/ 22– 23)، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (1/ 41– 42).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (2/ 285)، و«تفسير السمعاني» (6/ 56)، و«تفسير القرطبي» (18/ 301)، و«فتح القدير» (5/ 357)، و«التحرير والتنوير» (29/ 198).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 293)، و«تفسير الماوردي» (6/ 101)، و«تفسير الرازي» (30/ 652)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 232)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص310، 353)، و«لسان العرب» (4/ 280)، و«تاج العروس» (11/ 281) «د ر ر».

(5) ينظر: «تفسير الماوردي» (2/ 477).

وقد أخذ أهل العلم من ذلك أن الاستغفار سبب في نزول المطر، وقد ورد أن عمر رضي الله عنه استسقى بالناس، فصعِد المنبر، واستغفر الله تعالى، ثم نزل، فقالوا له: نسيتَ يا أميرَ المؤمنين، ما طلبتَ السُّقيا؟! فقال: «والله، لقد استسقيتُ بمَجادِيح السماء»[1].

والمَجادِيح: نوء يعرفه العرب وقت الغيث[2]، وكأنه يقول: استسقيتُ بأعظم وأوثق وسيلة لطلب السُّقيا؛ لأن المعاصي سبب في زوال النعم:

إذا كُنتَ في نِعمَةٍ فَارعَها *** فإنَّ المَعاصي تُزيلُ النِّعَم[3]

وما فعله نوحٌ عليه السلام من وعدهم بالمغفرة في الآخرة، ووعدهم بالرزق في الدنيا، هو من التنويع الإيجابي، فالاستقامة على الخير وترك الزنا سبب في صحة البدن والنجاة من الأمراض المختلفة؛ كالهربس والإيدز والزهري والسيلان، وحَسَنٌ أن يترك الإنسان المعصية طلبًا لمرضاة الله، وخوفًا من عقابه، وخوفًا من الفضيحة، وخوفًا من المرض، والاقتصاد الإسلامي الناضج يحقق مستوى جيدًا من الأرباح والمصالح، مع مرضاة الله سبحانه وتعالى.

وبر الوالدين وصلة الأرحام سبب في طول العمر، كما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رزقه، ويُنسأ له في أَثَره، فليصلْ**

---

(1) أخرجه عبد الرزاق (4902)، وسعيد بن منصور (1095)، وابن سعد (3/ 298)، وابن أبي شيبة (29485)، وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (84)، والطبراني في «الدعاء» (964)، والبيهقي (3/ 490)، وينظر: «نتائج الأفكار» (5/ 118- 119)، و«إرواء الغليل» (673).

(2) ينظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلَّام (3/ 259- 260)، و«لسان العرب» (2/ 421)، و«تاج العروس» (6/ 334) «ج د ح».

(3) ينظر: «ديوان علي بن أبي طالب» (ص175).

رحمه»[1]. فصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الفقراء والمساكين والمحاويج تزيد في العمر وتوسِّع في الرزق، وتكون سببًا في الصحة والعافية.

وفي مجال الإدارة الخاصة أو العامة يجب أَلَّا يكون التدين سببًا في حرمان الناس من مصالحهم، بل على النقيض، يجب أن يعود عليهم بالمزيد من المكاسب المادية والثراء واليسار والرَّغَد، فالفرد الممكَّن أو الجماعة أو الحزب يجب أن يسعى في خدمة الناس وتوفير الضروريات وتسهيل الحياة ورفع مستوى المعيشة والوضع التعليمي والصحي، وهذا من تطبيق الشريعة، فليست الشريعة قصرًا على الحدود والعقوبات، كما يتوهم أقوام.

﴿زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ﴾ زيادة على ما عندكم، ﴿قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ﴾ أي: زروعًا وبساتين وحقولًا، ﴿مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾، تجري في وسط هذه الجنات.

والمطر المدرار هو سبب خصب هذه الجنات وجريان الأنهار فيها بإذن الله، وهذا يشبه قول الله: ﴿٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [الجن: 16]، وقوله: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ﴾ [الأعراف: 96].

* ﴿بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا﴾ أي: ما السبب الذي يجعلكم ﴿مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ﴾؟

أي: لا تقيمون لله توقيرًا وتعظيمًا، والوَقار: التمجيد والثناء[2]، فلماذا لا ترجون وقار الله عز وجل، وهو الذي خلقكم أطوارًا؟!

---

(1) أخرجه البخاري (5986)، ومسلم (2557) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) ينظر: «لسان العرب» (5/ 291) «و ق ر»، و«القاموس المحيط» (ص493)، و«فتح القدير» (5/ 357).

ويجوز أن يكون قوله: ﴿بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ أي: لا تخافون، فالرجاء أحيانًا يُستخدم بمعنى الخوف[1]، كما يقال:

إذا لسَعَتْه النحلُ لم يَرْجُ لسعَها[2]

أي: لم يخف لسعها، فعلى هذا يستنكِر عليهم متسائلًا: لماذا لا تخافون من الله؟

والمعنى بكل حال أنه يذكِّرهم بربهم، ويجعلهم في موقفٍ بين الخوف والرجاء، أن يرجوا ربهم يوم الحساب، وأن يرجوا عاجل خيره وبره في الدنيا، وأن يخافوا منه أن يُعذبهم.

بعد أن دعاهم إلى التوحيد وأمرهم بالاستغفار ذكَّرهم بالله وبآلائه ونعمه وحججه؛ ليحيي في قلوبهم الخوف منه، والاستنكاف عن الأصنام التي لا تنفع ولا تدفع، ثم ذكَّرهم بعظمة الله وجلاله وآياته المشهودة، وأن أمر الدنيا والآخرة إليه، فلماذا لا تعظِّمونه؟ أو: لماذا لا ترجون توقير الله لكم، أن يجازيكم بالخير إن أطعتموه، وبالنَّكال إن خالفتم أمره؟

والقرآن الكريم كثيرًا ما يذكر حجج الله في النفس؛ كالسمع والبصر والأفئدة والقدرة والأعضاء التي ركَّبها في الإنسان، وأحيانًا يُقدمها ثم يذكر ما في الكون، وأحيانًا يذكر ما في السماوات والأرض، والشمس والقمر والنجوم[3].

* وفي هذا الموضع بدأ بذكر النفس: ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 231)، و«تفسير القرطبي» (18/ 303).

(2) القائل: أبو ذُؤيب الهذلي، وتمام البيت: وخالفَها في بيتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ. ينظر: «ديوان الهذليين» (1/ 143)، و«معاني القرآن» (1/ 286).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 654).

أي: طَوْرًا بعد طَوْر، في مراحل وحالات مختلفة، وهذا يشمل أطوار الأَجِنَّة في الأرحام، من نُطفة إلى عَلَقة إلى مُضغة، ثم تقلبهم في المهد والطفولة، فالمراهقة فالشباب فالكهولة فالشيخوخة والهَرَم- وهكذا هي الحياة- ثم الموت، فالأطوار هي التقلبات والتحولات[1]، وهذا دليل على عظمته وقدرته، وعلى حكمته وألوهيته وربوبيته، فاعبدوه ولا تعبدوا سواه، وهو تذكير بالنفس وأصلها يعقبه دعوة إلى التأمل في السماوات والأرض وما أبدع الله فيها وأودع.

وهو الذي حدث لآدم عليه السلام في مراحل خلقه وأطواره، فآدم كان من تراب، فطين، فطين لازب، فصلصال كالفخار، فحمأٍ مسنون، فجسد من لحم وعظم وشحم ودم، ثم روح تسري فيه بإذن ربها، ولعل قوم نوح كانوا يعلمون ذلك لحداثة العهد نسبيًّا.

* ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ﴾:

يجوز أن تكون الرؤية هنا البصرية، أي: ترون بعيونكم[2]، وهم يرون السماء التي فوقهم، وإن كانوا لا يعرفون إن كانت سبعًا أو ليست بسبع، وأراد أن يخبرهم أن السماوات- التي يرونها- سبع، أو أن هذا كان معروفًا عندهم، وكثير من الأمم السابقة كالكلدانيين في العراق كان عندهم معلومات عامة فيما يتعلق بالفضاء والكواكب والنجوم والأكوان والأفلاك، فهو هنا يُذكِّرهم بشيء يرون بعضه، أو يُذكِّرهم بمعلومة متداولة عندهم من كون السماوات سبعًا.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 297)، و«تفسير الماوردي» (6/ 102)، و«تفسير السمعاني» (6/ 57)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 388)، و«فتح القدير» (5/ 357).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 202).

وكونها ﴿طِبَاقًا﴾ أي: أنها طبقة فوق طبقة فوق أخرى[1]، وهذا من غيب الله الذي نؤمن به، فالله تعالى خلق سبع سماوات طباقًا، وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرًا، وأما كيفيته فهي عند الله، ومعظم ما يقوله العلماء السابقون، حتى ممن كتبوا في التفسير أو في الأفلاك أو في غيرها، إنما هو من الظنون، أو مما يُنقل عن اليونان أو الكلدانيين أو سواهم، في وقت لم يشهد علم الفضاء هذا التطور العظيم، ولم يملك الإنسان تلك المناظير الهائلة، ولا كان قادرًا على السير والمعرفة الميدانية المباشرة.

وقد تطوَّر علم الفلك من خلال المراصد المعقَّدة والتجارب البشرية، ولا شك أنها مجاهل تدهش الألباب، واكتشف في السماء أعدادًا كبيرة من المجرَّات، وكل مجرَّة فيها ما لا يحصى من النجوم، وفي ذلك ما لا يحصيه إلا الله، وهذا غيب من غيب الله.

من النجوم التي نراها الآن نجوم قد احترقت منذ زمن، والذي نراه هو ضوؤها الذي استغرق سنوات ضوئية ليصل إلينا، وثَمَّ نجوم مخلوقة منذ زمن لا يعلمها إلا الله، ونحن لا نراها؛ لأن ضوءها لا يزال في الطريق لم يصل إلى الأرض بعد.

وكثير من العوام والبسطاء تضيق عقولهم وأفهامهم ومداركهم عن ذلك، ويعجزون عن تصور بعض المسائل، فهؤلاء ليسوا من أهل العلم، وشأنهم ألَّا يتكلموا فيه، ولا يُشغلوا أنفسهم به، فيكفيهم أن يصلوا الصلوات الخمس، وأن يقوموا بما أوجب الله عليهم، وأن يشتغل الواحد منهم برزقه وإصلاح أمره، أما مثل هذه القضايا، فهي تترك لأهل الاختصاص ولأهل العلم، وربما يكون دخول غير المختصين فيها بابًا من أبواب الفتنة، أو التزيد أو التقول على الله تبارك وتعالى بغير علم، وليست هي من علم الآخرة الذي يتعبد به كل أحد من الناس، حتى لو لم

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 299)، و«تفسير القرطبي» (18/ 304)، و«التحرير والتنوير» (29/ 202).

يصدِّقوا هذه الأخبار، فلا يضرهم ما داموا غير مختصين، وإنما يحتاج إليها الباحثون والعلماء الذين يبنون عليها نتائج، ويرتِّبون عليها آثارًا، ويسهمون في تطويرها وتوسيعها.

* ﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾:

وهذا مما احتج به نوح عليه السلام على قومه، و﴿مِّنَ﴾ **قيل**: في السماء الأولى[1].

وقد يكون المعنى: معهن، كما تقول: جاء القوم وفيهم فلان، وليس بلازم أن يكون منهم أو معهم، فقد يكون جاء بعدهم[2]، كما يقول الشاعر[3]:

تَضوَّعَ مِسكًا بَطنُ نُعمانَ أن مَشَت *** به زينَبٌ في نِسوَةٍ عَطِراتِ

وقد يكون المقصود أن نور القمر في السماء، كما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما[4].

وهذا كله غيب، ويكفينا في القرآن الحجة؛ لأن الله تعالى هنا لم يرد أن يقدِّم لنا معلومة فلكية نختلف حولها، وإنما أراد أن يُقدِّم لنا القدر المتفق عليه، الذي يجب على الناس كلهم الإيمان به، وهو أن الله تعالى خلق القمر، وجعله نورًا، وهو حجة على

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 230)، و«تفسير البغوي» (8/ 231)، و«تفسير القرطبي» (18/ 304)، و«فتح القدير» (5/ 358)، و«روح المعاني» (4/ 377)، و«التحرير والتنوير» (29/ 203)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (22/ 258- 259)، و«تفسير القرطبي» (18/ 304).

(3) ينظر: «المحاسن والأضداد» (ص217)، و«الكامل في اللغة والأدب» (2/ 78) منسوبًا إلى محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي.

(4) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 358)، و«تفسير الخازن» (4/ 345)، والمصادر السابقة.

الناس، فالقمر مخلوق، كما قال سبحانه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: 37].

وقوله: ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فرَّق بين الشمس والقمر، فوصف القمر بأنه نور، ووصف الشمس بأنها سراج، إذ الشمس كتلة ملتهبة مثل السراج، وفيها نور ونار؛ ولهذا قال في الآيات الأخرى: ﴿اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس: 5]، أما القمر فنور فقط، وهذه حقيقة متقررة، والنور الذي فيه إنما هو انعكاس لضياء الشمس، وهذا ما يقرره العلماء قديمًا وحديثًا، فالقمر جِرْم قابل للإضاءة، فإذا انعكس عليه نور الشمس أضاء[1].

ويظهر من السياق أن قوم نوح لديهم اهتمام بالأفلاك وبعض العلوم الطبيعية؛ ولذا وردت هذه المعلومات الدقيقة في خطاب نبي الله لهم.

* ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾:

فرجع إلى الحجة عليهم بأنفسهم؛ ليبني عليها أمر الآخرة والبعث، والمقصود هنا آدم عليه السلام، فالله تعالى خلقه من طين الأرض، وهل مرَّ آدم بحياة نباتية قبل نفخ الروح؟ الله أعلم، وبعض العلماء قالوا ذلك أخذًا بظاهر هذه الآية، وكنتُ مستبعدًا لهذا القول، حتى وقفتُ على حديث الصُّور المتقدِّم، والذي فيه أن الخلق يوم القيامة ينبتون أمثال الطَّرَاثِيث[2]، مع قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 204)، و«التفسير القرآني للقرآن» (15/ 1200).

(2) كما في حديث الصُّور المتقدم في «سورة المعارج»: ﴿□□□□□□□□□□□□﴾.

والطَّرَاثِيث جمع: طرثوث، وهو نبت ينبسط على وجه الأرض كالفطر. ينظر: «النهاية» (3/ 117)، و«لسان العرب» (2/ 164- 165) «ط رث».

[الأنبياء: 104]، فرأيتُ الأمر قريبًا، وليس فيه ما يُنكَر أو يُستغرب، والله تعالى أعلم بغيبه.

أو المقصود: الذرية، وأن الله تعالى أنبتهم[1]، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37]. فالله تعالى أنبتهم وجعلهم ينتقلون من حال إلى حال، ومن طَوْر إلى طَوْر، ويأكلون مما يُخرج الله تبارك وتعالى لهم من خيرات الأرض، ويشربون من مائها.

* ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالموت، ولذلك بنى عليه النتيجة: ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾[2]:

ويُؤخذ منه في التعليم والدعوة أن يكون الانتقال من المعلوم المتقرر إلى المجهول الذي يراد أن يقروا به ويؤمنوا، فهم يؤمنون بالأول والثاني، وهو نبَّههم على الأمر الثالث المبني عليهما.

وجاء بالمصدر بعد الفعل؛ لتأكيد الأمر الذي يجحدونه أو يشكون فيه، وهو الإخراج والبعث[3].

* ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾:

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 204).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 358)، و«تفسير السمعاني» (6/ 58)، و«تفسير البغوي» (5/ 157)، و«تفسير النسفي» (3/ 544)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 234).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 618)، و«تفسير الرازي» (30/ 655)، و«تفسير النسفي» (3/ 544)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 284).

أي: خلقها وسخَّرها، فكلمة ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ تختلف عن معنى ﴿خَلَقَ﴾؛ لأن الخلق واسع، وأما الجعل، فمعناه أنه قد ركَّب في خلقها ما يجعلها صالحةً للحياة عليها، كما ترى البشر الآن كيف يتصرفون على هذه الأرض تصرفات هائلة، فيبنون عليها ناطحات السحاب، ويحفرون الطرق والأنفاق، ويشقون الجبال، وهي مذلَّلة مسخرة لهم؛ لأنها مجعولة[1].

وقوله: ﴿وَبَنَاتُ﴾ أي: مخلوقة لكم، وما عليها مسخَّر لكم، فهذه علة خلقها.

وكونها ﴿وَبَنَاتُ﴾ أي: منبسطة[2]، وليس المقصود أن الأرض ليست كُرَويَّة، بل هي كُرَويَّة الشكل باتفاق العلماء، كما ذكره ابن تيمية عن ابن المنادي وغيره[3]، وكذلك باتفاق علماء الفلك، وهذه من الحقائق الحسية القطعية، ولكن قد يجهل الإنسان مثل هذا، وليست من أمور الدين التي ينبغي أن تُعلم لكل أحد، ولكنها من مصالح الدنيا، أما مَن كان يعمل في مجال الاتصالات أو المواصلات أو الأقمار أو غيرها من المصالح، فهذه عنده من البدهيات والمعلومات الضرورية المفروغ منها.

* ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ﴾:

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 231)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7741)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 234)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 103)، و«الكشاف» (4/ 618)، و«تفسير القرطبي» (18/ 306)، و«تفسير المراغي» (29/ 81)، و«أوضح التفاسير» (ص712).

(3) ينظر: «مجموع الفتاوى» (6/ 566)، (25/ 195)، وما تقدم في «سورة ﴿ ٓ﴾»: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا...﴾ [ق: 7]، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ﴾.

أي: طرقًا مختلفة، **والفج** هو: الطريق[1]، وقد يكون بين جبلين في الغالب، كما في قوله سبحانه: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: 27]، أو هو الطريق الواسع العريض[2]، وكل ذلك حجج عليهم في الأرض والسماء تحاصرهم في أنفسهم ومن تحت أقدامهم ومن فوقهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

❋ بعد رحلة طويلة استغرقت الليل والنهار، ودامت مئات السنين، وتنوَّعت فيها الأساليب والطرائق بين الإسرار والإجهار، وتناولت كل الموضوعات، ما بين التذكير بالله والدعوة إلى التأمل في مخلوقاته، إلى التذكير بالنفس وأسرار خلقتها، إلى النظر في الكون والأرض والسماء والشمس والقمر، إلى تقرير البعث والنشور، وتراوحت بين الترغيب- وهو الغالب- وبين الترهيب والتخويف.

بعد هذا كله لم يُؤمن به إلا قليل، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ﴾ [هود: 40]، مع طول المدة، وشدة الدأب في الدعوة[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 301)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 45)، و«الدر المنثور» (14/ 711)، و«تفسير القاسمي» (9/ 324).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (2/ 550)، و«تفسير الماوردي» (3/ 445)، (6/ 103)، و«التفسير البسيط» للواحدي (15/ 61)، (22/ 261)، و«فتح القدير» (5/ 358)، و«التحرير والتنوير» (29/ 205).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص625)، و«لسان العرب» (2/ 338)، و«تاج العروس» (26/ 203) «ف ج ج».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (12/ 410- 412)، و«زاد المسير» (2/ 374)، و«تفسير القرطبي» (9/ 35)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 321)، و«التحرير والتنوير» (12/ 73).

ثم هاهو نوح يعرض أمره لربه- وهو أعلم- ويجمع بين الاعتذار والشكوى، ولسان حاله يدعو أن يهديهم الله أو يهلكهم: ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ﴾:

أي: لم يطيعوني ولم يقبلوا دعوتي في أصلها، وليس المراد أنهم خالفوه في جزئية مما يدعوهم إليه، واتبعوا أكابرهم من زعمائهم وسادتهم وأمرائهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ [الأحزاب: 67].

والغالب أن الضالين المصرِّين على مخالفة الحق لهم أكابر يحضُّونهم على ما هم عليه؛ لأنهم أصحاب مصالح يخشون أن تضيع، فيُصرون على الناس ويُغرونهم، وهم هنا من الكبار الذين لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا خسارة، فهم أصحاب أموال وأولاد، وما كانوا كبارًا وسادة إلا لذلك: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ [سبأ: 35]، ولكن أموالهم وأولادهم كانت سببًا في كبريائهم وإعراضهم، فصدتهم عما هو خير منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾، ثم قال بعدها: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: 14-15].

فينبغي للإنسان أن يحرص على أن يكون ماله وولده وزوجه مما يقرِّبه من طاعة الله تعالى، وهذا يكون بالتربية الصالحة والنية الطيبة والطعام الحلال والدعاء الصادق والتوافق بين الأزواج.

وفي الآية إشارة من نوح عليه السلام إلى حسن توظيف الأموال والأولاد، وإلى شكر النعم؛ لأنه قال قبلها: ﴿□□□□□□ □□□□ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾.

وقد جاء رجلٌ إلى الحسن البصري رحمه الله يشكو الجَدْبَ، فقال له: استغفر اللهَ. وجاءه آخر يشكو الفقر والفاقة، فقال له: استغفر اللهَ. وجاءه ثالث يشكو العُقم، فقال له: استغفر اللهَ. فقالوا له: يا أبا سعيد، جاءك ثلاثة يشتكون من أمراض شتى، ووصفت لهم دواءً واحدًا، وهو الاستغفار! فاحتج بهذه الآية[1].

ففي الآية دلالة على أن المال والولد والزوجة تكون خيرًا إذا أطاع الله واستغفر، فيُوسع الله عليه في الدنيا والآخرة، وتكون شرًّا وضررًا إذا أساء استخدامها.

وهذا مثل الآيات الغيبية والآيات الشرعية والقرآن والعلم، فإن من الناس مَن ينتفع به، فيزداد إيمانًا ويتقبَّله بقبول حسن، ومن الناس مَن يرفضه ويأباه، فيزيده خسارًا.

*** ثم قال: ﴿تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا﴾:**

ونوح هنا يخص بشكواه العِلية والأكابر الذين كانوا يعوقون الدعوة، ويصدون الناس عنها، وإلا فغالب الناس عاديون، لا مشكلة لهم مع الخير والحق، ولكنهم سريعو التأثر بالتهريج والخداع والتضليل الذي يمارسه أصحاب النفوذ والمال والسلطان والإعلام.

والمكر: الكيد، ويُطلق على الكيد الخفي اللَّطيف[2]، كما في قوله سبحانه: ﴿إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأۡخُذُواْ﴾ [يوسف: 5]، وكما في قوله: ﴿ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 44)، و«تفسير القرطبي» (18/ 302)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 386)، و«فتح الباري» (11/ 98)، و«عمدة القاري» (22/ 277)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 145).

(2) ينظر: «الصحاح» (2/ 533)، و«تهذيب اللغة» (10/ 135)، و«مجمل اللغة» (1/ 774)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص728، 772)، و«لسان العرب» (5/ 183) «ك ي د»، «م ك ر».

﴿نِسَآئِكُمُ وَرَبَآئِبُكُمُ﴾ [الطارق: 15]، إنه مكر خفي مدروسٌ طويل، كما في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠﴾ [النمل: 50][1].

ووصفه هنا بأنه ﴿بِهِنَّ﴾، ومعناها: كبير[2]، وهي من الألفاظ العربية المحفوظة في بعض القبائل واللغة اليمانية، يقال: إنسان وضَّاء، إذا كان جميل الصورة، نادر الجمال[3]، كما قال الشاعر[4]:

والمَرْءُ يُلْحِقُه بفتيان النَّدَى *** خُلُقُ الكريم، وليسَ بالوُضَّاء

أي: تكرمه الأخلاق والخصال والخلال الجميلة، وإن لم يكن جميلًا بوجهه.

ومن المكر الكبار أنهم يكرِّرون دون ملل أو خجل التشكيك في نية نوح، وأنه يقصد العلو عليهم أو منافستهم فيما هم فيه، وأحيانًا يسخرون من أتباعه، وأنهم أراذل، ويشكِّكون في شخصيته، وأنه ليس له عليهم فضل، فما معنى أن يكون نبيًّا أو يحدثهم بما لم يعلموا هم ولا آباؤهم.

ومع هذا المكر الكُبَّار الصبر الكبار أيضًا، فقد صبر نوح عليه السلام؛ ولهذا يُضرب به وبأيوب عليه السلام المثل في الصبر، وبهذا وغيره كان من أولي العزم من الرسل، كما قال تعالى: ﴿[illegible]﴾ [الأحقاف: 35].

الأنبياء مدرسة في الصبر والتحمُّل، وعلينا أَلَّا نتعجل لا مع أنفسنا ولا مع غيرنا، فلا نيأس من نفوسنا، مهما تلومت علينا وأبطأت، ولا ييأس المرء من زوجه وولده

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الطارق».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 302)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 41)، و«تفسير القرطبي» (18/ 306)، و«فتح القدير» (5/ 360).

(3) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (10/ 285)، و«فتح القدير» (5/ 360).

(4) ينظر: «الصحاح» (1/ 81)، و«لسان العرب» (1/ 195)، و«المحرر الوجيز» (5/ 376)، و«تفسير القرطبي» (18/ 307) منسوبًا إلى أبي صَدَقة الدُّبَيْري.

ومَن يدعوهم من تلاميذه وخصومه، ومَن يختلف معهم، حتى مع أعدائه، لا يفقد الأمل، ما دامت الروح في الجسد.

❋ وكان من مكرهم الكُبَّار أنهم كلما وجدوا ليونة في الأتباع استفزوهم من جديد، وخاطبوهم خطابًا مؤثِّرًا: ﴿جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ﴾:

أي: احذروا، فهذه آلهتكم وأربابكم، سموها: آلهة؛ حتى يتعلق الناس بها ويحبوها ولا يفرِّطوا بها، وكأنهم يقولون: هذه الآلهة هي آلهتكم وآلهة آبائكم من قبل، وفي ذلك إثارة للعصبية، والعصبية هي أعظم دليل عند كثير من الناس، فقد لا يملك التابع دليلًا على ما يعتقده إلا التعصب لما وجد عليه آباءه وأجداده: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22]، وهي عذر الجاهلين والمكذِّبين، وهذا ما كانت قريش تفعله وتقوله لصد الناس عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ ...﴾ أي: بعدما قالوا: لا تتركوا الآلهة، بدؤوا يفصِّلونها، ويذكرونها بالأسماء؛ من أجل استثارة الحمية، واستمالة العاطفة، والترغيب في المألوف المعتاد، فهي أسماء طالما ترددت على أسماعهم، وسجدوا لها، وظنوا أنها السبب الجالب للمطر والرزق والعافية، فإذا ذكروا أسماءها على وجه التفصيل استثاروا مشاعر الناس للتمسك بها، فصاروا يسمونها واحدة واحدة، والعرب لا يكررون النفي أكثر من ثلاث مرات.

ومن هنا قال: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾، فذكر ﴿فَلَا﴾ ثلاث مرات، ثم قال: ﴿إِلَّا مَا﴾، فلم يكرر ﴿فَلَا﴾؛ لئلا تستثقل على اللسان، وإن كانت داخلة في المعنى، وربما كانت هذه الأصنام ليست على مقام واحد عندهم عبوديةً واحترامًا.

وهذه أسماء القوم الصالحين الذين نُصبت تماثيلهم ثم عبدوا، وهي أسماء غير عربية، ولما وقع الطوفان جرف هذه الأوثان وألقى بها إلى حيث شاء الله تعالى.

وقد نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن العرب كانت لهم أصنام بهذه الأسماء من دُومة الجَنْدل إلى عُكاظ وإلى بلاد اليمن ومكة والمدينة، وكانت بعض هذه الأصنام على صورة امرأة، وبعضها على صورة نَسْر، وبعضها على صورة حيوان[1].

وكان العرب يتسمون بها أيضًا، مثل: عبد وُد الحارثي الذي جاء ذكره في غزوة الخندق في المبارزة[2]، وكذلك عبد يَغُوث الشاعر الجاهلي المشهور، الذي أمسكه أعداؤه وجرحوه وتركوه ينزف حتى مات[3]، وقال القصيدة المشهورة[4]:

أَلَا لا تَلُوماني كَفى اللَّومَ ما بِيا *** وما لَكُما في اللَّومِ خَيرٌ وَلا لِيا

أَلَمْ تَعلَما أَنَّ المَلَامَةَ نَفعُها *** قَليلٌ وما لَوْمي أَخي مِن شِمالِيا[5]

ولعلها أوثان أخرى وليست هي نفسها، وإنما بقيت الأسماء وتناقلها الناس ثم سمى العرب بها، والله أعلم.

* ﴿سَلَفَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣﴾:

أي: هؤلاء الكبار المتبوعون السادة أضلُّوا كثيرًا من الناس بمثل هذا الكلام؛ ولهذا قال نوح عليه السلام: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣﴾، فدعا عليهم بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا بعد أن أُوحي إليه: ﴿[illegible]﴾ [هود: 36]. لقد وصفهم

(1) ينظر: «كتاب الأصنام» للكلبي (ص11- 13)، و«صحيح البخاري» (4920)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 286)، و«التحرير والتنوير» (29/ 209- 210).

(2) ينظر: «سيرة ابن هشام» (2/ 225)، و«الدرر في اختصار المغازي والسير» (ص174).

(3) ينظر: «خزانة الأدب» للبغدادي (2/ 197)، و«في تاريخ الأدب الجاهلي» (ص397).

(4) ينظر: «المفضليات» (ص155- 156).

(5) الشِّمال: الطَّبع والخُلُق.

بالظلم فقال: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وهي الصفة الصادقة على كل مَن يحارب الحق ويقف في سبيله، فهو يظلم نفسه، ويظلم غيره، ومن أجل الحفاظ على مكانته ورئاسته يستمر في الكذب والعدوان والقتل والحرمان والتزوير والتضليل؛ لأن المعركة عنده معركة موت أو حياة.

فدعا عليهم بعدما يئس منهم بالوحي، ويئس منهم بالاستقراء التام الذي استغرق ألف سنة إلا خمسين سنة، وليس في يوم وليلة، فلا تقس نفسك على نوح، فالمدرسة النبوية ليست كذلك، فلا بد أن تطمئن نفسك بالإيمان والرضا والتسليم، وتكون واسع الصدر ولا تعجل.

ويقينًا ليس مقصود نوح عليه السلام الدعاء عليهم بالضلال في الدين؛ لأنه جاء لينقذهم منه، ولكن المقصود بالضلال هنا أن يذهب الله كيدهم، فدعاء نوح عليه السلام هنا ليس على قومه كلهم، وإنما على عِلْيَتهم وأكابرهم الذين كانوا يكيدون له، فهو بعدما بيَّن كيدهم، وأنه كيد كُبَّار، دعا الله تعالى أن يُبطل هذا الكيد، وأن يجعله في ضلال، مثلما دعا موسى عليه السلام على فرعون وكيده، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ مِنَ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [غافر: 37].

ولما تقول: الكيد في ضلال، أي: ذهبت المؤامرات أدراج الرياح، فما نفعت ولا أثمرت.

❊ **وبعدما طُويت الصفحة، وانتهت القصة، وتم البيان،** قال سبحانه: ﴿□□□□□ □□□□□□□□﴾:

فهذا حكم الله فيهم قد تم وجرى، ﴿□□﴾ أي: من خطيئاتهم، و«ما» هنا صلة للتوكيد[1]، وهي تأتي في لغة العرب، كقول بعضهم[2]:

اللهُ يعلمُ أنَّا في تَلَفُّتنا *** يومَ الفِراق إلى جيراننا صُورُ

وأنني حيثما يَثْنِي الهَوَى بَصـري *** من حيث ما سلكوا أدنُو فأنْظُورُ

أي: حيث سلكوا، ويزيدون كلمة «ما» للتوكيد والصلة: ﴿□□□﴾، وهذا من العجب أنهم يُغرقون في الماء ويُحرقون بالنار، والماء نقيض النار، فأرواحهم إلى الحرق وأجسادهم إلى الغرق[3].

والمقصود: نار في الدنيا، وهي نار البرزخ.

وهذا دليل على عذاب القبر وثبوته[4]، وقد جاء في غير موضع من القرآن، كما في قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]، وكما في «سورة ﴿ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ﴾»، فقد ذكر طائفة من أهل العلم أنها تدل على عذاب القبر[5].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 189)، و«تفسير الطبري» (23/ 306)، و«الكشاف» (4/ 620)، و«فتح القدير» (5/ 361).

(2) ينظر: «المنتخب من كلام العرب» (ص695)، و«المخصص» (1/ 109)، و«الذخائر والبصائر» (5/ 161)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (1/ 121).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 311)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 400)، و«التحرير والتنوير» (29/ 212).

(4) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 60)، و«تفسير الرازي» (30/ 659)، و«تفسير القرطبي» (18/ 311)، و«تفسير الخازن» (3/ 546)، و«روح المعاني» (15/ 88).

(5) ينظر: «جامع الترمذي» (3355)، و«تفسير الطبري» (24/ 600)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 277)، و«تفسير القرطبي» (20/ 172)، و«التفسير القيم» (ص578)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 473)، و«الدر المنثور» (15/ 619)، وما سيأتي في «سورة التكاثر».

وعلى القول بأنه عذاب القبر، فهو تمهيد لعذاب الآخرة، أو يكون المقصود أنهم سيدخلون نار جهنم، فعبَّر بالماضي؛ لتحقق الوقوع، أي: كأنهم أدخلوا؛ لأنهم في حكم الله تعالى قد غادروا الدنيا وأقبلوا على العذاب.

وقوله: ﴿□□□□□□□□﴾ أي: تبَرَّأ بعضهم من بعض، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ [البقرة: 166]، وهم الذين كان لهم أموال وأولاد، فلم ينفعهم، ولم يغن عنهم ذلك من الله شيئًا[1].

لقد كان لهم في الدنيا أنصار يدافعون عنهم، ويحمونهم، ويشيعون ما يحبون أن يُشاع، ويمنحونهم القوة والوجاهة بكثرتهم ونفاقهم وتزلفهم، فأين هم الآن؟!

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□﴾:

كان نوح عليه السلام آية في الصبر عليهم، وقد قيل: إنه هو الذي قال فيه ابن مسعود رضي الله عنه: كأني أنظرُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومُه فأَدْمَوْه، وهو يمسح الدمَ عن وجهه، ويقول: «**اللهمَّ اغفرْ لقومي؛ فإنهم لا يعلمونَ**»[2]. أي: يطلب من الله أن يمهلهم، وألَّا يعاجلهم بعذاب[3].

وقد ذكر تعالى ما جرى من إغراقهم قبل أن يذكر دعوة نوح عليه السلام؛ ليبيِّن لهم أن ما حاق بهم إنما كان لذنوبهم، فهم أُغرقوا بذنوبهم وبخطاياهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 659).

(2) أخرجه البخاري (3477، 6929)، ومسلم (1792). وينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (35008)، و«الزهد» لأحمد (1/ 128).

(3) ينظر: «تاريخ الطبري» (1/ 182)، و«تفسير الطبري» (12/ 396)، و«تفسير الثعلبي» (5/ 168)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (5/ 1505)، (6/ 2022)، (8/ 2787)، و«أخبار أصبهان» (2/ 115)، و«الكامل في التاريخ» (1/ 63)، و«فتح الباري» (6/ 521)، (12/ 282)، و«عمدة القاري» (16/ 60)، (24/ 84).

وإنما دعا عليهم نوح بعدما بيَّن الله له أنهم لن يؤمنوا: ﴿□□□□□□□□□□□□﴾ [هود: 36]، فدعا عليهم، وقال: ﴿□□□□□□□□□﴾، **والدَّيَّار**: ساكن الدار[1]، والعرب يقولون: هذا المكان ما فيه من دَيَّار ولا نافخ نار[2]. أي: ليس فيه من مقيم ولا مسافر، ولا بر ولا فاجر.

وفي الاستدلال بدعوة نوح عليه السلام **على مشروعية الدعاء على عموم الكفار نظر؛ لوجوه:**

1- أن هذا كان بعد اليأس منهم، والإخبار بأنهم لن يؤمنوا.

2- أن نوحًا عليه السلام كان يستأني بهم ويطلب الإمهال، كما في آية: ﴿□□□□ □□□□□﴾. فكان يطلب المهلة، ويخاطب ربه، فنهاه الله أن يطلب المهلة والإنظار؛ لأنهم مغرقون لا محالة.

3- **وقيل**: إن دعوته كانت على المضلِّين للعباد، الصادِّين عن سبيل الله؛ لقوله بعدها:

❋ ﴿□□□□□□﴾: فقد جرَّب نوح عليه السلام ما جرى له، حيث كانوا سببًا في إضلال العباد، وسيكونون كذلك ما داموا باقين، ﴿□□□□□□﴾:

أي: حتى أولادهم يربونهم منذ نعومة أظفارهم على الكفر والفجور.

وفيه إشارة إلى تعاهد النشء، وأن النشء بحسب ما يكون عليه المجتمع.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 307)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 231)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 235)، و«تفسير البغوي» (8/ 234)،)، و«زاد المسير» (4/ 345)، و«تفسير الرازي» (30/ 659)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 236).

(2) ينظر: «جمهرة اللغة» (3/ 1305).

ففي **كلمة نوح** عليه السلام **إشارة إلى العناية بالأولاد**؛ من حيث اختيار الأم، وهي المنشأ والمحضن، ومن حيث اختيار ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون؛ فـ«**أيما جسد نبتَ على سُحْت، فالنارُ أولى به**»[1]. ومن حيث حسن التربية والتلقين والتأديب، ومن حيث القدوة الحسنة، والدعاء، والتعاهد بكل ما يمكن من الوسائل لتربيتهم، ولكل عصر وسائله وأدواته، وآية هذا الزمان القنوات والبرامج والأشرطة والألعاب والقصص والمدارس والمحاضن.

* ثم ختم الدعاء بهذا الكلام المؤثِّر الخاشع، وقد كفر الناس وأصرُّوا، وعُوقبوا وعُذِّبوا، وسخط الله عليهم، وأنزل الله نقمته، فها هو نبي الله عليه السلام بعد هذا العمر المديد الطويل، وهذا الجهد الكبير، يرفع يديه خاشعًا متواضعًا متضرِّعًا إلى ربه مستغفرًا معتذرًا: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿□□□□﴾: وقد كان والداه مسلمين، ولا فائدة من البحث في اسمهما، فيكفي إجمال القرآن، والإشارة إلى أنهما كانا مؤمنين به[2].

﴿□□□□﴾: **والمقصود**: منزله، **وقيل**: المسجد، أو السفينة، **وقيل**: ديني[3]، وكأنه دعا لأهل بيته وأسرته من المؤمنين، واستثنى غير المؤمن، وهذا يصدق على ابنه غير المؤمن، والذي **قيل**: إن اسمه: كنعان، **وقيل**: يام[1].

---

(1) ينظر: «مسند أحمد» (14441)، و«مسند الدارمي» (2818)، و«جامع الترمذي» (614)، و«صحيح ابن حبان» (1723)، و«المستدرك» (4/ 127)، و«شعب الإيمان» (7/ 504)، و«البدر المنير» (9/ 355)، و«السلسلة الصحيحة» (2609).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 452)، و«تفسير البغوي» (8/ 234)، و«تفسير القرطبي» (18/ 313)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 402)، و«فتح القدير» (5/ 361)، و«التحرير والتنوير» (29/ 215).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 308)، و«تفسير الماوردي» (6/ 106)، و«زاد المسير» (4/ 345)، و«تفسير القرطبي» (18/ 314)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 237)، و«فتح القدير» (5/ 361- 362).

﴿ ﴾ فهو صبور حليم رحيم عليه السلام، فبعدما عُوقب قومه، دعا لكل المؤمنين والمؤمنات، فجزاه الله عنا خير ما جزى الأنبياء والمرسلين، وجزى الله كل الأنبياء والمرسلين أعظم الجزاء وأوفاه.

وهو درس للمؤمن في دعائه أن يعم فيدعو للمؤمنين والمؤمنات جميعًا.

﴿ ﴾ أي: هلاكًا وبوارًا[2].

وأعاد وصف الظلم ليبيِّن سوء عاقبتهم بالتَّبار والبوار، بعدما دعا عليهم قبل ذلك بالضلال[3]، أي: لفساد كيدهم ومكرهم وسعيهم، فخسروا الدنيا، وكانت الجولة لغيرهم، وخسروا الآخرة بالهلاك، وحقَّت كلمة الله لنوح ومَن معه من المؤمنين بالنجاة، وأن يكونوا سكَّان الأرض إلى قيام الساعة.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (2/ 476)،)، و«الكشاف» (2/ 396)، و«زاد المسير» (2/ 375)، و«البحر المحيط في التفسير» (6/ 157).

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (22/ 276)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص162) «ت ب ر».

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 215).

فهرس المحتويات

❍ ❍ ❍